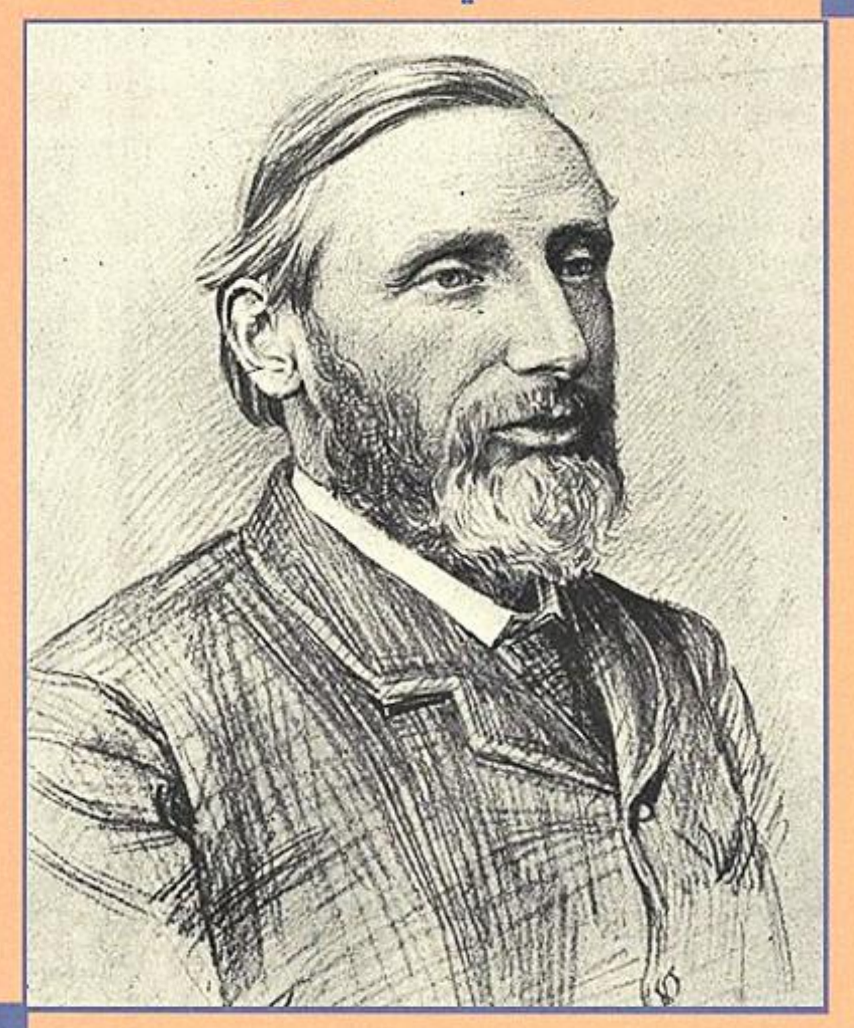
تطور فكرة الله

بحث في أصول الأديان



جرانت ألين

ترجمة : علي مولا

تطور فكرة الله

بحث في أصول الأديان

جرانت ألين

ترجمة ، تنسيق ، غلاف

علي مولا

محتويات :

مقدمة :

في عصرنا الحالي، تتجلى مدرستان رئيسيتان في التفكير الديني: مدرسة الإنسانيين ومدرسة الأرواحيين. هذا العمل يمثل محاولة للتوفيق بينهما، ويعد أول جهد موسع لتتبع نشأة الإيمان بالله منذ بداياته في عقل الإنسان البدائي حتى تطوره الكامل في اللاهوت المسيحي المتقدم. طريقتي بناءة وليست هدامة؛ فهي تسعى للإجابة على السؤال النفسي: "كيف توصل البشر إلى صياغة مفهوم الإله؟" أو "كيف وصلنا إلى معرفتنا بالله؟". يستند هذا الكتاب إلى أقدم معتقدات المتوحشين وشهادة الوثائق التاريخية والآثار القديمة، محاولاً إظهار كيف كانت هذه الأفكار حتمية نتيجة لعلاقة الإنسان بالكون الخارجي.

في هذا السياق الواسع، من السذاجة أن ندعي أننا تناولنا الموضوع بشكل كامل. يعتمد كل باحث على أبحاث أسلافه في مجاله. تنقسم المشكلة إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: أولاً، كيف توصل البشر إلى الإيمان بالعديد من الآلهة - أصل التعددية؛ ثانيًا، كيف توصلت بعض الأجناس إلى الإيمان بإله واحد أعلى - أصل التوحيد؛ ثالثًا، كيف تطورت هذه الفكرة إلى تصور الإله الثلاثي في المسيحية. في كل من هذه المشاكل، استرشدت بأبحاث سابقة.

فيما يتعلق بأصل التعددية الإلهية، تبنيت نظرية الأشباح لهربرت سبنسر مع بعض التعديلات. استعنت بمواد من دوف ماكدونالد وتيرنر والعديد من الكتاب الآخرين، وأبحاثي الخاصة. قبلت نظرية عبادة الأسلاف مقابل الروحانية البدائية.

أما ظهور التوحيد، فقد تأثرت بمدرسة كوينن والتيوتونية في نقد العهد القديم، واستكملت أفكارها بمفاهيم من عمل روبرتسون سميث "دين الساميين ."التفسير المركزي الذي أقدمه هنا جديد وأصيل: الظروف التي أدت إلى رفع مكانة الإله العبري يهوه فوق منافسيه والاعتراف به كالإله الحقيقي الوحيد هي نظريتي الخاصة.

فيما يتعلق بأصل المسيحية وعلاقاتها بالطوائف السابقة لآلهة الذرة والنبيذ، فقد استرشدت بشكل كبير بأعمال السيد ج. ج. فريزر ومانهاردت. رغم أنني لا أعتقد أن علماء الأنثروبولوجيا، سواء الأحياء منهم أو الأموات، سيوافقون تمامًا على الطريقة التي استخدمت بها موادهم الرائعة. لقد أثر السيد فريزر، مؤلف العمل العلمي "الغصن الذهبي"، تأثيرًا عميقًا على آراء جميع العاملين الجادين في الأنثروبولوجيا وعلم الدين، ولا يسعني إلا أن أعترف بالالتزامات العميقة التي أتحملها تجاه أطروحاته العميقة والقوية. في الوقت نفسه، قمت بتحويل المواد المستمدة منه ومن الدكتور روبرتسون سميث إلى حد جعلها عمليًا من نواحٍ عديدة خاصة بي، واستكملتها بعدة أمثلة وأفكار جديدة اقترحتها في سياق قراءتي الواسعة.

على مدار الكتاب ككل، فإنني مدين أيضًا بقدر كبير من الفضل للدكتور إي .بي تايلور، الذي استعرت منه الكثير من المواد القيمة؛ وللسيد سيدني هارتلاند في كتابه "أسطورة برساوس"؛ وللسيد لورانس جوم، الذي اقترب في بعض الأحيان أكثر من أي شخص آخر من الآراء والنظريات الخاصة التي تم نشرها هنا؛ وللسيد ويليام سيمبسون من مجلة "أخبار لندن المصورة"، وهو باحث غير بارز لم تحظ دراساته المتميزة عن عبادة الموت والموضوعات المشابهة لها بالاهتمام الذي تستحقه من طلاب الدين غير المتحيزين. أما التزاماتي الأخرى تجاه الدكتور مومسن، وأصدقائي السيد إدوارد كلود، والأستاذ جون رايس، والأستاذ يورك باول، فضلاً عن العديد من المسافرين والمبشرين والمؤرخين وعلماء الكلاسيكيات، فهي متكررة جدًا بحيث لا يمكن تحديدها.

إذا نظرنا إلى الموضوع على نطاق واسع، فإنني أفترض أن أقول مرة أخرى إن استنتاجاتي العامة يمكن اعتبارها تمثل إلى حد ما مصالحة بين المدارس المتضاربة من الإنسانيين والوثنيين، والتي يرأسها على التوالي السيد سبنسر والسيد فريزر، وإن كان ذلك مع ميل إلى الأول أكثر من الثاني.

في الوقت نفسه، سيكون من الخطأ الكبير أن ننظر إلى كتابي على أنه مجرد حل وسط بأي حال من الأحوال. على العكس من ذلك، فهو في كل جزء منه عمل جديد وشخصي، يحتوي، مهما كانت قيمته، على توليفة جديدة وأصلية للموضوع. أود أن أشير إلى النقطتين التاليتين باعتبارهما جديدتين بشكل خاص: التمييز الكامل بين الدين والأساطير، والممارسة من مجرد تفسيرات توضيحية أو تخمينات؛ والحصة المهمة المنسوبة إلى تصنيع الآلهة عن عمد عن طريق القتل في نشأة معظم الأنظمة الدينية القائمة. يبدو لي أن عقيدة الإله المصنوع، التي خصصت لها ما يقرب من نصف كتابي، فكرة ذات قيمة أساسية. من بين الأفكار الجديدة الأخرى ذات المرتبة الثانوية، أود أن أجرؤ على سرد ما يلي: إنشاء ثلاث مراحل متتالية في مفهوم حياة الموتى، والتي يمكن تلخيصها في عبادة الجثث، وعبادة الأشباح، وعبادة الظل، والتي تتوافق مع المراحل الثلاث للحفظ أو التحنيط، والدفن، والحرق؛ الاعتراف بالمكانة العالية التي يجب تخصيصها للحفاظ على رأس الوحي في نمو عبادة الأصنام؛ والأهمية المرتبطة بالحجر المقدس، والوتد المقدس، والشجرة المقدسة، والدليل المؤقت على ارتباطهم الوثيق بمقابر الموتى؛ والمفهوم الجديد تمامًا لتطور التوحيد بين اليهود من العبادة الحصرية للإله الغيور؛ وفرضية أصل الزراعة من قرابين التلال، وارتباطها بنمو آلهة الزراعة؛ والتوسع الواسع الممنوح للمفهوم القديم للضحية الإلهية البشرية؛ والاعتراف بالانتشار العالمي لمهرجان الأيام الخمسة لإله الذرة أو الخمر، والتشابه الوثيق الذي يميز طقوسه في جميع القارات، بما في ذلك أمريكا؛ والتطور المقترح لأسرار أكل الآلهة في الديانات الدنيا من ممارسة أكل لحوم البشر لتكريم أقارب المرء الموتى؛ والدليل على بقاء عبادة الجثث البدائية على نطاق واسع حتى عصرنا في أوروبا المتحضرة. أستطيع أن أزيد على ذلك في هذه القائمة السريعة ما أعتقد أنه مساهمات جديدة قدمت هنا لفلسفة التطور الديني؛ ولكنني أحجم عن ذلك عمداً .وأعتقد أنه إذا تبين بعد الفحص أن بعض هذه الأفكار جديدة وحقيقية، فإن كتابي سوف ينجح في تبرير وجوده.

لقد طرحت هذا العمل بأقصى درجات التردد، فالحصاد وفير والعمال قليلون .لقد قضيت أكثر من عشرين عامًا في جمع المواد ومقارنتها، وأكثر من عشرة أعوام في تأليف هذا الكتاب. وكما أوضحت في الفصل الأخير، فإن المخطط الأولي للاستنتاجات التي توصلت إليها ليس سوى مؤقت. أرغب في هذا المقال أن أضع الخطوط العريضة للنظرية العامة التي أميل إلى قبولها بعد سنوات من الدراسة .إذا نجحت محاولتي في جذب انتباه الجمهور، آمل أن أتابعها بعدة مجلدات أخرى لتعزيز وتوسيع الآراء والاقتراحات الرئيسية من خلال مجموعات وفيرة من الأدلة والرسوم التوضيحية. ولكن إذا فشلت في إثارة انتباه الجمهور، فسأكتفي بهذا البيان التمهيدي غير الكافي.

أود أيضًا أن أضيف هنا، كما أشرت بمزيد من التفصيل في نص العمل، أنني لا أتمسك بشكل قاطع بكل الأفكار التي عبرت عنها الآن. إنها مجرد تصورات فرضتها عليّ الحالة الراهنة للأدلة. أدرك أن في هذا الإقليم الشاسع والمتنوع، حيث تكون المعرفة شبه الموسوعية ضرورية للتوصل إلى نتيجة حاسمة، قد تكون كل هذه التصورات عرضة للتغيير من خلال المزيد من البحث. أقول فقط" :هذه هي الطريقة التي تظهر بها المسألة في نظري حاليًا، بناءً على الحقائق المعروفة لنا الآن."

لقد نُشرت بضعة فصول من الكتاب بشكل منفصل في العديد من المراجعات عند كتابتها لأول مرة. ومع ذلك، فقد تم تأليفها منذ البداية كجزء من هذا الكتاب، الذي لا يتألف من مقالات منفصلة تم جمعها في وحدة مصطنعة. كل فصل يشغل المكان الدقيق في الحجة التي كان من المفترض أن يكون من أجلها في البداية. الفصول المعنية هي تلك التي تتحدث عن "الدين والأساطير"، و"حياة الموتى"، والتي نُشرت تحت عنواني "الدين العملي" و"الخلود والقيامة" في مجلةFortnightly Review ؛ والفصول التي تتحدث عن "الأحجار المقدسة"، والتي نُشرت تحت نفس الاسم في نفس الدورية؛ والفصول التي تتحدث عن "آلهة مصر"، والتي ظهرت في الأصل في

مجلة .Universal Review أشكر أصحاب ومحرري هذه المجلات للسماح بطباعتها في مكانها المناسب هنا. لقد تم تعديلها جميعًا لتتناسب مع الحالة الحالية لمعرفتنا بالموضوعات التي تتناولها.

في التعامل مع هذا الكم الهائل من المواد المتنوعة، المستمدة من كل العصور والأماكن والأجناس واللغات، سيكون من المستحيل تقريبًا تجنب الأخطاء. لقد قمت بتصحيح الأخطاء التي اكتشفتها بنفسي، أما بالنسبة لبقية الأخطاء، فأطلب العفو من أولئك الذين قد يلاحظونها.

لقد حاولت أن أكتب دون محاباة أو تحيز، مدفوعًا برغبة واحدة في اكتشاف الحقيقة. وسواء نجحت في هذه المحاولة أم لا، فأنا أثق أن كتابي سيُستقبل بنفس الروح التي كُتب بها، وهي روح الحرص الجاد على تعلم كل ما يمكن تعلمه من خلال الاستقصاء والتحقيق في علاقة الإنسان بإلهه، في الماضي والحاضر .وعلى هذا الأمل، أضعه بين يدي ذلك الجزء الصغير من جمهور القراء الذي يهتم اهتمامًا كبيرًا بالمسائل الدينية.

تطور فكرة الله.

الفصل الأول - المسيحية كمعيار ديني.

في هذا العمل، أقترح أن نتتبع تطور فكرة الله من بداياتها البدائية في العقل الوحشي للإنسان الأول إلى شكلها المتطور والمجرد في التفكير الفلسفي واللاهوتي المعاصر. إن الاهتمام بأصل هذه الفكرة الواسعة الانتشار وتاريخها هو اهتمام نفسي بالدرجة الأولى. نحن أمام مجموعة ضخمة من الآراء البشرية، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، التي مارست ولا تزال تمارس تأثيراً هائلاً على تطور البشرية والحضارة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا اعتنق البشر هذه الآراء وكيف توصلوا إليها؟ ما الذي دفع الإنسان الأول إلى تكوين أفكار مجردة عن وكلاء خارقين للطبيعة، دون وجود دليل واضح على وجودهم في الطبيعة؟

فيما يتعلق بهذه المشكلة، باعتبارها مشكلة تتعلق بعمليات العقل البشري، أضع جانباً منذ البداية أي تحقيق في الصلاحية الموضوعية لأي من المعتقدات الدينية. السؤال عما إذا كان هناك إله أو آلهة، وما هي جوهرهم وصفاتهم، لا يعنينا هنا. ما يهمنا هو: ما الذي أوحى إلى عقل الإنسان بفكرة الألوهية المجردة؟ وكيف نشأت فكرة وجود إله واحد عظيم لا حدود له من التعدد المبكر للآلهة الذي كان سائداً في العصور البدائية؟ لماذا آمن البشر بوجود آلهة على الإطلاق، وكيف انتقلوا من تعدد الآلهة إلى التوحيد؟

طرح السؤال بهذا الشكل يعني استبعاد الواقع الموضوعي للفكرة ذاتها .تحليل أصل أي مفهوم لا يعني مهاجمة صحة الاعتقاد الذي يحيط به. ففكرة الجاذبية، على سبيل المثال، نشأت تدريجياً في عقول البشر وبلغت تعبيرها النهائي في قانون نيوتن. تتبع الخطوات التي تم بها التوصل إلى هذه الفكرة لا يعني دحضها. وبالمثل، قد يزعم المؤمن المسيحي أن البشر وصلوا إلى معرفة الإله الواحد الحقيقي بمراحل

طبيعية؛ ولا يضطر إلى رفض المفهوم النهائي لمجرد الخطوات التي تطور بها ببطء. صحيح أن الإله الخلاق قد يفضل الكشف المفاجئ عن نفسه لمجموعة مختارة من البشر؛ ولكننا نعتقد أن الإله التطوري قد يفضل بحكمته الغامضة أن يكشف عن وجوده وصفاته لمخلوقاته من خلال المحاولات الفكرية البطيئة والمترددة التي كشف بها لهم الحقائق المادية للطبيعة. لذا، أود أن يُنظر إلى بحثي باعتباره إعادة بناء، وليس إثارة للشك حول حقيقة المفهوم المتطور.

عند دراسة أي موضوع معقد وصعب، من الأفضل غالبًا أن ننتقل من المعروف إلى المجهول، حتى وإن كان المجهول يأتي في المرتبة الأولى في ترتيب الطبيعة والتطور المنطقي. ولهذا السبب، قد يكون من المستحسن أن نبدأ بفحص تمهيدي موجز للمسيحية، التي ليست فقط الأكثر شيوعًا بين جميع الأديان بالنسبة لنا نحن الأمم المسيحية، بل وأيضًا الأكثر شهرة في أصولها. ثم نظهر إلى أي مدى يمكننا استخدامها كمعيار مرجعي في تفسير السمات الأقل وضوحًا والأكثر تأكيدًا للعبادات السابقة أو الجانبية.

إن المسيحية، إذا نظرنا إليها كمعيار ديني، تتمتع بميزة واضحة لا يمكن إنكارها على كل أشكال الإيمان الأخرى تقريبًا، وهي أنها تنطلق بكل صراحة واعتراف في تطورها من خلال عبادة رجل مؤله معين. لا أعتقد أن هذه النقطة في تاريخها يمكن المبالغة في أهميتها، لأنها تعطينا المفتاح لكثير مما هو أساسي في جميع الأديان الأخرى؛ والتي ينبع كل منها، كما آمل أن أظهر فيما بعد، بشكل مباشر أو غير مباشر من عبادة رجل واحد مؤله، أو العديد من الرجال المؤلهين، أكثر أو أقل تجسيدًا.

إن أي شيء آخر قد يقال عن أصل المسيحية، فمن المتفق عليه على الأقل من قبل كل من الأصدقاء والأعداء، أن هذا الدين العظيم نشأ حول شخصية معلم جليلي معين، اسمه يسوع. وإذا كنا نعرف عنه أي شيء على الإطلاق من اليقين، فإننا نعلم على الأقل أنه كان رجلاً من عامة الناس، معلقًا على صليب في القدس في عهد ولاية

كايوس البنطي بيلاطس. إن جوهر هذه الحقيقة - رجل وموته - يسوع المسيح وصلبه - هو النواة التاريخية الوحيدة التي لا شك فيها والتي تبلورت حولها ببطء كل ما تبقى من نظام الفكر والمعتقد الأوروبي والآسيوي الضخم.

دعونا نتصور بوضوح المعنى الكامل لهذه الحقائق: الإنسان المتأله هو الشخصية المركزية في إيمان المسيحية. ولكن منذ البداية، تراكمت أسطورة، صادقة كانت أو كاذبة (ولكن صدقها أو كذبها لا علاقة له بموضوعنا الحالي)، حول شخصية هذا المصلح الفلاحي الجليلي. ففي البداية كان يحترمه عدد قليل من التلاميذ من عرقه وطبقته، ثم تحول تدريجياً في أذهانهم إلى شخصية إلهية، روت عنه قصصاً غريبة، ووثقت به مجموعة متزايدة العدد من الأتباع في كل أنحاء الحضارة اليونانية الرومانية في البحر الأبيض المتوسط.

ومن المرجح أن أقدم هذه القصص، وهي بالتأكيد القصة التي أعارها رواد الإيمان أكبر قدر من الأهمية، كانت تدور حول موته وتسلسله المباشر. فقد قيل لنا إن يسوع صُلب ومات ودُفن. ولكن بعد ثلاثة أيام، إذا جاز لنا أن نصدق الوثائق المبكرة لإيماننا المسيحي، لم يعد من الممكن العثور على جسده في القبر حيث وُضِع بأيدي صديقة. وانتشر الخبر في كل مكان بأنه قام من بين الأموات، وعاش مرة أخرى حياة خيالية إلى حد ما بين الأحياء في إقليمه .وأعلن رسل خارقون قيامته للنساء اللاتي أحببنه. فقد شوهد بالجسد من وقت لآخر لفترات قصيرة جدًا من قبل أحد أو آخر من المؤمنين الذين ما زالوا يقدسون ذكراه. وأخيرًا، بعد ظهورات عديدة من هذا القبيل، موصوفة بشكل أو بآخر في الروايات الموجودة، حُمل فجأة إلى السماء أمام أعين أتباعه، حيث، كما تشير إحدى الروايات بشكل موثوق، "استقبل في السماء وجلس عن يمين الله - "أي عن يمين يهوه، الإله العرقي للشعب العبري.

إن العقيدة المسيحية الأصلية كما انتقلت إلينا وسط ضباب من المعجزات، كانت في جوهرها أربع أو خمس وثائق مشكوك في عمرها وصحتها. وحتى هذه الفكرة

المركزية لا تظهر بالكامل في رسائل بولس، التي يُعتقد أنها الأقدم تاريخياً بين كل كتاباتنا المسيحية. بل إنها تتخذ شكلها الكامل أولاً في الأناجيل وأعمال الرسل المتأخرة إلى حد ما. وفي أبسط هذه الروايات وربما أقدمها على الإطلاق، لا نجد سوى قصة الموت والقيامة، وقد تم تأكيد هذه الحقيقة الأخيرة من خلال الشهادة المشكوك فيها لـ "شاب يرتدي ثوباً أبيض طويلاً"، والتي استكملت (على ما يبدو في فترة لاحقة) بـ "ظهورات" لاحقة لمؤمنين مختلفين.

ومع الجدل الذي احتدم حول هذه القصص المختلفة، فإن التحقيق الأنثروبولوجي الواسع في تطور الله لا يهتم بها. يكفينا هنا أن نعترف، بما قد تبرر لنا الأدلة في الاستنتاج، بأن رجلاً تاريخيًا حقيقيًا يحمل اسم يسوع كان موجودًا ذات يوم في سوريا السفلى، وأن تلاميذه في فترة وجيزة بعد إعدامه اعتقدوا أنه قام بالفعل من بين الأموات، وأنه صعد إلى السماء في الوقت المناسب.

لقد زعم البعض في وقت مبكر جدًا أن يسوع كان "ابن الله" بمعنى غير طبيعي أو خارق للطبيعة، أي أنه كان ابن يهوه، الإله المحلي والوطني للشعب اليهودي. بعبارة أخرى، كانت عبادته مرتبطة بالعبادة التاريخية السابقة للشعب الذي عاش بين ظهرانيه، والذي جمع منه تلاميذه الأوائل حصريًا. ولم يكن هذا النظام، كما سنرى بالتفصيل لاحقًا، نظامًا ثوريًا أو مدمرًا بحتًا، بل كان قائمًا على المفاهيم الشائعة للمجتمع السامي. ولم يرَ القلة من اليهود والجليليين الذين قبلوا يسوع كشخصية إلهية ضرورة للتخلص من آرائهم الدينية المسبقة في تبنيه كإله. بل كانوا يؤمنون بوجوده السابق كجزء من يهوه، وفي تجسده في جسد بشري لغرض الفداء.

عندما انتشرت عبادته في البلدان المجاورة، وخاصة من خلال بولس الطرسوسي الذي لم يره قط أو رآه فقط فيما يسمى بشكل غامض "رؤية"، سارت عبادة يهوه جنبًا إلى جنب معها، بحيث أصبح نوع من التوحيد الصوفي المعدل، القائم على اليهودية، العقيدة المبكرة للكنيسة المسيحية العالمية الجديدة.

نشأت أساطير أخرى، من النوع المألوف في حياة مؤسسي المذاهب والكنائس في أماكن أخرى، حول حياة الزعيم المسيحي. أو على الأقل، روى تلاميذه حوادث من النوع النموذجي كجزء من تاريخه. ويبدو أن ولادة إله أو شخص شبيه بالإله من امرأة بفعل العمليات الفسيولوجية العادية للبشرية أمر ينتقص من كرامته وربما يكون قاتلاً لألوهيته. ولذلك فقد زُعم، لا نعرف ما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، أن مؤسس المسيحية، استنادًا إلى بعض الحجج الغامضة، قد ولد من عذراء. ورغم أنه يوصف أحيانًا بأنه ابن يوسف، النجار من الناصرة، ومريم زوجته المخطوبة، فقد كان يُنظر إليه أيضًا على نحو بديل باعتباره ابن الإله العبري يهوه، تمامًا كما اعتُبر الإسكندر، رغم أنه معروف بأنه ابن فيليب، من نسل آمون رع أو زيوس آمون.

قيل لنا، من أجل التقليل من هذا التناقض، على أساس السلطة الهزيلة لحلم يوسف، كيف تم الحمل بيسوع على نحو معجزي من قبل الروح القدس من يهوه في رحم مريم. كما تم تزويده بسلالة ملكية من بيت داود، وهو ملك عبري حقيقي أو أسطوري مبكر. ووجد أن النبوءات الواردة في الكتب المقدسة العبرية قد تحققت في أكثر مغامراته طفولية. في إحدى السير الذاتية الموجودة، والتي تُنسب عادةً إلى لوقا، رفيق بولس، ولكن من المفترض أنها تحمل آثار تأليف لاحق كثيرًا، يتم سرد العديد من هذه القصص الرائعة عن مغامراته الطفولية. في جميع وثائقنا، تشهد المعجزات على قواه الخارقة للطبيعة، بينما يتم اللجوء باستمرار إلى تحقيق التنبؤات المفترضة، وكلها من أصل عبري قديم، كاختبار وشهادة على حقيقة مهمته الإلهية.

وسوف نرى فيما يلي أن هاتين النقطتين، النمو التدريجي للأسطورة أو الخرافة، والانتماء إلى أفكار دينية محلية سابقة، تشكلان سمتين مشتركتين في تطور الآلهة عمومًا، وإله التوحيد على وجه الخصوص. ففي كل حالة تقريبًا نستطيع فيها تتبعه إلى صعوده، يبدأ الإله بإنسان مؤلَّه، يرفعه عابدوه إلى مرتبة إلهية، ويزودونه بتاريخ من الأحداث المعجزة، التي غالبًا ما ترتبط بشخصية الآلهة السابقة.

في المراحل الأولى، كانت العلاقات بين المسيحية الناشئة واليهودية غامضة وغير محددة. كان المسيحيون يعتبرون أنفسهم مجرد طائفة من اليهود، يوقرون معلماً ميتاً رُفِع إلى السماء بتأليه خاص، وهو أمر كان مألوفاً في ذلك الوقت. ولكن مع انتشار الكنيسة المسيحية إلى بلدان أخرى عبر الموانئ البحرية الكبرى، أصبحت من ناحية أكثر تميزاً وحصرية، ومن ناحية أخرى أكثر تعصباً وعقيدة.

يبدو أن البانتيون المسيحي، إذا سمح لي بالتعبير في حالة دين توحيدي اسمياً، قد اتخذ لأول مرة شكله الثالوثي المحدد في مصر. تحت تأثير الحب المصري القديم للثالوثات، تم أخيرًا إنشاء نوع من الإله الثلاثي الصوفي من يهوه العبري والإنسان يسوع، بمساعدة الروح القدس أو حكمة يهوه، والتي أصبحت تعتبر في العقول المسيحية المبكرة شخصًا منفصلًا ومنسقًا لهذا الإله المركب. إلى أي مدى قد يكون الثالوث المصري المألوف لأوزوريس وإيزيس وحورس قد أثر على مفهوم الثالوث المسيحي، وبالتالي يتكون في النهاية من الآب والابن والروح القدس، سنناقش في مرحلة لاحقة من تحقيقنا. في الوقت الحاضر، يكفي الإشارة إلى أن أثناسيوس اليوناني المصري كان المدافع العظيم عن عقيدة الثالوث المحددة ضد المفكرين المسيحيين المعارضين (الهرطوقيين)، وأن الترنيمة أو العقيدة المعروفة باسمه، على الرغم من أنها ليست من تأليفه على الأرجح، تحمل طابع الروح المصرية الصوفية، الممزوجة بالبهجة اليونانية الإسكندرانية في التحديد والدقة في التمييز الفلسفي.

وفي هذا الصدد أيضاً، سنلاحظ في الجزء الثاني أن تاريخ المسيحية، وهي أشهر الديانات، كان موازياً تماماً لتاريخ العقائد السابقة والأكثر غموضاً .ففي البداية كانت العلاقات بين الآلهة غامضة وغير محددة، وكانت نسبهم غالباً ما تكون مشوشة وحتى متناقضة. ولم يكن لدى البانثيون أي شيء يشبه النظام الهرمي اللائق أو تبعية الأشخاص. ولكن مع مرور الوقت، ومع مناقشة مسائل اللاهوت أو الأساطير

بين الكهنة وغيرهم من الأطراف المهتمة، أصبحت تفاصيل هذا النوع مستقرة في شكل عقائد صارمة، في حين يميل الرجال الأكثر تحضراً إلى استيراد التمييزات الدقيقة من النوع الفلسفي أو الميتافيزيقي إلى الإيمان البدائي الخام. لقد تبلور الإيمان الذي بدأ بقبول صريح لليهودية، بالإضافة إلى عبادة شخصية للإنسان المؤله، يسوع، في النهاية في الإيمان الكاثوليكي بإله واحد، بثلاثة أشخاص: الآب والابن والروح القدس.

وقد تم طرح بعض المراوغات، وأثيرت المناقشات في النهاية حول السؤال عما إذا كان الآب والابن "من جوهر واحد" أو "من جوهر مماثل" فقط، وما إذا كان الروح القدس ينبثق من الآب والابن، أو من الآب فقط، وهكذا إلى ما لا نهاية.

كان الرمز في بلدان أخرى غير يهودا، وخاصة في بلاد الغال وروما ومصر، هو الذي ساعد التصوف على التطور والإتقان في الصليب، والتاو، واللباروم، والسمكة، والألفا والأوميجا، وكل الرموز المسيحية المبكرة الأخرى. كما أخذت بدايات الفن المسيحي أشكالها الأولى المحددة، والتي تطورت إلى حد كبير في سراديب الموتى الرومانية. ولأن المسيحية دين عالمي، وليس محليًا أو قوميًا، فقد تبنت في مسارها العديد من العناصر المتنوعة من مصادر متنوعة للغاية.

في الأصل، يبدو أن البانثيون المسيحي كان يملأه بشكل شبه حصري الإله الثالوثي، في تطوراته أو "أشخاصه" الثلاثة، كما تصوره عقل الإسكندرية بدقة .ولكن منذ وقت مبكر جدًا، إن لم يكن منذ فجر العبادة المسيحية، كان من المعتاد تكريم رفات أولئك الذين عانوا من أجل الإيمان، وربما حتى استدعاء مساعدتهم بالمسيح والآب. كان الفرع الروماني من الكنيسة، الذي اعتاد بشكل خاص على عبادة الأسلاف الرومانيين والتبجيل الروماني لـDu Manes ، لديه أماكن الصلاة الرئيسية في سراديب الموتى، حيث كان يتم دفن موتاه. وهكذا نشأت ممارسة استدعاء القديسين، الذين كانت تُقدم الصلوات عند قبورهم أو رفاتهم، سواء للإله الأعلى أو للأموات المؤمنين

أنفسهم كشفعاء لدى المسيح والآب. ولم يكن المسيحيون الأوائل، الذين اعتادوا في مرحلتهم الوثنية على احترام أرواح أصدقائهم المتوفين بل وعبادتها، قادرين على التخلي عن هذه العادة التقية فور اعتناقهم العقيدة الجديدة، فقاموا بتطعيمها بدينهم الذي تبنوه. وهكذا أصبح المؤسسون الثانويون للمسيحية، بولس وبطرس والرسل والإنجيليين والشهداء والمعترفون، يشكلون، كما لو كانوا مجموعة فرعية، ويحتلون إلى حد ما مرتبة أدنى من مرتبة الآلهة.

من بين الأشخاص الذين شاركوا في تكريم الإيمان الجديد، احتلت والدة المسيح مكانة بارزة منذ وقت مبكر. فقد شغلت الإلهات جزءًا كبيرًا من الروح التعبدية للأديان القديمة، وكان من الطبيعي أن يبحث أتباع إيزيس وبشت وأرتميس وأفروديت عن مقابل للعبادة النسائية في الإيمان الجديد. وسرعان ما اكتسبت والدة الإله، أو العذراء المباركة مادونا، أهمية كبيرة في العبادة المسيحية، حتى أنها في بعض البلدان الجنوبية تفوق أهمية أشخاص الثالوث أنفسهم. وأصبحت العذراء والطفل، في التمثيل التصويري، الموضوع المفضل للفن المسيحي.

إلى أي مدى نشأ هذا التطور الخاص للروح المسيحية في مصر وارتبط بالشخصيات المصرية الشهيرة للإلهة إيزيس والطفل حورس في حضنها، فهذه مسألة قد تتطلب النظر فيها في بعض الأطروحات المستقبلية. في الوقت الحاضر، يكفي أن نلفت الانتباه إلى حقيقة أن القديسين والشهداء، من العذراء مريم المباركة إلى أحدث من تم إعلانهم في قائمة القديسين بين الأساقفة الكاثوليك الرومان، كانوا في وقت ما رجالاً ونساءً أحياء. وبعبارة أخرى، إلى جانب الرجل الواحد المتأله، يسوع، الذي يدور حوله النظام المسيحي بأكمله، تعبد الكنيسة الآن أيضًا في الدرجة الثانية مجموعة كاملة من الرجال والنساء الموتى، الأساقفة والكهنة والعذارى والمعترفين.

لقد ازدادت تعقيدات الكنيسة مع مرور الزمن. فقد تخلت المسيحية، التي كانت منذ البداية ديانة توحيدية، عن توحيدها الصارم منذ البداية تقريبًا باعترافها بوجود

ثلاثة أشخاص في الألوهية، والتي حاولت عبثًا توحيدهم من خلال عقيدتها الصوفية التي لا يمكن فهمها. وقد ارتفعت السيدة العذراء (مع الطفل) بمرور الوقت إلى مرتبة إلهة مستقلة عمليًا (في كل النظريات الكاثوليكية باستثناء النظرية الباطنية)، بينما أصبح القديس سيباستيان والقديس جورج والقديس يوحنا المعمدان والقديسة كاترين، وحتى القديس توماس من كانتربري، من أهم موضوعات العبادة في أماكن معينة مثل الإله بشخصه. ففي ميلانو، على سبيل المثال، اغتصب القديس كارلو بوروميو، وفي كومبوستيلا وسانتياغو، وفي البندقية، القديس مرقس، مكانة الإله الأصلي إلى حد كبير .ومع وفاة المزيد والمزيد من القديسين في كل جيل، وبينما كانت عبادة القديسين الأكبر سناً لا تزال قائمة في كل مكان محلياً، كان البانثيون الثانوي ينمو ويكبر أكثر فأكثر. وارتفعت شخصيات غامضة، مثل القديس كريسبين والقديس كوزماس والقديس تشاد والقديس كوثبرت، إلى مرتبة الرعاة الإقليميين أو المحليين، مثل الآلهة الإقليمية والمحلية في الديانات السابقة. وكان لكل مهنة، وكل نقابة، وكل أمة، وكل مقاطعة، قديسها الخاص.

وفي الوقت نفسه، خضعت نظرية الكنيسة لتطور مستمر. فأضيفت عقيدة إلى عقيدة أخرى، مثل عقيدة الرسل، وعقيدة نيقية، وعقيدة أثناسيوس، وكل منها يجسد بعض الزيادة الجديدة والدقيقة في كثير من الأحيان إلى الكتلة الكاملة من العقائد المقبولة. ولقد أضافت المجالس المتعاقبة بنود إيمان جديدة، مثل وحدة الجوهر، وعقيدة الكفارة، والحبل بلا دنس، وسلطة الكنيسة، وعصمة البابا في قدرته الروحية. وكل هذه أيضاً حوادث معروفة في كل طائفة دينية متطورة :زيادة مستمرة في عدد الكائنات الإلهية، وتحسينات مستمرة في بنود الدين، تحت تأثير الميتافيزيقا الكهنوتية أو المدرسية.

لا يزال من الضروري الإشارة إلى نقطتين أو ثلاث نقاط أخرى في هذه المراجعة السريعة لتطور المسيحية، باعتبارها معيارًا للدين؛ وسأتناولها الآن بكل إيجاز ممكن.

"وفيما يتعلق بالطقوس الدينية وبعض الملحقات المهمة الأخرى للدين، فلابد أن نعترف بصراحة بأن المسيحية استعارت من الطوائف القديمة أكثر مما خضعت لتطور طبيعي وأصلي من تلقاء نفسها. ولا يبدو أن الكهنوت، بحد ذاته، قد شكل أي جزء لا يتجزأ أو ضروري من المسيحية الأولى: وعندما تم إدخال رتب الأساقفة والكهنة والشمامسة في العقيدة الجديدة، يبدو أن الفكرة مستمدة من الكهنوت القائم في الديانات السابقة أكثر من أي ارتباط عضوي بالحقائق المركزية للعبادة الجديدة. ومن طبيعة الظروف ذاتها كان من المحتم أن ينتج هذا. فالمعبد البدائي (كما سنرى فيما بعد) كان قبر الرجل الميت؛ والمذبح كان حجر قبره؛ وكان الكاهن هو القريب أو الممثل الذي استمر له في تقديم الهدايا المعتادة للروح عند القبر. ولكن حالة يسوع تختلف عن كل حالة أخرى مسجلة لرجل مُلَهَّد في هذا - حيث يبدو أن جسده قد اختفى في تاريخ مبكر؛ وبما أن قيامته وصعوده إلى السماء كانا حجر الزاوية في الإيمان الجديد، فقد كان من المستحيل أن تتخذ عبادة رفاته نفس الشكل الذي اتخذته في حالات جميع الموتى الذين تم تأليههم سابقًا تقريبًا. وبالتالي، فإن المواد التي تطور منها الهيكل والمذبح والتضحيات والكهنوت (كما سنرى فيما بعد) كانت هنا مفقودة إلى حد كبير بالضرورة.

ولكن مع ذلك فإن كل هذه الملحقات المهيبة والمألوفة تشكل عنصراً أساسياً في الدين في أذهان أتباعه، حتى إن طائفتنا نجحت في استعارتها جاهزة من الديانات العظيمة التي سبقتها، وإدخالها في نوع من العلاقة الاصطناعية مع نظامها الخاص. فلا يمكنك أن تُحدث ثورة في العقل البشري بضربة واحدة. فقد اعتاد الوثنيون على كل هذه الأفكار باعتبارها أجزاء لا تتجزأ من الدين كما فهموه: ثم شرعوا كمسيحيين في تكييفها مع قضايا جانبية للإيمان الجديد، حيث لم يكن لهذه العناصر مكان

طبيعي كما كان في العقائد القديمة. ولم تنشأ الأماكن المقدسة عند قبور القديسين أو أماكن استشهادهم فحسب؛ ولم تكن العبادة تُقام بجوار عظام الموتى المقدسين، في سراديب الموتى وفي أماكن أخرى فحسب؛ بل حتى تم اختراع طريقة للتضحية والتناول القرباني في القداس. وهو تطور اصطناعي إلى حد ما من أعياد المحبة غير الكهنوتية التي كان المسيحيون الأوائل يحرصون عليها. وبالتدريج، بدأت الكنائس تتجمع حول رفات القديسين الشهداء: وبمرور الوقت أصبح من المعتاد أن تحتوي كل كنيسة على مذبح. مصنوع من الحجارة على غرار الحجارة المقدسة القديمة؛ ويحتوي على عظام أو رفات أخرى للقديس، مثل كل الأضرحة السابقة؛ ويُكرس بسكب الزيت على الطريقة القديمة؛ ويُخصص للاحتفال بذبيحة القداس، التي أصبحت تدريجيًا أكثر فأكثر تكفيرية وكهنوتية في طابعها. ومع تزايد أهمية القديسين، نشأت أماكن مقدسة جديدة حول أجسادهم؛ وأصبحت بعض هذه الأماكن المقدسة، التي تحتوي على قبورهم، مراكز للحج إلى أبعد أجزاء المسيحية؛ كما حدث أيضًا على وجه الخصوص قبر المسيح الفارغ نفسه، القبر المقدس في القدس.

ولقد سار نمو الكهنوت مع نمو الطقوس بشكل عام، حتى بلغ ذروته في البابوية في العصور الوسطى، بتسلسلها الهرمي من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة والكهنة وغيرهم من الموظفين الذين لا حصر لهم. كما اكتسبت الملابس الكهنوتية والبخور وما شابه ذلك من مصاحبات الكهنوتية شعبية كبيرة. وكل هذا أيضًا سمة مشتركة للتطور الديني الأعلى في كل مكان. وعلى نحو مماثل، فإن الصوم والسهر والحالة النشوانية أمر شائع. ولكن الزهد والرهبنة والعزوبة وغيرها من أشكال الامتناع المرضي منتشرة بشكل خاص في الشرق، وقد وجدت أعلى تعبير لها في حياة النساك السوريين والمصريين.

وأخيراً، لا بد من تخصيص بضع كلمات للحديث عن نشوء وتطور الكتب المقدسة، التي تحظى الآن بتبجيل مفرط في المسيحية في شمال غربي العالم. وكانت هذه الكتب تتألف في المقام الأول من رسائل حقيقية أو مزيفة من الرسل إلى الكنائس المحلية المختلفة (ما يسمى بالرسائل)، والتي لا شك أن بعضها سيظل محفوظاً بقدر كبير من التبجيل؛ ثم في وقت لاحق من حياة أو أساطير يسوع وخلفائه المباشرين (ما يسمى بالأناجيل وأعمال الرسل). وعلاوة على ذلك، وبما أن المسيحية تبنت من اليهودية عبادة الشخصية الإلهية العليا الوحيدة، التي لم تعد تُتصوَّر الآن على أنها يهوه، الإله القومي للعبرانيين، بل باعتبارها إلهاً وأباً عالميين، فقد كان من الطبيعي أن تحظى الكتب المقدسة للشعب اليهودي، وأدب عبادة يهوه، بقدر كبير من الاهتمام على أيدي الكهنة الجدد. ومن خلال عملية تدريجية من الاختيار والاستبعاد، تطورت مجموعة الكتب المقدسة من هذه المواد غير المتجانسة: فقد تبنت الكنيسة الكتب العبرية التاريخية أو شبه التاريخية والنبوية، مع بعض الإضافات اللاحقة، مثل سفر دانيال، تحت عنوان العهد القديم. أما سيرة المسيح الأكثر قبولاً على نطاق واسع، والمعروفة أيضاً باسم الأناجيل؛ وأعمال الرسل؛ والرسائل إلى الكنائس؛ والرمز الصوفي الغريب للاضطهاد الذي تعرض له نيرون والمعروف باسم سفر الرؤيا، فقد تم اختيارها من بين مجموعة كبيرة من الأدب المسيحي المبكر لتشكيل المجموعة الموثوقة من الكتابات الموحى بها والتي نسميها العهد الجديد. لقد تزايدت أهمية هذه المجموعة المتنوعة من الأعمال التي تنتمي إلى جميع العصور والأنظمة، ولكنها مختلطة معًا في الخيال الشعبي تحت اسم الكتب، أو مؤخرًا كاسم مفرد، الكتاب المقدس، مع نمو الكنيسة: على الرغم من أن عبادة المحتويات اللفظية المجردة والخرافية لم تصل إلى حد العبادة المتطرفة والخرافية إلا في الأشكال المنحطة والرجعية للمسيحية التي يتبعها في الوقت الحاضر المنشقون الإنجليز والأمريكيون البروتستانت غير المتعلمين.

من هذه المراجعة القصيرة للغاية للعوامل الأكثر أهمية في تطور الدين المسيحي كنظام، والتي تم تجميعها معًا بشكل فضفاض مع مراعاة متطلبات بحثنا الحالي، سيتضح على الفور لكل قارئ ذكي أن المسيحية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تلقي علينا أي ضوء مباشر أو فوري على مشكلة تطور فكرة الله. لم يكن مفهوم الإله والآلهة موجودًا بالكامل قبل ظهور المسيحية بفترة طويلة فحسب، بل إن المفهوم التوحيدي المحض لإله واحد أعلى، خالق كل الأشياء وحاملها، قد تم التوصل إليه بكل بساطته السامية من قبل المعلمين اليهود قبل قرون من ولادة الإنسان يسوع. استعارت المسيحية من اليهودية هذا المفهوم الرائع، ومن الناحية البشرية، شرعت في إفساده بإضافة الابن والروح القدس، اللذين شوهوا الوحدة الكاملة للمثل العبري العظيم. حتى خارج اليهودية، تم التوصل بالفعل إلى نفس الفكرة في شكل صوفي معين كـ "العقيدة الباطنية" للكهنوت المصري؛ ولقد استعار اليهود في الإسكندرية، تلك المدينة الواقعة في شرق لندن، إلى حد كبير العقائد المسيحية الخاصة بالثالوث، والكلمة، والتجسد، والروح القدس، وذلك بآرائهم الخاصة فيما يتصل بالانبثاقات والثالوثات. ولقد شكل يهود الإسكندرية، تلك المدينة الواقعة في شرق لندن، حلقة الوصل بين الوثنية المصرية، والفلسفة اليونانية، والمسيحية المبكرة؛ وقد نجد أن أفكارهم نصف الفلسفية ونصف الدينية تتخلل الكتابات الأولى والفكر المنهجي الأول للكنيسة الناشئة. وعلى هذا فلا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعتبر المسيحية مصدراً مباشراً أو مباشراً لإرشادنا في بحثنا عن أصل وتطور مفاهيم الآلهة المتعددة، والإله الواحد الخالق.

ومع ذلك، وفي معنى ثانوي وتوضيحي معين، أعتقد أننا محقون تمامًا في القول إن تاريخ المسيحية، الدين الذي نعرف بداياته بكل تأكيد، يشكل معيارًا مرجعيًا لجميع الديانات الأخرى في العالم، ويساعدنا بشكل غير مباشر على فهم وتفسير أصل وتطور أعمق مفاهيمنا الروحية الأساسية.

ويمكن فهم قيمتها في هذا الصدد على أفضل وجه إذا أشرت بإيجاز في بيانين متناقضين إلى النقاط التي يمكن فيها قبولها بشكل عادل كدين نموذجي والنقاط التي لا يمكن فيها قبولها.

دعونا نبدأ أولاً بالنقاط التي قد يكون الأمر كذلك فيها.

إن المسيحية في المقام الأول نموذجية تماماً في حقيقة مفادها أن الشخصية الإلهية الأكثر مركزية فيها لم تكن في البداية، بإجماع الأرثوذكس وغير الأرثوذكس على حد سواء، سوى رجل متأله بعينه. وكل ما قيل عن هذا الرجل بعينه ـ أنه ابن الله، وأنه تجسد الكلمة، وأنه كان موجوداً من قبل منذ الأزل، وأنه يجلس الآن عن يمين الآب . وكل ما تبقى من هذه القصص اللاهوتية لا تفعل شيئاً بأي حال من الأحوال لإخفاء الحقيقة التاريخية الواضحة والمعترف بها عالمياً وهي أن هذا الشخص الإلهي، الإله الحقيقي للإله الحقيقي، الذي هو من جوهر واحد مع الآب، ومولود من الآب قبل كل العوالم، كان في اللحظة التي نلقي فيها عليه نظرة خاطفة لأول مرة في كتابات أتباعه، رجلاً توفي مؤخراً، ويحترمه ويجله، وربما يعبده مجموعة صغيرة من رفاقه الفلاحين الذين عرفوه ذات يوم باسم يسوع، ابن النجار. وعلى هذه الصخرة التي لا تقبل المساس والتي تشكل حقيقة تاريخية راسخة، قد نكتفي بتأسيس حجتنا في هذا المجلد. ففي هذا المجلد على الأقل لا يستطيع أحد أن يتهمنا بـ "النزعة اليوهيمرية الفظة والفظة". أو بالأحرى، من المعروف هنا أن النزعة اليوهيمرية الفظة والفظة تمثل الحقيقة الثابتة. فالمسيح وقديسيه ـ دومينيك، وفرانسيس، وكاثرين من سيينا ـ ليسوا مجرد أساطير لفظية، ولا مفاهيم رمزية، ولا تجسيدات للشمس، والفجر، وسحابة العاصفة. إذا تركنا جانباً في الوقت الحاضر من نطاق إيماننا أن أحد عناصر الإله الأعظم الأقدم - يهوه العبري - الذي استعارته المسيحية من الدين اليهودي السابق، فيمكننا أن نقول على الأقل بيقين تام أن كل عضو من أعضاء البانتيون المسيحي - يسوع، والسيدة العذراء، والقديس يوحنا المعمدان، والقديس

بطرس، والرسل، والإنجيليين - كانوا، تمامًا مثل سان كارلو بوروميو أو القديس توماس من كانتربري أو القديسة تيريزا، رجالاً أو نساء أمواتًا، يُعبدون بعد وفاتهم بتكريم إلهي أو شبه إلهي. في هذا الدين الأكثر شهرة بين كل الأديان البشرية، والذي نشأ تحت أعين التاريخ الكاملة، والذي يمكن تتبع آلهته وقديسيه بوضوح تام، يتبين عند التحقيق أن كل شيء يتم عبادته، باستثناء الإله الوحيد المبكر والذي لم يتم حله بعد في العبادة العبرية، والذي فقدنا أصله في ضباب العصور، هو في الواقع إله أو قديس يوهيمري بحت - في التحليل النهائي، رجل أو امرأة حقيقيان.

وأعتقد أن هذه النقطة وحدها لها أهمية كبرى، وقيمة توضيحية هائلة أو لا تقدر بثمن تقريبًا، في البحث عن أصل فكرة الإله في العصور السابقة.

"في المقام الثاني، تعتبر المسيحية نموذجية تمامًا في كل ما يتعلق بمسار تطورها اللاحق؛ الارتقاء التدريجي لرجلها الموقر المركزي إلى إله يتمتع بأعلى قوة وسلطة؛ تكاثر الآلهة الثانوية أو القديسين من خلال عبادة أو تقديس رجال ونساء أموات آخرين؛ نمو هرمي متدرج وخاضع بشكل مناسب للشخصيات الإلهية؛ ظهور أسطورة، مع معجزاتها وملحقاتها الخارقة للطبيعة الأخرى؛ تشكيل لاهوت محدد وفلسفة ودوغمائية منهجية؛ تطوير أشكال فنية خاصة، ونمو أو تبني الرمزية المناسبة؛ إنتاج الكتب المقدسة والطقوس والصيغ؛ ظهور الاحتفالات والأسرار والمبادرات والأسرار المقدسة؛ التبجيل الممنوح للآثار والأماكن المقدسة والمقابر والجثث. والارتباط الوثيق بين الدين ككل وأفكار الموت، والنفس، والشبح، والروح، وقيامة الجسد، والدينونة الأخيرة، والجحيم، والجنة، والحياة الأبدية، وكل المجموعة الواسعة الأخرى من المفاهيم التي تحيط بحقيقة الموت البسيطة في العقل البشري البدائي عمومًا.

والآن، في المقام الثاني، دعونا ننظر إلى حيث تفشل المسيحية إلى حد ما في أن تكون نموذجية، أو على الأقل في حل مشاكلنا الأساسية.

إن المسيحية لا تمثل نموذجاً لأنها تستعير إلى حد كبير لاهوتاً جاهزاً كاملاً، وفوق كل شيء إلهاً واحداً أعلى، من دين سابق الوجود. وبقدر ما تأخذ بعض السمات الثانوية من الطوائف الأخرى، فلا يمكننا أن نقول بصدق إنها لا تمثل المسار المتوسط للأنظمة الدينية؛ لأن كل عقيدة جديدة تقريباً تستند إلى عناصر من عقائد أقدم؛ وربما يكون من المستحيل بالنسبة لنا في الوقت الحاضر أن نعود إلى أي شيء يشبه شكلاً بدائياً أو أصلياً للعبادة. ولكن المسيحية بعيدة كل البعد عن كل الطوائف البدائية في أنها تقبل المفهوم التوحيدي الجاهز، أو أعلى نقطة في الفلسفة الدينية. وفي حين أنها في الصراحة التي تعرض بها علينا ما يشكل عملياً نصف إلهها الأعلى كفلاح جليلي من إنسانية لا شك فيها، ثم تأليه وتجسد في وقت لاحق، فإنها تسمح لنا بالنزول خطوة واحدة إلى أصل الألوهية ذاته؛ ولكن في القوة التي تؤكد بها على النصف الآخر من إلهها الأعلى (الأب، مع تابعه الغامض الروح القدس) قدمها السحيق وانفصالها التام عن الحياة البشرية، فهي أقل العقائد تشبيهًا بالبشر وأكثرها تجريدية. ومن أجل تتبع فكرة الله إلى مصدرها الحقيقي، يتعين علينا أن نطبق في نهاية المطاف على هذا العنصر غير المحسوم من المسيحية - يهوه العبري - نفس النوع من المعالجة التي نطبقها على مفهوم يسوع أو بوذا؛ يجب أن نظهر أنه أيضًا شبح متحول ومكبر بشكل هائل لكائن بشري؛ بلغة سوينبورن البسيطة والقوية، "الظل الذي تلقيه روح الإنسان".

فضلاً عن ذلك فإن المسيحية تفشل في أن تكون نموذجية لأنها تستعير أيضاً من الديانات السابقة إلى حد كبير أفكار الكهنوت والتضحية والمعبد والمذبح، والتي بسبب الاختفاء الغريب أو على الأقل عدم القدرة على التعرف على جسد مؤسسها (أو بالأحرى موضوع عبادتها المركزي)، لها مكان أقل طبيعية في نظامنا المسيحي من أي شكل آخر معروف من أشكال الممارسة الدينية. من الصحيح تماماً أن الكنائس الفخمة، والنظام الكهنوتي المتطور للغاية، وتضحية القداس، والمذبح، والآثار المقدسة، كلها تم استيرادها في شكلها الكامل إلى المسيحية المتقدمة،

وخاصة في شكلها المركزي أو الروماني. ولكن كل واحد من هذه الأشياء مستعار جزئياً، أو تقريباً كبقايا أو حتى كسمة غريبة، من الديانات السابقة، وجزئياً نشأ حول العبادة الثانوية للقديسين والشهداء، وعظامهم، ومقابرهم، ومقابرهم، ومدافنهم. "إن المسيحية نفسها، وخاصة عندما ننظر إليها كعبادة المسيح (التي تقلصت إليها إلى حد كبير في أوروبا التوتونية)، لا تلائم بشكل طبيعي هذه الاحتفالات الثانوية؛ وفي تلك الأشكال الانشقاقية المنحطة للكنيسة التي تقتصر بشكل صارم على عبادة يسوع والإله الأعظم، تم تخفيض الكهنوتية والأسرار إلى الحد الأدنى، بحيث فقد المعبد والمذبح الجزء الأكبر من أهميتهما التضحية.

"إنني أقترح في الفصول التالية أن أتتبع نمو فكرة الإله من أكثر الأصول بدائية إلى أكثر الأشكال تطوراً؛ بدءاً بالشبح والإله المبكر غير المتطور؛ ثم الاستمرار من خلال التعددية الإلهية إلى ظهور التوحيد؛ ثم العودة أخيراً مرة أخرى إلى المفهوم المسيحي الكامل، والذي سنفهمه بشكل أفضل بكثير بالتفصيل بعد أن نشرح طبيعة العنصر اليهودي الذي لم يتم حله بعد أو تم حله مؤقتًا. سأحاول أن أظهر، باختصار، تطور الإله، بالبدء بتطور الآلهة بشكل عام، والنزول تدريجيًا عبر الأجناس المختلفة إلى تطور الإله العبري والمسيحي والمسلم بشكل خاص. "وسوف يكون الهدف الذي سأتحرك نحوه هو الهدف الذي سبق أن تنبأنا به في هذا الفصل التمهيدي، وهو إثبات أن مفهوم الإله في أصله ليس أكثر من مفهوم الرجل الميت، الذي يُنظر إليه على أنه شبح أو روح لا يزال على قيد الحياة، وموهوب بقوى وصفات متزايدة أو خارقة للطبيعة.

الفصل الثاني - الدين والأساطير.

في بداية هذا البحث العميق، نواجه تحديًا كبيرًا. يعتقد معظم علماء الأساطير المعاصرين أن الأساطير هي نتيجة "مرض اللغة". ويؤكد العديد من العلماء البارزين أن أصل الدين لا يمكن البحث عنه في الأفكار البدائية حول الأشباح والأرواح، بل في المفاهيم الخاطئة لمعاني الكلمات التي كانت تشير إلى الظواهر الطبيعية مثل الشمس والسحب والرياح والمطر والفجر والغسق. إذا كان هذا صحيحًا، فإن محاولتنا لاستنتاج تطور الآلهة من الأفكار البدائية عن الموتى غير صحيحة، والقياس على المسيحية ليس سوى تلميح ضعيف. وقد يثبت يسوع التاريخي في النهاية أنه مجرد اسم مستعار لإله الشمس أو تجسيد لروح الكرمة.

لا أعتقد أن هذه الاقتراحات صحيحة. يبدو لي أن عبادة الشمس والقمر والنجوم هي نوع متأخر من العبادة، وأن الأساطير مخطئة في ادعاءاتها بأهميتها في نشوء فكرة الإله. ولكن لتمهيد الطريق لبداية عادلة في هذا الاتجاه، يجب أن نبدأ بالبحث في العلاقة بين الأساطير والدين. لذلك سأخصص فصلاً تمهيدياً لدراسة هذا الموضوع المهم.

يقول بعض المفكرين المعاصرين، مثل السيد إدوارد كلود، أن الدين نشأ من الخوف. إنه نشأ من خوف الإنسان من القوى الطبيعية الغامضة التي تحيط به. لا أنكر أن العديد من الكائنات الأسطورية ذات الأشكال الرهيبة نشأت من هذا النوع من الخوف. أقبل بسهولة أن العديد من التنانين والوحوش التي تكثر في التخيلات الوحشية نشأت من هذا الخوف. ولكن لا أحد من هذه الكائنات هو إله أو يشبه الإله. هذه الكائنات لا علاقة لها بالدين كما نفهمه، كما أن وحيد القرن الذي يزين شعار النبالة الملكي لا علاقة له بالمسيحية البريطانية .الإله، كما أفهمه، هو كائن خارق للطبيعة يستحق التبجيل والعبادة. وهو يقف مع أتباعه في علاقة طيبة وحامية. قد يغضب منهم أحيانًا، ولكن غضبه مؤقت وأبوي. موقفه الدائم تجاه شعبه هو موقف

ودي؛ فهو يعبد باعتباره أبًا محسنًا وكريمًا. أصل الآلهة بهذا المعنى هو ما يهمنا هنا، وليس أصل الكائنات الغامضة التي يخشاها البشر البدائيون ولا يعبدونها.

إذا ما وضعنا هذا التمييز في الحسبان، فلننتقل الآن إلى دراسة أساسيات الدين. إذا سألت أي طفل ذكي وغير متعلم تقريباً: "ما هو الدين؟" فسوف يجيبك على الفور: "إن الدين يعني تلاوة الصلوات، وقراءة الكتاب المقدس، وغناء الترانيم، والذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد". وإذا سألت أي فلاح هندوسي نفس السؤال، فسوف يجيب بنفس الروح: "إن الدين يعني أداء الصلاة بانتظام، ودفع الضرائب كل يوم إلى ماهاديو". وإذا سألت أي متوحش أفريقي بسيط التفكير، فسوف يجيبك بنفس الطريقة: "إن الدين يعني تقديم الدقيق والزيت والبيرة المحلية ولحم الضأن للآلهة". وأخيراً إذا سألت أي مزارع إيطالي متدين، فسوف يجيبك على الفور: "إن الدين يعني تقديم الشموع والصلوات للسيدة العذراء، وحضور القداس، وتذكر القديسين في كل احتفال."

وإنهم جميعاً على حق. هذا هو بالضبط ما نسميه بالدين. وبصرف النظر عن التحسينات التي تقوم بها العقول العليا في عقائد معينة، فإن هذا هو بالضبط ما يعنيه الدين، وكان يعنيه دائماً بالنسبة للغالبية العظمى من البشر. ما يشترك فيه الدين هو العادة أو الممارسة: مجموعة معينة من المراسم المتشابهة: الكفارة، والصلاة، والتسبيح، والقرابين: طلب النعم الإلهية، واستنكار الغضب الإلهي أو غيره من المصائب: وكإضافات خارجية ومرئية لكل هذا، المذبح، والتضحية، والمعبد، والكنيسة؛ والكهنوت، والخدمات، والملابس، والطقوس.

إن العنصر الأخلاقي، كما يُطلق عليه، لا يشكل أهمية جوهرية للدين في أبعاده الأوسع التي تشمل العالم في الماضي والحاضر، الوثني والبوذي والمحمدي والمسيحي والهمجي والمتحضر. وما لا يشكل أهمية جوهرية على الإطلاق هو العنصر الفلسفي، أو اللاهوت أو الأساطير، أو النظرية المجردة للوجودات الروحية. ولا شك أن هذه

النظرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين في كل بلد أو عرق في جوانب معينة؛ والقصص التي تروى عن الآلهة أو الله مختلطة إلى حد كبير بالطقوس الدينية ذاتها في أذهان المتعبدين؛ ولكنها ليست جزءاً من الدين بالمعنى الدقيق للكلمة. وبكلمة واحدة، أزعم أن الدين، في حد ذاته، عملي في جوهره، أما اللاهوت أو الأساطير، في حد ذاته، فهو نظري في جوهره.

وعلاوة على ذلك، أعتقد أيضًا، وسأحاول أن أثبت، أن الاثنين لهما إلى حد كبير أصول وجذور متميزة، وأن الاتحاد بينهما عرضي إلى حد كبير، وبالتالي، فإن تفسير أحدهما لا يعادل بأي حال من الأحوال تفسير الآخر.

إن الاعتراف الصريح بهذا الاختلاف في المنشأ بين الدين والأساطير من شأنه، في تصوري، أن يوفق إلى حد كبير بين المدرستين الفكريتين المتعارضتين اللتين تنقسم بينهما الآراء في الوقت الحاضر بشأن هذه المشكلة المثيرة للاهتمام في تطور الأفكار البشرية. فمن ناحية، نجد المدرسة الأسطورية من المفسرين، سواء كانوا من ذوي التوجه اللغوي الضيق، مثل الأستاذ ماكس مولر، أو من ذوي التوجه الأنثروبولوجي الواسع، مثل السيد أندرو لانج، الذين يهاجمون المشكلة من وجهة نظر الأسطورة أو النظرية وحدها. ومن ناحية أخرى، نجد المدرسة الدينية الحقيقية من المفسرين، مثل السيد هربرت سبنسر، وإلى حد ما السيد تايلور، الذين يهاجمون المشكلة من وجهة نظر الممارسة أو الدين الحقيقي. إن المدرسة الأولى، على ما يبدو لي، فشلت في إدراك أن ما تفسره ليس أصل الدين على الإطلاق - أصل العبادة، التي تشكل الفكرة الجذرية المركزية لكل طقوس دينية، أو المعبد والمذبح والقس والقرابين، التي تشكل التعبير الخارجي عن الدين - بل أصل الأسطورة أو الحكاية، أو الكم الهائل من القصص والأساطير عن كائنات مختلفة، حقيقية كانت أو خيالية، بشرية أو إلهية، والتي تنمو بشكل طبيعي في كل مجتمع بدائي. ومن ناحية أخرى، فإن المدرسة الثانية، على الرغم من تفسيرها الصحيح لأصل كل ما هو جوهري

ومركزي في الدين، ربما قللت من قيمة عمل خصومها من خلال اعتباره معارضاً حقيقياً لعملهم، بدلاً من قبول أي جزء منه قد يكون صحيحاً في ضوء مساهمة في فرع مستقل ولكنه حليف لنفس التحقيق.

باختصار، إذا كانت وجهة النظر المقترحة هنا صحيحة، فإن سبنسر وتايلور مهدا الطريق لنظرية حقيقية عن أصل الدين؛ أما ماكس مولر ولانج وغيرهما من علماء الأساطير فقد قدموا تلميحات ذات قيمة متفاوتة نحو نظرية حقيقية عن أصل الأساطير، أو ما يعادلها وخليفتها الأكثر حداثة، أي علم اللاهوت.

إن عرضاً موجزاً للحقائق من شأنه أن يساعد في توضيح وجهة النظر هذه التي ترى أن الدين عملي في جوهره. مجموعة من الطقوس التي أصبحت حتمية وفقاً للبيانات البدائية لعلم النفس البشري. ومن ثم فسوف يتبين لنا أن ما هو أساسي وجوهري في الدين هو مجموعة الممارسات التي تظل على حالها طوال مراحل التطور البشري، أو تكاد تكون متماثلة، على الرغم من التغيرات التي تطرأ على النظريات الأسطورية أو اللاهوتية؛ وأن ما هو عرضي ومتغير هو التفسير اللفظي الخاص أو السبب الفلسفي الذي يُعزى إليه الشعائر والطقوس المتنوعة.

إن الدين في أبسط صوره التي ما زالت باقية حتى اليوم يتألف بالكامل من بعض أعمال الاحترام التي يؤديها الأحياء لأشخاص الموتى. وسأحاول في الجزء الثاني أن أوضح أن أعمال الاحترام المماثلة على وجه التحديد، سواء كانت مباشرة للجثث أو للأشباح بحد ذاتها، أو بشكل غير مباشر للآلهة التي كانت ذات يوم أشباحًا، أو تطورت من الأشباح، تشكل جوهر الدين. ولكن في البداية سأحاول أن أعرض بعض الأمثلة البسيطة على الطبيعة الدقيقة للدين في أدنى صوره الوحشية الموجودة.

"قد أختار، إن شئت، أن آخذ مجموعتي الصغيرة من الحقائق التوضيحية من كاتب نظري، مثل السيد هربرت سبنسر، الذي جمع أمثلة كافية في كل ضمير لإثبات هذه النقطة؛ ولكنني أفضل أن أذهب مباشرة إلى مراقب أصلي للحياة والعادات الوحشية، وهو مبشر مشيخي في وسط أفريقيا - القس داف ماكدونالد، مؤلف كتاب "أفريقيانا" - الذي أتيحت له فرص وفيرة في بعثة بلانتير لتعلم أفكار وممارسات السكان الأصليين السودانيين، والذي لم يكن لديه بالتأكيد أي استعداد نظري لحل جميع المفاهيم الدينية في الاحترام والتبجيل البدائي للموتى أو عبادة الأجداد.

فيما يلي، على شكل ملخص، ولكن بكلمات السيد ماكدونالد نفسه، الأفكار والممارسات التي وجدها هذا المحقق الدقيق والدقيق شائعة بين قبائل قلب أفريقيا. يقول: "لا أعتقد أنني اعترفت بأي نقطة ذات أهمية دون أن أسمع أربعة على الأقل من السكان الأصليين حول هذا الموضوع. إن العبارات هي ترجمات، قدر الإمكان، من كلام الزنوج".

"إن القبائل التي عاش بين أفرادها "تتفق على أن هناك شيئاً وراء الجسد يسمونه الروح. فكل جسد بشري يتخلى عنه هذا الروح عند الموت". هذا هو الاعتقاد السائد على نطاق واسع، وإن لم يكن بدائياً تماماً، والذي تتبع السيد هربرت سبنسر أصوله الضرورية بدقة، ومؤخراً في أمريكا، وبكل قوة ووضوح، السيد ليستر وارد.

"هل تموت هذه الأرواح على الإطلاق؟" يتساءل السيد ماكدونالد، فيجيب: "لقد سمعت أن البعض يؤكدون أنه من الممكن قتل الروح المزعجة. وينفي آخرون هذا الأمر بشكل مباشر. يقول كثيرون، مثل كومباما أو تشيراسولو: "تسألني عما إذا كانت روح الإنسان تموت على الإطلاق. لا أستطيع أن أجزم بذلك. لم أكن في عالم الأرواح قط، ولكنني على يقين من أن الأرواح تعيش لفترة طويلة جدًا".

"فيما يتعلق بالسؤال "من هم الآلهة؟" يقول السيد ماكدونالد: "في جميع ترجماتنا للكتاب المقدس حيث وجدنا كلمة الله استخدمنا كلمة مولونجو؛ ولكن هذه الكلمة يستخدمها السكان الأصليون بشكل رئيسي كاسم عام للروح. تُسمى روح الرجل المتوفى مولونجو، وتُقدم جميع صلوات وقرابين الأحياء إلى أرواح الموتى. هنا نجد المركز العظيم للدين الأصلي. أرواح الموتى هي آلهة الأحياء.

"أين توجد هذه الآلهة؟ عند القبر؟ لا. يبتعد القرويون عن ذلك المكان الكئيب الذي يقع بعيدًا عن حقولهم على جانب الجبل القاتم. ولا يذهبون إلى هناك إلا عندما يتعين عليهم أن يضجعوا شخصًا آخر نائمًا بجانب أسلافه. إن إلههم ليس الجسد في القبر، بل الروح، وهم يبحثون عن هذه الروح في المكان الذي عاش فيه قريبهم الراحل آخر مرة بينهم. إنها الشجرة العظيمة في شرفة منزل الرجل الميت التي هي معبدهم؛ وإذا لم تنمو شجرة هنا، فإنهم يقيمون القليل من الظل، ويؤدون طقوسهم البسيطة هناك. وإذا أصبح هذا المكان عامًا للغاية، فقد يتم تدنيس القرابين، وسيتم نقل الحرم إلى مكان مختار بعناية تحت شجرة جميلة. في كثير من الأحيان يقدم الرجل قربانًا على رأس سريره بجانب رأسه. إنه يتمنى أن يأتي إلهه إليه ويهمس في أذنه وهو نائم."

وهنا، مرة أخرى، نجد أصل عبادة الطبيعة:

"قد يتخذ زعيم عجوز جبلًا كاملًا مقرًا لإقامته، لكنه يسكن في المقام الأول على القمة الملبدة بالغيوم. هناك يجلس ليتلقى عبادة أتباعه، ولينزل الأمطار المنعشة استجابة لصلواتهم."

إن وجود الكهنوت يشكل أهمية بالغة بالنسبة للدين، بقدر أهمية العوامل الأساسية في تطوره. الإله، والعبادة، والقرابين، والهدايا، والأماكن المقدسة، والمعابد. وفيما يلي الكيفية التي توصل بها أهل أفريقيا الوسطى إلى هذه الوظيفة الخاصة:

"إن التعامل مع الآلهة يتطلب قدراً معيناً من الآداب. فلا يجوز لأي صبي أو فتاة صغيرة أن يقترب من هذه الآلهة، ولا يجوز لأي شخص لم يحضر الأسرار أن يقترب منها. والشرط الشائع هو أن يكون الشخص قد بلغ سناً معينة، حوالي اثني عشر أو أربعة عشر عاماً، وأن يكون لديه منزل خاص به. ونادراً ما يصلي العبيد، إلا عندما يكون لديهم حلم. أما الأطفال الذين رأوا حلماً فيخبرون أمهاتهم، فتقترب من الإله نيابة عنهم. (إن تقديم هدية للإله أمر ضروري، وقد لا يحصل عليها العبد أو الطفل).

"باستثناء حالة الأحلام وبعض الأمور الخاصة، ليس من المعتاد أن يقترب أحد من الآلهة باستثناء زعيم القرية. إنه رئيس الكهنة المعترف به 027 الذي يقدم الصلوات والقرابين نيابة عن كل من يعيش في قريته. إذا كان الزعيم بعيدًا عن المنزل، فإن زوجته تتولى المهمة، وإذا كان الاثنان غائبين، فإن شقيقه الأصغر هو الذي يقوم بهذه المهمة. لا يمارس السكان الأصليون العبادة بشكل فردي بقدر ما يمارسونها في القرى أو المجتمعات. دينهم هو أمر عام أكثر منه خاص."

ولكن هناك أسباب أخرى تجعل الكهنة ضروريين. فالعلاقات تشكل دائماً أرضية جيدة للشفاعة. والوسيط مطلوب.

"يقول السيد ماكدونالد: ""إن زعيم القرية له لقب آخر في الكهنوت. إن أقاربه هم آلهة القرية. وكل من يعيش في القرية يعترف بهذه الآلهة؛ ولكن إذا انتقل أي شخص إلى قرية أخرى فإنه يغير آلهته. فهو الآن يعترف بآلهة زعيمه الجديد. ومن الطبيعي أن يرغب من يرغب في الصلاة إلى إله (أو آلهة) أي قرية في أن تُقدَّم صلواته من خلال زعيم القرية، لأن هذا الأخير قريب من إله القرية، ومن المتوقع أن يُنصت إليه بشكل أفضل من الغريب.""

وبعد قليل يقول السيد ماكدونالد: "تختلف الآراء بشأن آلهة القرية. يقول البعض إن كل فرد في القرية، سواء كان قريبًا للزعيم أم لا، يجب أن يعبد أسلاف الزعيم.

ويقول آخرون إن الشخص الذي لا يرتبط بالزعيم يجب أن يعبد أجداده، وإلا فإن أرواحهم ستجلب له المتاعب. وللتوفيق بين هذه السلطات، يمكننا أن نذكر أن كل شخص تقريبًا في القرية مرتبط بزعيمه، أو إذا لم يكن قريبًا، فيُعتبر كذلك من باب المجاملة. أي شخص لا يرتبط بزعيم القرية سيكون مهذبًا بما يكفي في جميع المناسبات العامة ليتعرف على إله القرية: في مناسبات الصلاة الخاصة (والتي ليست كثيرة كما هو الحال في المسيحية) سيقترب من أرواح أجداده. علاوة على ذلك، قد يكون هناك إله للأرض. يصلي الزعيم كابيني لأقاربه، وأيضًا للآلهة القديمة في المكان. يقترب من أقاربه بنفسه؛ "قد يقترب هو أيضًا من الآلهة الأخرى، لكنه غالبًا ما يجد أشخاصًا أكثر ارتباطًا وبالتالي أكثر قبولًا لدى الآلهة القديمة في الأرض."

وهكذا فإن البانثيون الأفريقي مأهول بالسكان على نطاق واسع. ثم يؤدي الإقصاء والانتقاء الطبيعي إلى انتقال المرء من الشبح إلى الإله، كما يطلق عليه.

"إن آلهة السكان الأصليين تكاد تكون كثيرة مثل موتاهم. ومن المستحيل أن نعبد جميع الآلهة؛ بل لابد من الاختيار، وكما أشرنا، فإن كل عابد يلجأ بطبيعة الحال إلى أرواح أقاربه الراحلين؛ ولكن آلهته كثيرة للغاية، وفي اختياره يلجأ إلى أولئك الذين عاشوا في أقرب وقت له. وعلى هذا فإن زعيم القرية لن يزعج نفسه بشأن جده الأكبر: بل سيقدم قربانه إلى سلفه المباشر، ويقول: "يا أبي، أنا لا أعرف كل أقاربك، وأنت تعرفهم جميعًا، ادعهم إلى وليمة معك". فالقربان ليس لنفسه فقط، بل لنفسه ولجميع أقاربه".

سرعان ما ينسى الجيل الذي عرف الأشباح العادية. لكن الأمر لا ينطبق على بعض الأرواح المختارة، مثل القياصرة ونابليون وشارلمان وتيمور من الإمبراطوريات المتوحشة.

"إن الزعيم العظيم الذي نجح في حروبه لا يختفي من الذاكرة بهذه السرعة. فقد يصبح إلهاً لجبل أو بحيرة، وقد يحظى بالتقديس باعتباره إلهاً محلياً بعد فترة طويلة من طرد أحفاده من المكان. وعندما يكون هناك دعاء من أجل المطر فإن سكان البلاد لا يصلون إلى أجدادهم بقدر ما يصلون إلى إله الجبل الذي تستقر على أكتافه سحب المطر العظيمة. (نادراً ما يتم تكريم التلال الأصغر حجماً بإله)."

حسنًا، في كل هذا، يبدو لي أننا نحصل على الأساسيات والمبادئ العامة للدين عمومًا، الأشياء التي لا يمكن للدين أن يوجد بدونها، الجزء الحيوي، دون الإضافات المتغيرة والمتغيرة باستمرار من الأساطير القيل والقال. في الهدايا التي يتم إحضارها إلى قبر الرجل الميت لإرضاء الروح، نجد العنصر المركزي لكل عبادة، والمفتاح العملي لجميع الطوائف، الماضية أو الحالية.

من ناحية أخرى، لا يخبرنا علماء الأساطير بأي شيء عن أصل الصلاة والتضحية: فهم يصرفوننا عن القصص التي تتحدث عن آلهة بعينها، دون أن يشرحوا لنا كيف بدأ عبادة هذه الآلهة. والواقع أن الأساطير تشكل دراسة مثيرة للاهتمام على طريقتها الخاصة: ولكن التعامل مع مجموعة كبيرة من القصص والأساطير التي تتحدث عن الآلهة أو القديسين باعتبارها ديناً، دون أن تتضمن أي عنصر حي من عناصر الممارسة أو التضحية، يبدو لي وكأنه خلط بين فرعين مختلفين تماماً من فروع البحث البشري. ذلك أن أصل الحكايات لا علاقة له على الإطلاق بأصل العبادة.

من ناحية أخرى، عندما نقرأ رواية السيد ماكدونالد عن جنازة أحد السكان الأصليين، فإننا نكون على مسار مختلف تمامًا؛ حيث يمكننا أن نفهم، كما لو كنا نستخدم وميضًا كهربائيًا، نشأة الأفعال البدائية للتضحية والدين.

"يُدفن مع المتوفى جزء كبير من ممتلكاته. لقد رأينا بالفعل أن سريره يُدفن معه؛ وكذلك جميع ملابسه. إذا كان يمتلك عدة أنياب من العاج، يُطحن ناب واحد أو أكثر

إلى مسحوق بين حجرين ويوضع بجانبه. تُطحن الخرز أيضًا بنفس الطريقة. تُتخذ هذه الاحتياطات لمنع الساحرة (التي يُفترض أنها مسؤولة عن وفاته) من استخدام العاج أو الخرز.

"إذا كان المتوفى يمتلك عدة عبيد، يتم حفر حفرة ضخمة ليكون قبرًا لهم. ثم يتم إحضار العبيد إلى الأمام. إما أن يتم إلقاؤهم في الحفرة أحياء، أو قد يقوم المتعهدون بذبحهم جميعًا. ثم يتم وضع جسد سيدهم أو سيدتهم للراحة فوق جثثهم، ويتم تغطية القبر.

"بعد ذلك، تأتي النساء مع قرابين الطعام، ويضعنها عند رأس القبر. تُترَك الأطباق التي تم إحضار الطعام فيها. تُترَك أيضًا الإناء الذي كان يحمل ماء الشرب للمتوفى وكأس الشرب معه. قد تكون هذه أيضًا موضع اشتهاء الساحرة، ولكن يتم ثقب الإناء، ويتم كسر القرع الذي كان يشرب منه.

"لقد رحل الرجل رقم 30 الآن عن مجتمع الأحياء، ومن المتوقع أن يشارك في تناول الطعام الذي تركه عند قبره مع أولئك الذين رحلوا قبله. انفضت حفلة الجنازة؛ فهم لا يريدون زيارة قبر صديقهم مرة أخرى دون سبب وجيه للغاية. قد يُعتَقَد أن أي شخص موجود بين القبور من آكلي لحوم البشر. أصبح صديقهم مواطنًا من قرية أخرى. إنه مع جميع أقاربه من الماضي. يحق له الحصول على القرابين أو الهدايا التي قد تأتي إليه بشكل فردي أو من خلال رئيسه. في معظم الحالات، سيشارك هذه القرابين مع الآخرين، تمامًا كما اعتاد أن يفعل عندما كان على قيد الحياة،" في بعض الأحيان قد يُدفن الرجل في كوخه الخاص.

"في هذه الحالة لا يتم هدم المنزل، بل يتم تغطيته عادة بالقماش، وتصبح الشرفة مكانًا لتقديم القرابين. وبالتالي يصبح منزله القديم نوعًا من المعبد.... المتوفى الآن في عالم الأرواح، ويتلقى القرابين والعبادة. يُخاطب بـ "روحنا العظيمة التي سبقتنا".

إذا حلم به أي شخص، فمن الواضح أن الروح "تخطط لشيء ما". من المرجح جدًا أنه يريد أن يكون لديه بعض الناجين ليكونوا رفاقه. يسارع الحالم إلى استرضاء الروح من خلال تقديم قربان."

إن مجتمع الموتى هذا حقيقي إلى الحد الذي جعل السيد ماكدونالد يقول: "إن ممارسة إرسال الرسل إلى العالم الآخر موجودة على الساحل الغربي. حيث يستدعي أحد الزعماء عبداً ويسلمه رسالة ثم يقطع رأسه. وإذا نسي الزعيم شيئاً كان يريد قوله، فإنه يرسل عبداً آخر كإضافة إلى الرسالة".

لقد اقتبست من هذا العمل الحديث والرائع للغاية بإسهاب شديد لأنني أريد أن أسلط الضوء بقوة على حقيقة أننا نشهد هنا تحت أعيننا، من يوم لآخر، نشوء آلهة جديدة بالكامل، وكل ما هو أكثر مركزية وجوهرية للدين - العبادة، والصلاة، والمعبد، والمذبح، والكهنوت، والتضحية. لا شيء مما يمكن لعلماء الأساطير أن يخبرونا به عن الشمس أو القمر، أو الفجر أو السحابة العاصفة، أو ذات الرداء الأحمر أو سندريلا والحذاء الزجاجي، يقترب بأي حال من أصل الدين في هذه العناصر المركزية والعالمية. قد تكون هذه القصص أو التخمينات ذات أهمية وفائدة هائلة كمساهمات في تاريخ الأفكار في جنسنا؛ ولكن لا شيء يمكننا أن نتعلمه عن بقاء الوحش في أسطورة كيوبيد أو سايكي، أو عن علم الكونيات البدائي في أسطورة أطفال كرونوس، يساعدنا على الاقتراب ولو قليلاً من أصل الله أو الصلاة، أو العبادة، أو الطقوس الدينية، أو المعبد، أو الكنيسة، أو التضحية، أو القداس، أو أي جزء آخر من ما نعرفه حقًا بالدين في الواقع الملموس. قد تكون هذه الأساطير في بعض الأحيان تخمينات فلسفية، وفي أحيان أخرى حكايات شعبية بدائية، لكنها بالتأكيد ليست حقائق الدين. من ناحية أخرى، فإن الحقائق الحية، التي تم تفصيلها هنا ببساطة من قبل مراقب حريص ودقيق ومتواضع، مدعومة بمئات الحقائق المماثلة التي جمعها

تايلور وسبنسر وآخرون، تساعدنا على الفور على فهم أصل النواة المركزية ونواة الدين كما تمارس عالميًا في جميع أنحاء العالم.

فإذا أغفلنا في الوقت الحاضر العامل الأسطوري والكوني، الذي كثيراً ما يحجب الحقائق الدينية الواضحة في السرد التبشيري أو الروايات الأوروبية المزخرفة عن المعتقدات الأصلية، فما الذي نجده حقاً باعتباره الحقائق الأساسية لكل دين؟ إن كل الناس في مختلف أنحاء العالم يمارسون ممارسات مماثلة في جوهرها لممارسات هؤلاء المتوحشين من سكان وسط أفريقيا؛ وهي ممارسات أثبت السيد هربرت سبنسر على نحو وافٍ انتمائها إلى نفس الأفكار البدائية؛ وهي ممارسات تقوم في جوهرها على استرضاء أو تملق كائن أو كائنات روحية، مستمدة من الأشباح، ويُنظَر إليها على أنها مماثلة لأرواح البشر في كل شيء باستثناء عظمة الصفات التي تنطوي عليها. يقول السير ويليام هانتر: "كلما سئل القرويون [الهنود] عن عقيدتهم، كانت الإجابة هي نفسها دائماً: "إن عامة الناس ليس لديهم فكرة عن الدين، سوى القيام بالصواب [في الطقوس] وعبادة إله القرية".

باختصار، أزعم أن الدين ليس في الأساس، كما يجعلنا القياس الخاطئ في الاستخدام المسيحي نسميه خطأً، الإيمان أو العقيدة، بل هو ببساطة وحصراً طقوس أو عادة أو ممارسة. ويسعدني أن أقول إن الأستاذ روبرتسون سميث، على الأقل في العصور السامية المبكرة، يتفق معي في الرأي.

إننا إذا نظرنا إلى الكتلة الشاسعة من العالم، قديماً وحديثاً، فسوف يتبين لنا بوضوح تام أن الدين يتألف، وكان يتألف دوماً، من طقوس تشبه إلى حد كبير تلك التي وصفناها آنفاً بين قبائل وسط أفريقيا. إن جوهر الدين هو العبادة. ومركزه هو الإله. أي السلف الميت أو الأقارب. والدين في الصين حتى يومنا هذا هو دين عبادة الأسلاف بالكامل تقريباً. ويشكل تقديم القرابين وحرق ورق البخور أمام الأسرة الميتة طقوسه الرئيسية. وفي الهند، بينما لا يكاد يُعبَد الآلهة الثلاثة العظيمة في

الفلسفة البراهمية الصوفية على الإطلاق في الممارسة الفعلية، فإن كل مجتمع وكل بيت لديه آلهته الخاصة وعبادته الخاصة الخاصة بمذبحه المنزلي الصغير.

يقول السير ويليام هانتر: "أول رجل إنجليزي حاول دراسة السكان الأصليين كما هم في الواقع، وليس كما وصفهم البراهمة، أصيب بالذهول من انتشار عبادة مختلفة تمامًا عن عبادة الآلهة الهندوسية. ففي كل قرية بنغالية يوجد إله محلي، يعبده السكان إما في هيئة حجر خشن غير منحوت، أو جذع شجرة، أو شجرة عليها علامة رصاص أحمر. وفي بعض الأحيان، يقوم كتلة من الطين توضع تحت شجرة بوظيفة الإله، أما الكاهن المرافق، إذا كان موجودًا، فإنه ينتمي عمومًا إلى إحدى الطبقات الدنيا نصف الهندوسية. ويمثل الحجر الخشن الصنم غير الآري؛ ويبدو أن الشجرة تدين بقداستها للاعتقاد غير الآري بأنها تشكل مسكنًا للأشباح أو الآلهة في القرية".

إن هذا الوصف البسيط، إذا تجاهلنا مجرد التخمين حول هذا التمثال والافتراض المجاني، الذي تم إجراؤه احتراماً لعقيدة ماكس مولر المحتضرة، بأن عبادة الأسلاف لابد وأن تكون بالضرورة سمة "غير آرية" (على الرغم من أنها موجودة أو وجدت في كل ما يسمى بالأعراق الآرية)، يظهر لنا انتشار العادات المشابهة بشكل أساسي لتلك الموجودة في وسط إفريقيا وفي المقاطعات الصينية في جميع أنحاء الهند.

إن الديانة الرومانية، على نحو مماثل إلى حد ما، تنقسم إلى عبادة مدنية أو وطنية وعبادة خاصة أو عائلية. فهناك الآلهة العظيمة، سواء كانت محلية أو متبناة، والتي كانت الدولة تعبدها علناً، كما كانت قبائل أفريقيا الوسطى تعبد أسلاف الزعماء؛ وهناك آلهة لاريس وبيناتيس، التي كانت الأسرة تعبدها في بيتها، والتي يشير اسمها إلى أنها كانت في الأصل والجوهر أرواحاً أسلافية. وكما أن الديانة الهندوسية الحقيقية أو العملية تتألف في الأساس من تقديم الأرز والدخن والسمن إلى الآلهة المحلية والعائلية الصغيرة أو إلى الإله الراعي المختار في البانتيون البراهمي، فإن الديانة

الرومانية الحقيقية أو العملية تتألف في الأساس من تقديم القرابين على المذبح المنزلي إلى آلهة بيناتيس الخاصة، farre pio et saliente mica.

ولن أطيل في شرح كيف يرى البروفيسور سايس أن عبادة الأسلاف والشامانية (وهي شكل دنيء من أشكال استرضاء الأرواح) تشكل جذور دين الأكاديين القدماء؛ وكيف قام مراقبون آخرون بنفس المهمة بالنسبة للمصريين واليابانيين؛ وكيف تم تتبع عادات مماثلة بين اليونانيين والأمازولو، وبين العبرانيين والنيكاراجوا، وبين الإنجليز الأوائل وهنود الحفر، وبين أسلافنا الآريين أنفسهم وسكان جزر أندامان. وكل رواية حديثة عن الرحلات مليئة بالأمثلة. فقد قرأت عن جزيرة نيذرلاند: "كانت جماجم أسلافهم تُقدَّر لآلهة جزر هيبريدس الجديدة، وكان الناس يعبدون أرواح أسلافهم. وكانوا يصلون إليهم، فوق وعاء الكافا، من أجل الصحة والرخاء". وفي كاليدونيا الجديدة، "كان آلهتهم هم أسلافهم، وكانوا يحتفظون بآثارهم ويعبدونها". "وفي تانا، ""بدا أن الاسم العام للآلهة هو أريما؛ وهذا يعني الرجل الميت، ويشير،"" كما يقول القس جورج تورنر، بصراحة ممتعة، ""إلى أصل وطبيعة عبادتهم الدينية على حد سواء."" وعندما صلى الزعيم، قدم البطاطا والفواكه، قائلاً، ""أيها الأب الحنون، إليك بعض الطعام؛ تناوله. كن لطيفًا معنا بسببه."" أولئك الذين يرغبون في رؤية كل الأدلة على هذه المسألة مصطفة في صفوف المعركة ما عليهم إلا الرجوع إلى المجلد الأول من كتاب مبادئ علم الاجتماع للسيد هربرت سبنسر، حيث سيجدون أمثلة وفيرة من جميع الأوقات والأماكن مجتمعة معًا في كتيبة ضخمة وساحقة.

إن ما يهمنا في هذا الفصل أكثر هو لفت الانتباه مسبقًا إلى حقيقة مفادها أنه حتى في المسيحية ذاتها، لا يزال نفس العنصر البدائي قائمًا باعتباره مركزًا لكل ما هو ديني مميز، على النقيض من اللاهوتي، في الدين المسيحي. وأنا أدلي بهذه الملاحظات مؤقتًا هنا حتى يتمكن القارئ من فهم الهدف النهائي الذي سيقوده بحثنا إليه بشكل أفضل.

إن وضع رفات القديسين أو الشهداء تحت المذابح في الكنائس من العادات الكاثوليكية العالمية. وعلى هذا فإن جسد القديس مرقس الإنجيلي يرقد تحت المذبح العالي في كنيسة القديس مرقس في البندقية؛ وفي كل كاتدرائية أو كنيسة إيطالية أخرى، يوضع صندوق للرفات المقدسة داخل المذبح نفسه. وقد أصبح هذا المبدأ مفهوماً جيداً في الكنيسة اللاتينية، حتى أنه تحول إلى مقولة "لا رفات، لا مذبح". وتتم ذبيحة القداس عند مثل هذا المذبح، ويؤديها كاهن يرتدي ثياب التضحية. والطقوس الكاثوليكية الرومانية بأكملها مستمدة من الأفكار الكهنوتية السابقة للخدمة عند المذبح، ولا تزال صلتها بالشكل البدائي قائمة بفضل الوجود الضروري للرفات البشرية في الأماكن المقدسة.

إن فكرة الكنيسة ذاتها تنحدر من أماكن اللقاء المسيحية المبكرة في سراديب الموتى أو عند مقابر الشهداء، والتي يُعترف بها عالميًا بأنها كانت مذابح مسيحية بدائية. 035 نحن نعلم الآن أن مخطط الكنائس المسيحية المغطى بقباب على شكل صليب مشتق من أماكن اللقاء المبكرة هذه عند تقاطع الممرات أو الأزقة في سراديب الموتى؛ حيث تشير الصحن والمذبح والممرات العرضية إلى تقاطع الأزقة، بينما تمثل القبة الجزء المجوف أو القبو الدائري البدائي حيث يتقاطع خطا الأقواس. كانت أقدم الكنائس المغطاة بالقباب محاولات، كما كانت، لبناء سراديب موتى فوق الأرض لاستقبال قبر مذبح أحد القديسين أو الشهداء. وبالمثل مع المصليات التي تفتح على الجانب من الممرات أو الممرات العرضية. من الناحية اللغوية، فإن كلمة Chapel هي الشكل الحديث لكلمة Capella، وهي القبر المقوس الذي تم حفره في جدران سراديب الموتى، أمام القبر حيث كان من المعتاد تقديم الصلاة والتسبيح. إن الكنائس الصغيرة المبنية من الممرات في الكنائس الرومانية، ولكل منها مذبحها الخاص وآثارها المقدسة، هي محاولات لإعادة إنتاج الأماكن المقدسة الأصلية في المقابر المسيحية المبكرة التي تم حفرها فوق الأرض بنفس الطريقة. وسوف نعود إلى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في الفصول اللاحقة.

وهكذا ترتبط المسيحية ذاتها بعادة قديمة جداً تتمثل في العبادة عند القبور، وعادة عبادة الأسلاف عند المذابح، والآثار المقدسة، واستدعاء القديسين، حتى البروتستانتية الثورية لا تزال تحتفظ ببعض العلامات الخافتة الأخيرة لأصلها في تكريس الكنائس لإنجيليين أو شهداء معينين، وفي البقاء المقنع إلى حد ما للمذبح، والكهنوت، والتضحية، والملابس الكهنوتية.

إنني لا أقول إن عبادة الأسلاف هي التي تعطينا الأصل الكامل لكل ما هو متضمن في العقول الإنجليزية المسيحية في فكرة الدين. ولا أقول إنها تفسر كل نظريات الكون ونشأة القبائل المتوحشة أو البربرية أو المتحضرة. فهذه في معظمها نتاجات أسطورية خالصة، ويمكن تفسيرها، على حد اعتقادي، من خلال المفتاح الذي تزودنا به الأساطير؛ وأحد هذه النتاجات، الذي تم تبنيه في سفر التكوين من مصدر غريب، أصبح مقبولاً لدى المسيحية الحديثة كجزء من ذلك الجسم المنظم من المعتقدات الذي يشكل العقيدة المسيحية، وإن لم يكن الدين المسيحي بأي معنى حقيقي. ولا أقول إن عبادة الأسلاف هي التي تعطينا أصل تلك المفاهيم الوجودية أو الميتافيزيقية أو الصوفية التي تشكل جزءاً من فلسفة أو لاهوت العديد من الكهنة. إن الأديان، كما نتصورها عادة في أيامنا هذه، تشمل الأساطير، وعلم الكونيات، وعلم الوجود، بل وحتى أخلاقيات الجنس البشري الذي يمارسها. ولكنني أعتقد أن هذه التطورات الخارجية تنبع من جذور مختلفة وليس لها بالضرورة أي شيء مشترك مع الدين الحقيقي. إن الإله هو جوهر الأمر. فإذا ما تمكنا من تفسير أصل الأشباح، والآلهة، والمقابر، والمذابح، والمعابد، والكنائس، والعبادة، والتضحية، والكهنوت، والطقوس الدينية، فإننا نكون قد شرحنا كل ما هو جوهري ومركزي في الدين، وربما نترك الباقي - القصص والحكايات والأساطير التقية - لتفسير الأساطير المقارنة أو علم الإيديولوجيات المقارنة الذي لم يثبت بعد أي أساس له من الصحة.

مرة أخرى، لا أريد أن أصر على أن كل إله خاص وفرد، وطني أو طبيعي، لابد وأن يمثل شبحًا معينًا. الروح الميتة لشخص واحد محدد كان حيًا ذات يوم. يكفي أن نبين، كما أظهر السيد سبنسر، أن فكرة الإله، والعبادة التي تُؤدى لإله، مستمدة مباشرة من فكرة الشبح، والقرابين المقدمة للشبح، دون أن نفترض بالضرورة، كما يبدو أن السيد سبنسر يعتقد، أن كل إله هو، ولا بد وأن يكون، في التحليل النهائي، شبحًا لكائن بشري معين. بمجرد أن تطور مفهوم الآلهة لدى البشر، وأصبح جزءًا شائعًا من الكون المتخيل لدى كل إنسان. من العالم كما قدم نفسه لعقل المدرك. فقد كان من الطبيعي أن يتم من وقت لآخر خلق آلهة جديدة من التجريدات أو الجوانب والقوى الخاصة للطبيعة، وأن يتم تقديم نفس العبادة لمثل هذه الآلهة الجديدة والخيالية تمامًا كما تم تقديم العبادة سابقًا لجميع الآلهة التي تطورت من أسلاف شخصيين وقبليين. إنها الخطوة الأولى التي تكلف: بمجرد أن تتوصل إلى فكرة عن إله متطور إلى حد ما، فقد يتم اختراع أو تقديم أي عدد من الآلهة الإضافية من جميع الجهات. تقبل مجموعة كبيرة من الآلهة أعضاء جدد في صفوفها من العديد من المصادر الغريبة. ومن الأمثلة المألوفة في أحد أشهر مجموعات الآلهة تلك الخاصة بكونكورديا، وبيكونيا، وأيوس لوكوتوس، وريديكولوس توتانوس. لقد كان الرومان، في الواقع، يعبدون كل عملية يمكن تصورها للطبيعة أو الحياة البشرية؛ لقد كان لديهم آلهة أو آلهة لأدق تفاصيل الزراعة، والعلاقات الاجتماعية، والسنوات الأولى من الطفولة، والزواج والترتيبات المنزلية بشكل عام. ومن الواضح أن العديد من آلهتهم، كما سنرى فيما بعد، كانت مصنوعة لتلبية طلب خاص في مناسبات خاصة. ولكن في الوقت نفسه، لم يكن من الممكن لأي من هذه الآلهة، بقدر ما نستطيع الحكم، أن يوجد على الإطلاق لو لم تكن نظرية الأشباح وعبادة الأسلاف قد جعلت مبادئ وممارسة الدين عمومًا مألوفة للعقل البشري. لم يكن من الممكن أن تتطور فكرة الإله نفسها بطريقة أخرى؛ ومع ذلك، بمجرد تطورها، يمكن لأي عدد من الكائنات الجديدة أن تنسب إليها بسهولة من قبل الخيال البشري.

ولكن الاعتراف بأن عناصر أخرى دخلت بعد ذلك لتشويش الدين يختلف تمام الاختلاف عن الاعتراف بأن الدين ذاته له أكثر من أصل. فما يعطينا مفتاح ممارسة العبادة يعطينا مفتاح كل دين حقيقي. والآن، قد يقرأ المرء أي كتاب من كتب المدرسة الأسطورية تقريباً دون أن يصادف كلمة واحدة تلقي شعاعاً من الضوء على أصل الدين ذاته كما يسمى بهذا الاسم. إن تتبع تطور هذه القصة أو تلك أو تلك أو الحلقة الأخرى في الأسطورة الدينية يشكل في حد ذاته دراسة قيمة للغاية في التطور البشري: ولكن أي قدر من تتبع مثل هذه القصص لا يعطينا أدنى فكرة عن السؤال لماذا عبد البشر أوزوريس أو زيوس أو شيوا أو فينوس؛ لماذا قدموا الصلاة والتسبيح لإيزيس أو أرتميس؛ لماذا قدموا ذبائح من الثيران إلى جوبيتر الكابيتولي في روما، أو ذبحوا الحمام على مذبح يهوه إله إسرائيل في القدس. إن نظرية الأشباح وممارسة عبادة الأسلاف تظهر لنا أساسًا طبيعيًا ونشأة لكل هذه العادات، وتشرحها بطريقة لا يمكن لأي تحقيق أسطوري أن يضيف إليها عنصرًا واحدًا ذا أهمية أساسية.

ربما يكون من الجيد في هذه المرحلة أن نحاول مسبقًا فك الارتباط المؤقت الطفيف بين العناصر الخارجية المختلفة التي تتشابك في النهاية مع النسيج البدائي البسيط للدين العملي.

إن العنصر الأسطوري هو العنصر الأول في الأساطير. فالقدرة على الأسطورة حقيقة واقعة في الإنسان. فالقصص تنشأ وتنمو وتتجمع حلقاتها بالحركة، وتتحول وتتحول، وتتجول في الفضاء البعيد، وتفسد بفعل الزمن، وتتعرض للتغيير والتعديل بعشرة آلاف طريقة. والآن، ترتبط مثل هذه القصص أحيانًا برجال ونساء أحياء. والجميع يعلمون كم من الأساطير موجودة حتى في أيامنا هذه عن كل شخص بارز أو غريب. كما تتجمع بشكل خاص حول ذكرى الموتى، وخاصة أي رجل أو امرأة ميتة بارزة للغاية. وأحيانًا تنشأ هذه الأساطير في تقاليد أصيلة، وأحيانًا تكون مجرد خيال أو خيال أو قدرة رومانسية. والأشباح أو الآلهة ليسوا أقل إعفاءً من هذه النزوات الأسطورية

من البشر الآخرين؛ وبما أن الآلهة تستمر في الحياة إلى أجل غير مسمى، فإن لديهم متسعًا من الوقت لتجمع الأساطير حولهم. وفي أغلب الأحيان، يتم اختراع الأسطورة لتفسير بعض الطقوس الدينية الخاصة. إن الأساطير التي يبدو أنها أقدم من إنسان بعينه ـ مثل قيصر، أو فيرجيل، أو آرثر، أو شارلمان ـ قد تتكيف مع العصور اللاحقة مع تلك الشخصيات الخاصة. وكثيراً ما يحدث نفس الشيء مع الآلهة. ففي النهاية تصبح الأسطورة، باختصار، تاريخاً للآلهة؛ والشخصية التي توجد عنها العديد من الأساطير، سواء كانت حقيقية أو خيالية، أو تجسيداً للطبيعة أو صفة مجردة، قد تنمو بمرور الوقت لتصبح كائناً إلهياً عملياً، وربما حتى تتلقى العبادة، وهي الاختبار النهائي للألوهية.

إن الأساطير المتعلقة بالآلهة تأتي في نهاية المطاف، في كثير من الحالات، لتدون، وخاصة من قبل الكهنة، وتكتسب هي نفسها درجة كبيرة من القداسة العرضية. وهكذا نحصل على الكتب المقدسة؛ وفي أغلب الأجناس المتقدمة، تميل الكتب المقدسة إلى أن تصبح جزءًا لا يتجزأ من الدين، واختبارًا لنقاء العقائد أو الطقوس. ولكن الكتب المقدسة تحتوي دائمًا تقريبًا على تخمينات كونية فجة وكونيات خارقة للطبيعة، فضلاً عن حكايات عن أفعال الآلهة وعلاقاتهم وامتيازاتهم. وبالتالي، تصبح مثل هذه التخمينات الفلسفية المبكرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفكرة الدين، وفي كثير من الحالات تحل محل جوهرها الحقيقي والعملي المركزي في أذهان بعض الناس. ويظهر أقصى درجات هذا الاتجاه في عبادة الكتب المقدسة البروتستانتية الإنجليزية المعارضة.

إن التفسيرات العقلانية والمصالحية تميل إلى الظهور مع تقدم الثقافة. وتُبذل محاولات لتتبع نسب الآلهة والعلاقات المتبادلة بينهم، والتخلص من التناقضات في الأساطير السابقة. وتُعَد قصة ثيوجوني لهسيود جهدًا واضحًا تم بذله في هذا الاتجاه بالنسبة للبانثيون اليوناني. وغالبًا ما يقوم بهذه المحاولة أكثر الكهنة علمًا وفلسفة،

وتنتهي إلى أساطير شبه فلسفية مثل أساطير البراهمة. وفي الديانات التوحيدية أو شبه التوحيدية، تتحول هذه الأساطير إلى لاهوت. وبقدر ما تصبح هذه الأساطير أكثر تعقيدًا ووضوحًا، يتجه انتباه الطبقة المتعلمة والكهنوتية بشكل متزايد نحو العقيدة، والعقيدة، والإيمان، والصيغ المجردة للاعتقاد الفلسفي أو الفكري، مع الإصرار أيضًا على الطقوس أو الممارسة. لكن الدين الشعبي يظل في العادة، كما هو الحال في الهند، دينًا يعتمد على العادات والمراعاة العملية فقط، ولا علاقة له بالأفكار اللاهوتية المجردة للغاية التي يتبناها المتعلمون أو الكهنة.

وأخيرا، في الديانات العليا، يُسمح لعنصر كبير من الأخلاق، والعاطفة، والإنسانية الواسعة النطاق والعاطفة العرضية، أن يدخل، في كثير من الأحيان إلى الحد الذي يحجب العوامل الأصلية للممارسة والاحتفال.

لقد تعلمنا باستمرار أن "الدين الحقيقي" يعني أشياء كثيرة لا علاقة لها على الأرض بالدين الصحيح، بأي معنى من المعاني، ولكنها مجرد أخلاق عالية، ممزوجة بالتفاني العاطفي تجاه كائن روحي أو مجموعة من الكائنات.

وبسبب كل هذه الأسباب، يميل الباحثون المعاصرون، في بحثهم عن أصل الدين، إلى الخلط بينه وبين العديد من الأسئلة الخارجية المتعلقة بعلم الكونيات، ونشأة الكون، والفلسفة، والميتافيزيقا، والأخلاق، والأساطير، حتى عندما يتعاملون مع القبائل المتوحشة. فهم لا يدركون بالقدر الكافي أن السؤال الحقيقي يضيق في النهاية إلى عاملين رئيسيين. العبادة والتضحية. ففي كل الديانات المبكرة، كانت الممارسة في أقصى حد لها، والعقيدة في أدنى حد لها. ونحن اليوم ننظر إلى هذه الطوائف المبكرة، التي كانت مجرد طوائف لا أكثر، بعقول مشوهة بالتحيزات اللاهوتية الحديثة. من خلال الصراع المستمر حول العقائد، والشروط، والتعريفات، والصيغ. فنحن نتحدث ببساطة عن الإيمان الهندوسي أو المعتقد الصيني، في حين كان ينبغي لنا أن نتحدث عن الممارسة الهندوسية أو الطقوس الصينية. ومن خلال

تصورنا الخاطئ لطبيعة الدين، فإننا نضل الطريق فيما يتصل بأصله. ولن نعود إلى الصواب إلا حين نتعلم كيف نفصل الأساطير عن الدين تماماً، وحين ندرك أن نمو الأساطير وتطورها لا علاقة لهما على الإطلاق ببدايات العبادة. إن علم الأساطير المقارنة والفولكلور دراسة قيمة وخفيفة في حد ذاته: ولكنه لا علاقة له بأصل الدين أكثر من علم الأخلاق أو علم الجيولوجيا. فهناك قواعد أخلاقية في أغلب الطوائف المتقدمة، وهناك تخمينات جيولوجية في أغلب الكتب المقدسة: ولكن لا أحد منهما دين على هذا الأساس، تماماً كما لا علاقة لتاريخ يهوشافاط أو أسطورة شمشون.

إن ما أريد أن أقترحه في هذا الفصل يتلخص في بضع جمل على النحو التالي: الدين هو ممارسة، والأساطير هي رواية القصص. وكل دين له أساطير تصاحبه: ولكن الأساطير لا تؤدي إلى الدين: بل على العكس من ذلك، فإن الدين يؤدي إلى الأساطير. وسأحاول في هذا الكتاب أن أشرح أصل الدين وحده، متجاهلاً تماماً الأساطير ككل، وكل الأشخاص أو الكائنات الأسطورية بخلاف الآلهة بالمعنى الموضح هنا.

الفصل الثالث - حياة الموتى.

إن هدف هذا الكتاب، كما رأينا في البداية، هو تتبع تطور فكرة الله. ولكن حل هذه المشكلة يستلزم سؤالين منفصلين: أولاً، كيف بدأ البشر في صياغة فكرة الإله على الإطلاق؟ وثانياً، كيف تطوروا من تصور آلهة متعددة متميزة إلى تصور إله واحد أعلى، مثل الإله المركزي في المسيحية والإسلام. وبعبارة أخرى، يتعين علينا أولاً أن نبحث في أصل تعدد الآلهة، ثم في استبداله تدريجياً بالتوحيد. وهذه هي الخطوط الرئيسية للبحث التي أعتزم اتباعها في هذا المجلد.

ولكن الدين يشتمل على عنصر أقدم وأعمق وأكثر استمرارية من مجرد الاعتقاد في إله أو آلهة، بل وحتى من العادة أو الممارسة المتمثلة في استرضاء الأشباح أو الآلهة وإرضائهم بالهدايا والطقوس. وهذا العنصر هو مفهوم حياة الموتى. وعلى هذا الاعتقاد البدائي في مثل هذه الحياة، يرتكز الدين في نهاية المطاف. والواقع أن هذا الاعتقاد هو أقدم ما ظهر في الدين، لأن هناك قبائل متوحشة ليس لديها ما يستحق أن نسميه آلهة، ولكنها لا تزال لديها ديانة أو عبادة لأقاربها الموتى. وهو أيضاً أحدث ما بقي في الدين؛ ذلك أن العديد من الروحانيين المعاصرين، الذين توقفوا عن الإيمان بالله، أو عن قبول أي شكل آخر من أشكال ما وراء الطبيعة، ما زالوا مع ذلك يؤمنون بوجود الموتى باستمرار، وبإمكانية التواصل بينهم وبين الأحياء. وهذا، إذن، وهو أقدم مظاهر الفكر الديني، والذي يستمر طوال الوقت كواحدة من أبرز سماته التي لا يمكن كبتها، يجب أن يلفت انتباهنا لبعض الوقت قبل أن ننتقل إلى أصل تعدد الآلهة.

ولكن الاعتقاد في استمرار الحياة ذاتها، مثل كل الأفكار البشرية الأخرى، قد مر بطبيعة الحال بمراحل مختلفة من التطور. وبطبيعة الحال، تتداخل المراحل بشكل غير محسوس مع بعضها البعض؛ ولكنني أعتقد أننا نستطيع في المجمل أن نميز بدقة مقبولة بين ثلاث طبقات رئيسية من الرأي فيما يتصل باستمرار وجود الموتى. ففي الطبقة الأولى أو الأدنى، لا يُدرَك الفرق بين الحياة والموت إلا بشكل سيئ أو

غير كافٍ؛ حيث يُنظَر إلى الموتى على أنهم ما زالوا أحياء جسديًا. وفي الطبقة الثانية، يُعترف بالموت كحقيقة مادية، ولكن يُنظَر إليه على أنه مؤقت فقط؛ وفي هذه المرحلة، يتطلع الناس إلى قيامة الجسد، ويتوقعون الحياة في العالم القادم. وفي الطبقة الثالثة، يُنظَر إلى الروح باعتبارها كيانًا متميزًا عن الجسد؛ فهي تبقى بعده في شكل منفصل وغامض إلى حد ما: بحيث لا يكون الرأي بشأن المستقبل المناسب لهذه المرحلة هو الاعتقاد بقيامة الجسد، بل الاعتقاد بخلود الروح. لقد تم الخلط بين هذين المفهومين في كثير من الأحيان من قبل المفكرين المسيحيين المنحرفين وشبه الفلسفيين؛ ولكن في جوهرهما هما متميزان تمامًا ولا يمكن التوفيق بينهما.

وسوف أقوم بدراسة كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على حدة.

أولاً، فيما يتصل بمستوى الفكر البدائي المبكر حيث كانت فكرة الحياة والموت غير واضحة المعالم إلى حد كبير. ففي نظرنا اليوم يبدو من الغريب أن نتصور أن الناس لا ينبغي لهم أن يتبنوا مفهوم الموت باعتباره حدثاً ضرورياً في كل تاريخ بشري فردي. ولكن هذا يرجع إلى أننا لا نستطيع بسهولة أن نتجاهل كل تفكيرنا السابق، ولا نستطيع أن نلقي بأنفسنا بصراحة إلى حالة الهمجي. لقد اعتدنا على العيش في مجتمعات كبيرة مكتظة بالسكان، حيث تكون الوفيات متكررة، وحيث الموت الطبيعي على وجه الخصوص هو حدث يومي. لقد تركنا وراءنا تاريخاً طويلاً وواسع النطاق من العصور السابقة؛ ونحن نعلم أن الزمن التاريخي كان مشغولاً بحياة العديد من الأجيال المتعاقبة، وكلها ماتت الآن، ولم يتجاوز أي منها في المتوسط حداً ثابتاً معيناً يبلغ سبعين أو ثمانين عاماً. وبالنسبة لنا، فإن مفهوم الحياة البشرية باعتبارها فترة قصيرة نسبياً، محدودة بمدة معروفة، وتنتهي بشكل طبيعي عند نهاية ثابتة نسبياً، هو مفهوم شائع ومألوف.

ولكننا ننسى أن كل هذا بالنسبة للمتوحش يختلف تمامًا. فهو يعيش في مجتمع صغير متناثر، حيث الموت نادر، وحيث الموت الطبيعي نادر نسبيًا. يُقتل أغلب أفراد شعبه في الحرب، أو تلتهمهم الوحوش البرية، أو يهلكون في حوادث أثناء الصيد، أو بسبب العطش أو الجوع. يغرق بعضهم في الأنهار المتدفقة، وتسحقهم الأشجار أو الحجارة المتساقطة، ويتسممون بالفواكه القاتلة، أو تلدغهم الثعابين السامة، ويذبحهم الزعماء، أو يُقتلون في مشاجرات مع أفراد قبيلتهم. وفي أغلب الحالات، هناك سبب واضح ومعلن للوفاة؛ وهذا السبب يرجع عمومًا إما إلى يد الإنسان أو إلى حيوان آخر؛ أو في حالة عدم وجوده، إلى جهد نشط ظاهري من الطبيعة الخارجية، مثل الفيضانات، أو البرق، أو حرائق الغابات، أو الانهيارات الأرضية والزلازل. والموت بسبب المرض نادر نسبيًا؛ والموت بسبب التحلل الطبيعي غير معروف تقريبًا أو غير معترف به.

إن المتوحش لا يملك ماضيًا تاريخيًا عظيمًا خلفه. فهو لا يعرف إلا القليل من أفراد قبيلته، ولا يعرف إلا القليل من أسلافهم إلا من يتذكرهم والداه. إن منظوره للماضي محدود للغاية. فلا شيء يمكنه من تكوين تلك الفكرة الواسعة عن ضرورة الموت وثباته، وهي الفكرة المألوفة لنا. إن حقيقة أن "كل البشر فانون" هي حقيقة بديهية بالنسبة للإنسان المتحضر؛ أما بالنسبة للمتوحشين الأوائل فقد كانت لتبدو لهم مفارقة مذهلة. فلا يموت إنسان قط في تجربته الخاصة؛ فمنذ أن أصبح قادرًا على التذكر، ظل موجودًا كجزء دائم من كل مغامراته. ولقد عاش أغلب أفراد أسرة المتوحش معه باستمرار. وكان الموت حدثًا نادرًا ومثيرًا للدهشة. وعلى هذا فإن فكرة الموت كنهاية حتمية لا تنشأ على الإطلاق؛ بل إن فكرة الموت كنتيجة لأسباب طبيعية تبدو غير مقبولة على الإطلاق. فعندما يموت متوحش، فإن أول سؤال يطرح نفسه هو "من قتله؟" إذا قُتل في الحرب، أو التهمه نمر، أو مزقه فيل، أو غرق في نهر أثناء فيضانه، أو قُتل على يد أحد أفراد القبيلة، فإن السبب واضح. وإذا لم يكن أي من هذه الأسباب، فإن السبب في الوفاة عادة ما يكون السحر.

إن مجرد حقيقة الموت أقل يقينًا بين البشر البدائيين أو المتوحشين منها بين المجتمعات المتحضرة. فنحن نعلم كقاعدة عامة وبيقين شبه مطلق ما إذا كان الرجل المريض أو الجريح ميتًا أو حيًا في لحظة معينة. ومع ذلك، فحتى بيننا، تقع حالات من الشك في كثير من الأحيان. ففي بعض الأحيان نتردد فيما إذا كان الرجل أو المرأة ميتًا أو مغمى عليه. فإذا استمر قلبه في النبض، فإننا نعتبره حيًا؛ وإذا لم نستشعر أدنى خفقان في نبضه، فإننا نعتبره ميتًا. ولكن حتى علمنا الطبي المتقدم كثيرًا ما يرتبك في حالات غامضة للغاية من التصلب؛ وقد وقعت أخطاء من وقت لآخر، مما أدى إلى دفن الموتى قبل الأوان في بعض الأحيان. إن التمييز بين الموت الحقيقي والظاهر ليس بالأمر السهل دائمًا. فقد فتح فيزاليوس، عالم التشريح البارز، جثة مزعومة وجد فيها القلب لا يزال ينبض؛ كما اعتُبر القس بريفوست، الذي أصيب بسكتة دماغية، ميتًا، لكنه استعاد وعيه مرة أخرى تحت مشرط الجراح. ومن الطبيعي أن تحدث مثل هذه الحالات من الشك بين المتوحشين أكثر بكثير من حدوثها بين الناس المتحضرين؛ أو بالأحرى، كما قد يتصور المتوحش، لا أحد يعرف في كثير من الأحيان متى قد ينهض شخص متجمد بلا حراك ويستأنف نشاطه المعتاد. اعتاد المتوحش أن يرى رفاقه مذهولين أو فاقدين للوعي بسبب الضربات والجروح والحوادث الأخرى التي تسبب فيها العدو أو الوحوش البرية أو العوامل الطبيعية أو غضب أفراد قبيلته؛ ولا يعرف أبدًا متى قد يزول تأثير مثل هذه الحوادث، وقد يستعيد الرجل حيويته العادية. وكقاعدة عامة، يحتفظ المتوحش بجثث أصدقائه ويعتني بها طالما بقيت أي فرصة لشفائهم النهائي، وغالبًا (كما سنرى في الجزء الثاني) لفترة أطول بكثير.

"ومرة أخرى، لكي نفهم هذا الموقف الذي اتخذه الإنسان البدائي تجاه جرحاه ومصابيه وموتاه، فلابد أن نلقي نظرة عابرة على علم النفس البدائي. ففي وقت مبكر للغاية من تاريخ العقل البشري، على حد اعتقادي، بدأ بعض التلميحات الغامضة لمفهوم الروح تسود البشرية. ونحن نعلم الآن أن الوعي هو وظيفة من وظائف

الدماغ؛ وأنه يتقطع أثناء النوم، عندما يستريح الدماغ، وأيضًا أثناء أوقات الاضطراب الشديد في الجهازين العصبي والدوري، كما يحدث عندما نغمى علينا أو ندخل في حالة غيبوبة، أو نصاب بصدمة، أو نسقط في حالة من التصلب أو الصرع. ونحن نعلم أيضًا أن الوعي يتوقف تمامًا عند الموت، عندما يتوقف الدماغ عن العمل؛ وأن إمكانية استمراره تنقطع تمامًا بسبب حقيقة التحلل. ولكن هذه الحقائق، التي ما زالت غير مفهومة تمامًا أو مرفوضة بتهور من قبل العديد منا، كانت مجهولة تمامًا للإنسان البدائي. كان عليهم أن يصوغوا لأنفسهم بأفضل ما في وسعهم فرضية عمل غامضة عن العقل البشري، من البيانات التي اقترحت نفسها في مجرى الحياة العادي؛ وكانت الفرضية التي صاغوها تقريبية إلى حد ما عن الروح أو النفس، والتي لا تزال مقبولة ضمناً من قبل الغالبية العظمى من الجنس البشري.

إن كل إنسان، طبقاً لهذه الفرضية، يتألف من نصفين أو جزأين، أحدهما مادي أو جسدي، والآخر غير مادي أو روحي. النصف الأول، الذي يسمى الجسد، مرئي وملموس؛ أما النصف الثاني، الذي يسمى الروح، فيسكن داخل الجسد، وهو غير مرئي أو خفي إلى حد ما. وهو مرتبط إلى حد كبير بالتنفس؛ ومثله كمثل التنفس، يُعتقد غالباً أنه يترك الجسد عند الموت، بل ويرحل في شكل حر ويعيش حياته الخاصة في مكان آخر. وبما أن هذا الاستقلال المفترض للروح عن الجسد يكمن في الأساس ذاته لجميع الأشباح والآلهة، وبالتالي الدين نفسه، فقد أعذروني إذا استرسلت في الحديث عن أصله.

في الواقع، بقدر ما نعلم من الأدلة المباشرة الجديرة بالثقة، لم يتم إثبات وجود عقل أو وعي أو "روح" بمعزل عن الجسد بشكل مرضٍ. لكن البدائي استمد اعتقاده، على ما يبدو، من عدد كبير من التلميحات والإيحاءات المتزامنة، والتي بدا له مثل هذا الفرض النتيجة الحتمية لها. أثناء النهار كان مستيقظًا؛ وفي الليل كان نائمًا؛ ومع ذلك حتى في نومه، بينما كان جسده ملتفًا على الأرض بجانب نار المخيم، بدا وكأنه يصطاد

أو يقاتل، أو يمارس الحب أو يحتفل، في مكان آخر. ما هو هذا الجزء منه الذي يتجول بعيدًا عن الجسد في الأحلام؟ ماذا، إن لم يكن الروح أو النفس الذي اعتبره بطبيعة الحال شيئًا مميزًا ومنفصلًا؟ وعندما يموت رجل، ألا تختفي الروح أو النفس منه؟ عندما يصاب بجروح خطيرة، ألا تختفي لفترة من الوقت، ثم تعود مرة أخرى؟ في نوبات الإغماء، أو في حالة التخشب، وفي حالات غير طبيعية أخرى، ألا تترك الجسم، أو حتى تلعب به حيلًا غريبة؟ لا أحتاج إلى متابعة هذا الخط الفكري، الذي تم تطويره بالكامل بالفعل من قبل السيد هربرت سبنسر والدكتور تايلور. يكفي أن نقول إنه منذ تاريخ مبكر جدًا، بدأ الإنسان البدائي في اعتبار الروح أو الحياة شيئًا مرتبطًا بالتنفس، شيئًا يمكنه الابتعاد عن الجسم بإرادته والعودة إليه مرة أخرى، شيئًا منفصلًا ومتميزًا، ومع ذلك فهو ضروري للشخص، يُنظر إليه بشكل غامض للغاية على أنه غير مادي أو غامض، ولكن بشكل أكبر في فترة لاحقة مقارنة بفترة سابقة.

* لقد وردت مسألة الروح المنفصلة مؤخرا
معاملة كاملة جدًا من السيد فريزر في The Golden Bough، و
السيد سيدني هارتلاند في أسطورة بيرسيوس.

إن هذه الأرواح (التي غادرت الجسد في النوم أو الغيبوبة) عاشت بعد الموت، ثم ظهرت مرة أخرى للناجين. وفي الأحلام، كثيراً ما نرى أشكال رجال أحياء؛ ولكننا نرى أيضاً صور الموتى بوضوح خاص. وكل شخص على دراية بالظهور المتكرر في النوم لأصدقاء حميمين أو أقارب متوفين حديثاً. وأعتقد أن هذه الظهورات تتكرر بشكل خاص خلال الأشهر القليلة الأولى من الحزن، ثم تضعف تدريجياً في تواترها ووضوحها مع مرور الوقت. وأعتقد أن السبب وراء كلتا المجموعتين من الظواهر هو هذا: إن البنى العصبية، التي اعتادت أن تحفزها في مجموعات معينة من خلال الاتصال بالصديق المتوفى، تفتقد تلقائياً التحفيز المعتاد لها؛ ولأنها في حالة عالية التغذية وغير مستقرة، فهي مستعدة بشكل خاص للخضوع للتحفيز المثالي أثناء النوم، كما نعلم

أن هذه هي الحال مع مراكز عصبية أخرى جيدة التغذية وغير مستغلة بشكل كافٍ. أو بعبارة أقل مادية، فإن الدماغ يقع بسهولة في إيقاع مألوف. ولكن بمرور الوقت تضمر القنوات بسبب عدم الاستخدام؛ وتختفي العادة؛ وتصبح أحلام الصديق الميت نادرة أكثر فأكثر. ومع ذلك، يقبل المتوحش عالم الأحلام على أنه حقيقي تقريبًا مثل عالم العرض الحسي. وبينما يتصور الأمر لنفسه، تكون روحه قد غادرت في رحلاتها بدون جسدها، وهناك التقت وتحدثت مع أرواح الأصدقاء أو الأقارب الموتى.

"يجب أن نتذكر أيضًا أن حالات الغيبوبة والإغماء وغيرها من الحالات العصبية غير الطبيعية أو الغيبوبة تحدث في الحياة المتوحشة أكثر بكثير مما يحدث في الحياة المتحضرة. غالبًا ما يُجرح المتوحش ويفشل بسبب فقدان الدم؛ أو يجرح قدمه بحجر، أو يموت نصف ميت بواسطة وحش بري؛ أو يصوم لفترة طويلة وكثيرًا، عن عمد، أو يهبط إلى حافة الموت جوعًا؛ وبالتالي فهو على دراية، سواء في حالته الخاصة أو في حالة الآخرين، بكل أنواع اللاوعي والهذيان أو الضلال. كل هذه الحقائق تظهر في ذهنه كغياب الروح عن الجسد، والتي هي بالتالي بالنسبة له تجربة مألوفة وكل يوم تقريبًا.

"ومن هنا فإن المتوحش لا يستطيع أن يتوصل إلى أي تصور واضح للموت، وخاصة الموت الناجم عن أسباب طبيعية. فعندما يعود أحد أفراد القبيلة إلى منزله مصاباً بجروح بالغة وفاقداً للوعي، فإن الفكرة المباشرة التي تخطر على بال المتفرج لابد وأن تكون أن الروح قد رحلت وهجرت الجسد. ولا يستطيع أن يحدد المدة التي قضتها الروح في الجسد؛ ولكن محاولاته الأولى تتجه نحو حثها أو إجبارها على العودة مرة أخرى. ولهذا الغرض، كثيراً ما يخاطبها بالصلوات والتوسلات، أو يتوسل إليها بالصراخ العالي والإقناع. ولا يستطيع أن يميز بين غيابها المؤقت ورحيلها النهائي. وكما يقول السيد هربرت سبنسر، فإن عواقب الضربات أو الجروح تتداخل مع الموت في مراحل غير محسوسة. "الآن عاد الرجل المصاب إلى نفسه لفترة وجيزة،

ولم يرحل مرة أخرى؛ والآن، بعد أن عاد إلى نفسه فقط بعد غياب طويل، هجر جسده على الفور لفترة غير محددة. وأخيرًا، بدلاً من هذه العودة المؤقتة، التي تليها غياب نهائي، حدثت أحيانًا حالات حيث تسببت ضربة عنيفة في غياب مستمر منذ البداية؛ ولم يعد الذات الأخرى على الإطلاق.

في واقع الأمر، خلال هذه المراحل المبكرة، لم تكن فكرة الموت كما نعرفها موجودة ولا تحدث بأي شكل من الأشكال. لا يزال هناك متوحشون لا يبدو أنهم يدركون عالمية الموت وضرورته - بل يعتبرونه على العكس من ذلك شيئًا غريبًا وغير طبيعي، شيئًا يرجع إلى مكائد الأعداء أو السحر. بالنسبة للبشر الأوائل، كان من المتوقع مسبقًا، من الناحية النفسية، أن ينظروا إلى الموت على هذا النحو؛ لم يتمكنوا من تكوين أي مفهوم آخر دون معرفة أوسع بكثير مما لديهم من وسائل امتلاك. بالنسبة لهم، يجب أن يبدو الرجل الميت دائمًا رجلاً غادرته روحه أو أنفاسه أو ذات أخرى، لكنه قد يعود مرة أخرى إلى الجسد في أي وقت.

إن كل مرحلة من المراحل الثلاث للفكر التي تم التمييز بينها أعلاه لها طريقتها المناسبة في التخلص من جثث الموتى. والطريقة المناسبة لهذه المرحلة الأولى هي حفظ الجثة، والتي تنتهي في النهاية بالتحنيط.

إن أبسط أشكال هذا الأسلوب للتخلص من الجثة يتلخص في الاحتفاظ بها في كوخ أو كهف حيث تسكن الأسرة، مع الأحياء. وهكذا كانت امرأة من غينيا الجديدة تحتفظ بجثة زوجها في كوخها حتى تجف من تلقاء نفسها، وكانت تقبلها وتقدم لها الطعام كل يوم، وكأنها حية. وهناك العديد من الحالات المشابهة التي وردت في تقارير من أماكن أخرى. إن الحفاظ على الأكواخ أمر شائع بين أدنى الأعراق. ولكن في كثير من الأحيان، وبسبب الانزعاج الواضح من العيش بالقرب من جثة ميتة، فإن الجثة في هذه المرحلة من التفكير تُعرض علناً في شجرة أو على منصة أو في بعض الظروف الأخرى حيث لا يمكن أن يلحق بها أي ضرر. ومن بين الأستراليين وسكان جزر

أندامان، الذين، مثل الزنوج في غينيا الجديدة، يحافظون لنا على نوع مبكر للغاية من العادات البشرية، فإن الجثة غالباً ما تُعرض على سقالة خشنة مرتفعة. ويتبع بعض الشعوب البولينيزية والميلانيزية نفس الممارسة. ويعرض الدياك والكيان موتاهم في الأشجار. "ولكن في أمريكا،" كما يقول السيد هربرت سبنسر، "يعتبر عرض الجثث على المسارح المرتفعة هو الأكثر شيوعًا. يتبنى أهل داكوتا هذه الطريقة؛ وفي وقت من الأوقات كانت هذه الممارسة من نصيب الإيروكوا؛ ويشير كاتلين، في وصفه لأهل ماندان بأنهم يمتلكون سقالات "يعيش عليها موتاهم كما يسمونها"، إلى أنهم بذلك يُبقون بعيدًا عن طريق الذئاب والكلاب؛ ويقول سكولكرافت نفس الشيء عن أهل تشيبيوا". وبصفة عامة، في أدنى درجات الثقافة، يحفظ المتوحشون جثث موتاهم فوق الأرض، إما في المنزل نفسه، أو على مقربة منه. وسنعود لاحقًا إلى هذه الممارسة الفريدة.

هناك اختلاف طفيف في هذه الطريقة، وهو غريب جدًا على السلالة البحرية، وهو ما وصفه السيد HO Forbes بين سكان تيمورلاوت الأصليين:

"يوضع الجثمان في جزء من براو يتناسب مع طول الفرد، أو داخل شرائح من غابا غابا، أو سيقان نخيل الساغو مثبتة معًا. إذا كان شخصًا ذا شأن، مثل أورانغ كايا، يتم صنع نعش مزخرف ومزين على شكل براو خصيصًا. ثم يتم تغليفه بالقطن، ووضعه إما على قمة صخرة على حافة البحر على مسافة قصيرة من القرية، أو على منصة عالية من الأكوام أقيمت على الشاطئ 051 حول علامة المد والجزر. على الجزء العلوي من غطاء التابوت أقيمت أعلام طويلة، وشخصيات رجال يعزفون على الأجراس، ويطلقون النار، ويلوحون بعنف لإخافة التأثيرات الشريرة من النائم. في بعض الأحيان يتم نصب المنصة على الشاطئ فوق علامة المد العالي، وبالقرب منها يتم غرس خيزران طويل ممتلئ بخمر النخيل في الأرض؛ "ويعلقون فوق سياج من الخيزران حزمًا من البطاطا الحلوة لاستخدامها في علاج الرجل الميت. وعندما يتحلل

الجسد تمامًا، يقوم ابنه أو أحد أفراد الأسرة بإخراج الجمجمة ووضعها على منصة صغيرة في منزله، في الجملون المقابل للمدفأة، بينما لدرء الشر عنه يحمل معه عظام الأطلس والمحور لعنقها في حامل سيري أو حامل سيري الخاص به."

إن هذه الرواية المثيرة للاهتمام مليئة بالدلالات التي سندرك معناها الكامل فيما بعد. ولابد من الإشارة بشكل خاص إلى استخدام الجمجمة وعظمة التعويذة لأهميتها اللاحقة. فالجماجم تشكل عنصرًا أساسيًا في تاريخ الدين.

إن مثل هذه الحالات تنتقل بسهولة إلى ممارسة التحنيط، وخاصة في المناخات الجافة أو الصحراوية. ولكن حتى في بلد استوائي رطب مثل غينيا الجديدة، وجد دالبرتيس في حظيرة على ضفاف نهر فلاي مومياواتين، تم تحضيرهما بشكل مصطنع، كما اعتقد، بإزالة اللحم، وحفظ العظام وحدها مع الجلد لتغطيتها. وهنا لدينا على ما يبدو تصور واضح للموت باعتباره تغييراً خطيراً، يختلف عن مجرد غياب مؤقت. وعلى نفس المنوال، يقول السيد تشالمرز عن شعب كوياري في نفس الجزيرة: "إنهم يعاملون موتاهم بهذه الطريقة. حيث يتم إشعال النار ليلاً ونهاراً على الرأس والقدمين لشهور. ثم يتم إزالة الجلد بالكامل عن طريق الإبهام والسبابة، ثم يتم لصق العصارة على وجه وجسم الشخص الذي يقوم بعملية التحنيط (والد أو زوج أو زوجة المتوفى). وتجفف النار اللحم تدريجياً، بحيث لا يتبقى سوى الهيكل العظمي". لكن التحنيط يقتصر في معظمه على المناخات الجافة، حيث يتم إجراؤه بشكل مصطنع حتى مرحلة متطورة للغاية من الحضارة، كما نعلم جيدا في بيرو ومصر.

إنني أود أن أشير هنا إلى أن هناك عادة شائعة تتمثل في الحفاظ على رأس أو يد أحد الأقارب المتوفين، بل وحتى حملها معه. وقد سبق أن ذكرنا هذه العادة في حالة تيمورلاوت؛ كما أنها تحدث كثيراً في أماكن أخرى. وعلى هذا فإن السيد تشالمرز يقول عن طفل من غينيا الجديدة: "سوف يُغطى ببوصتين من التربة، وسوف يراقبه

الأصدقاء بجوار القبر؛ ولكن في النهاية سوف يتم الحفاظ على الجمجمة والعظام الأصغر حجماً وارتدائها من قبل الأم". وعلى نحو مماثل، في جزر أنداMان، حيث نلمس ربما أدنى طبقة قائمة من المشاعر المتوحشة، "قد نرى الأرامل وقد علقت جماجم شركائهن المتوفين حول أعناقهن". وسوف ننتبه في وقت لاحق إلى الحفاظ على الرأس بشكل خاص، حتى عندما يتم أكل بقية الجسم أو دفنه: فالرؤوس المحفوظة بهذه الطريقة عادة ما يتم اللجوء إليها باعتبارها أوراكل، وكثيراً ما يتم التعامل معها باعتبارها موطناً للروح. وقد جمع السيد هربرت سبنسر العديد من الأمثلة المشابهة، مثل حالة سكان تسمانيا الذين ارتدوا عظاماً من جمجمة أو ذراع قريب متوفى. ولقد لاحظ بحق أن "المفهوم البدائي للموت باعتباره إحياءً معلقًا لفترة طويلة يبدو أنه كان واضحًا بشكل خاص في جميع أنحاء العالم الجديد؛" وبالتالي نجد أن عادات هذا الطابع شائعة بشكل خاص بين المتوحشين الأمريكيين. وعلى هذا، وللاستعانة مرة أخرى بمخزونه العظيم، حمل الكري عظام وشعر الأقارب الموتى لمدة ثلاث سنوات؛ بينما قام الكاريبيون والعديد من قبائل غيانا بتوزيع العظام النظيفة بين أقارب المتوفى. وفي جزر ساندويتش أيضًا، حمل أحفاد عظام الملوك والزعماء، تحت الانطباع بأن الموتى يمارسون الوصاية عليهم.

في هذه المرحلة من الفكر، يبدو لي أن الجثة الفعلية هي التي يُعتقد أنها لا تزال على قيد الحياة؛ الجثة الفعلية التي تظهر في الأحلام؛ والجثة الفعلية التي يتم تغذيتها وعبادتها وإرضائها بالهدايا.

إن أكل لحوم البشر في الطقوس، والذي سوف نتناوله بمزيد من التفصيل فيما بعد، يظهر في هذه الطبقة، ويستمر منها إلى مستويات أعلى. حيث يتم أكل الجسد بالكامل، مع الحفاظ على العظام؛ أو يتم إزالة اللحم والشحم، وترك الجلد؛ أو يتم أكل جزء فقط منه على نحو مقدس وبإجلال من قبل الأقارب الباقين على قيد الحياة. وسوف يتم وصف هذه العمليات أيضًا بمزيد من الدقة في الجزء التالي.

إن المرحلة الأولى تندمج تدريجياً في المرحلة الثانية، وهي مرحلة الدفن أو ما يعادلها. ويشكل دفن المومياوات أو الجثث في الكهوف حلقة انتقالية. والواقع أن وضع الجثة أو تركها في الكهوف يشبه إلى حد كبير وضعها في سقيفة أو كوخ أو مأوى. وكان سكان الكهوف من الفيدا يتركون الرجل الميت في الكهف حيث يموت، ثم يهاجرون هم أنفسهم إلى كهف آخر. ومع ذلك، فقد استمر الدفن في الكهوف في وقت متأخر لدى العديد من القبائل أو الأمم التي تجاوزت عادة السكن في الكهوف لقرون. وكان الدفن في الكهوف شائعاً بين الهنود في أميركا الجنوبية؛ وفي بيرو افترض تطوراً كبيراً في التحنيط. ولا يشكل صنع كهف أو سرداب اصطناعي للموتى إلا شكلاً مختلفاً قليلاً عن هذه العادة؛ فقد كانت شائعة في مصر، البلد الجاف الآخر حيث بلغ صنع المومياوات درجة عالية من الكمال. إن مقابر الملوك في طيبة هي أمثلة رائعة لمثل هذه الكهوف الاصطناعية، والتي تم تحويلها إلى قصور فخمة بجدران مطلية، حيث كان الملوك الموتى يقضون حياتهم تحت الأرض في وقار وكرامة. كما تنتشر مقابر الكهوف، الطبيعية أو الاصطناعية، في آسيا الصغرى وإيطاليا وأماكن أخرى.

في المرحلة الأولى، كما يمكن أن نلاحظ، يتسم موقف الإنسان تجاه موتاه بالود والمحبة. فيحتفظ بالجثة في المنزل، ويطعمها أو يعتني بها؛ ويحمل الجمجمة وكأنها شيء محبوب. ولكن في المرحلة الثانية، التي تحث على ممارسة الدفن، يصبح الخوف من الموتى أكثر وضوحًا. يخشى الناس عودة الجثة أو الشبح، ويحاولون الحفاظ عليها ضمن حدود محددة. في هذه المرحلة، يكون الاعتقاد بقيامة الجسد هو العقيدة المناسبة؛ ورغم أنه في البداية يُنظر إلى الجثة الفعلية على أنها من المرجح أن تعود إلى الناجين من الطاعون، إلا أن هذه الفكرة تفسح المجال لاحقًا، كما أعتقد، لمفهوم توأم أقل مادية أو روح.

وهنا دعونا نبدأ بالتمييز بعناية بين قيامة الجسد وخلود الروح.

لقد نشأت فكرة البعث من ممارسة الدفن، وهي الطريقة الثانية والأبسط للتخلص من رفات الموتى، وهي مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً. كما نشأت فكرة الخلود من ممارسة الحرق، وهي ابتكار أحدث وأفضل، تم اختراعه في المرحلة الثالثة من الثقافة البشرية، وهي مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً. ففي الفترة التاريخية المبكرة كانت كل الأمم الأكثر تقدماً وتحضراً تحرق موتاها، وبالتالي تقبل فكرة الخلود الأكثر مثالية ورقياً. ولكن الأمم الأوروبية الحديثة تدفن موتاها، وبالتالي تقبل، على الأقل اسمياً، فكرة البعث الأكثر خشونة وفظاظة. وأقول اسمياً، لأن تأثير أفلاطون وغيره من المفكرين القدماء، فضلاً عن الأفكار الأجداد الباقية، على الرغم من العقائد والصيغ، جعل أغلب الأوروبيين المتعلمين يؤمنون حقاً بالخلود، حتى عندما يتخيلون أنفسهم مؤمنين بالبعث. ومع ذلك، فإن الإيمان بالقيامة هو الإيمان المعلن والمعترف به في العالم المسيحي، والذي يعلن نفسه على مستوى أدنى في هذا الصدد من الشعوب المتحضرة في العصور القديمة.

إن أقدم طريقتين للتخلص من جثث الموتى هي بالتأكيد الدفن. وبما أن هذه الحقيقة قد تم التشكيك فيها مؤخرًا، فسأجازف بتوسيع نطاق الأدلة لصالحها قليلاً. من حيث الوقت، يعود الدفن بالتأكيد إلى العصر الحجري الحديث، وببعض الاحتمال إلى العصر الحجري القديم. وقد نسب علماء الجيولوجيا المختصون العديد من حالات الدفن الحقيقية في الكهوف إلى الفترة الأولى من هاتين الفترتين، وهي الفترة التي لا نملك أي ضمان أكيد لوجود الإنسان على الأرض بشأنها. ولكن بما أنني لا أرغب في إدخال أي مسألة مثيرة للجدال من أي نوع في هذا العرض، فسوف أتنازل عن الأدلة على الدفن في العصر الحجري القديم باعتبارها مشكوكًا فيها، وسأكتفي بالإشارة إلى أنه في كهوف مينتون، وفقًا للسيد آرثر إيفانز، وهو من أكثر السلطات كفاءة، لدينا حالة دفن حقيقية مصحوبة ببقايا العصر الحجري الحديث من درجة من الثقافة أقدم وأبسط من أي ثقافة معروفة لنا في أي مكان آخر. وبعبارة أخرى، فمنذ أقدم بدايات العصر الحجري الحديث، كان البشر يدفنون موتاهم؛ واستمروا في

دفنهم في الكهوف أو المدافن حتى نهاية ثقافة العصر الحجري الحديث. فقد دفنوهم في تلال لونج باروز في إنجلترا؛ ودفنوهم في تلال أوهايو؛ ودفنوهم في الغابات المظلمة في نيوزيلندا؛ ودفنوهم في قلب أفريقيا المظلمة. ولا أعرف أي حالة حرق أو أي وسيلة للتخلص من الموتى، بخلاف الدفن أو ما يعادله في وقت سابق، التحنيط، بين الناس في العصر الحجري من الثقافة في أوروبا. ولم تتقدم الأجناس إلى المرحلة الثالثة، مرحلة حرق الجثث، إلا عندما تم إدخال البرونز والمعادن الأخرى. أما في أمريكا، فإن المكسيكيين كانوا من أتباع حرق الجثث.

إن الانتشار الواسع لدفن الجثث في مختلف أنحاء العالم يشكل أيضاً حجة قوية على أن أصلها بدائي نسبياً. ففي كل أنحاء العالم يدفن الناس موتاهم الآن، أو دفنوهم ذات يوم. فمن مقابر الملوك في بيكين إلى أهرامات ممفيس؛ ومن الكهوف في بيرو إلى مقابر الساموبين، نجد أن أغلب الشعوب المبكرة، ومعظم الشعوب المتوحشة، ومعظم الشعوب البدائية، كانت في الماضي أو لا تزال تمارس شكلاً أو آخر من أشكال الدفن. والدفن هو الأسلوب الشائع والعام؛ أما الحرق، والتعرض، وإلقاء الجثث في نهر مقدس، وما إلى ذلك، فهي ممارسات متفرقة واستثنائية، وفي كثير من الحالات، كما هو الحال بين الهندوس، من الواضح أنها تعود إلى أصول متأخرة، وترتبط ببعض التحسينات الحديثة نسبياً في الدين.

مرة أخرى، في كثير من الحالات أو أغلبها، لدينا أدلة إيجابية على أن العرق الذي يحرق موتاه الآن، كان يستخدمه ذات يوم لدفنهم. سبق الدفن الحرق في اليونان ما قبل البطولية، كما حدث أيضًا في إتروريا وفي لاتسيوم المبكرة. كان سكان التلال الطويلة، في أوروبا الغربية عمومًا، يدفنون موتاهم؛ أما سكان التلال المستديرة الذين خلفوهم، والذين امتلكوا درجة أعلى بكثير من الثقافة، فكانوا يحرقون جثثهم دائمًا تقريبًا. يُفترض أن الحرق كان بدائيًا في الهند؛ لكن السيد ويليام سيمبسون، الفنان المعروف في مجلة أخبار لندن المصورة، يلفت انتباهي إلى حقيقة أن الفيدا تتحدث

بوضوح كبير عن الدفن باعتباره الطريقة المعتادة للتخلص من الجثة، بل إنها تشير حتى إلى التلة، ودائرة الحجارة المحيطة بها، والتيمينوس المقدس الذي يحيط بها. "وطبقًا لراجندرالا ميترا، الذي يحظى بتقدير الجميع في هذا الموضوع، فإن الدفن كان القاعدة في الهند حتى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر تقريبًا قبل العصر المسيحي؛ ثم جاء حرق الجثث، ودفن الرماد، واستمر هذا حتى وقت المسيح تقريبًا، عندما تم الاستغناء عن الدفن، وتم إلقاء الرماد في نهر مقدس. لذا، أعتقد أنه إلى أن يتم تقديم المزيد من الأدلة الإيجابية من الجانب الآخر، يمكننا أن نكتفي باستنتاجنا العام بأن الدفن هو أقدم وأكثر الطرق شيوعًا ووحشية للتخلص من بقايا الموتى بين البشر بعد الاعتراف العام بالموت كحالة إيجابية. ربما ظهرت هذه الطريقة في فترة مبكرة، عندما كان البشر لا يزالون نوعًا واحدًا متجانسًا؛ وقد انتشرت وفقًا لذلك في جميع أنحاء العالم، حتى إلى أبعد الجزر المحيطية."

ولكن ما هو أصل هذه العادة الهمجية المثيرة للاشمئزاز، والتي تثير كل المشاعر الإنسانية الحساسة؟ أعتقد أن السيد فريزر محق في إعادتها إلى الرعب الذي يشعر به الأحياء من أشباح الموتى (أو بالأحرى جثثهم في البداية)، والخوف من أن تعود لتصيب أبناء قبيلتهم الناجين بالوباء أو الرعب.

في بحثه الرائع عن "بعض عادات الدفن كمثال على النظرية البدائية للروح"، يشير السيد فريزر إلى أن بعض قبائل البشر الأوائل كانت تولي اهتماماً كبيراً للموتى، ليس من باب العاطفة بقدر ما كان من باب الرعب الأناني. كانت أشباح أو جثث الموتى تطارد الأرض في كل مكان، ما لم يتم حصرها بشكل مصطنع في حدود، وتجعل نفسها غير سارة للغاية لأقاربها الأحياء. لمنع هذا، توصلت الفلسفة البدائية البسيطة في مرحلتها الثانية إلى العديد من الأساليب. والأكثر شيوعًا هو دفن الموتى - أي وضعهم في حفرة عميقة، وتغطيتهم بكومة ضخمة من التراب، والتي تحولت الآن للأسف في البلدان المتحضرة إلى كومة شكلية، ولكنها كانت في الأصل بحجم وكرامة

تلة. كان الهدف من تكديس هذه الكومة الضخمة من التراب هو حبس الشبح (أو الجثة)، الذي لم يكن بإمكانه بسهولة تحريك مثل هذه الكتلة الضخمة من المادة. في واقع الأمر، كان الرجال يدفنون موتاهم للتخلص منهم بشكل جيد، ولمنع عودتهم إلى النور لإزعاج الناجين.

ولنفس السبب كانت الحجارة الثقيلة تُكدس على جثث الموتى. وفي أحد الأشكال، تحولت هذه الحجارة في النهاية إلى كومة من الحجارة؛ ولأن أشباح القتلة وضحاياهم تميل إلى أن تكون قلقة بشكل خاص، فإن كل من يمر بقبورهم في شبه الجزيرة العربية وألمانيا وأسبانيا ملزم بإضافة حجر إلى الكومة المتنامية من أجل حبسها. وفي شكل آخر، وهو الحجر الكبير الذي يُدحرج فوق الجثة مباشرة لتثبيتها بكتلتها، تطور هذا الوزن الثقيل إلى شواهد القبور الحديثة. وفي عصرنا، تطورت شواهد القبور إلى مجرد أدب بعد الوفاة، وعادة ما تُصنع للقيام بواجب كسجل لاسم وفضائل المتوفى التي لا تُضاهى (من أجل من، لا شيء جيد)؛ ولكن في الأصل لم تكن أكثر من صخرة كبيرة ثقيلة، كان المقصود منها حبس الشبح، ولم تكن أي شيء سوى التشريف في القصد والوظيفة.

ومرة أخرى، تذهب بعض الأمم إلى أبعد من ذلك في مساعيها لمنع الشبح (أو الجثة) من التجوال. يقول جالتون إن جثة دامارا، بعد أن يتم خياطتها في جلد ثور قديم، تُدفن في حفرة، ويقفز المتفرجون إلى الخلف وإلى الأمام فوق القبر لمنع المتوفى من النهوض منه. وفي أمريكا، يربط التوبيس جميع أطراف الجثة، "حتى لا يتمكن الرجل الميت من النهوض، ويصيب أصدقائه بزياراته". وقد تقوم حتى بتحويل مجرى النهر، كما يلاحظ السيد فريزر، بدفن الرجل الميت بأمان في قاعه، ثم تسمح للتيار بالعودة إلى مجراه. وهكذا تم منع ألاريك في قبره من المزيد من إيذاء البشرية؛ وهكذا وجد الكابتن كاميرون أن قبيلة من سكان وسط أفريقيا أجبرت زعمائها المتوفين على "التوقف عن إزعاج الناس". في بعض الأحيان، يحيط بالقبر سياج مرتفع للغاية

بحيث لا يتمكن الميت من عبوره حتى لو قفز راكضًا؛ وفي بعض الأحيان يتخذ الناجون الاحتياطات الحكيمة فيثبتون الجثة بإحكام في التابوت، أو يكسرون العمود الفقري لصديقهم، أو حتى -ولكن هذه حالة متطرفة- يقطعونه إلى أشلاء. في إنجلترا المسيحية، كان يتم منع البائس البائس الذي دفعه البؤس إلى الانتحار من التجوال في إزعاج الأتباع عن طريق دفنه مع غرس عمود في جسده بوحشية. وعلى نحو مماثل، اعتاد الأستراليون قطع إبهام العدو المقتول حتى لا يتمكن من سحب القوس؛ وكان اليونانيون معتادين على قطع أطراف ضحاياهم من أجل عجزهم عن مواصلة القتال. وسوف نرى هذه الحالات مضيئة للغاية عندما نأتي إلى فحص أصل ومعنى حرق الجثث.

إن الدفن، إذن، هو ببساطة وسيلة بطبيعتها يستخدمها الأحياء لحماية أنفسهم من الميول الشريدة للموتى الفعليين. ولسبب خفي، كان الغالبية العظمى من البشر في كل العصور يخافون بحماقة من لقاء أرواح الموتى. وكانت رغبتهم الكبرى ليست رؤية هؤلاء الزوار الفريدين، بل تجنب رؤيتهم؛ ولهذا الغرض اخترعوا أولاً الدفن، ثم حرق الجثث.

إن المفهوم الشائع في العصر الحديث للشبح هو بالتأكيد شكل غير مادي أو ظلي، يمكن رؤيته ولكن لا يمكن لمسه، والذي يحتفظ بمظهر خارجي للشكل البشري. ولكن هذه الفكرة نفسها، التي تم استيرادها في جميع أوصافنا واستدلالاتنا حول معتقدات الأشباح لدى الإنسان البدائي، أميل إلى الاعتقاد بأنها بعيدة كل البعد عن البدائية، وقد تأثرت إلى حد كبير بمفاهيم متأخرة جدًا مستمدة من مستوى حرق الجثث وليس الدفن في الفلسفة الدينية. بعبارة أخرى، على الرغم من أنني استخدمت كلمة "شبح" أعلاه وفقًا للاستخدام العالمي وسابقة السيد فريزر، في الإشارة إلى هذه الأهوال الخرافية للإنسان المبكر، أعتقد أن الإنسان المبكر حتى في هذه المرحلة الثانية كان يخاف من الجثة نفسها أكثر من الروح. إن الجثة هي التي

قد تعود وتلحق الأذى بالناجين. إن الجثة هي التي يجب أن تُحفظ في الأرض بوسائل مادية، والتي يجب أن تُغطى بالتراب، وتُضغط بشكل مسطح تحت حجر كبير وثقيل، وتُحرم من إبهامها ويديها وعينيها وأعضائها. صحيح أنني أعتقد أن المتوحش يفكر أيضًا في الشبح أو نظيره باعتبارهما يعودان إلى الأرض؛ لكنني أتصور أن نفسيته ليست محددة إلى الحد الذي يسمح بالتمييز بدقة بين الجثة والروح. ويبدو لي أن التمييز الدقيق بين الاثنين ينتمي إلى الفلسفة الروحانية التي تلي حرق الجثث وليس إلى الفلسفة الأولية أو المحافظة، والفلسفة الثانوية أو الدفن.

إن أي شخص ينظر إلى الأدلة التي جمعها السيد فريزر سوف يرى بنفسه أن الاحتياطات المتخذة ضد عودة الجسد المادي الفعلي أكثر من الاحتياطات المتخذة ضد عودة الشبح أو الروح. أو ربما، على وجه التحديد، لا يتم التفكير في الاثنين في هذه المرحلة المبكرة من الانفصال أو التناقض.

وإذا نظرنا إلى الوسائل التي اتخذتها أغلب الشعوب البدائية للحفاظ على الجسد بعد الموت، فوق مستوى تسمانيا، فإن حقيقة كون الجثة في حد ذاتها خالدة تصبح أكثر وضوحاً. وما زلنا في الواقع عند مستوى لا يتم فيه التمييز بشكل كافٍ بين الشبح والميت. وفي كل هذه الحالات، يُعتقد أن الجثة تستمر في العيش في القبر بنفس النوع من الحياة التي عاشتها فوق الأرض؛ ولهذا الغرض يتم تزويدها بالأسلحة والأدوات والأواني والطعام والأوعية وكل ما يلزم للحياة لمنزلها الجديد. إن استمرار وجود الجسد الواعي بعد الموت هو السمة الأساسية للمستوى الأول من الفلسفة النفسية. أولاً، تعيش الجثة في الكوخ مع أسرتها: وفي وقت لاحق، تعيش في القبر مع أسلافها.

ولكن إلى جانب هذا الاعتقاد الساذج باستمرار وجود الجسد بعد الموت، والذي يستمر حتى مرحلة اللادفن من التطور، هناك اعتقاد آخر لا يمكن التوفيق بينه وبين البعث في المستقبل. وبكل دقة، إذا كان الجسد لا يزال حياً، فلا حاجة إلى أي إحياء

خاص من هذا القبيل. ولكن الفكر الديني، كما نعلم جميعاً، لا يفخر دائماً بالفضائل الزمنية للمنطق أو الاتساق؛ والواقع أن المتوحش على وجه الخصوص لا يرتبك على الإطلاق عندما يُطلَب منه أن يتصور نفس الموضوع بطريقتين متعاكستين ومتناقضتين. فهو لا يجمع بين التناقضين في الفكر؛ بل إنه يفكر فيهما بالتناوب، أحياناً يفكر في أحدهما وأحياناً يفكر في الآخر. حتى علماء النظام المسيحي اعتادوا على الجمع بين الاعتقادات المتضاربة في البعث في المستقبل واستمرار وجود الروح بعد الموت، وذلك بافتراض أن الروح تظل في هذه الأثناء في مكان غير واضح المعالم، منفصلاً عن جسدها. مكان غامض مثل الهاوية أو المطهر أو "مكان الأرواح الراحلة". ومن غير المرجح أن يكون المتوحش أكثر دقة في هذا الأمر من أطبائنا في اللاهوت.

إن الاعتقاد السائد في المرحلة الثانية أو مرحلة الدفن هو أنه سوف تحدث في وقت ما أو آخر "قيامة عامة". ولا شك أن هذه القيامة العامة قد تطورت ببطء نتيجة للإيمان والتوقع بحدوث العديد من البعث الجزئي. ومن المفهوم أن كل جثة فردية سوف تبعث من جديد في وقت ما: لذلك فمن المعتقد أن كل الجثث سوف تبعث من جديد في لحظة معينة واحدة. وطالما استمر الدفن، فإن الإيمان بالقيامة سوف يستمر إلى جانبها، ويشكل سمة رئيسية في المفهوم الحالي للحياة المستقبلية بين الناس الذين يمارسونها.

فكيف إذن نتقدم من هذه المرحلة الثانية أو مرحلة الدفن إلى المرحلة الثالثة مع ممارستها للحرق وما يرتبط بها من عقيده خلود الروح؟

وعلى هذا النحو، كما يبدو لي. فبالإضافة إلى إخضاع الشبح (أو الجثة) بالطين والحجارة، كان من المعتاد في كثير من الحالات استخدام وسائل إقناع ورادعة أقوى في نفس الاتجاه. وفي بعض الأحيان كانت وسائل الإقناع من النوع الأكثر رقة؛ على سبيل المثال، كان يُطلب من الميت في كثير من الأحيان بلطف وحثه على البقاء

هادئًا في القبر وعدم إثارة أي مشاكل. ولكن في بعض الأحيان كانت وسائل الإقناع أقل رقة؛ فكان يُرمى الجثة غالبًا بالعصي والحجارة والجمر الساخن، من أجل إظهار له أن زياراته إلى منزله لن تكون موضع تقدير في المستقبل. ومن الواضح أن علاج الخازوق والتشويه العاديين يقومان على نفس المبدأ؛ فإذا لم يكن للرجل قدمان أو ساقان، فلن يتمكن من العودة إلى المشي مرة أخرى. ولكن التطورات الأخرى لهذه الفكرة البدائية هي قطع الرأس، وتمزيق القلب، وتقطيع الجسم إلى قطع، وصب الماء المغلي والخل على المكان الخطير الذي دفنت فيه الجثة. والآن، أعتقد أن الحرق كان في الأصل ينتمي إلى نفس الفئة من التدابير القوية ضد الأشباح أو الجثث المقاومة؛ وهذا هو الأرجح نظرًا لحقيقة أن السيد فريزر ذكره ضمن العلاجات الموصى باستخدامها في الحالات القصوى من مصاصي الدماء. وكان الغرض الأصلي منه، بلا شك، منع الجثة من العودة بأي شكل من الأشكال إلى منازل الأحياء.

ولكن ما إن يتبنى أي شعب عادة حرق الجثث كعادة منتظمة، حتى تزداد احتمالات استمرارها وانتشارها، إذا ما افترضنا أن الظروف المحيطة بكل شعب أخرى متساوية. ذلك أن ممارسة حرق الجثث أكثر صحة وسلامة من ممارسة الدفن، إلى الحد الذي يجعلها تمنح أي عرق يتبنى هذه العادة ميزة مزدوجة في الصراع من أجل البقاء، سواء في السلم أو في الحرب. ومن ثم فمن الطبيعي تماماً أن تزدهر هذه الأعراق، عندما تصادفها في مستوى معين من الثقافة، وتصادفها هذه العادة على هذا النحو الخرافي، وتتولى زمام المبادرة في الثقافة ما دامت الظروف المعاكسة لا تعوق هذه الميزة.

ولكن الخرافات وعلم النفس الزائف الذي أدى في البداية إلى ظهور فكرة استمرار الحياة بعد الموت لم يختفي بالطبع مع إدخال الحرق. ربما كان أتباع حرق الجثث البدائيون يأملون في منع عودة الجثة إلى الوجود بين الأحياء من خلال تحويل جثث موتاهم إلى رماد؛ ولكنهم لم يتمكنوا من منع عودة الشبح في أحلام الناجين؛ ولم

يتمكنوا من منع الريح التي تتنهد حول قبر الرجل الميت، والخفافيش التي ترفرف، والأصوات الغامضة التي ترعب، والشعور الدائم بوجود الجثة. ظلت جميع العوامل التي تشكل الشبح أو العائد (لاستخدام كلمة آمنة أقل عرضة لسوء الفهم) نشطة كما كانت دائمًا. ومن ثم، أعتقد أنه مع إدخال حرق الجثث، عانى مفهوم الشبح من تغيير طفيف فحسب. فقد أصبح أكثر ظلامًا، وأقل ماديًا، وأكثر نورًا، وأكثر روحانية. إن هذا المفهوم للشبح باعتباره ظلاً أو ظلاً ينتمي بشكل خاص إلى شعوب حرق الجثث. وأستطيع أن أجيب على هذا بأن "الغبي" بين الزنوج، على سبيل المثال، يُنظَر إليه باعتباره شيئاً مادياً تماماً. والأدب الكلاسيكي، أدب الإغريق والرومان الذين كانوا يحرقون الجثث، هو الذي جعلنا أكثر دراية بفكرة الشبح باعتباره ظلاً وغير ملموس. أما الأعراق التي تدفن الجثث فلديها أشباه أكثر صلابة. فعندما هرب بطرس من السجن في القدس، كان الإخوة المجتمعون يعتقدون أن هذا الشبح لابد وأن يكون "ملاكه". وكانت المرأة البيضاء التي عاشت لسنوات في قبيلة أسترالية أصلية تتحدث عنها دائماً كشبح. وبكلمة واحدة، في مرحلة دنيا من الثقافة، يُنظَر إلى الشبح باعتباره مادياً وأرضياً؛ وفي مرحلة أعلى، يُنظَر إليه باعتباره غير مادي وظليل.

"والآن، عندما يلجأ الناس إلى حرق موتاهم، فمن الواضح أنهم لن يعودوا قادرين على الإيمان بقيامة الجسد. والواقع أنني إذا كنت محقًا في النظرية التي طرحتها هنا، فإنهم يفعلون ذلك من أجل منع قيامة الجسد في لحظات غير مناسبة. ومن المؤكد أن الأمم المتحضرة، بما لديها من قوة متطورة في الإيمان بالمعجزات، قادرة على افتراض أن البحر سوف يسلم موتاها، ليس فقط، بل وأيضًا أن الجثث المحروقة أو المشوهة أو المتناثرة سوف تُجمع من جميع الأجزاء لتجميعها مرة أخرى عند القيامة. ومع ذلك، فهذا ليس الاعتقاد الساذج لدى البشر البسطاء والطبيعيين. فبالنسبة لهم، عندما تحرق جسدًا، فإنك تدمره تمامًا، هنا وفي الآخرة؛ ونحن نعلم أن التشويه والحرق كانا يستخدمان لهذا الغرض بالذات في حالة مصاصي الدماء وغيرهم من الجثث التي كان من المرغوب فيه القضاء عليها تمامًا. لقد تم إعدام

الجنود الهنود أثناء التمرد الهندي لسبب واضح وهو أن هذه الطريقة في التخلص منهم كانت تدمر الجسد والروح أيضاً، وفقاً للاعتقاد الهندوسي. إن الفكرة البشرية العادية هي أنه عندما تحرق جسداً فإنك ببساطة تدمره؛ ولهذا السبب بالذات فضل المسيحيون الأوائل الدفن على الحرق، لأنهم اعتقدوا أن ذلك يمنحهم فرصة أفضل للقيامة. صحيح أنهم سمحوا للقدرة الإلهية المطلقة أن تصنع أجساداً جديدة للشهداء الذين أحرقوا؛ ولكن بالنسبة لهم، يبدو أنهم فضلوا في المتوسط الاستمرار من جديد مع أجسادهم القديمة المألوفة.

ومن الطبيعي إذن أن تختفي بين الشعوب التي تحرق الجثث عقيدة قيامة الجسد، وحل محلها عقيدة خلود الروح. فقد تحرق الجسد، ولكن الروح تظل باقية؛ ويؤدي بقاء الروح إلى ظهور فلسفة جديدة للأشباح والأرواح الشريرة، وفكرة جديدة عن الطبيعة الداخلية للأشباح. وتدريجياً، يصبح من الممكن تصور الروح على أنها جوهر إلهي، متشابك ومسجون، كما هو الحال، في شبكات الجسد، ولا يمكن تحريرها إلا بواسطة النار، التي يُنظر إليها في النهاية على أنها صديقة وليست مدمرة في عملها على الجثة. وما كان في البداية احتياطاً ضد إعادة الجثة يصبح في النهاية واجباً تقوياً؛ وكما أن الدفن في حد ذاته، والذي كان في الأصل بمثابة احتياط أناني ضد المقالب والحيل التي قد تترتب على إعادة الجثث، أصبح في النهاية مقدساً وضرورياً إلى الحد الذي جعل الناس يتصورون أن الأشباح غير المدفونة تتجول في كل مكان، وكأنها أرخيتاس، وتتوسل للحصول على حفنة من الرمال لمنعها من التشرد بلا مأوى إلى الأبد. ولقد أصبحت الأمم التي تحرق الجثث تعتبر عملية الحرق الوسيلة المعينة لتحرير الشبح من الشباك التي تقيد الجسد، وتعتبرها واجباً مقدساً تجاه الموتى وليس احتياطاً شخصياً.

ولكن ليس هذا فحسب، بل إن هناك تصوراً غامضاً وخيالياً لعالم الظلال يختلف تمام الاختلاف عن التصور المحدد والمادي للمرحلتين السابقتين. فقد كان يُنظَر إلى

المومياء على أنها تسكن القبر، الذي كان مجهزاً ومزيناً لاستقباله مثل المنزل؛ وكان مزوداً بكل ما يلزم للاستخدام والراحة. وحتى الجسد المدفون كان مزوداً بأدوات وأدوات للشبح. أما ضروريات الظل فهي مختلفة تمام الاختلاف وأكثر ظلاً. فهو ليس في حاجة إلى أدوات أو أدوات أرضية. والأشياء التي وجدت في التلال الطويلة لأهل الدفن والتلال المستديرة لأهل حرق الجثث توضح هذا الاختلاف البدائي والبعيد المدى بشكل جيد. فالتلال الطويلة لأهل العصر الحجري مكدسة فوق مدفن؛ وهي تحتوي على قبر مكون من غرف، وهو في الحقيقة المنزل أو القصر الجوفي للجسد المدفون فيه. وكانت زوجات المتوفى وعبيده يقتلن ويدفنن معه لمرافقته في حياته الجديدة في القبر؛ "وكانت الأدوات والأسلحة وكؤوس الشرب والألعاب والحلي والحلي تُدفن مع أصحابها. وكانت الحياة في القبر كلها مادية وحقيقية مثل هذه الحياة؛ فالأشياء نفسها التي تخدم المحارب في هذا العالم ستخدمه بنفس الشكل في العالم التالي. 065 الأمر مختلف تمامًا مع التلال المستديرة لحرق الجثث في العصر البرونزي. كانت هذه التلال مكدسة حول جرة، والتي تحدد شكل التل، كما يحدد القبر ذو الغرف والجثة شكل الدفن في العصر الحجري السابق. تحتوي على الرماد وحده؛ والأدوات والأسلحة الموضوعة فيها كلها مكسورة أو محترقة بالنار. لماذا؟ لأن الشبح، كما أصبح الآن غير مادي، لم يعد بإمكانه استخدام الأسلحة أو الأواني الأرضية الصلبة. فقط أشباحها أو ظلالها يمكن أن تكون ذات فائدة لمالكها الشبح في أرض الظلال. وبالتالي فإن كل ما يحتاجه يُحرق أو يُكسر، حتى يتم إطلاق سراح شبحه وتحريره؛ والآن أصبح من المتصور أن جميع الأشياء المادية تمتلك مثل هذه الأشباح، والتي يمكن الاستفادة منها وفقًا لذلك في عالم الأرواح.

ولنلاحظ أيضاً أنه مع هذا التقدم من الجثة الباقية أو القابلة للإحياء إلى الروح الخالدة، يحدث بشكل طبيعي وضروري تقريباً تقدم مترابط من الحياة المستمرة ولكن المنعزلة في القبر إلى حياة أكثر حرية واتساعاً في عالم تحت الأرض من الأشباح والأرواح. ويتحرر الشبح ويتحرر إلى حد كبير. ويتمتع بمزيد من حرية الحركة، ويصبح

مواطناً في مجتمع منظم، غالباً ما يُنظر إليه على أنه يحكمه ملك الموتى، ومقسم إلى أماكن للمكافأة والعقاب. ولكن بينما نتظاهر نحن الأوروبيون المعاصرون بأننا من أنصار القيامة، فمن المؤكد أن مفاهيمنا الحالية عن الأشباح والأخرويات (أتحدث عن العالم بأسره، وليس عن علماء اللاهوت المدرسيين فقط) تأثرت إلى حد كبير بالأفكار المستمدة من هذه العقيدة المعاكسة. وهي العقيدة التي اعتنقها ذات يوم العديد من أسلافنا أو معظمهم، والتي تعودنا عليها منذ الطفولة في الأدب الكلاسيكي. في الواقع، في حين أن معظم الإنجليز في الوقت الحاضر يعتقدون في قيامة الجسد، فإن ما يؤمنون به في الواقع هو خلود الروح.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقضًا خطيرًا بين الفكرتين المتناقضتين، الأولى دفن أو حرق موتاك حتى لا يتمكنوا من العودة أو إزعاجك، والثانية العبادة عند قبورهم أو تقديم القرابين لأرواحهم غير المجسدة. لكن بالنسبة للعقل المتوحش فإن هذين المفهومين لا يمكن التوفيق بينهما بأي حال من الأحوال. فبينما يقفز على جثة صديقه أو والده ليحفظها في الحفرة الضيقة التي حفرها لها، فإنه يقدم لها الهدايا من الطعام والشراب، أو يذبح الحيوانات عند القبر، حتى ينعش الروح بالدم الذي يسيل إليها. والواقع أن هناك العديد من العادات الوسيطة التي تساعدنا على سد الفجوة الواضحة بين الحفاظ على الجسد المحنط باحترام، والاحتياطات الفظة المتمثلة في الدفن أو الحرق. وهكذا، في كثير من الحالات، والتي سنتناول بعضها في الفصل التالي، بعد دفن الجثة لبعض الوقت، يُستخرج الرأس من القبر ويُحفظ بعناية في مصلى العائلة، حيث يُعبد ويُعتنى به، وحيث يُلقي غالبًا نبوءات على أفراد الأسرة. ويكاد يكون غسل الرأس احتفاليًا دائمًا سمة من سمات استقبال الرأس؛ ويتكرر ذلك مرارًا وتكرارًا في حالات مختلفة، وصولًا إلى تكريس رأس حسين في القاهرة، ورأس القديس دينيس في الدير الذي يحمل نفس الاسم، وكلاهما سنشير إليه مرة أخرى في مرحلة لاحقة من بحثنا. في الوقت الحاضر، يكفي أن نقول إن الحفاظ الاحتفالي والنبوي على الرأس - الجزء الذي يرى ويتحدث ويأكل ويشرب ويستمع - هو سمة

مشتركة في جميع الاستخدامات الدينية؛ ويبدو أنه يؤدي إلى ظهور مجموعات من جماجم العائلة التي تزين العديد من الأكواخ والمصليات الوحشية؛ إن هذا المفهوم قد يكون مسؤولاً في نهاية المطاف عن التماثيل الرومانية والعديد من الصور المقلدة الأخرى للموتى، والتي لا يُمثَّل فيها سوى الرأس؛ وعندما يُنقَل إلى الضحية البشرية أو الحيوانية المقدسة (وهو نفسه، كما سنرى فيما بعد، إله مقتول)، يبدو أنه يفسر الرؤوس البشرية التي يعلقها الدياكس وغيرهم من المتوحشين حول منازلهم، وكذلك جماجم الثيران وغيرها من الحيوانات المقدسة التي تُعرَض عادةً على واجهات أماكن العبادة، والتي تُعَد آخر بقاياها هي رؤوس الثيران المنحوتة التي تملأ الميتوبس في بعض المعابد اليونانية ومعظم المعابد الرومانية. وأعترف أن الكثير من هذا لن يكون مفهومًا للقارئ في المرحلة الحالية من حجتنا: لكنني أتوسل إليه أن يضع في اعتباره مؤقتًا هذه القيمة الوهمية والتمثيلية للرأس أو الجمجمة من هذه النقطة فصاعدًا؛ وسيجد، مع تقدمه، أن معناها سيصبح أكثر وضوحًا ووضوحًا في كل مرحلة لاحقة من شرحنا.

ولابد أن أضيف أيضاً أنه بين الحفاظ الكامل على الجثة وممارسة الدفن يبدو أن هناك مرحلة وسيطة أخرى، وهي الآن نادرة نسبياً، ولكنها كانت شائعة جداً في الماضي، إذا ما حكمنا من خلال الآثار التي خلفتها وراءها. وهي المرحلة التي كان الناجون يأكلون فيها الجثة كلها أو جزءاً منها كعمل من أعمال التقوى. وسوف نتناول هذه الممارسة الغريبة والمثيرة للاشمئزاز بمزيد من التفصيل عندما نصل إلى المشكلة الغامضة المتمثلة في التضحية والأسرار المقدسة؛ أما الآن فسوف يكفي أن نقول إنه في كثير من الحالات، في أستراليا وأميركا الجنوبية وأماكن أخرى، تؤكل الجثة، بينما لا تُحرق أو تُدفن سوى العظام. ومن بين هؤلاء المتوحشين، يحدث عادة أن يتم تنظيف الرأس من لحمه بالطهي، بينما تُغسل الجمجمة احتفالياً، وتُحفظ كموضوع للتبجيل المنزلي وإله أوراكلي. وسوف نستشهد ببعض الأمثلة في الفصول التالية.

وهكذا، بين الرعاية المبذولة لمنع عودة الجثة، والعبادة المقدمة للأشباح أو الظل، لا تشعر الأجناس البدائية بمثل هذا الشعور بالتناقض أو التناقض الذي قد يتبادر إلى ذهن الناس المتحضرين على الفور.

يمكن تلخيص المراحل الثلاث في الأفكار الإنسانية التي يتعامل معها هذا الفصل باختصار على أنها عبادة الجثث، وعبادة الأشباح، وعبادة الظل.

الفصل الرابع - أصل الآلهة.

لقد تتبع هربرت سبنسر في كتابه "مبادئ علم الاجتماع" مسار التطور من الشبح إلى الإله ببراعة شديدة، ولذا فإنني لا أنوي في هذا الفصل أن أحاول أكثر من مجرد تلخيص موجز لمقترحاته الرئيسية، والتي سأستكملها بأمثلة جديدة، وأتكيف في الوقت نفسه مع مفهوم المراحل الثلاث المتعاقبة في الأفكار البشرية حول حياة الموتى، كما هو موضح في الحجة السابقة. ولكن الملخص السريع الذي سأقدمه الآن سيتم توضيحه بشكل عرضي في وقت لاحق من خلال النظر في العديد من الديانات الوطنية.

في المرحلة الأولى، حيث يتم حفظ أجساد الموتى، لا نعرف عن الآلهة في حد ذاتها إلا القليل: فجثث الأصدقاء والأجداد هي التي تُعبد وتُجل. على سبيل المثال، يقول إليس عن جثة زعيم تاهيتي إنها كانت توضع في وضعية الجلوس تحت سقيفة تحميها؛ "وكان يُقام أمامها مذبح صغير، وكان الأقارب، أو الكاهن المعين لرعاية الجثة، يقدمون القرابين من الفاكهة والطعام والزهور يومياً ."(وهذه النقطة المتعلقة بالكهنة ذات أهمية جوهرية). كما لاحظ السيد سبنسر، كان أهل أميركا الوسطى يؤدون طقوساً مماثلة قبل تجفيف الجثث بالحرارة الاصطناعية. أما أهل غينيا الجديدة، كما وجد دالبرتيس، فيعبدون مومياوات آبائهم وأزواجهم المجففة. وعلى مستوى أعلى قليلاً، نجد عبادة المومياوات المتطورة في مصر وبيرو، والتي بقيت حتى بعد تطور الآلهة الأكبر، من الملوك أو الزعماء الأقوياء. وقد وردت أدلة أخرى كثيرة من بولينيزيا وأفريقيا .فحيثما تُحفظ جثث الموتى، تُقام لهم أيضًا عبادات وتُقدم لهم القرابين.

ولكن في كثير من الأحيان، وكما سبق أن أشرنا، لا يتم الاحتفاظ بالجسد بالكامل بل الرأس وحده الذي يتم عبادته بشكل خاص. وعلى هذا يقول السيد هو فوربس عن شعب بورو: "يُدفن الموتى في الغابة في مكان منعزل، غالبًا ما يكون مميزًا بمرنغ أو

عمود قبر؛ حيث يضع الأقارب فوقه في فترات معينة التبغ والسجائر والقرابين المختلفة. وعندما تتحلل الجثة، يقوم الابن أو أقرب قريب بإخراج الرأس من القبر، ولفه بقطعة قماش جديدة، ووضعه في ماتاكو في الجزء الخلفي من منزله، أو في كوخ صغير أقيم له بالقرب من القبر. إنه ممثل أسلافه، الذين يحمل وصاياهم أعظم الاحترام."

هناك نقطتان جديرتان بالملاحظة في هذا السرد المثير للاهتمام، حيث إنهما تعطياننا إشارة استباقية إلى ملحقين آخرين يجب أن نتتبع تطورهما فيما بعد؛ أولاً، عمود القبر، الذي ربما كان أصل الصنم الخشبي؛ وثانيًا، الكوخ الصغير الذي أقيم فوق الرأس بجانب القبر، والذي لا شك أنه أحد أصول المعبد أو بيت الصلاة. لاحظ أيضًا اللف الاحتفالي للجمجمة بالقماش، ووظائفه السحرية.

وعلى نحو مماثل، يكتب السيد وايت جيل، المبشر الشهير، عن طفل ميت في بويرا في غينيا الجديدة: "سيتم تغطيته بوصتين من التربة، وسيراقب الأصدقاء بجانب القبر؛ ولكن في النهاية سيتم الحفاظ على الجمجمة والعظام الأصغر حجمًا وارتداؤها من قبل الأم". ويقول عن شعب سواو: "عندما استفسرت عن استخدام العديد من المنازل الصغيرة، علمت أنها لتغطية حفر القبور. يشغل جميع أفراد الأسرة نفس القبر عند الموت، ويتم حفر التراب الذي غطى آخر ساكن للسماح للوافد الجديد بالدخول. هذه القبور ضحلة؛ يدفن الموتى في وضع الجلوس، وأيديهم مطوية. 070 يتم إلقاء التراب حتى الفم فقط. يغطي إناء فخاري الرأس. بعد فترة من الوقت يتم إزالة الإناء، وإزالة الجمجمة الكاملة وتنظيفها - ليتم تعليقها في النهاية في سلة أو شبكة داخل مسكن المتوفى فوق النار، لتسود في الدخان". وفي أفريقيا أيضاً، كثيراً ما تُحفَظ الجمجمة في مثل هذا القدر وتُصلى عليها. وفي أميركا، عُثِر على أوانٍ فخارية مصبوبة حول جماجم بشرية في أكوام في نيو مدريد وأماكن أخرى؛ ولا يمكن إزالة الجمجمة دون كسر الوعاء. والواقع أن هذه الطريقة الغريبة لحفظ الجثث في الأواني

الفخارية تبدو منتشرة على نطاق واسع؛ ولعلنا نلمح إشارة غامضة أو ذكرى لانتشارها في أوروبا في قصة إيزابيلا والقدر المليء بالريحان.

إن الانتقاء الخاص للرأس وحفظه كموضوع للعبادة كما هو مذكور في غينيا الجديدة وأرخبيل الملايو لا يزال موجودًا بين العديد من الشعوب البدائية الأخرى. على سبيل المثال، تحتفظ الأرامل في جزر أندامان بجماجم أزواجهن كممتلكات ثمينة: وفي حالة المرض أو الكوارث، يقدم سكان كاليدونيا الجديدة "قرابين من الطعام لجماجم الموتى". ويستشهد السيد سبنسر بعدة أمثلة مماثلة، وبعضها فقط استخرجته من صفحاته.

"في كوخ التعويذة الخاص للملك أدولي في باداجري، تُحفظ جمجمة والد الملك في وعاء من الطين موضوع في الأرض. ويوبخه الملك بلطف إذا لم يأت نجاحه على النحو الذي يلبي توقعاته. وبالمثل بين الماندانيين، الذين يضعون جماجم موتاهم في دائرة، تعرف كل زوجة جمجمة زوجها السابق أو طفلها، ونادرًا ما يمر يوم دون أن تزورها، ومعها طبق من أفضل الأطعمة المطبوخة… لا تكاد تمر ساعة في يوم لطيف، ولكن قد نرى عددًا أكبر أو أقل من هؤلاء النساء جالسات أو مستلقيات بجوار جمجمة طفلهن أو زوجهن - يتحدثن إليه بأكثر اللغات متعة وإعجابًا (كما كن معتادات على فعل ذلك في الأيام السابقة)، ويبدو أنهن يتلقين إجابة في المقابل".

إن هذا النوع من الحوار العاطفي مع الموتى، الخالي من الخوف تقريبًا، هو سمة مميزة للمرحلة الأولى أو مرحلة الحفاظ على الجثة من تصورات الموت لدى البشر. ونادرًا ما يستمر هذا النوع من الحوار حيث يجعل الدفن الشعور تجاه الجثة مؤلمًا أو مقززًا، فيقتصر الدفن على الرأس فقط، بينما يُنبذ القبر نفسه مع الجسد الذي يحيط به ويُخشى منه.

وعلى مستوى أعلى قليلاً من هذا المستوى، يلاحظ السيد دو شايلو أن بعض أتباعه من غرب أفريقيا، عندما ذهبوا في رحلة استكشافية، أخرجوا جماجم أسلافهم (التي احتفظوا بها دينياً) وكشطوا أجزاء صغيرة من العظام، وخلطوها بالماء وشربوها؛ معللين هذا السلوك بأن أسلافهم كانوا شجعاناً، وبأنهم بشرب جزء منها أصبحوا هم أيضاً شجعاناً وشجعاناً مثل أسلافهم. وهنا نجد حالة بسيطة ومبكرة من تلك العادة المتمثلة في "أكل الإله" التي لفت السيد فريزر الانتباه إليها بقوة، والتي يتعين علينا أن نفحصها بالتفصيل في فصل لاحق.

لقد ظل هذا المفهوم البدائي الذي يرى في الأسلاف أو الأقارب الموتى أهم الأشياء المعروفة للعبادة قائماً طيلة المراحل الأولى والأقدم من التطور البشري، وما زالت عبادة الأسلاف تشكل الديانة الرئيسية للصينيين، والعديد من الشعوب الأخرى. والواقع أن الآلهة في حد ذاتها غير معروفة عملياً في الصين. كما ظلت عبادة الأسلاف قائمة في العديد من الأجناس الأخرى باعتبارها واحدة من الطوائف الرئيسية، حتى بعد أن فرضت عليها عناصر أخرى من الدين اللاحق. وفي اليونان وروما ظلت حتى آخر الزمان جزءاً مهماً من الطقوس المنزلية. ولكن في أغلب الأحوال، يتم التمييز تدريجياً مع مرور الوقت بين مختلف فئات الأشباح أو الموتى، حيث يُنظر إلى بعض الأشباح على أنها أكثر أهمية وقوة من غيرها؛ ومن هذه الأخيرة تنشأ الآلهة كقاعدة عامة. والواقع أن الإله في البداية يكون على الأقل شبحاً قوياً وودوداً إلى حد استثنائي . شبحاً قادراً على المساعدة، ومن المعقول أن نتوقع منه أشياء عظيمة.

مرة أخرى، فإن صعود الزعامة والملكية له علاقة كبيرة بنمو مفهوم أعلى للألوهية؛ فمن المؤكد أن الملك الميت الذي يتمتع بقوة أو سلطة عظيمة سوف يُنظر إليه مع مرور الوقت على أنه إله ذو أهمية كبيرة. وسوف نتتبع هذه الفكرة بشكل أكثر اكتمالاً فيما بعد في ديانة مصر؛ أما في الوقت الحاضر، فيكفي أن نقول إن القوة

المفترضة للآلهة في كل آلهة كانت تزداد بانتظام بما يتناسب مع زيادة قوة الملوك أو الأباطرة.

عندما ننتقل من المستوى الأول من حفظ الجثث وتحنيطها إلى المستوى الثاني حيث الدفن هو العادة، قد يبدو للوهلة الأولى وكأن الاستمرار في عبادة الموتى، ورفعهم إلى مصاف الآلهة، لم يعد ممكناً. فقد رأينا أن الدفن ينبع من خوف قاتل من أن تعود الجثة أو الشبح لتؤذي الأحياء. ومع ذلك، فإن المودة الطبيعية للوالدين أو الأصدقاء، والرغبة في ضمان حسن نيتهم ومساعدتهم، تجعل هذه الأفكار المتناقضة ظاهرياً قابلة للتوفيق. في الواقع، نجد أنه حتى عندما يدفن الناس موتاهم أو يحرقونهم، فإنهم يستمرون في عبادتهم: بينما، كما سنبين في الجزء التالي، حتى الحجارة الكبيرة التي يدحرجونها فوق القبر لمنع الموتى من القيامة تصبح في الوقت المناسب مذابح تقدم عليها التضحيات للروح.

في هاتين المرحلتين الأخيرتين من التفكير فيما يتعلق بالموتى، اللتين تصاحبان الدفن والحرق، تنمو الآلهة، في الواقع، أكثر فأكثر تميزًا عن الأشباح الثانوية بسرعة متسارعة من التطور. فهي تنمو بشكل أكبر بالتناسب مع صعود المعابد والتسلسلات الهرمية. وعلاوة على ذلك، فإن عدم تحديد الشبح بلا جسد يشير إلى لصالح توسيع نطاق الألوهية. يُنظر إلى الآلهة على أنها جوية وغير مادية بشكل متزايد، وأقل إنسانية في الشكل والطبيعة؛ فهي مكسوة بصفات قوية؛ وتتخذ حجمًا هائلاً؛ حتى أنها يتم تحديدها بالشمس والقمر والقوى العظمى للطبيعة. لكنها لا تكون مطلقًا كلي القدرة تمامًا خلال المرحلة الوثنية، لأنها في البانتيون تحد بالضرورة من بعضها البعض. حتى في الحضارة اليونانية والرومانية، من الواضح أن العقول العادية لم تتصور الآلهة على أنها أكثر من بشر؛ ولقد كان هذا هو حال بيسستراتوس الذي تنكر في هيئة مومس في أثينا لتمثل بالاس أثينا، وفرض هذه الحيلة المسرحية الرخيصة على عامة الأثينيين؛ بينما صوَّر بولس وبرنابا في لسترة على أنهما زيوس

وهيرميس. وسوف يصادف الباحث الكلاسيكي العديد من الحالات المماثلة في آن واحد. ولم تبدأ المفاهيم السامية عن الألوهية التي كانت سائدة آنذاك في التشكل في اليهودية والمسيحية إلا في وقت متأخر للغاية، تحت تأثير التوحيد.

إن عبادة الأسلاف في البيوت وحدها لا تكفي لإثبات أصل أي دين آخر غير عبادة الآلهة المنزلية، أي عبادة الآلهة القبلية والوطنية. ولكن الملكية تزودنا بالحلقة المفقودة. فقد رأينا في رواية السيد دوف ماكدونالد عن صناعة الآلهة في أفريقيا الوسطى كيف أن عبادة أسلاف الزعيم تؤدي إلى نشوء آلهة قبلية أو قروية؛ ومن الواضح كيف أن آلهة وطنية من أنواع أعلى كثيراً قد تتطور تدريجياً من هؤلاء الملوك الأوائل مع اتساع نطاق الزعامة والملكية. ولابد أن نأخذ في الحسبان عنصر الزمن، متذكرين أن الأسلاف الأوائل ينتهي بهم المطاف إلى النسيان كبشر، ولا يبقون في الذاكرة إلا ككائنات خارقة للطبيعة. وعلى هذا فإن الملكية تتفاعل بسرعة مع الألوهية. وإذا كان الملك الحي نفسه عظيماً، فكم يجب أن يكون السلف الذي يخشاه الملك نفسه ويعبده أعظم كثيراً؛ "وكم هو أعظم من ذلك الإله الأقدم، ذلك الإله الذي كان جد السلف، الذي كان السلف نفسه يحترمه ويرضيه! وعلى هذا النحو تنشأ تدريجيًا هرم من الآلهة، حيث يكون الأقدم، وبالتالي الأقل شهرة، هو الأعظم في النهاية.

إن توطيد الممالك والإمبراطوريات، وتقدم الفنون، يؤثران بقوة في هذه الاتجاهات؛ في حين أن اختراع اللغة المكتوبة يضع ختمًا نهائيًا على ألوهية وقوة الأسلاف الأوائل العظماء. في الواقع، لا نجد بين القبائل البدائية للغاية إلا أشياء عبادة منزلية حديثة. يصلي الزعيم في الغالب لأبيه وأسلافه المباشرين. كما أشار السيد دوف ماكدونالد جيدًا، فإن الأسلاف الأقدم يكبرون بسرعة ويذهبون إلى النسيان. ولكن مع الأجناس الأكثر تقدمًا، تنشأ وكالات مختلفة تساعد في تذكر الموتى الأوائل؛ وفي المجتمعات المتطورة للغاية، تصل هذه الوكالات إلى درجة عالية من التطور، مما يجعل الآلهة أو

الملوك أو الأشباح الحديثة تبدو غير مهمة نسبيًا إلى جانب الآلهة القديمة جدًا والمعبودة منذ فترة طويلة. أكثر من أي شيء آخر، يمكن أن يقال عن الإله، vires acquirit eundo. وهكذا، في الأنواع المتقدمة من المجتمع، لا يكتسب القديسون أو الآلهة من أصل حديث إلا أهمية ثانوية أو ثانوية؛ في حين أن أعلى وأعظم الآلهة على الإطلاق هم أولئك الذين عاشوا في أقدم العصور، والذين ضاع تاريخهم الإنساني عن ناظرنا في ضباب العصور الخافتة.

وهنا لابد من الإشارة إلى ثلاث وكالات ذات أهمية قصوى في الانتقال من الشبح المجرد إلى الإله المتطور بالكامل. وهي ظهور المعابد، والأصنام، وقبل كل شيء الكهنوت. وعلينا الآن أن نتناول كل واحدة منها بإيجاز ولكن على حدة.

إن أصل المعبد مختلف؛ ولكن كل المعابد يمكن اختزالها في النهاية إما إلى قبور للموتى، أو إلى أماكن تقدم فيها العبادة خصيصًا لهم. هذه الحقيقة، التي توصل إليها السيد هربرت سبنسر من خلال فحص تقارير المسافرين أو المؤرخين، وعمل عليها فيما يتعلق بمبادئ علم الاجتماع، توصل إليها بشكل مستقل السيد ويليام سيمبسون، الفنان الشهير في مجلة أخبار لندن المصورة، من خلال خط مختلف تمامًا من الملاحظة والمنطق. ربما زار السيد سيمبسون عددًا أكبر من أماكن العبادة في جميع أنحاء العالم من أي مسافر آخر من أي جيل: وقد تأثر في وقت مبكر بالحقيقة التي فرضت نفسها على عينيه، وهي أن كل واحد تقريبًا من هذه الأماكن، حيث يمكن تتبع أصله، تبين أنه قبر بشكل أو بآخر. وقد عرض نتائج أبحاثه في هذا الاتجاه في العديد من الأوراق الرائعة، والتي يمكنني بكل ثقة أن أوصي بها جميعها، وخاصة الورقة التي تحمل عنوان "عبادة الموت"، لاهتمام جدي من طلاب الدين. إنها تحتوي على أكبر مجموعة من الأمثلة في هذا الشأن على الإطلاق؛ وهي تظهر بما لا يدع مجالاً للشك انتماء فكرة بناء المعبد على قبر شخص ميت متميز، مشهور بقوته، أو شجاعته، أو قدسيته.

إن الكهف هو على الأرجح الشكل الأول للمعبد. ففي بعض الأحيان يترك الميت في الكهف الذي سكنه عندما كان حياً؛ وقد لاحظنا بالفعل مثلاً لذلك بين أهل فيدا في سيلان. وفي حالات أخرى، حيث تجاوزت الأجناس عادة السكنى في الكهوف، فإن عادة دفن الموتى في الكهوف أو في الكهوف الاصطناعية لا تزال مستمرة من خلال المحافظة المعتادة للشعور الديني. وتُقدم القرابين للموتى في كل هذه الكهوف المختلفة؛ وهنا نصل إلى بدايات معابد الكهوف. وبطبيعة الحال، تكون مثل هذه المعابد في البداية إما طبيعية أو فظة للغاية؛ ولكنها سرعان ما تبدأ في تزيينها بلوحات جدارية خشنة، كما يفعل، على سبيل المثال، أهل الأدغال في جنوب أفريقيا. وتؤدي هذه اللوحات الجدارية مرة أخرى مع مرور الوقت إلى ظهور أعمال رائعة مثل تلك الموجودة في مقابر الملوك في طيبة؛ حيث ألحق بكل منها معبد رائع ككنيسة جنائزية. كما يستخدم النحت في تزيين معابد الكهوف؛ ونحصل في النهاية على مثل هذه الزخارف الفنية في معابد الكهوف الرائعة مثل معابد إيلورا. وقد استخدم كلا الفنين معًا في معابد المقابر الأترورية الجميلة والمثيرة للاهتمام.

وفي فئة أخرى من الحالات، يهجر أقارب الميت الكوخ الذي عاش فيه عند وفاته، وبالتالي يصبح معبدًا بدائيًا حيث تُقدم له القرابين. وهذه هي الحال مع الهوتنتوت، على سبيل المثال على مستوى منخفض جدًا من الثقافة. يقول السيد تشالمرز عن دفن الكوخ في غينيا الجديدة: "يُدفن الزعيم في المنتصف؛ وتُفرش حصيرة فوق القبر، ويُطلب مني الجلوس عليها حتى ينوحوا". وعادة ما تؤدي النساء هذا البكاء - وهي لمسة تقودنا إلى طقوس أدونيس وأوزوريس، وإلى بييتا المسيحية. جمع السيد سبنسر العديد من الأمثلة الممتازة الأخرى. وهكذا، يضع الأراواك الجثة في قارب صغير ويدفنونها في الكوخ؛ وبين الكريك، يصبح مسكن الميت مكان دفنه؛ وبالمثل يدفن الفانتيس الشخص الميت في منزله؛ "وكان أهل يوكاتان "كقاعدة عامة يتركون المنزل ويتركونه خاليًا من السكان بعد الدفن". ولن أزيد على الاقتباسات؛ بل سيكون من الأفضل أن أحيل القارئ إلى صفحات السيد سبنسر نفسه، حيث تم جمع عدد

كافٍ من الأمثلة المؤكدة لإرضاء أي ناقد باستثناء أكثرهم تحيزًا. يقول السيد سبنسر: "كما يتم نقل الإمدادات المتكررة من الطعام إلى المنزل المهجور، وكما يتم تقديم القرابين إلى جانب أعمال الكفارة الأخرى، فإن المنزل المهجور، الذي تحول إلى دار جنائز، يكتسب سمات المعبد".

وهناك أصل ثالث للمعابد يتمثل في السقيفة أو الكوخ أو الملجأ الذي يقام فوق القبور، إما لحماية الموتى أو لراحة الأحياء الذين يقدمون قرابينهم. وعلى هذا ففي أجزاء من غينيا الجديدة، وفقاً للسيد تشالمرز، "يدفن السكان الأصليون موتاهم أمام مساكنهم، ويغطون القبر بمنزل صغير ينام فيه الأقارب المقربون لعدة أشهر".

"في الأماكن التي لا تمارس فيها عادة الدفن في المنازل،" يقول السيد سبنسر، "يصبح الهيكل الواقي الذي يُرفع فوق القبر، أو فوق المنصة التي تحمل الجثة، بمثابة بذرة البناء المقدس. ويقيم بعض أهل غينيا الجديدة "سقفًا من الخشب" فوق مكان الدفن. وفي زمن كوك، كان أهل تاهيتي يضعون جثة الميت على نوع من النعش مدعومًا بالعصي وتحت سقف. وكذلك الحال في سومطرة، حيث يتم بناء "سقيفة" فوق القبر؛ وكذلك الحال في تونغا. وبطبيعة الحال، يمكن توسيع هذه السقيفة وتشطيبها. "في بعض الأماكن، يبني الدياك أضرحة تشبه المنازل، يبلغ ارتفاعها 18 قدمًا، منحوتة بشكل زخرفي، وتحتوي على ممتلكات المتوفى - السيف والدرع والمجداف وما إلى ذلك. عندما نقرأ أن الفيجيين يضعون جثث زعمائهم في مقابر صغيرة أو معابد، فقد نستنتج بشكل عادل أن هذه المعابد المزعومة هي ببساطة هياكل إيواء أكثر تطوراً. لقد أظهرت عادات البيروفيين بوضوح أكبر أن الهيكل الذي أقيم فوق الجثة يتطور إلى معبد. يخبرنا أكوستا أن "كل واحد من هؤلاء الملوك في ينكاس ترك كل كنزه وإيراداته للترفيه عن مكان العبادة حيث وُضِع جثمانه، وكان هناك العديد من الوزراء مع كل عائلاتهم مكرسين لخدمته".

ولنلاحظ في اللمسة الأخيرة، عن طريق التوقع، أحد أصول الكهنوت. ومن ناحية أخرى، رأينا في رواية السيد دوف ماكدونالد عن أهل وسط أفريقيا الأصليين أن هؤلاء المتوحشين لا يتعبدون عند القبر نفسه. وفي هذه الحالة، يبدو أن الخوف من شبح الموت يمنع أشكال التكريم المعتادة عند قبر المتوفى. فضلاً عن ذلك، بما أن الشبح يُنظَر إليه الآن على أنه منفصل بحرية إلى حد ما عن الجثة، فسوف يكون من الممكن عبادته في مكان بعيد عن المقبرة المروعة. ومن هنا فإن هؤلاء الأفارقة "يبحثون عن الروح في المكان الذي عاش فيه أقرباؤهم الراحلون آخر مرة بينهم. والشجرة العظيمة عند شرفة منزل الرجل الميت هي معبدهم: وإذا لم تنمو شجرة هنا، فإنهم يقيمون بعض الظل، ويؤدون هناك طقوسهم البسيطة". لدينا في هذه الحالة أصل محتمل آخر لبعض المعابد، وأيضًا، سأضيف تحسبًا لفصل مستقبلي، للشجرة المقدسة، التي تعد من الأشياء الشائعة جدًا التي تحظى بالتقديس والتقوى في العديد من البلدان.

إن المعبد، الذي بدأ بمثل هذه الكهوف الطبيعية أو الأكواخ المتواضعة، اكتسب أبعاداً أكبر وزخارف أجمل مع تزايد الفن ونمو الممالك. وخاصة، كما نرى في معابد القبور والأهرامات في مصر وبيرو، فإنه اكتسب حجماً كبيراً واكتسب زخارف باهظة الثمن عندما بناه ملك قوي لنفسه أثناء حياته. وتصل مقابر المعابد من هذا النوع إلى ذروة التطور الفني في مبنى مثل ما يسمى بخزانة أتريوس في ميسينا، والتي هي في الحقيقة قبر لملك ما قبل التاريخ مجهول الاسم. وقد أعيد بناؤها بشكل رائع في بيرو وتشيبيز.

ومن الواضح أن أهمية وعظمة المعبد سوف تتفاعل مع المفهوم الشعبي لأهمية وعظمة الإله الذي يسكنه. وعلى العكس من ذلك، كلما ازدادت عظمة الآلهة، كلما كُرِّس المزيد من الفن والمهارة البنّاءة لبناء وتزيين منازلهم الدائمة. وهكذا في مصر، كان بناء المقابر أكثر حرصًا وجمالًا من بناء المنازل؛ لأن المنزل كان يسكنه الناس

لفترة قصيرة فقط، أما المقابر فكانت للأبد. وعلاوة على ذلك، كلما ازداد الملوك قوة، كانوا غالبًا ما يزينون معابد أسلافهم بفخر مزيف، لإظهار عظمتهم. وفي مصر، مرة أخرى، لا يكون الجزء الأصلي من كل المعابد الأكثر أهمية سوى صومعة مظلمة صغيرة، من أصل مبكر، أضاف إليها ملك بعد آخر في الأسر اللاحقة غرفًا أو أروقة فخمة، حتى اكتسب المبنى أخيرًا الحجم العملاق والأبعاد النبيلة للكرنك والأقصر. إن هذا الوصول المهم إلى المعبد لا بد وأن يكون قد أضاف إلى كرامة الإله؛ فمع مرور الوقت، بدلاً من أن يُنسى الملوك الأوائل ولا يُعبَدون بعد الآن، اكتسبوا أهمية أعظم فأكبر بسبب روعة الأعمال التي كُرِّست فيها ذكراهم. وحتى النهاية، يعتمد الإله إلى حد كبير على منزله ليكون مهيبًا. فكم لم تدين الديانة اليونانية نفسها بمعبد البارثينون ومعبد زيوس الأوليمبي! وكم لم تدين المسيحية نفسها بمعبد لينكولن ودورهام، وأميان وشارتر، وميلانو وبيزا، وكاتدرائية القديس مرقس والقديس بطرس! لا يمكن للناس أن يصدقوا أن الآلهة التي تُعبَد في مثل هذه الأضرحة النبيلة والغامضة كانت ذات يوم بشرًا مثلهم، متحدين من نفس الأجسام والأجزاء والعواطف. ومع ذلك، في آخر المطاف على الأقل، نعرف الأعمال العظيمة التي أقيمت تكريمًا لفلاح واحد من سوريا السفلى.

مع هذه الإشارة القصيرة وغير الكاملة إلى أصل المعابد، والتي سيتم توسيعها بشكل غير مباشر في أجزاء لاحقة من عملي، أنتقل من النظر في المبنى المقدس نفسه إلى النظر في المعبود الذي يسكن عادة داخله.

إننا في مصر ندرك أن عبادة الملوك الذين ماتوا في أقدم العصور في الإمبراطورية القديمة كانت مستمرة بانتظام حتى أيام البطالمة. وفي مثل هذه الحالة لا توجد حاجة مطلقة إلى ظهور الأصنام؛ فالجثة نفسها هي الهدف الرئيسي للعبادة. ومن ثم فإننا نجد أن عبادة المومياء لعبت دوراً كبيراً في الديانات المحلية في مصر وبيرو؛ وإن كانت تتناوب أحياناً مع عبادة أشياء مقدسة أخرى، مثل الصورة أو الحجر المقدس، والتي

سنرى فيما يلي أنها كانت ذات أصل مماثل. ولكن في العديد من البلدان الأخرى، حيث كانت الجثث أقل وضوحاً وحفاظاً، كانت العبادة المستحقة للروح أو الإله تُقدم غالباً إلى تمثال أو صنم؛ حتى أن "عبادة الأصنام" أصبحت في اللغة المسيحية المصطلح الشائع لمعظم أشكال العبادة غير التوحيدية.

والآن ما هو أصل ومعنى الأصنام، وكيف يمكن أن ننسبها إلى عبادة الجثث أو الأشباح البدائية؟

أعتقد أن الصنم، مثل المعبد، له العديد من الأصول المنفصلة، وقد لاحظ السيد هربرت سبنسر العديد منها، بينما يبدو لي أن البعض الآخر قد أفلت من ملاحظة حتى ذلك المراقب العميق والدقيق.

إن أقدم الأصنام، إذا سمح لي بالتعبير المتناقض، ليست أصناماً على الإطلاق. ليست صوراً أو تمثيلات لشخص ميت، بل جثث حقيقية محفوظة ومحنطة. ولكن هذه الجثث تتحول بسهولة إلى أشكال مختلفة من الشخصيات التمثيلية. ففي المقام الأول، عادة ما تُلف المومياء نفسها بقماش يحجب ملامحها؛ وفي المقام الثاني، كثيراً ما توضع في صندوق خشبي، وهو في الغالب يشبه البشر إلى حد كبير، وهو ما أدى بلا شك إلى ظهور أشكال معينة من الأصنام. وعلى هذا فإن صور آمون وخيم وأوزوريس وبتاح بين الآلهة المصرية غالباً ما تكون صور مومياء داخل صندوق خشبي. ولكن فضلاً عن ذلك، نادراً ما تكون المومياء نفسها هي الإنسان بالكامل؛ بل على الأقل تكون الأمعاء قد أزيلت، أو حتى كتلة اللحم بالكامل، كما في غينيا الجديدة، فلا يتبقى سوى الجلد والهيكل العظمي. وكثيراً ما يتم استبدال العينين، كما في بيرو، بأشياء مقلدة أخرى، وذلك للحفاظ على المظهر الحقيقي. وتؤدي مثل هذه الحالات إلى حالات أخرى، حيث تحل الصورة أو الصنم تدريجياً محل الجثة أو المومياء.

ويضرب السيد هو فوربس مثالاً مثيراً للاهتمام لمثل هذه المرحلة الانتقالية في تيمورلاوت. فيقول: "تُدفن جثث أولئك الذين يموتون في الحرب أو نتيجة موت عنيف؛ وإذا تم الاستيلاء على الرأس [من قبل العدو]، توضع جوزة الهند في القبر لتمثل العضو المفقود، ولخداع روحه وإرضائها". وهناك أدلة وفيرة على أن مثل هذه الأطراف أو الأجسام المؤقتة تكفي تمامًا لاستخدام الروح، عندما يتم تدمير الجثة الفعلية أو تشويهها. وفي بعض الأحيان، يكون استبدال الأجزاء متعمدًا ومقصودًا. يقول لاند عن سكان يوكاتان إنهم غالبًا ما يقطعون رؤوس أمراء كوكوم القدامى عند وفاتهم، ويزيلون اللحم منها عن طريق طهيها (من المحتمل جدًا أن يأكلوها في وليمة تضحية، وسنتحدث عنها لاحقًا)؛ ثم قاموا بقطع الجزء العلوي من الجمجمة، وملأوا بقية الرأس بالإسمنت، وجعلوا الوجه أقرب ما يمكن إلى صاحبه الأصلي، واحتفظوا بهذه الصور مع التماثيل والرماد. لاحظ هنا الحفاظ المعتاد على الرأس باعتباره مقدسًا بشكل استثنائي. في حالات أخرى، صنعوا لآبائهم تماثيل خشبية، ووضعوا رماد الجسم المحروق، وربطوا جلد القفا المنزوع من الجثة. كانت هذه الصور، نصف مومياء ونصف صنم، محفوظة في مصلى منازلهم، وكانت تحظى باحترام كبير والعناية الدؤوبة. في جميع المهرجانات، كانوا يقدمون لهم الطعام والشراب.

ولقد جمع السيد سبنسر أمثلة أخرى مثيرة للاهتمام لهذه المرحلة الانتقالية بين الجثة أو المومياء والصنم المجرد. فقد اعتاد المكسيكيون، الذين كانوا يحرقون جثث الموتى، أن يحرقوا اللورد الميت، ثم يجمعوا الرماد؛ "وبعد أن يعجنوه بدم الإنسان، يصنعون منه صورة للمتوفى، ويحتفظون بها لذكراه". وفي بعض الأحيان، كما في يوكاتان، كان يتم وضع الرماد في وعاء من الطين على شكل رجل، ثم تقام المعابد أو المصليات فوقه. ويقول السيد سبنسر: "في حالات أخرى، كان هناك عبادة للآثار، مقترنة بالشخصية الممثلة، ليس عن طريق الإدماج، بل فقط عن طريق القرب". وهكذا يخبرنا جومارا أن المكسيكيين بعد أن أحرقوا جسد ملكهم المتوفى، جمعوا الرماد والعظام والمجوهرات والذهب في قماش، وصنعوا شخصية ترتدي زي رجل،

ووضعوا أمامها، وكذلك أمام الآثار، القرابين. من الواضح أن حرق الجثث يلائم بشكل خاص استبدال صورة بالجثة الحقيقية. ومن بين الأجناس التي تدفن الجثث، فإن الجمجمة المقطوعة هي التي يتم الحفاظ عليها وعبادتها في أغلب الأحيان.

إن الانتقال من مثل هذه الصور إلى التوابيت الحجرية الصغيرة، مثل تلك الموجودة في مقابر الأتروسكان، ليس بالأمر العظيم بأي حال من الأحوال. فقد كانت هذه التوابيت تحتوي على رماد الموتى المحروق، ولكنها كانت مغطاة بغطاء يمثل عادة المتوفى وهو مستلقٍ، وكأنه في مأدبة، وبيده كأس. وكانت المقابر التي توضع فيها التوابيت من نوعين؛ الأول الهرم الحجري أو المخروط، والذي يقول عنه الدكتور إسحاق تايلور إنه "من الواضح أنه بقايا من التلة"، والثاني الغرفة المنحوتة في الصخر، "وهي بقايا من الكهف". وهذه القبور الفخمة ليست مجرد قبور كئيبة؛ بل هي مساكن للموتى، مبنية على طراز منازل الأحياء. وهي تحتوي على أثاث وفخار؛ وجدرانها مزينة بلوحات جدارية باهظة الثمن. كما يتم توفير غرفة انتظار لهم عادةً، حيث يمكن للعائلة أن تتجمع في العيد السنوي لتكريم أرواح الأجداد الراحلين، الذين شاركوا في الوجبة من أغطية التوابيت المنحوتة الخاصة بهم.

وعلى مسافة أبعد من المومياء البدائية، نصل إلى الصورة النقية والبسيطة. فالمكسيكيون، على سبيل المثال، كما رأينا، كانوا يحرقون الجثث؛ وعندما كان الرجال الذين يُفْقَدون في المعارك يصنعون منهم تماثيل خشبية، ويكرمونها، ثم يحرقونها بدلاً من الجثث. وعلى نفس المنوال تقريباً، كان المصريون يضعون بجوار المومياء صورة للميت، لتكون بمثابة ملجأ أو وعاء للروح، "في حالة التدمير العرضي للجسد الفعلي". وعلى هذا فقد اعتاد المكسيكيون مرة أخرى، إذا مات أحد تجارهم في رحلة، أن يصنعوا له تمثالاً من الخشب على شكل المتوفى، وكانوا يكرمونه بكل ما كانوا ليفعلوه بجثته الفعلية قبل حرقها. وفي أفريقيا، أثناء تحنيط ملك الكونغو، يتم وضع تمثال في القصر لتمثيله، ويتم تزويده يومياً بالطعام والشراب. وقد جمع

السيد سبنسر عدة أمثلة مماثلة لأصنام حلت محل جثث الموتى. كان الرومان يرتدون أقنعة من الشمع، والتي كانت تحافظ على ملامح أسلافهم. ولعل أكثر ما بقى من هذه العادة في العصر الحديث، والتي تتمثل في التمثيل المزدوج، هو تماثيل ملوكنا وملكاتنا التي لا تزال محفوظة في دير وستمنستر.

ولكن هناك مصدران آخران لعبادة الأصنام، يبدو لي أنهما لم يحظيا بالقدر الكافي من الاهتمام على يد السيد سبنسر. وهما العمود الذي يميز القبر، والحجر القائم أو حجر القبر. وأعتقد أن العدد الأكبر من الأصنام ينحدر من أحد هذين المصدرين الأصليين، وسوف أفحص كليهما فيما بعد بمزيد من التفصيل. ولا أظن أن هناك ثغرة أعظم في عمل السيد سبنسر الضخم من تلك التي أحدثها عدم الاهتمام الكافي بهذين المصدرين المثمرين للأشياء التي تستحق العبادة. ولذلك فسوف أخصص مساحة كبيرة لدراستهما في الفصول اللاحقة؛ أما الآن فسوف يكفي أن أشير إلى أن العمود الخشبي يبدو في كثير من الأحيان أنه يشكل أصل أو نقطة انطلاق للصورة الخشبية المنحوتة، وكذلك لأشياء أكثر خشونة من التبجيل مثل المخاريط والأعمدة الخشبية التي تحظى باحترام واسع النطاق بين القبائل السامية؛ في حين يبدو أن الصخرة الخشنة أو الحجر القائم أو حجر القبر يشكلان الأصل أو نقطة الانطلاق للتمثال الحجري أو الرخامي، وهو النوع الأكثر شيوعًا من الأصنام في جميع أنحاء العالم في جميع المجتمعات المتقدمة والمثقفة. كانت هذه الأحجار في البداية مجرد كتل خشنة أو كتل غير منحوتة، من نسل تلك التي كانت تدحرج فوق القبر في العصور البدائية من أجل إبقاء جثة الرجل الميت في الأسفل، ومنعه من العودة لإزعاج الأحياء. ولكن مع مرور الوقت، تطورت إلى ألواح أو مربعات خشنة، وأخيراً تم تزيينها بتمثيل بدائي لرأس وكتفين بشريين. من هذه المرحلة تقدمت بسهولة إلى شكل هيرمي اليوناني. نحن نعلم الآن أن هذا كان الشكل المبكر لمعظم الآلهة والإلهات الهيلينية؛ ويمكننا تتبع تطورهم إلى الأمام من هذه النقطة إلى أفروديت أو هيرا المجسمة تمامًا. إن الشكل المعروف لأرتميس الإفسسية هو حالة وسيطة ستواجه على الفور كل

قارئ كلاسيكي. انطلاقًا من هذه البدايات عديمة الشكل، نتقدم أخيرًا إلى التماثيل البرونزية والرخامية الفنية الرائعة في اليونان وإتروريا وروما، إلى الآلهة متعددة الأيدي في الهند الحديثة، وإلى التماثيل المنحوتة للسيدة العذراء والعذراء بييتاس في عصر النهضة في إيطاليا.

ومن الطبيعي أن تزداد الفكرة السائدة عن قوتهم وكرامتهم مع ازدياد جمال الآلهة وإتقانهم لفنون صنعها. وفي مصر، اتخذت هذه الزيادة شكل الحجم الهائل والتعامل الدقيق مع المواد الجرانيتية الصلبة. ومن الأمثلة المألوفة على النوع الأول تمثالا ممنون وأبو الهول؛ أما آلهة البازلت السوداء في أسوان، والمعروفة في متحف اللوفر والمتحف البريطاني، فهي أمثلة على النوع الثاني. وفي اليونان، كان الغرض من التأثير هو الجمال المثالي، كما في حالة أفروديت وأبولوس، أو تكلفة المواد، كما في حالة زيوس ذي اللون الأخضر الفيروزي وأثينا في البارثينون. ولكن يجب أن نتذكر دائمًا أنه في اليونان نفسها، تطورت هذه الآلهة المجيدة في فترة زمنية قصيرة نسبيًا من الكتل عديمة الشكل أو الأحجار الدائمة في الديانة الأكثر بدائية؛ في الواقع، لا يزال لدينا العديد من الأشكال الوسيطة الغريبة بين الأنواع الميسينية الغريبة للغاية والتي تكاد تكون غير بشرية، والتخيلات الرائعة لميرون أو فيدياس. إن أقدم الأصنام اليونانية التي نقشها السيدان بيرو وتشيبيز في عملهما العظيم عن الفن في اليونان البدائية لا ترتفع بأي حال من الأحوال إلى مستوى بولينيزيا؛ في حين أن ما يسمى بأبولوس من صنع الحرفيين القدماء اللاحقين، والذي يقف بشكل صارم مع ذراعيه على جانبيه، يذكرنا في كثير من النواحي بالخطوط العريضة المستقيمة لأعلى ولأسفل للحجر القائم الذي تم تطويره منه.

ولابد أن أضيف أن تمثال الحجر الخام أو الصنم، وفي درجة أدنى من ذلك الحجر المقدس غير المشغول، يقف كعنصر مركزي تحت سقيفة أو ملجأ، يتطور تدريجيًا إلى معبد مهيب. والتقدم في كل من هذين العنصرين يكون متوازيًا إلى حد كبير؛ وإن

كان في بعض الأحيان، كما في اليونان التاريخية، يضم معبد من أرقى المباني حجرًا خامًا غير مشغول كان يستخدم في العبادة البربرية المبكرة كعنصر مركزي وأساسي للتبجيل. وهكذا، حتى في المسيحية، غالبًا ما تحتفظ الكنائس والكاتدرائيات العظيمة ببعض الصور القديمة غير المشغولة مثل تمثال الطفل المقدس في سانتا ماريا في آرا كولي بروما، أو "المادونا السوداء" التي يقدسها الناس في العديد من الأماكن الإيطالية الشهيرة للحج.

ولا أقصد أن أقول إن كل صنم هو بالضرورة في حد ذاته بقايا جنائزية. فعندما تتطور فكرة الألوهية بشكل كامل، وعندما يعتاد البشر على اعتبار صورة أو صنم ممثلاً أو مسكناً لإلههم، فمن السهل مضاعفة مثل هذه الصور إلى ما لا نهاية. وقد توجد مئات التمثيلات لنفس أبولو أو أفروديت أو مادونا أو القديس سيباستيان. وفي الوقت نفسه، من الواضح تمامًا أن معظم العابدين يخلطون بين الكائن الإلهي والصورة إلى حد كبير؛ حيث يُنظر إلى آرتميس أو نوتردام بعينها على أنها أقوى أو أكثر ودية من غيرها. لقد عرفت نساء في جنوب أوروبا يذهبن للصلاة عند ضريح مادونا البعيدة، "لأنها أعظم من مادونا الخاصة بنا". وعلاوة على ذلك، فمن المحتمل أن تكون الصور أو الأحجار المقدسة التي كانت في الأصل جنائزية، والتي تمثل آلهة أو أشباح معينة، قد ابتلعتها في النهاية آلهة أخرى أكثر قوة، بحيث فقدت في النهاية تميزها البدائي. وهكذا، كان هناك العديد من البعل والعديد من عشتاروث؛ وربما كان هناك العديد من أبولس، والعديد من أرتميس، والعديد من أفروديت. ومن المؤكد تقريبًا أنه كان هناك العديد من هرمي المتميزين. يميل تقدم البحث إلى جعلنا ندرك أن الآلهة التي لا تعد ولا تحصى، والتي كانت تعتبر ذات يوم فريدة ومتفردة، قد يتم حلها في مجموعة كاملة من الآلهة المحلية، والتي يتم التعرف عليها بعد ذلك مع بعض الآلهة القوية على أبسط تشابه خارجي للصورة أو الاسم أو الصفة. في مصر على الأقل كانت عملية التعريف والمركزية هذه شائعة. وعلاوة على ذلك، نعلم أن كل دين جديد يميل إلى ابتلاع واستيعاب جميع العناصر المحتملة للعبادات القديمة؛ كما حاولت

اليهودية اليهودية تبني الحجارة المقدسة للوثنية السامية المبكرة من خلال ربطها بأحداث في تاريخ الآباء؛ وكما قدس المسيحية مثل هذه الحجارة في منطقتها من خلال استخدامها أحيانًا كقاعدة للصليب، أو تكريسها أحيانًا أخرى باسم بعض القديسين أو الشهداء.

ولكن أكثر من تطور المعبد والصنم، فإن تطور الكهنوت قد أعطى للآلهة كرامة وأهمية وقوة. ذلك أن الكهنة هم فئة من الناس يهمهم بشكل مباشر تحقيق أقصى قدر من عظمة وجلال الآلهة التي يعتنون بها أو يعبدونها.

مرة أخرى، ربما يكون للكهنوت أصلان مختلفان على الأقل. الأول شبه ملكي؛ والثاني شبه خاضع.

"أبدأ بالأول. لقد رأينا أن زعيم القرية الأفريقية، باعتباره ابنًا وممثلًا للأرواح الرئيسية، التي هي آلهة القبيلة، له وحده الحق في الاقتراب منها مباشرة بالقرابين. أما القروي الأدنى مرتبة، الذي يرغب في طلب أي شيء من الآلهة، فيطلب ذلك من خلال الزعيم، الذي هو قريب وصديق للأرواح الإلهية، وبالتالي فهو يفهم بشكل طبيعي أفكارهم وعاداتهم. وبالتالي فإن مثل هؤلاء الزعماء هم أيضًا كهنة بشكل طبيعي. إنهم مقدسون من قبل الأسرة؛ فهم وأطفالهم يقفون في علاقة خاصة مع آلهة القبيلة، مختلفة تمامًا عن العلاقة التي يقف فيها عامة الناس؛ فهم من دماء الآلهة. هذا النوع من العلاقة شائع في العديد من البلدان؛ والزعماء في مثل هذه الحالات هم "ملوك وكهنة، على رتبة ملكي صادق".

وباختصار، ففي أقدم أشكال الدين أو الشكل المنزلي، كانت آلهة كل مجموعة صغيرة أو عائلة هي أسلافها الأموات، وخاصة (على الرغم من أن الذاكرة التاريخية لا تزال ضعيفة) أسلافها المباشرين. وفي هذه المرحلة، يمارس رب الأسرة بطبيعة الحال وظائف الكاهن؛ فهو الذي يقترب من أشباح الأسرة أو آلهةها نيابة عن زوجاته وأبنائه

وأفراد عائلته. وحتى النهاية، يحتفظ والد كل عائلة بهذه الوظيفة الكهنوتية فيما يتعلق بالطقوس العائلية الأكثر تقييدًا؛ فهو كاهن لعبادة اللاريس والبانات؛ ويقدم تضحيات الأسرة لآلهة الأسرة؛ ويقرأ صلوات الأسرة في الأسرة المسيحية. ولكن مع نشوء القبيلة أو الأمة، وتعاظم الزعامة، فإن أشباح أو أسلاف العائلة الرئيسية أو الملكية هم الذين يتطورون إلى آلهة؛ ويصبح الزعيم الحي وأقاربه ممثلين طبيعيين لهم. وعلى هذا، ففي معظم الحالات، يصبح المنصب الكهنوتي مرتبطًا بمنصب الملك أو الزعيم. في الواقع، سنرى فيما بعد في الفصل التالي أن العديد من الملوك، كونهم من نسل الآلهة، هم أنفسهم آلهة؛ وأن هذا الاتحاد بين الصفات الملكية والإلهية له علاقة كبيرة بنمو كرامة الألوهية. ومع ذلك، أتنازل هنا عن هذه النقطة في الوقت الحاضر؛ يكفي أن نلاحظ في المرحلة الحالية من حجتنا أنه في عدد كبير من الحالات كانت الكهنوت والملكية متأصلة وراثية في نفس العائلات.

يقول السيد فريزر في كتابه "الغصن الذهبي": "كان الجمع بين اللقب الملكي والواجبات الكهنوتية أمراً شائعاً في إيطاليا واليونان القديمتين. ففي روما وغيرها من المدن الإيطالية كان هناك كاهن يُدعى ملك التضحية أو ملك الطقوس المقدسة (Sacrificulus Rex أو Rex Sacrorum)، وكانت زوجته تحمل لقب ملكة الطقوس المقدسة. وفي أثينا الجمهورية كان القاضي الثاني للدولة يُدعى الملك، وكانت زوجته الملكة؛ وكانت وظائف كل منهما دينية. وكانت العديد من الديمقراطيات اليونانية الأخرى لديها ملوك يحملون لقب الملك، ويبدو أن واجباتهم، بقدر ما هو معروف، كانت كهنوتية. وفي روما كان التقليد هو أن يتم تعيين ملك التضحية بعد طرد الملوك من أجل تقديم التضحيات التي كان الملوك يقدمونها من قبل. ويبدو أن وجهة نظر مماثلة سادت في اليونان فيما يتصل بأصل الملوك الكهنة. إن هذا الرأي في حد ذاته ليس مستبعداً، وهو ما تؤكده حالة أسبرطة، الدولة اليونانية الوحيدة التي احتفظت بالشكل الملكي للحكم في العصور التاريخية. ففي أسبرطة كان الملوك يقدمون كل القرابين للدولة باعتبارهم من نسل الإله. والواقع أن هذا الجمع بين

الوظائف الكهنوتية والسلطة الملكية أمر مألوف لدى الجميع. فقد كانت آسيا الصغرى، على سبيل المثال، مقراً للعديد من العواصم الدينية العظيمة، التي كان يسكنها الآلاف من "العبيد المقدسين"، ويحكمها البابوات الذين كانوا يمارسون السلطة الدنيوية والروحية في آن واحد، مثل باباوات روما في العصور الوسطى. ومن بين هذه المدن التي سيطر عليها الكهنة زيلا وبيسينوس. ويبدو أن الملوك التيوتونيين في الأيام الوثنية القديمة كانوا يشغلون مناصب الكهنة الكبار ويمارسون سلطاتهم. أما أباطرة الصين فكانوا يقدمون القرابين العامة، التي تنظم كتب الطقوس تفاصيلها. ولكن ليس من الضروري أن نذكر أمثلة كثيرة على ما هو القاعدة وليس الاستثناء في التاريخ المبكر للملكية.

وسوف نعود فيما بعد إلى علاقة أخرى بهذه العلاقة القديمة بين الملكية والكهنوت، والتي تنشأ بشكل طبيعي من العلاقة الأقدم بين الملك والإله.

إن الكهنوت الذي ينشأ بهذه الطريقة الخاصة، لا يمكن أن يحدث فيه تمييز كبير بين السلطة الدنيوية والسلطة الكنسية. ولكن هناك أصل ثانٍ للكهنوت وأكثر قوة، أقل تميزًا في بداياته، ولكنه أكثر حملًا للنتائج العظيمة في النهاية. فحيث يكون الملك كاهنًا، ومن نسل الآلهة، كما في بيرو ومصر، يبدو أن قوته البشرية المباشرة تطغى على قوة أسلافه الإلهيين وتقلل من شأنها. على سبيل المثال، لا يوجد تمثال لأوزوريس يبلغ نصف حجم تمثال رمسيس الثاني العملاق، والذي يرقد محطمًا إلى قطع ضخمة خارج المعبد الجنائزي للملك الذي يخلّد ذكراه، بين أنقاض طيبة. ولكن حيث تحصل طبقة كهنوتية منفصلة ومتميزة على إدارة الطقوس المقدسة بالكامل في يديها، نجد سلطة الآلهة ترتفع في كثير من الأحيان إلى مستوى أعلى من سلطة الملوك، الذين هم مجرد نواب لهم: حتى نحصل في النهاية على باباوات يملون على الأباطرة، وملوك أقوياء يقومون بالتكفير المتواضع أمام الأضرحة الباهظة الثمن لرؤساء الأساقفة المقتولين.

إن أصل الكهنوت المستقل أو شبه العبيد يكمن في مؤسسة "عبيد المعبد". الذين يتم تكليفهم كما رأينا بالفعل بأداء واجباتهم عند قبر الزعيم أو المحارب الميت. ومرة أخرى تقدم لنا مصر مثالاً رائعاً على أصل مثل هذه الكهنوتات. فعادة ما يوضع فوق عتبة كل من المقابر الشبيهة بالكهوف في بني حسن وسقارة نقش يحدد اسم وألقاب شاغلها المتوقع (لأن كل منها بُني أثناء حياة صاحبه)، مع دعاء يدعو له بإقامة طقوس جنازة مواتية، ومكان دفن جيد بعد حياة طويلة وسعيدة. ثم يتبع ذلك أمل تقوي بأن تتمتع الروح إلى الأبد بالدفع اللائق للقرابين الجنائزية، والتي عادة ما تُلحق بقائمة بها، إلى جانب بيان بالذكرى السنوية المختلفة التي كان من المستحق تقديمها فيها. ولكن النقطة التي تهمنا هنا بشكل خاص هي هذه: كان يتم تعيين الكهنة أو الخدم للتأكد من تقديم هذه القرابين على النحو اللائق؛ وكان يتم تخصيص المقبرة بممتلكات لغرض الاحتفاظ بالقرابين المعنية، وتوفير راتب أو أجر معيشة للكاهن. وكما سنرى فيما بعد، كانت مثل هذه الكهنوتات وراثية بشكل عام، وذلك لضمان استمرارها طوال كل العصور: وكانت ناجحة للغاية لدرجة أنه في كثير من الحالات استمرت العبادة لعدة مئات من السنين في المقبرة؛ حتى أن الشخص الذي مات في عهد الإمبراطورية المبكرة كان لا يزال يتلقى رسوم الجنازة في عهد ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

إنني أعرض هذه الحادثة التاريخية المثيرة للاهتمام بإسهاب لأنها واحدة من أشهر الحوادث، وهي أيضاً واحدة من أكثرها استمراراً. ولكن في كل مكان، وفي كل أنحاء العالم، حدثت تطورات مماثلة على نطاق أقصر. فقد تحول خدم المعبد، الذين وهبوا لأداء الطقوس المقدسة للروح أو الإله، إلى كهنة يعرفون عادات الساكن غير المرئي للضريح. وشيئاً فشيئاً، نشأت الوصفات؛ وتطورت العادات والطقوس؛ وأصبح الكهنة أمناء التقاليد الإلهية. وهم وحدهم يعرفون كيف يقتربون من الإله؛ وهم وحدهم يستطيعون قراءة العلامات الخفية لرضاه أو سخطه. وباعتبارهم وسطاء بين العابد والإله، فهم أنفسهم نصف مقدسين. وبدونهم، لا يستطيع أي تابع أن

يقترب بحق من ضريح راعيه. وهكذا يرتفعون في النهاية إلى أهمية أعلى بكثير من أصلهم؛ وتنشأ مهنة الكهنوت؛ ومن خلال تعظيم إلههم، يعظم أعضاء التسلسل الهرمي في نفس الوقت مناصبهم ووظائفهم.

وهناك سبب آخر لابد من الإشارة إليه بإيجاز. وهو أن الكتابة المصورة والهيروغليفية نشأتا على نحو خاص فيما يتصل بالمقابر والمعابد. ويحمل الكهنة على وجه الخصوص مفتاح هذه المعرفة. ففي مصر القديمة، على سبيل المثال المعروف، كانوا الطبقة المتعلمة؛ ثم عادوا إلى الطبقة المتعلمة مرة أخرى في ظروف أخرى في أوروبا في العصور الوسطى. وفي كل مكان نصادف فيه أسراراً مقدسة لا يعرفها إلا الكهنة؛ وحيث توجد الهيروغليفية، تصبح هذه الأسرار، إذا ما كتبت، ملكاً خاصاً للكهنة بمعنى أكثر خصوصية. وحيثما يتم التمييز بين الكتابة إلى هيراطيقية وديموطيقية، فإن الهوة بين عامة الناس والكهنة تتسع أكثر؛ فالكهنة يمتلكون مفتاحاً خاصاً للمعرفة، محرومين منه للعامة. وغالباً ما يؤدي الاعتراف بالكتب المقدسة إلى نفس النتيجة؛ فالكهنة بطبيعة الحال هم الأوصياء والمفسرون لهذه الكتب. لا أحتاج إلى إضافة أنه جنبًا إلى جنب مع زيادة العظمة المعمارية في المعبد، وزيادة الجمال الفني والتكلفة في الأصنام أو التماثيل وصور الآلهة، تزداد روعة الملابس الكهنوتية، والمحيط الكهنوتي، والطقوس الكهنوتية. أخيرًا، نحصل على احتفالات ذات طابع مهيب للغاية، مزينة بكل ملحقات الرسم والنحت، والشموع والزهور، والبخور والموسيقى، والأغطية الفاخرة والكراسي المرصعة بالجواهر، - احتفالات تُقام في الظل الخافت للمعابد الشاهقة، أو المساجد، أو الكنائس، تكريمًا لإله أو آلهة ذوي قوة وسلطة وجلال لا حدود لهما، والذين يجب في النهاية إرجاعهم إلى رجل ميت تاريخي أو ما قبل التاريخ، أو على الأقل إلى حجر مقدس أو عمود أو صورة، أو بقاياه وممثله.

وهكذا، فإن المومياء البدائية أو الشبح أو الروح، من خلال التقاء كل هذه التيارات، تتحول تدريجياً إلى إله يتمتع بمجد وعظمة وقداسة لا حدود لهما. أما الروح التي لا جسد لها، والتي تتحرر من القيود الضرورية للزمان والمكان، والتي يُنظَر إليها باعتبارها إلهاً، فإنها تُصوَّر على أنها خارقة للطبيعة البشرية على نحو متزايد، إلى أن تُنسى تماماً كل ذكرى لأصلها. ولكن قبل كل شيء، لاحظ هذه النقطة الغريبة: إن كل الآلهة أو القديسين أو الأشخاص الإلهيين الجدد، كل منهم في أول ظهور له، من أصل بشري واضح. وكلما وجدنا إلهاً جديداً يضاف من مصادر معروفة إلى مجموعة مألوفة من الآلهة، نجد دون استثناء أنه يتبين أنه إنسان. وكلما عدنا إلى الديانات البدائية للغاية، نجد أن كل آلهة البشر هي جثث أو أشباح أسلافهم. وفقط عندما نأخذ أعراقاً متقدمة نسبياً ذات تاريخ مبكر غير معروف نجدها تعبد عدداً معيناً من الآلهة التي لا يمكن تحليلها بسهولة وفوراً إلى بشر أموات أو أرواح. ولكن من المؤسف أن دارسي الأديان كانوا في أغلب الأحيان يولون اهتماماً خاصاً لتلك الأديان التاريخية التي كانت أبعد ما تكون عن النمط البدائي، والتي نصادف فيها عند أول ظهور لنا فكرة الألوهية المعقدة التي تطورت بشكل كامل. ومن ثم فإنهم يميلون إلى اعتبار فكرة الألوهية بدائية وليست مشتقة منها، وإهمال الاشتقاق الواضح للألوهية ككل من عبادة السلف المؤله وتبجيله. ولكن عندما نبتعد عن هذه الأديان التاريخية المتقدمة والمفرطة في التكلف إلى المفاهيم المبكرة للمتوحشين البسطاء، ندرك على الفور أنه لا توجد آلهة بالنسبة لهم سوى الجثث أو الأشباح؛ وأن الدين يعني أداء طقوس معينة وتقديم قرابين لهذه الجثث أو الأشباح؛ وأن الآلهة العنصرية أو الإدارية العليا غائبة تماماً. وحتى في الديانات التاريخية العظيمة ذاتها، كلما عدنا إلى الوراء، وكلما تعمقنا في البحث، اقتربنا من طبقة الأساس التي تتألف من الأشباح أو الآلهة الأسلاف. وحيثما كانت الأدلة، كما في مصر، أقدم وأكثر اكتمالاً، فإننا نلاحظ كيف أن آلهة الطبيعة الصوفية في المفاهيم الكهنوتية اللاحقة تتراجع، كلما عدنا إلى الوراء عصراً بعد عصر، أمام الآلهة الأسلافية الأكثر بساطة والأكثر إنسانية في الوثائق الأولى.

وسوف تكون مهمتنا في الفصول التالية من هذا العمل أن نفعل أكثر من ذلك - أن نظهر أن العنصر الذي يبدو أنه غير قابل للحل في الديانات اللاحقة، بما في ذلك الإله العبري يهوه نفسه، يمكن أن يُنسب بشكل مماثل من خلال أدلة لا شك فيها إلى المفهوم البدائي لشبح أو سلف.

الفصل الخامس - الأحجار المقدسة.

لقد ذكرت في الفصل الأخير مصدرين للأصنام لم يوليهما السيد هربرت سبنسر القدر الكافي من الاهتمام، وهما الحجر المقدس والوتد الخشبي الذي يشير إلى القبر. وسأضيف إلى هذين المصدرين الآن موضوع عبادة ثالث مشترك، وهو لا يدخل في نشأة الأصنام، ولكنه ذو أهمية كبيرة في الأديان المبكرة: الشجرة المقدسة، بشكلها الجماعي، أو البستان المقدس. وتتطلب كل الأشياء المذكورة مزيدًا من الاهتمام، سواء من حيث أهميتها العامة في تاريخ الأديان، أو من حيث أهميتها الخاصة فيما يتصل بتطور إله إسرائيل، الذي أصبح في الوقت المناسب إله المسيحية والإسلام، وكذلك إله التوحيد المثالي والمتعالي الحديث.

سأبدأ بالتفكير في الحجر المقدس، ليس فقط لأنه الأهم من بين الثلاثة، ولكن أيضًا لأنه، كما سنرى قريبًا، يقف في الخط المباشر لنسب إله إسرائيل.

في كل أنحاء العالم، وفي كل فترات التاريخ، نجد بين أكثر الأشياء التي يعبدها البشر شيوعًا كتلًا من الحجر، إما تم تشكيلها وتجهيزها يدويًا بشكل غير متقن، أو غالبًا ما تقف بمفردها على الأرض بكل خشونة طبيعتها. تنتشر في كل مكان سفوح إنجلترا هياكل حجرية ضخمة (تعتبر هياكل حجرية ثلاثية ضخمة في ستونهنج وأفبري أشهر الأمثلة عليها)، والتي وصفها علماء الآثار منذ فترة طويلة بأنها "بقايا درويدية"، ولا شك أن سكان بريطانيا القدماء كانوا ينظرون إليها بقدر هائل من الاحترام والتبجيل. في فرنسا لدينا جادات كارناك ولوكمارياكر التي لا نهاية لها؛ وفي سردينيا، توجد أعمدة مخروطية غريبة يعرفها الفلاحون المحليون باسم sepolture dei giganti - مقابر العمالقة. في سوريا، وصف الرائد كوندر آثارًا مماثلة في هيث وموآب، وفي جلبوع وحشبون .في الهند، تُنصَب خمسة أحجار في زاوية حقل، وتُطلى باللون الأحمر، ويعبدها السكان الأصليون باعتبارها الباندافا الخمسة. ويخبرنا ثيوفراستوس أن من سمات الرجل الخرافي أنه يدهن بالزيت الأحجار المقدسة في زوايا الشوارع؛ ومن تقليد

قديم مضمن في الكتب المقدسة العبرية تتعلم كيف نصب البطريرك يعقوب حجراً في بيت إيل "كعمود"، و"صب الزيت على قمته"، كعمل مماثل من أعمال العبادة. وحتى في أيامنا هذه، يوجد في إنجلترا مائة شخص حيث يتم افتتاح الفناء المفتوح القديم للقصر بمراسم كسر زجاجة نبيذ على حجر قائم يعلو تلة؛ ولا يزال ملوك المملكة المتحدة يتوجون على كرسي يحيط تحت مقعده الحجر المقدس الذي كان يستخدمه أسلافهم الوثنيون من اسكتلندا وأيرلندا.

فما هو دور هذه الأحجار المقدسة في نشوء العادة الدينية ونموها؟

لا أظن أن من الضروري أن نثبت رسمياً حقيقة مألوفة مفادها أن وضع حجر عمودي على قبر شخص ما هو أحد أكثر الطرق شيوعاً لتحديد مكان دفنه. فمن العمود القديم الذي أقامه المتوحشون في عصور ما قبل التاريخ فوق قبر زعيمهم الميت، إلى شواهد القبور التي تميز التلة الصغيرة المتقزمة في مقابرنا الإنجليزية، كانت ممارسة البشر واحدة ومتواصلة. ففي بعض الأحيان يكون الحجر صخرة خشنة من الحقول؛ وهو يمثل الكتلة الضخمة التي يضعها المتوحشون على القبر لمنع الجثة من الارتفاع؛ وفي بعض الأحيان يكون عبارة عن لوح مستطيل من الأردواز أو الرخام؛ وفي بعض الأحيان، وخاصة بين الأجناس الأكثر تقدماً، يكون عبارة عن صليب جميل أو نصب تذكاري منحوت. ولكن كلما مارس الناس الدفن على الأرض، فإن هناك حجارة من نوع ما، منفردة أو مكدسة، تحدد مكان الدفن في كل الأحوال تقريباً.

مرة أخرى، وكما تُقَدَّم الهدايا والتضحيات عند القبور لأرواح الموتى، فإن هذه الهدايا والتضحيات تُقَدَّم غالبًا عند الحجر الذي يسجل آخر مكان لراحة الميت. والواقع أننا نعلم أنه في جميع أنحاء العالم، تُقَدَّم قرابين من النبيذ والزيت والأرز والسمن والذرة واللحوم باستمرار عند قبور الزعماء أو الأقارب. وتُقَدَّم الضحايا، سواء من البشر أو غيرهم، عند القبر، وتُلطخ دماؤهم باستمرار على حجر القبر أو الصخرة التي تحدد

المكان. والواقع أنه بعد فترة من الوقت، يختلط القبر بالحجر، ويصبح المكان نفسه مقدسًا إلى حد ما، مستمدًا من الشبح الذي يطارده ويسكنه.

تم التعرف على أربعة أنواع مميزة من شواهد القبور المبكرة في القارة الشرقية على الأقل، وقد وصف الرائد كوندر توزيعها وطبيعتها على النحو التالي: "تم العثور على آثار حجرية خشنة، تحمل تشابهًا عائليًا قويًا في طريقة بنائها وأبعادها، موزعة على جميع أنحاء أوروبا وغرب آسيا، وتوجد أيضًا في الهند. في بعض الحالات، يمكن نسبها إلى القبائل الآرية المبكرة؛ وفي حالات أخرى يبدو أنها من أصل سامي. وهي تشمل المينهير، أو الحجارة الدائمة، التي أقيمت كنصب تذكارية، وعبدت كآلهة، مع سكب القرابين من الدم أو الحليب أو العسل أو الماء على الحجارة: الدولمن، أو الطاولات الحجرية، القائمة بذاتها - أي غير مغطاة بأي تل أو بنية فوقية، والتي يمكن اعتبارها بلا شك أنها كانت تستخدم كمذابح تم التضحية بالضحايا (غالبًا من البشر) عليها: الأكوام الحجرية، التذكارية أيضًا، وأحيانًا المينهير المحيطة بها؛ وقد تم صنع هذه الهياكل من خلال مساهمات العديد من الزوار أو الحجاج، حيث أضاف كل منهم حجرًا كشاهد على وجوده: وأخيرًا، تم استخدام الدوائر الحجرية، أو الدوائر الحجرية، كمحاطات مقدسة أو معابد هيبيثرالية مبكرة، وغالبًا ما كانت تحتوي على منهير أو دولمن مركزي كتمثال أو مذبح.

لا شك أن كل واحدة من هذه المعالم الأثرية ذات طابع قبري في الأساس. فالمنهير أو الحجر القائم هو حجر القبر العادي الذي لا يزال يستخدم بيننا؛ والدولمن عبارة عن قبر به حجرات، كان مغطى ذات يوم بتل، ولكنه الآن عار ومكشوف؛ والكومة الحجرية عبارة عن كومة من الحجارة مكدسة فوق الجثة؛ والدائرة الحجرية هي على ما يبدو معبد تم بناؤه لاحقًا حول قبر، يحدد موقعه المنهير أو حجر المذبح في وسطه. وكل منها كان والدًا لنسل كبير. فالمنهير هو الذي أدى إلى ظهور المسلة والصليب الحجري والتمثال أو الصنم؛ والدولمن إلى التابوت وقبر المذبح والمذبح العالي؛

والكومة الحجرية إلى القمة وأيضًا إلى الهرم؛ والكرومليك أو الدائرة الحجرية إلى المعبد أو الكنيسة في أحد تطوراتها العديدة على الأقل.

ويلاحظ الرائد كوندر أن كل فئة من هذه الفئات من الآثار لها اسمها المميز في اللغات السامية، وكثيراً ما يُذكَر اسمها في الأدب العبري المبكر. فالمنهير هو "العمود" في نسختنا المعتمدة من العهد القديم؛ والدولمن هو "المذبح"؛ والكومة الحجرية هي "الكومة"؛ والدائرة الحجرية تظهر تحت اسمي الجلجال وحاصور. وسوف تظهر أهمية هذه الحقائق في وقت لاحق قليلاً عندما أصل إلى مرحلة أكثر تقدماً في تطور عبادة الحجارة.

في أبسط مراحل الدين وأكثرها بدائية، مثل عبادة الأسلاف الخالصة التي لا تزال باقية دون اختلاط بين أهل غينيا الجديدة أو القبائل الأفريقية التي وصف لنا السيد دوف ماكدونالد ممارساتها بإعجاب شديد، فإن الجثة أو الشبح نفسه، وليس الحجر الذي يميز مسكنه، هو الذي يحظى بكل التبجيل وجميع الهدايا التي يقدمها الناجون المبجلون. ولكن يجب أن نتذكر أن كل دين موجود، مهما كان بدائيًا في نوعه، أصبح الآن قديمًا جدًا؛ ومن الطبيعي تمامًا أن يُنظر إلى الحجر في كثير من الحالات على أنه الشبح أو الإله، أو الهدف الذي يقدسه أفراد القبائل. في الواقع، تمامًا كما يتطور الشبح إلى إله، يبدأ حجر القبر في التطور إلى صنم أو صنم.

ولكن في البداية، لا يتقبل هذا الصنم في هذا الشكل سوى عبادة أتباعه باعتباره حجرًا خشنًا غير متناسق الشكل. وهذه هي المرحلة التي أطلق عليها هذا الاسم المضلِّل "التعويذة"، ويُفترَض خطأً أنها تشكل الأساس الحقيقي لكل دين. وفيما يلي بعض الأمثلة المثيرة للاهتمام لهذه المرحلة من عبادة الحجر، مأخوذة من المجموعة الساموية الدقيقة للغاية التي جمعها السيد تيرنر، من جمعية لندن التبشيرية:

"كان اسما الحجرين المستطيلين الأملس اللذين كانا قائمين على منصة مرتفعة من الحجارة المتساقطة في الداخل في إحدى القرى، وهما "فونجي" و"توافا". وكان من المفترض أنهما والدا "ساتو"، الإله الذي كان يتحكم في المطر. وعندما كان الزعماء والشعب على استعداد للذهاب لأسابيع إلى أماكن معينة في الأدغال لممارسة رياضة صيد الحمام، كانت القرابين من القلقاس المطبوخ والأسماك توضع على الحجارة، مصحوبة بالصلاة من أجل طقس جيد وعدم هطول الأمطار. وكان أي شخص يرفض تقديم القرابين للحجارة يُنظر إليه باستياء؛ وفي حالة هطول الأمطار كان يُلام ويُعاقب لأنه جلب غضب إله الطقس الجيد، وأفسد رياضات الموسم".

هنا، حتى لو شكك المرء في أن ساتو كان طبيب طقس متوفى، وأن فونج وتوفا هما والده ووالدته (وهو ما لا أرغب في الإصرار عليه)، فمن الواضح على الأقل أننا نتعامل بشكل أساسي مع حجرين قائمين من نفس النوع تمامًا مثل تلك التي تميز عادة الدفن.

عن آلهة جزيرة هدسون، يقدم السيد تيرنر هذه الرواية المثيرة للاهتمام والمثيرة للاهتمام:

"كان فولانجي وماوماو الإلهين الرئيسيين. وكان لكل منهما معبد؛ وتحت المذابح، التي كانت توضع عليها في صفوف جماجم الزعماء والشعب الراحلين، كانت تُعلَّق قرابين من أصداف اللؤلؤ وغيرها من الأشياء الثمينة. وكان لدى فولانجي كتلة حجرية غير منحوتة لتمثله . شيء أشبه بحجر قبر يبلغ ارتفاعه ستة أقدام.... وكانت قرابين الطعام تُؤخذ إلى المعابد، حتى يتمكن الآلهة من المشاركة أولاً قبل أن يأكل أي شخص آخر أي شيء.... وكانت توضع جوز الهند المقشر، واحدة أمام كل جمجمة."

ويكتب عن جزيرة القديس أوغسطين: "في معبد ماوماو كانت هناك لوحة من الحجر الرملي المرجاني بارتفاع تسعة أقدام من الشاطئ.... وكانت توضع القرابين اللحمية على المذابح، مصحوبة بالأغاني والرقصات تكريماً للإله".

وعلى نحو مماثل، يقول السيد تيرنر عن إحدى شركات مجموعة جيلبرت:

"كان لديهم آلهة أخرى، وكما كان شائعًا في هذه المجموعة، كان لديهم ألواح أو أعمدة من الحجر الرملي منصوبة هنا وهناك بين المنازل. أمام هذه الأضرحة كانت توضع قرابين الطعام أثناء النهار، والتي كان الكهنة يأخذونها خلسة ليلاً ويجعلون السذج يعتقدون أن الآلهة وليس البشر هم من فعلوا ذلك. إذا كانت اللوحة الحجرية تمثل إلهة، فإنها لم تكن توضع منتصبة، بل كانت توضع على الأرض. ولأنها سيدة، فقد اعتقدوا أنه سيكون من القسوة إجبارها على الوقوف لفترة طويلة."

في هذه الحالات، وفي حالات أخرى كثيرة، يبدو لي واضحاً أن حجر القبر الأصلي أو المنير نفسه هو موضوع العبادة، ويُنظَر إليه باعتباره مسكناً للشبح أو الإله الذي شُيِّد على شرفه. ففي ساموا نعلم أن القبر "كان مميزاً بكومة صغيرة من الحجارة، يبلغ ارتفاعها قدماً أو قدمين"، وفي جزيرة دي بيستر "رفع حجر عند رأس القبر، ونُحِت عليه رأس بشري" . وهي الخطوة الأولى، كما رأينا بالفعل، نحو تطور أحد أشكال الأصنام.

إن الأمثلة المشابهة كثيرة في كل مكان. ففي الهند، لكل قرية إلهها المحلي، الذي يمثله حجر قائم تحت شجرة كبيرة في الحقل الأخضر، وهو ما يعادله في اللغة الإنجليزية بصراحة. (ولن ندرك الأهمية الكاملة لهذا المزيج المشترك من الحجر المقدس والشجرة المقدسة إلا في مرحلة لاحقة من بحثنا). وفي بيرو، كان الناس يعبدون الحجارة القائمة، والتي يقول الدكتور تايلور إنها "تمثل معابد الأسر والآلهة الراعية للقرى" . أو بعبارة أخرى، أشباح الأجداد وزعماء القبائل. ويقول الماركيز دي

نادایاك: "قرب أكورا، كانت الجثث توضع تحت أحجار ضخمة، تذكرنا بالدولمنات والكرومليك في أوروبا. وهناك سهل شاسع مغطى بأحجار قائمة، بعضها على شكل دوائر، وبعضها الآخر على شكل مربعات، وكثيراً ما كانت مغطاة بألواح كبيرة كانت تغلق تماماً حول حجرة القبر". في فيجي، كان الآلهة والإلهات "يقيمون مساكنهم أو أضرحتهم في حجارة سوداء تشبه معالم دائرية ملساء، وكانوا يتلقون هناك قرابينهم من الطعام". وقد جمع الدكتور تايلور وغيره من علماء الأنثروبولوجيا عددًا هائلاً من الحالات المماثلة.

ولكن عندما ترسخت فكرة قدسية الأحجار في عقول البشر، كان من الطبيعي أن يُنظَر إلى أحجار أخرى تشبه تلك التي كانت معروفة بالفعل باعتبارها آلهة، باعتبارها آلهة بحد ذاتها، أو باعتبارها تحتوي على روح أو إله يسكنها. ومن هذه المرحلة، تقدم لنا ساموا التي رسمها السيد تيرنر بعض الأمثلة الغريبة.

"كانت الأحجار الملساء التي يتم انتشالها من قاع النهر تعتبر ممثلين لآلهة معينة، وحيثما كان الحجر، كان من المفترض أن يكون الإله. وكانوا يوجهون الصلاة إلى حجر يشبه السمكة باعتباره إله الصيادين. وكانوا يوجهون الصلاة إلى حجر آخر يشبه البطاطا، باعتباره إله البطاطا. وكانوا يوجهون الصلاة إلى حجر ثالث مستدير مثل فاكهة الخبز، باعتباره إله فاكهة الخبز. وهكذا."

والآن، فإن كلمة "ظاهريًا" التي استخدمها هذا المراقب الحذر للغاية في هذا المقطع تُظهر بوضوح أنه لم ير قط من علمه حجرًا تم اختياره عشوائيًا على هذا النحو يُعبد أو يُقدَّس، ومن ثم فمن الممكن أن يكون الحجر في كل هذه الحالات من أصل قبري. ومع ذلك، أتفق مع السيد سبنسر في أنه بمجرد أن تتطور فكرة الشبح أو الإله بشكل جيد، فإن فكرة مثل هذه الروح التي تنشط أي شيء ملحوظ أو غريب المظهر هي انتقال طبيعي*

* تم تناول الموضوع بأكمله بشكل رائع في
مبادئ علم الاجتماع، المادة 159.

ومن ثم فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن السيد تيرنر على حق، وأن هذه الأحجار ربما تم اختيارها وعبادتها بالفعل، لمجرد غرابتها، ولكن دائمًا، كما يستنتج بشكل صحيح، من الاعتقاد في ارتباطها بإله أو روح.

وهنا حالة أخرى، أيضًا من بولينيزيا، حيث لا يبدو أن هناك ارتباطًا مباشرًا بأي قبر معين:

"كان هناك حجران غير محفورين من ""الصخور الملساء"" في معبد بإحدى القرى، وكانا يحرسان بعناية فائقة. ولم يكن يُسمح لأي شخص غريب أو فضولي بالاقتراب من المكان، تحت طائلة الضرب من قِبَل حراس هذين الإلهين. كانا يمثلان آلهة طيبة وليست خبيثة تسبب الموت. كان أحدهما يصنع البطاطا والخبز وجوز الهند، وكان الآخر يرسل الأسماك إلى الشباك.

"وكان هناك حجر آخر تم وضعه بعناية في قرية أخرى كممثل لإله المطر. وعندما هطلت الأمطار بغزارة، كان يتم وضع الحجر بجوار النار وإبقائه ساخنًا حتى يتحسن الطقس."

إن هناك أمثلة أخرى (إذا تم توثيقها بشكل منصف) تحدث في أماكن أخرى. يقول الدكتور تايلور، ملخصاً لسكولكرافت: "من بين الأعراق الدنيا في أمريكا، كان أهل داكوتا يلتقطون صخرة مستديرة ويرسمونها، ثم يخاطبونها باعتبارها جدهم، ويقدمون لها القرابين، ويصلون إليها لإنقاذهم من الخطر". ولكن حقيقة عبادة الحجر ومعاملته باعتباره أحد الأسلاف هنا تظهر مدى تبعية التأليه . ومدى اعتماده على الارتباط السابق بين مثل هذه الأحجار ومقبرة أحد الأسلاف وروحه الساكنة فيه.

وعلى نفس النحو نعلم أن هناك بلداناً حيث يتم تحديد القبور بشكل عام، ليس بالحجارة، بل بوتد خشبي؛ وفي هذه البلدان، كما هو الحال بين قبائل ساموييد في سيبيريا على سبيل المثال، فإن العصي، وليس الحجارة، هي أكثر الأشياء التي يتم التبجيل بها. (وهكذا، مرة أخرى، نجد عبادة العصا "بين الدامارا في جنوب أفريقيا، حيث يتم تمثيل أسلافهم في الأعياد التضحية بأوتاد مقطوعة من الأشجار أو الشجيرات المكرسة لهم، والتي يتم تقديم اللحوم إليها أولاً"). ولكن هنا أيضًا، نرى الانتماء الواضح إلى عبادة الأسلاف؛ وفي الواقع، حيثما نجد العبادة الشائعة لـ "الأعواد والحجارة"، فإن كل القياسات تقودنا إلى الاعتقاد بأن الأعواد والحجارة إما أن تكون في الواقع علامات على قبور الأسلاف أو يتم قبولها كممثلين وتجسيدات لهم.

ولكن الغالبية العظمى من الأحجار المقدسة التي نعرف تاريخها جيداً ترتبط بلا شك بمقابر قديمة أو حديثة. وجميع الأحجار المقدسة الأوروبية عبارة عن كرومليش أو دولمن أو تريليثون أو منهير، ويلاحظ السيد أنجوس سميث، وهو من أشد الخبراء حذراً، بشكل قاطع: "نحن نعلم على وجه اليقين أن النصب التذكارية للدفن هي الهدف الرئيسي للأول، وهي الهدف الوحيد على ما يبدو بالنسبة لجميع الأحجار المقدسة تقريباً". وسوف تظهر العديد من الأمثلة الأخرى بشكل عرضي في سياق الجزء الثاني، ولن أطيل الحديث عن هذه النقطة الآن. ولكن من بين الأمثلة الأكثر إثارة للاهتمام، لا يمكنني الامتناع عن ذكر الأحجار المقدسة السردينية العظيمة، والتي توجد غالبًا في جوار نوراجي، أو الحصون القديمة. وتتكون هذه الأحجار من أحجار مخروطية ضخمة، خشنة وغير منحوتة في الأمثلة الأقدم، ومنحوتة بشكل بدائي في الأمثلة اللاحقة، وتشبه أحيانًا وجهًا بشريًا - المسودة الأولية للصنم المستقبلي. "خلف الصخرة الضخمة يقع مكان الدفن، ويبلغ طوله من عشرة إلى أربعة عشر ياردة وعرضه من ياردة إلى اثنتين." وقد قام الأباتي سبانو بفحص أماكن الدفن هذه.

"لقد اقتنع بأن العديد من الجثث دُفنت معًا في نفس القبر، وبالتالي كانت هذه مقابر عائلية. وعندما حدثت وفاة أحد أفراد القبيلة، تمت إزالة أحد الأحجار العرضية الضخمة التي كانت تغطي الزقاق الطويل المبني خلف الحجر الضخم، ثم تم استبداله حتى حان الوقت لجسد آخر ليطالب بمكانه في القبر. الحجر الضخم، الذي أطلق عليه الفلاحون السردينيون اسم pietra dell' altare، أو حجر المذبح، لأنهم يعتقدون أنه كان يستخدم للتضحية البشرية، يواجه الجنوب أو الشرق دائمًا."

من المؤكد أن هذا التقليد الباقي فيما يتعلق بالتضحيات البشرية، في جزيرة غير متطورة مثل سردينيا، قد انتقل إلينا دون انقطاع منذ سن مبكرة للغاية.

لقد ذكرت بالفعل أن الصنم ربما يكون في كثير من الحالات مشتقًا من حجر القبر أو من حجر مقدس آخر. وأعتقد أنه في عدد هائل من الحالات يكون الصنم ببساطة العمود الأصلي، المنحوت بشكل أو بآخر على هيئة شكل بشري.

يمكننا أن نفهم بسهولة كيف يحدث هذا إذا تذكرنا أنه من خلال الانتقال التدريجي للعاطفة، يتم التعرف على الحجر نفسه أخيرًا بالروح المرتبطة به. وهنا، مرة أخرى، مثال انتقالي من مستودعنا البولينيزي.

كان من المفترض أن يتجسد الإله العظيم لجزيرة بوديتش في حجر ملفوف بعناية بحصائر رقيقة، ولا يراه أحد سوى الملك (لاحظ هذه اللمسة المميزة للكهنوت الملكي)، "وذلك مرة واحدة فقط في السنة، عندما يتم نزع الحصير المتحللة وإلقائها بعيدًا. وفي حالة المرض، يتم أخذ قرابين من الحصير الرقيقة ودحرجتها حول الحجر المقدس، وبالتالي يتم تضخيمه إلى حجم هائل؛ ولكن مع تعرض الصنم للطقس في الهواء الطلق، ليلًا ونهارًا، سرعان ما تعفن الحصير. لم يجرؤ أحد على الاستيلاء على ما تم تقديمه للإله، وبالتالي تم تكديس الحصير القديمة، بمجرد إزالتها، في مكان بمفردها وتركها لتتعفن".

إن معقولية كل هذا تتضح على الفور إذا تذكرنا أن الأحجار التي تقف على القبور تُعبَد عادةً، وتُدهن بالزيت واللبن والدم. ولا يعدو الأمر أن نعتبر الأحجار ليست مجرد طعام وشراب، بل تحتاج أيضًا إلى الدفء والملابس. وكمثال رائع على نفس السلسلة من الأفكار، ولتحقيق نفس النتيجة في مكان آخر، قارن هذا الحساب الغريب لصنم حجري في إينيسكيا (جزيرة صخرية قبالة ساحل مايو)، الذي قدمه إيرل رودن، في أواخر عام 1851، في كتابه "تقدم الإصلاح في أيرلندا": "في الجزيرة الجنوبية، في منزل رجل يُدعى مونيجان، كان هناك صنم حجري، يُدعى في الأيرلندية "نيفوغي"، يُحفظ ويُعبد منذ زمن سحيق. يشبه هذا الإله في مظهره لفافة سميكة من الفانيلا المصنوعة منزليًا، والتي نشأت من عادة إهداء ثوب من تلك المادة له كلما طُلب منه مساعدته؛ "يخيط هذا التمثال امرأة عجوز، وهي كاهنته، وهي تهتم به عناية خاصة. لا يمكن الحصول على معلومات موثوقة عن التاريخ المبكر لهذا التمثال، ولكن يُعتقد أن قوته هائلة؛ فهم يصلون إليه في وقت المرض؛ ويلجأون إليه عندما يرغبون في حدوث عاصفة لإسقاط سفينة بائسة على ساحلهم؛ ومرة أخرى، يُطلب استخدام قوته في تهدئة الأمواج الغاضبة، للسماح بالصيد أو زيارة البر الرئيسي."

ولا يعد هذا مثالاً منفرداً في أوروبا الحديثة. يقول الدكتور تايلور: "في بعض المناطق الجبلية في النرويج، اعتاد الفلاحون حتى نهاية القرن الماضي على حفظ الأحجار المستديرة، وغسلها كل مساء يوم الخميس، و... دهنها بالزبد أمام النار، ووضعها على كرسي الشرف على القش الطازج، وفي أوقات معينة من العام ينقعونها في البيرة، حتى تجلب الحظ والراحة للمنزل".

إن الخطوة الانتقالية الأولى نحو التمثال الحقيقي قد جاءت في محاولة فظة لجعل الحجر القائم عند القبر يشبه إلى حد كبير شكل الإنسان. ففي الأمثلة السردينية اللاحقة، يبدو أن كتلتين مخروطيتين تمثلان الثديين تشيران إلى أن الشكل المقصود

هو أن يكون أنثى. إما لأن امرأة مدفونة هناك، أو لوضع المكان تحت حماية إلهة. ومن هذه البداية الفظة نصل إلى كل شكل انتقالي، مثل هيرميه وأبلوس القديم، حتى نصل إلى الحرية والجمال الكاملين للنحت اليوناني. يقول جروت، في حديثه عن العبادة اليونانية: "إن النصب التذكاري البدائي الذي أقيم لإله لم يكن يتظاهر حتى بأنه صورة، بل كان في كثير من الأحيان لا يزيد عن عمود أو لوح أو حجر بلا شكل أو عمود [لاحظ التشابه مع علامات القبور العادية] يتلقى الرعاية والديكور من الحي فضلاً عن العبادة". يقول الدكتور تايلور، الذي أدين له بتقدير كبير لمجموعته الكبيرة من الأمثلة، في تعليقه على هذا المقطع: "كانت هذه هي الجذع الذي كان يرمز إلى أرتميس في أوبيا؛ والوتد الذي كان يمثل بالاس أثينا " sine effigie rudis palus, et informe lignum"؛ والحجر غير المشغول في هيثوس، الذي كان يمثل "حسب الطريقة القديمة" هرقل؛ والثلاثين حجرًا من هذا القبيل التي عبدها الفراعنة على نحو مماثل للآلهة؛ والحجارة التي نالت مثل هذا التكريم في مهرجانات بويوتيا لتمثيل إيروس ثيسبيا". كان هذا أيضًا العمود المخروطي من النوع الآسيوي الذي كان يقف بدلاً من صورة أفروديت بافي، والحجر المخروطي الذي كان يُعبد في أتيكا تحت اسم أبولو. كانت هناك صخرة مقدسة تقع أمام معبد الطروادبين، بينما حملت صخرة أخرى في أرغوس الاسم المهم لزيوس كابوتاس. يقول بوسانياس: "كان اليونانيون يعبدون الحجارة الخام أمام تماثيل الآلهة". وعلى نحو مماثل، كان الساميون يقدسون ملكارت في صور على هيئة عمودين حجريين.

إن الأشكال الوسيطة التي يتخذ فيها الحجر وجهاً، ثم رأساً، ثم ذراعين، ثم ساقين، ثم جسداً متناسقاً ومصنوعاً بشكل جيد، مألوفة لنا جميعاً في البقايا الموجودة. وتشكل تماثيل بريابوس الشهيرة مثالاً انتقالياً جيداً. يقول البروفيسور روبرتسون سميث: "في تبالا، في شبه الجزيرة العربية، نُحت نوع من التاج على حجر اللات ليمثل رأسها". والواقع أن العمود أو النوع المتراص يُقترَح باستمرار في وضعية التمثال المنتصب ونسبه بين جميع الأمثلة اليونانية، باستثناء أعلى الأمثلة. وأود أن أضيف

أنه حتى في الإسلام نفسه، الذي يحظر بشدة أي نوع من الصور، لا يزال من الممكن العثور على بعض آثار شواهد القبور المجسمة. لقد لاحظت في مسجد محمد علي في القاهرة أن شواهد قبور أسرة نائب الملك كانت مزينة بطربوش وشراشيب.

ومن الجدير بالذكر أن المسلة ترجع أصلها بلا شك إلى الحجر المنتصب. ومهما كانت قدسيتها الجديدة التي اكتسبتها فيما بعد من ارتباطها بعبادة الشمس، باعتبارها شعاعاً من أشعة الشمس، فإنها لا تستطيع أن تخفي عن أي باحث أنثروبولوجي واسع النطاق حقيقة مفادها أنها بالأصل مجرد حجر قبر بلا شكل، وقد أعطيت لها معنى رمزي جديد (كما يحدث في كثير من الأحيان) في دين جديد. ومن الواضح أن المسلتين اللتين تقفان في كثير من الأحيان أمام المعابد المصرية تشبهان العمودين اللذين أقامهما ملكارت في صور، والزوج المقدس في بافوس، وهيرابوليس، ومعبد سليمان. وعلى نحو مماثل، فإن التمثال الهندي والهرم من نسل الكومة الحجرية، كما يبدو أن المقابر الحجرية الضخمة التي بناها ملوك نوميديا في الجزائر هي معادلات أكثر تقدماً للتلال أو التلة المستديرة. "ولأوضح هنا ما سأقوله بعد ذلك، فأضيف بكل تأكيد أن نشأة عبادة الحجر التي تم توضيحها هنا تستبعد إمكانية أن تكون عبادة القضيب شكلاً بدائياً منها بأي حال من الأحوال. ربما كان الحجر القائم، ولا شك أنه كان كذلك في كثير من الأحيان، في مراحل لاحقة؛ متماثلاً مع القضيب؛ ولكن إذا كانت النظرية التي ندافع عنها هنا صحيحة، فإن اللنغام، بدلاً من أن يكون في جذر الحجر الضخم، لابد وأن يكون شكلاً لاحقاً ومشتقاً منه. وفي الوقت نفسه، بما أن الحجر يُعتبر سلف العائلة، فليس من غير الطبيعي أن ينحته الرجال الأوائل في بعض الأحيان على شكل قضيب. وبعد أن قلت هذا، فلن أقول المزيد عن هذا الموضوع، الذي لا علاقة له حقًا بأساسيات عبادة الحجر، باستثناء أن القضيب كان يمثل الجنس الذكري لشاغل الحجر على العديد من شواهد القبور التي تعود إلى العصور المبكرة، في حين كان الثديان، أو المثلث الرمزي، أو المندورلا، يمثلان قبر المرأة.

في بعض الأحيان، يتواجد كلا الشكلين من أشكال الإله، الأكثر بدائية والأكثر اكتمالاً، الحجر الخام والتمثال المثالي، جنبًا إلى جنب في نفس المجتمع.

يقول السير ويليام هانتر: "في الأصل الأسطوري لجاغانات، نجد السكان الأصليين يعبدون حجرًا أزرق في أعماق الغابة. لكن الإله سئم في النهاية من القرابين البدائية في الغابة، وتوق إلى الطعام المطبوخ للآريين الأكثر تحضرًا، الذين عند وصولهم إلى المشهد، يفسح الحجر الأزرق الخشن مكانه لتمثال منحوت. في الوقت الحاضر، في كل قرية من قرى أوريسا، توجد هذه العبادة المزدوجة. لدى عامة الناس حجرهم أو كتلتهم عديمة الشكل، والتي يعبدونها بطقوس بسيطة في الهواء الطلق؛ بينما يقف بجانبها معبد لأحد الآلهة الآرية، مع صنمه المنحوت وطقوسه المعقدة".

إننا لا نستغرب أن تنتشر بين الناس فكرة أن الإنسان ينحدر من حجارة، حيث توجد العديد من الأحجار المقدسة في كل مكان، والتي تميز قبور الموتى، أو تسكنها أرواحهم. ومن غير المستغرب أن يبدأ الشعور العام بالاحترام تجاه كل الأحجار في الظهور. وأن يُنسب إلى الحجر في حد ذاته، وخاصة إذا كان ضخماً أو غريباً أو بارزاً، إلى حد ما، طابع إلهي ساكن. ولا عجب أيضاً أن تنتشر فكرة أن الإنسان ينحدر من حجارة بين الناس الذين كثيراً ما كانوا في شبابهم يرون شواهد القبور، أو الأحجار الضخمة، أو الصخور، أو الأحجار الصغيرة، ويقال لهم إن القرابين التي تُقدم عليها كانت هدايا لأسلافهم. وسوف يقبلون هذه الفكرة بنفس السهولة التي يقبل بها أبناؤنا الأسطورة العبرية عن خلق آدم، سلفنا الأول، من "تراب الأرض". وهي مادة أقل وعداً من كتلة من الرخام أو الحجر الرملي. بهذه الطريقة، يبدو لي، أنه يمكننا أن نفهم بسهولة القصص العديدة عن الرجال الذين أصبحوا حجارة، والحجارة التي أصبحت بشرًا، والتي تنتشر في أساطير الشعوب المتوحشة أو البربرية.

يقول فرنانديز دي بيدراهيتا إن أهل لاكيس "عبدوا كل حجر باعتباره إلهاً، لأنهم قالوا إن كل هذه الأحجار كانت بشراً". ويخبرنا أرياجا أن أهل بيرو كانوا يكرمون "أحجاراً

ضخمة للغاية، قائلين إنها كانت بشراً ذات يوم". وفي التقرير الأمريكي لمكتب الإثنولوجيا لعام 1880، تروي العديد من القصص عن تحول البشر إلى حجارة من أساطير الإيروكوا. ووفقاً لدورمان، يزعم أهل أونيدا وداكوتا أنهم ينحدرون من الحجارة، التي يعزون إليها الحياة. وهناك شكل وسيط مثير للاهتمام، يوضح نمو هذه الفكرة، في تصريح أرياجا بأن ماركايوك، أو الصنم الذي كان يعبد في بيرو باعتباره راعي القرية، "كان في بعض الأحيان حجراً وفي أحيان أخرى مومياء": بعبارة أخرى، كان الأمر يتوقف على الظروف سواء كانوا يقدسون الجسد نفسه أو حجر القبر الذي يغطيه. "ومن بين الزنوج الساحليين، عندما يموت شخص ما، يتم نقل حجر إلى منزل معين - فالهالا القرية - لتمثيل روحه؛ ومن بين قبيلة بولوم، تقدم النساء "من حين لآخر تضحيات وقرابين من الأرز للأحجار التي يتم حفظها في ذكرى الموتى". وفي تانا، في جزر هيبريدس الجديدة، وجد السيد جراي، وهو مبشر، "قطعة من الأرض المقدسة، تم وضع الأحجار عليها والتي افترضوا أن أرواح أقاربهم الراحلين تقيم فيها"؛ ويقول القائد هندرسون، معلقًا على حالة مماثلة من جزيرة فاتي، إن هذه "كانت الشكل الوحيد للآلهة التي يمتلكها السكان الأصليون، وكانوا يفترضون أن أرواح أصدقائهم وأقاربهم الراحلين تدخل إليها". وكان بعضها "مُقَطَّعًا بقطعة صغيرة من أحد الجانبين، وكان من المفترض أن يدخل أو يخرج منها الشبح أو الروح الساكنة". أما النوع الثالث من الحجارة، والذي تم صنعه يدوياً بشكل بدائي، فيقول الكابتن هندرسون بحدة: "لقد بدا لي أن هذه كانت بداية صورة منحوتة - حجر عادي، مقدس كمكان سكن لشبح أسلاف". *

* أنا مدين بهذا والعديد من الإشارات الأخرى إلى السيد سبنسر
الملحق، كما أفعل مع بعض الحالات التي ذكرتها سابقًا للسيد.
لانج أو الدكتور تايلور.

إن الأدب الكلاسيكي والعبري مليء بأمثلة لهذه الأحجار، التي يعتقد أنها كانت بشرية في الماضي. ومن الأمثلة التي ستخطر على بال كل قارئ قصة نيوبي وزوجة لوط. وفي بيوتيا، كما يخبرنا بوسانياس، كان الناس يعتقدون أن ألكمين، والدة هرقل، تحولت إلى حجر. ويشكل برسيوس ورأس الغورغون مثالاً آخر، يتوازى مع الفكرة البريطانية القائلة بأن دوائرهم الحجرية الضخمة كانت عبارة عن أشخاص، تحولوا، في النسخة المسيحية الحديثة من القصة، إلى حجارة للرقص يوم الأحد. (وسوف أتحدث عن هذا التحول إلى المسيحية في وقت لاحق؛ وفي الوقت نفسه، لاحظ الاسم المماثل لرقصة العملاق الذي أُطلق على ستونهنج 108 العظيم في أيرلندا). وعلى نفس المنوال، هناك صخرة واقفة في أعلى نهر ميسوري توازي قصة نيوبي . كانت ذات يوم امرأة، تحجرت من شدة الحزن عندما تزوج زوجها زوجة ثانية. ويقول السيد تيرنر إن بعض الآلهة الساموييين (أو الأشباح السلفية) "تحولت إلى حجارة، وهي الآن تقف في جزء صخري من البحيرة على الجانب الشمالي من أوبولو".

ومن ناحية أخرى، إذا تحول البشر إلى حجارة، فإن الحجارة تصبح بشراً أيضاً، أو على الأقل تلد رجالاً. ونجد مثالاً جيداً على ذلك في أسطورة ديوكاليون. فمرة أخرى، على جانب الطريق، بالقرب من مدينة بانوبويانس، توجد الحجارة التي صنع منها بروميثيوس البشر. وخرج مانكي، أول رجل في جزيرة ميتشل، من حجر. ويقول سكان جزر هيبريدس الجديدة إن "الجنس البشري نشأ من الحجارة والأرض". ويقول السيد تيرنر: "في جزيرة فرانسيس، بالقرب من المعبد، أقيمت لوحة من الحجر الرملي بطول سبعة أقدام، وكانت توضع أمامها القرابين بينما يتحد الناس للصلاة". وأخبره السكان الأصليون هنا أن أحد آلهتهم جعل الحجارة تصبح بشراً. ويقول السيد لانغ: "في ميلانيزيا، تختلط الأمور إلى الحد الذي يجعل من الصعب تحديد ما إذا كان الحجر الذي نعبده هو مسكن روح رجل ميت، أو أنه ذو قيمة روحية في حد ذاته، أو ما إذا كان الحجر هو الجزء الخارجي أو العضو الروحي". والواقع أن نوعاً من الارتباك العام بين الحجر والشبح والسلف والإله يسود أخيراً عقل عابد الحجر في كل مكان. "إن

الفكرة البشرية الغريبة التي تتصور أن الحجارة هي أزواج وزوجات، بل وحتى أن لها أطفالاً"، كما يسميها الدكتور تايلور. وهي فكرة مألوفة لدى أهل فيجي كما هي مألوفة لدى أهل بيرو واللاب. يمكن تفسيرها على الفور بوجود شواهد القبور للرجال أو النساء، والارتباك بين العلامة والشبح الذي تخلد ذكراه.

إن هناك نقطة جانبية مثيرة للاهتمام في هذا الخلط التدريجي بين الشبح والحجر، والإله والصورة، وهي التغيير التدريجي في التفاصيل فيما يتصل بطريقة تقديم القرابين عند القبر أو الضريح. ففي التريليثون الكبير في تونجا، تخبرنا الآنسة جوردون-كومينج، وُضِع وعاء من الكافا على حجر أفقي. وهنا لابد وأن يكون من المفترض أن الشبح نفسه خرج (ربما في الليل) ليشربه، كما انزلق الثعبان الذي يمثل روح أنكيسيس من القبر ليلعق القرابين التي قدمها إينيس. ولكن مع تزايد الارتباط بين الحجر والشبح من حيث الفكرة، أصبح تقديم القرابين يتم تدريجياً إلى النصب التذكاري نفسه؛ وإن كانت ملاءمة استخدام حجر المذبح المسطح (أينما وجد) كمكان للتضحية بالضحايا في المراحل الأولى ربما تخفي الانتقال حتى إلى المصلين أنفسهم. لقد رأى الدكتور وايز في جبال الهيمالايا مجموعة من الحجارة "أقيمت تخليداً لذكرى حكام كولام الصغار"، حيث "ضحت حوالي خمسين أو ستين امرأة تعيسة بأنفسهن". والدماء، على وجه الخصوص، تُقَدَّم للأرواح؛ ويقول الكابتن كوندر: "إن تجاويف الكؤوس التي عُثِر عليها في المينير والدولمنات هي دلالات على القرابين، التي كانت غالباً من دماء بشرية، والتي كان يسكبها الوثنيون على هذه الحجارة". ويقول أحد المراقبين الأسكتلنديين الجيدين: "غالباً ما نجد الكؤوس على الحجارة المرتبطة بآثار الموتى، مثل الحجارة التي تغطي تماثيل الموتى، وخاصة تلك ذات الشكل القصير أو النادر؛ وعلى الحجارة المسطحة التي تشبه تماثيل كرومليش؛ وعلى أحجار القبور ذات الغرف". وعلى قمة كومة الحجارة في جلين أوركهارت، على بحيرة لوخ نيس، توجد كتلة مستطيلة من حجر الأردواز، من الواضح أنها كانت تستخدم في الدفن، وتتميز بوجود عدد كبير جداً من الكؤوس. عندما تكون الحجارة

منتصبة فإن فكرة تقديم الدم إلى الجزء العلوي، الذي يمثل الوجه أو الفم، تصبح طبيعية جدًا، وتشكل خطوة مميزة في عملية تجسيد حجر القبر إلى صنم.

"إننا نجد مرحلتين من هذا التطور جنباً إلى جنب في إلهي سفينة ساموييد المتنقلة، ""أحدهما برأس حجري، والآخر مجرد حجر أسود، وكلاهما يرتديان ثياباً خضراء مع أغطية حمراء، وكلاهما ملطخ بدماء التضحية""." وفي المجموعات الهندية من الأحجار الدائمة، التي تمثل الباندافا الخمسة، ""من الممارسات المعتادة""، كما يقول الدكتور تايلور، ""أن يطلى كل حجر بالطلاء الأحمر، فيشكل، كما لو كان صنماً على شكل، بقعة دم كبيرة في المكان الذي سيكون فيه الوجه"". وأعتقد أن السيد سبنسر قد أصاب النغمة الرئيسية لهذه الممارسة في مقطع تعليمي. يقول: ""قبل أن يصلي أحد أفراد داكوتا إلى حجر طلباً للمساعدة، يرسمه بصبغة حمراء، مثل المغرة الحمراء. والآن، عندما نقرأ أن البودو والديمال يقدمون إلى جانب قرابين الحليب والعسل والفواكه والدقيق، إلخ، "الرصاص الأحمر أو القرمزي"، فقد نشك في أن هذه المواد الملونة الثلاثة، التي تتسم باللون الأحمر كصفة مشتركة، هي بدائل للدم. في البداية كان يتم استرضاء الشبح المقيم المفترض بمسح الحجر بدم بشري؛ وبعد ذلك، في غياب هذا، يتم استخدام الصبغة الحمراء، حيث يفترض البشر البدائيون أن الأشباح والآلهة يمكن خداعهم بسهولة بالخداع. ومن الممكن أيضًا أنه مع عملية المثالية والروحانية، قد يُفترض أن البديل قد يرضي الآلهة بنفس القدر، أو أن اللون الأحمر كان عمومًا يعادل الدم، بنفس الطريقة التي يحرق بها الصينيون الأوراق النقدية والأواني لتحرير أشباحهم لاستخدامها من قبل أرواح الأجداد.

وعلى أية حال، فمن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن وجوه العديد من الآلهة الهندوسية كانت تُطلى عادة باللون الأحمر. وأن هذا هو بقاء لنفس العادة القديمة التي نراها في حالة شاشتي، حامية الأطفال، التي كان ممثلها المناسب هو "حجر خشن بحجم رأس الرجل، مطلي بالطلاء الأحمر، ويوضع عند سفح شجرة فاتا المقدسة". وقد

استمرت هذه العادات في اليونان حتى العصر الكلاسيكي. يقول السيد لانج، مستشهداً ببوسانياس: "كانت وجوه ديونيسي القديم المذهب في كورنثوس ملطخة بالكامل بالزنجفر، مثل أحجار التمائم في الهند أو أفريقيا". وفي جنوب إيطاليا في وقت مبكر أيضاً، كان وجه بريابوس هيرميس، الذي كان يحمي الحقول، "ملطخاً بالمينايوم". هل من الممكن فصل هذه الحقائق عن مآدب أكل لحوم البشر التي أقامها آلهة الأزتك، حيث كانت الصور تحمل قطعاً من لحم بشري ينبض داخل شفاههم، وكانت وجوههم ملطخة بدماء الضحايا العاجزين الدافئة؟

ولكن لم أتمكن إلا في حالة واحدة من ربط عادة الطلاء باللون الأحمر ارتباطاً مباشراً بأكل لحوم البشر، وذلك بين آكلي البشر في جزر هيبريدس الجديدة، حيث كان الإنسان عندما يموت، ويوضع جسده في قطعة قماش سميكة من القماش الأصلي، "يُترك وجهه مكشوفاً ويُطلى باللون الأحمر". وأعتقد أن هذه الممارسة لابد وأن ترتبط في نهاية المطاف بوجوه ديونيسيوس الكورنثي المطلية باللون الأحمر.

وهناك نقطة أخرى ذات أهمية كبيرة في تطور عبادة الحجارة، وهي تتصل بهجرة الأحجار المقدسة. فعندما غادر الإسرائيليون مصر، وفقاً للرواية الواردة في سفر الخروج، حملوا معهم عظام يوسف. وعندما غادرت راحيل خيمة أبيها سرقت الترافيم العائلية لترافقها في تجوالها. وعندما فر إينيس من طروادة المحترقة، حمل إلى سفنه آلهة بلاده، لاريس وبيناتيس. لا شك أن كل هذه القصص غير تاريخية على حد سواء، ولكنها تمثل ما بدا للناس الذين صاغوا الأساطير سلوكاً طبيعياً ومحتملاً تماماً. وعلى نفس المنوال، عندما يهاجر عبّاد الحجارة من بلد إلى آخر، فمن المرجح أن يحملوا معهم أحجارهم المقدسة، أو على الأقل أكثرها قابلية للنقل أو أقدسها.

وهنا مثال توضيحي جيد للغاية، من ذلك المخزن الأكثر قيمة، ساموا التي ذكرها تيرنر. فوفقاً لتايلور، فإن الآلهة والإلهات الفيجيين الذين رأيناهم "كانوا يقيمون مساكنهم أو أضرحتهم في حجارة سوداء تشبه أحجار الرحى المستديرة الملساء،

وكانوا يتلقون هناك قرابينهم من الطعام". ولكن في جزيرة ساموية معينة، كما يقول السيد تيرنر، "في منطقة يقال إنها كانت مأهولة في وقت مبكر بالمستوطنين من فيجي، كان هناك عدد من الأحجار الفيجيية الفاخرة محفوظة في معبد، وكانوا يعبدونها في وقت الحرب. وكان الكاهن، بعد استشارتهم، يبنيها على شكل جدار، ثم يراقبها ليرى كيف تسقط. فإذا سقطت باتجاه الغرب، كان ذلك علامة على أن العدو هناك سوف يُطرد؛ أما إذا سقطت باتجاه الشرق، فكان ذلك بمثابة تحذير من الهزيمة، وكان الأمر يتطلب تأخير شن الهجوم وفقاً لذلك".

لا أستطيع أن أجد هنا مجالاً للعديد من الأمثلة التفصيلية للهجرات المماثلة؛ ولكن هناك مثالان في بريطانيا مثيران للاهتمام إلى حد كبير لدرجة أنه حتى في مثل هذا الإشعار المتسرع لا يمكنني تجاوزهما دون ذكرهما بإيجاز. من المعروف أن الأحجار الداخلية أو الأصغر حجمًا في ستونهنج من أصل بعيد، وتنتمي إلى صخور لا توجد بالقرب من سهل سالزبوري أو كمبرلاند في اتجاه واحد أو بلجيكا في الاتجاه الآخر. وهي محاطة بمجموعة من الأحجار الأكبر حجمًا، مرتبة على شكل ثلاثيات، ولكنها منحوتة من كتل السارسن الشائعة الموزعة في جميع أنحاء البلاد المجاورة. لقد حاولت أن أظهر في مكان آخر أن هذه الصخور النارية الأصغر حجمًا، التي لم تمسها الأداة، كانت أحجارًا مقدسة قديمة لقبيلة مهاجرة جاءت إلى بريطانيا من القارة، ربما عبر حزام أرضي عريض كان موجودًا آنذاك حيث تتدفق مضيق دوفر الآن؛ وأن الغرباء عند وصولهم إلى بريطانيا أقاموا هذه الآلهة الأجداد على سهل أميسبري، وساهموا بشكل أكبر في أهميتها ومظهرها من خلال إحاطتها بدائرة من أكبر الآلهة الرمادية وأكثرها هيبة والتي كان البلد الجديد الذي استقروا فيه قادرًا على تحملها بسهولة.

* لذلك أمر موسى في الأسطورة بني إسرائيل بـ
"بناء مذبح من حجارة صحيحة لم يرفع أحد فوقها"

"رفع أي حديد"؛ وهكذا بالنسبة للصخور التي تشكل المذبح على
"وقيل عن جبل عيبال: لا ترفعوا أي أداة من حديد"
"عليهم". لقد حافظت المحافظة الدينية على التقاليد القديمة
الموضة لأغراض مقدسة.

أما الحالة الأخرى فهي حالة حجر سكون. فطبقاً للأسطورة المعتمدة فإن هذه الكتلة المقدسة كانت في الأصل الإله الأصيل للأسكتلنديين الأيرلنديين، الذين كانت الكتلة قد أقيمت على تلة ملكهم في تارا. وقد حملوها إلى أرغيلشاير في غزوهم الأول، ووضعوها في شق من الجدار (كما تقول النسخ الحديثة) في قلعة دنستافناج. وعندما انتقل الملوك الأسكتلنديون إلى سكون، حمل كينيث الثاني الحجر إلى مقر إقامته الجديد في الأراضي المنخفضة. ومن ثم حمله إدوارد الأول إلى إنجلترا، حيث ظل منذ ذلك الحين في دير وستمنستر، كجزء من الكرسي الذي يجلس عليه ملوك بريطانيا في حفل تتويجهم. وسوف ندرك الأهمية الهائلة لهذه الحقائق أو القصص بشكل أكثر وضوحاً عندما نفكر في القياسات التي تقارن بين تابوت العهد العبري. وفي الوقت نفسه، قد يساعدنا في تفسير استخدام التتويج، والأسطورة التي تقول إنه أينما وجد حجر القدر "يجب أن يحكم الاسكتلنديون في مكانهم"، إذا أضفت حالتين مماثلتين من تاريخ نفس العرق السلتي المختلط. وفقًا للدكتور أودونوفان، كان حجر تنصيب أودونيل يقف على تلة في وسط سهل كبير؛ وعلى هذا الحجر المقدس، المسمى حجر العلم للملوك، يقف الزعيم المنتخب لتلقي العصا البيضاء أو صولجان الملك. وفقًا للدكتور بيتري، لا يزال هناك مسلة أسطوانية، تستخدم لنفس الغرض، قائمة حتى يومنا هذا في راثنا ريوغ. وبالمثل، توج ماكدونالد ملكًا على الجزر، واقفًا على حجر مقدس، مع طبعة على القمة لوضع قدميه. لقد استند، كما لو كان، إلى الآلهة أسلافه. ويخبرنا البروفيسور رايس أن حجر تارا كان يصرخ بصوت عال عندما وضع الملك الحقيقي قدميه فوقه. ويوجد حجر التتويج في بلدان أخرى؛ على سبيل المثال، في التاريخ العبري، أو نصف التاريخ، نعلم أنه عندما كان أبيمالك ملكًا

على مصر كان ذلك "بجانب سهل العمود الذي كان في شكيم"؛ وعندما مسح يهوياداع يهوآش، "وقف الملك بجانب عمود، كما كانت العادة". وأمام كنيسة سانت أمبروجيو في ميلانو يقف العمود الحجري الذي أدى عنده ملوك لومبارديا والأباطرة الألمان قسم التتويج، تحت أشجار الليمون القديمة التي تحجب الساحة.

الآن، من الصحيح تمامًا أن السيد سكين، أفضل خبير في اسكتلندا السلتية، يرفض قصة حجر القدر هذه في معظم أجزائها باعتبارها أسطورية: فهو يعتقد أن حجر سكون كان مجرد كتلة تتويج مقدسة للملوك البيكتيين في سكون، ولم يأتِ قط من أيرلندا على الإطلاق. يعتقد البروفيسور رامزي أنه قطعة من الحجر الرملي الأحمر 114 انكسرت من صخرة تلك المنطقة من اسكتلندا. حتى البروفيسور رايس (الذي قدم رواية مثيرة للاهتمام للغاية عن حجر تارا) يبدو أنه لديه شكوك حول الهجرة. ولكن، سواء كانت صحيحة أم لا، فإن القصة ستخدم غرضي هنا تمامًا؛ لأنني أستخدمها فقط لتوضيح تجوال حجر مقدس عبري مشكوك فيه بنفس القدر، والذي سنصل إليه في الوقت المناسب؛ ومن المؤكد أن الأسطورة دائمًا ما تكون أفضل موازية ممكنة لأخرى.

مع مرور العصور، ومع تطور الأديان، وخاصة مع نمو عدد قليل من الآلهة العظيمة لتطغى على لاريس والأرواح الأجداد الصغار، غالبًا ما يحدث أن الأحجار المقدسة للإيمان الأقدم لها أهمية دينية جديدة أعطيت لها في النظام اللاحق. وهكذا رأينا الأرجيين يعبدون حجرهم المقدس القديم تحت اسم زيوس كابوتاس؛ وحدد الثيسبيانيون حجرهم المقدس باسم إيروس اليوناني اللاحق؛ واعتبر الميجاريون حجرهم المقدس الثالث ممثلاً لفويبوس. تم العثور على الحجر المقدس المحلي الأصلي لديلوس في المكان الذي كان يقف فيه في الأصل، تحت أقدام تمثال أبولو الديلي. وأنا سعيد برؤية أن هذا هو رأي السيد أندرو لانج أيضًا؛ "ففيما يتعلق بالأحجار اليونانية غير المصقولة، يقول دي بروس: "كانت هذه الأحجار عبارة عن كتل

تحمل أسماء آلهة، مثل هيرا أو أبولو، وهي أسماء ربما أُطلقت، كما يقول دي بروس، على الأشياء القديمة التي كانت تُعبد على هيئة أوثان، بعد أن دخلت الآلهة المجسمة [ويجب أن أقول، تطورت] في اليونان". وعلى نحو مماثل، في الهند، تم تحديد الأحجار المقدسة المحلية بآلهة البانثيون الهندوسي؛ ويلاحظ السيد هيسلوب أنه في كل جزء من الدكن (حيث ظهرت الهندوسية في وقت متأخر نسبيًا) يمكن رؤية أربعة أو خمسة أحجار في حقل المزارع، موضوعة في صف ومطلية بالطلاء الأحمر، والذي يطلق عليه الفلاحون اسم "الباندافا الخمسة"؛ ولكن الدكتور تايلور يقول: "إنه يعتقد بشكل معقول أن هذه الأسماء الهندوسية قد حلت محل التسميات الأقدم". وعلى نحو مماثل، تبنى الإسلام الكعبة، الحجر الأسود الكبير في المكان المقدس في مكة؛ وقد أعطى الدين المصري معنى جديدًا للعمود أو الحجر الضخم، من خلال تشكيله على شكل مسلة لتمثل شعاع إله الشمس المشرق.

في بعض الأحيان، كان يتم تأمين قدسية الأحجار العتيقة في الإيمان اللاحق من خلال ربطها بأسطورة أو حلقة من الديانة الأرثوذكسية. وهكذا تم تفسير الحجر المقدس القديم المحفوظ في دلفي - بلا شك الوحي الأصلي لذلك الضريح العظيم، حيث كانت كتلة ديليان الخام هي سلف أبولو ديليان - بالإشارة إلى الاعتقاد اليوناني اللاحق بالأسطورة التي تقول إنه كان الحجر الذي ابتلعه كرونوس بالخطأ على أنه زيوس: وهو تفسير يرجع بلا شك إلى حقيقة أن هذه الصخرة كانت محفوظة، مثل صنم مونيجان الأيرلندي والإله الساموي، ملفوفة في قماش من الفانيلا؛ وفي الأسطورة، خدعت ريا كرونوس بتقديم حجر ملفوف بأربطة قماط له بدلاً من زيوس. هناك بالفعل مادة للكثير من التأمل هنا. وبالمثل، كان الحجر المقدس لدى الطرواديين يقع أمام المعبد؛ ولكنها أصبحت يونانية، إذا جاز التعبير، بسبب القصة التي تحكي أن شيوخ طروادة جلسوا عليها عندما طهروا أوريستيس من جريمة قتل أمه.

في أوروبا الحديثة، كما يعلم الجميع، تم التعامل مع الآبار المقدسة والأحجار المقدسة والأماكن المقدسة على أنها مسيحية مماثلة من خلال ربطها بأساطير القديسين، أو من خلال وسيلة أبسط من ذلك وهي وضع علامة الصليب عليها. يتمتع الصليب بقيمة ثلاثية: أولاً، يطرد الآلهة أو الأرواح القديمة، التي تصورها الفكر المسيحي المبكر والعصور الوسطى دائمًا على أنها شياطين أو أشرار، من أماكنها المعتادة؛ وثانيًا، يؤكد الصليب سيادة الإيمان الجديد؛ وثالثًا، من خلال منح قداسة جديدة للمكان المقدس القديم أو الشيء المقدس، يحث الناس على عبادة الصليب بمجرد العادة باللجوء إلى الضريح الذي كان أسلافهم يعبدونه فيه لفترة طويلة. إن نصيحة غريغوري الشهيرة للقديس أوغسطين في هذا الشأن ليست سوى مثال واحد لما حدث في جميع أنحاء العالم المسيحي. في كثير من الحالات، لا تزال الصلبان في بريطانيا مثبتة بقوة في أحجار مقدسة قديمة، وعادة ما يمكن التعرف عليها من حالتها غير المصقولة. ولعل أفضل مثال على ذلك في أوروبا هو صخرة بلومين الضخمة في بريتاني، والتي يعلوها صليب صغير لا أهمية له، والتي لا يزال الفلاحون (وخاصة الذين ليس لديهم أطفال) يلجأون إليها كمكان عظيم للعبادة. كما تم إضفاء الصبغة المسيحية على الآثار التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ في نارفيا في جزيرة مان، وذلك بنقش الصلبان عليها بعمق. وهناك حالات أخرى، مثل الحجارة السوداء في أيونا، والتي أضفت القداسة على تلك الجزيرة المقدسة قبل زمن طويل من عصر كولومبا، والتي لا شك أنها ستخطر على بال كل قارئ على الفور. ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت هذه الأحجار المنحوتة على الطراز الاسكتلندي قد أقيمت في الأصل على هيئة صلبان، أم أنها آثار تعود إلى عصور ما قبل التاريخ تم إضفاء الصبغة المسيحية عليها ظاهرياً.

لقد حاولت بإيجاز أن أقترح الاشتقاق النهائي لكل الأحجار المقدسة من الآثار الجنائزية، وأن أشير إلى الدور الكبير الذي تلعبه في جوهر الدين ـ أي العبادة ـ في كل مكان. ولكن هناك تطبيق معين أود أن ألفت إليه انتباهاً خاصاً، نظراً لأهميته الخاصة

فيما يتصل بأصل الإله الواحد في اليهودية والمسيحية. وحتى الآن في هذا الفصل، لم أشر عمداً إلا إلى الإيمان والأحجار المقدسة عند العبرانيين، لأنني أردت أولاً أن أقدم نظرة عامة على كل التفرعات والتعديلات التي طرأت على عبادة الأحجار قبل أن أنتقل إلى الحالة الخاصة التي نهتم بها نحن الأوروبيون المعاصرون اهتماماً عميقاً. ولكنني سأقدم الآن ملخصاً موجزاً لما يبدو لي الأكثر إيحاءً وأهمية في عبادة الأحجار السامية المبكرة. لا شك أن هذه النتائج مألوفة بالفعل في مخططها العام لمعظم القراء المثقفين، ولكن من الممكن أن تظهر في ضوء جديد إلى حد ما عند النظر إليها فيما يتصل بالتاريخ العام لعبادة الحجر كما تم توضيحه هنا.

إننا نعلم من عدد كبير من الأمثلة الإيجابية أن الساميين، فضلاً عن الأمم الأولى الأخرى، كانوا يعبدون الحجارة. وكانت أعمدة البعل الحجرية وأقماع عشيرة الخشبية من أهم الأشياء التي كان الفينيقيون يقدسونها. وكان حجر بيت إيل على ما يبدو منبراً؛ وكان كومة الحجارة في المصفاة بلا شك نصباً قبرياً. ويقال إن بني إسرائيل في عهد يشوع بنوا جلجالاً من اثني عشر حجراً قائماً؛ وسوف نلاحظ أمثلة أخرى في التقاليد الأولى للعبرانيين في مكانها المناسب في وقت لاحق. وعلى نحو مماثل، كان من بين العرب في زمن محمد اثنان من الآلهة الرئيسية هما منة واللات، أحدهما صخرة والآخر حجر مقدس أو صنم حجري: أما الكعبة نفسها، الحجر الأسود العظيم للعبادة المحلية، فقد اضطر النبي نفسه إلى الاعتراف بها وإسلاميتها من خلال تبنيها جسدياً في دينه التوحيدي.

إن عبادة الحجارة لدى الساميين عموماً، على الرغم من إهمال البروفيسور روبرتسون سميث لها نسبياً، لابد وأنها لعبت دوراً كبيراً في دين ذلك العرق، الذي كان العبرانيون فرعاً خاصاً منه. يقول البروفيسور سميث: "في شبه الجزيرة العربية، حيث كانت التضحية بالنار غير معروفة تقريباً، لا نجد مذبحاً مناسباً، ولكن في مكانه عمود أو كومة من الحجارة، يُذبح الضحية بجوارها، ويُسكب الدم على الحجر أو عند

قاعدته". صحيح أن المستشرق العظيم يرى أن الحجر المقدس أو المذبح، مثل الشجرة المقدسة والنافورة المقدسة، ليس أكثر من "رموز شائعة في المقدسات"؛ فهو لا يفكر فيهم كآلهة بل مجرد ممثلين للإله، يتم اختيارهم بشكل تعسفي. ومع ذلك، بعد الأدلة التي قدمتها بالفعل، أعتقد أنه سيتبين أن هذا الموقف غير مقبول على الإطلاق؛ والواقع أن الدكتور سميث نفسه يستخدم العديد من العبارات في هذا الصدد والتي تمكننا من رؤية الحالة الحقيقية للقضية بوضوح أكبر مما رآه هو نفسه. "إن الحجارة المقدسة [عند العرب]، والتي ذكرها هيرودوت بالفعل، تسمى أنساب، أي الحجارة المقامة، أو الأعمدة. كما نجد اسم غاري، أي "ملطخة بالدم"، في إشارة إلى الطقوس التي وصفناها للتو [التضحية عند العمود المقدس]. وسوف نتناول معنى هذه الطقوس لاحقًا: وفي الوقت نفسه، فإن الشيء الذي يجب ملاحظته هو أن المذبح ليس سوى تعديل للنصب، وأن الاستخدام العربي الفظ هو النوع البدائي الذي نشأت منه جميع مراسم المذبح المعقدة لدى الساميين الأكثر ثقافة. ومهما كان الأمر الآخر الذي يتم القيام به فيما يتعلق بالتضحية، فإن الطقوس البدائية المتمثلة في رش الدم أو رشه على المذبح، أو السماح له بالتدفق على الأرض عند قاعدته، لم يتم حذفها أبدًا؛ ولم تكن هذه الممارسة خاصة بالساميين، بل كانت القاعدة لدى الإغريق والرومان على حد سواء، بل وحتى لدى الأمم القديمة بشكل عام."

"من المؤكد"، كما يقول البروفيسور سميث مرة أخرى، "أن المذبح الأصلي بين الساميين الشماليين، وكذلك بين العرب، كان عبارة عن حجر كبير أو كومة من الحجارة، كان يتم سفك دم الضحية عندها". ويؤكد أنه لا يوجد فرق بين المذبح العبري والحجر العربي القائم. "غالبًا ما يتم ذكر الأعمدة أو الأكوام الحجرية الضخمة في الأجزاء الأكثر قدمًا من العهد القديم على أنها قائمة في الأماكن المقدسة، وعادة ما يكون ذلك مرتبطًا بأسطورة مقدسة حول المناسبة التي أقيمت فيها من قبل بعض البطاركة أو الأبطال المشهورين. في القصة التوراتية، تظهر عادةً كهياكل تذكارية

مجردة بدون أي أهمية طقسية محددة؛ لكن قانون الأسفار الخمسة ينظر إلى استخدام الأعمدة المقدسة على أنه وثني. وهذا هو أفضل دليل على أن مثل هذه الأعمدة احتلت مكانة مهمة بين ملحقات المعابد الكنعانية؛ وكما يتحدث هوشع عن العمود باعتباره سمة لا غنى عنها في مقدسات شمال إسرائيل في عصره، يمكننا أن نكون على يقين من أن غالبية العبرانيين كانوا ينظرون إلى أعمدة شكيم وبيت إيل والجلجال وغيرها من الأضرحة، ليس باعتبارها مجرد تذكارات لأحداث تاريخية، بل باعتبارها أجزاء ضرورية من الجهاز الطقسي لمكان العبادة... ومن هذه الأدلة، وخاصة من حقيقة أن القرابين من نفس النوع تُطبق على كليهما، يبدو واضحًا أن المذبح هو شكل مختلف عن العمود الحجري البدائي الخام. لكن الحجر المقدس هو أكثر من مجرد مذبح، ففي المقدسات العبرية والكنعانية، لا يحل المذبح، في شكله المتطور كمائدة أو موقد، محل العمود؛ "يوجد الاثنان جنبًا إلى جنب في نفس الحرم، المذبح كقطعة من جهاز التضحية، والعمود كرمز مرئي أو تجسيد لوجود الإله، والذي يتم تشكيله ونحته بطرق مختلفة مع مرور الوقت، حتى يصبح في النهاية تمثالًا أو صنمًا مجسمًا من الحجر، تمامًا كما تطورت الشجرة المقدسة أو العمود في النهاية إلى صورة من الخشب."

وعلى الرغم من الكثير من التحسس الواضح في الظلام في هذا المقطع وغيره من المقاطع من ديانة الساميين، فمن الواضح أن الأستاذ المتعلم أدرك على الأقل حقيقة مركزية واحدة - "كان الحجر المقدس في الأضرحة السامية منذ البداية موضوعًا للعبادة، وهو نوع من الأصنام الوقحة التي كان من المفترض بطريقة ما أن تكون الإله حاضرًا فيها". ومرة أخرى، يلاحظ أن "عمود يعقوب هو أكثر من مجرد معلم، لأنه مُمسوح، تمامًا كما كانت الأصنام في العصور القديمة، والعمود نفسه، وليس المكان الذي يقف عليه، يُسمى "بيت الله"، وكأن الإله قد تم تصوره بالفعل ليسكن في الحجر، أو يتجلى فيه لعابديه. وهذا هو المفهوم الذي يبدو أنه ارتبط بالحجارة المقدسة في كل مكان. عندما كان العربي يلطخ الدم على الوجبة، كان هدفه

جعل القربان في اتصال مباشر مع الإله؛ "وبالمثل فإن ممارسة مسح الحجر المقدس باليد هي نفسها ممارسة لمس أو مسح ملابس أو لحية الرجل في أعمال الدعاء أمامه". وفي مكان آخر يقول: "بقدر ما يتعلق الأمر بالأدلة من التقاليد والطقوس، لا يمكننا إلا أن نفكر في الحجر المقدس على أنه مقدس بالحضور الفعلي للإله، بحيث أن كل ما يلمسه كان في اتصال مباشر بالإله". ويقتبس سطرًا من شاعر عربي يوصف فيه الآلهة العربية صراحةً بأنهم "آلهة الحجر".

ومن الواضح أن الأحجار المقدسة كانت من الأشياء المشتركة التي يعبدها الساميون بوجه عام، وكذلك الشعب العبري بوجه خاص. ولكن بعد أن أصبحت العبادة الحصرية ليهوه، الإله اليهودي المحلي، إلزامية بين اليهود، أصبحت سياسة الكهنة "اليهوويين" هي تكريس يهوه وتكريس الأحجار المقدسة في فلسطين من خلال ربطها بالأسطورة اليهويّة وحكايات الآباء. وهكذا يعلق الأستاذ تشين على المقطع في إشعياء حيث يسخر النبي من أتباع العقيدة الوثنية القديمة باعتبارهم عابدين للحجارة - "بين الحجارة الملساء في الوادي نصيبك: هم نصيبك: حتى أنك سكبت لهم تقدمة: لقد قدمت تقدمة: "كانت الحجارة الملساء الكبيرة المشار إليها أعلاه أوثانًا للأجناس السامية البدائية، ومُدهنة بالزيت، وفقًا لعادة منتشرة على نطاق واسع. "كان هذا الحجر هو الذي اتخذه يعقوب وسادة، ثم كرسه بعد ذلك بصب الزيت عليه. وقد أطلق الساميون الأوائل والإسرائيليون الوثنيون الرجعيون على هذه الحجارة اسم "بيت إيل"... أي بيوت "إيل" (الكلمة السامية الأولى التي تعني الله)*... وعلى الرغم من جهود "اليهود" الذين رغبوا في تحويل هذه الأوثان القديمة إلى تذكارات للتاريخ الأبوي، يبدو أن الاستخدام الوثني القديم لها استمر بشكل خاص في الأماكن المنعزلة".

* بل قل: "من أجل إله".

وإلى جانب حالة الحجر في بيت إيل، هناك حالة لاحقة (في روايتنا) عندما عقد يعقوب ولابان عهداً، "فأخذ يعقوب حجراً وأقامه عموداً. وقال يعقوب لإخوته: اجمعوا حجارة، فأخذوا حجارة وعملوا كومة وأكلوا هناك على الكومة". وهكذا، مرة أخرى، في شاليم، أقام مذبحاً أطلق عليه اسم إيل-إلوهي-إسرائيل؛ وأقام عموداً على قبر راحيل، وآخر في المكان الذي ظهر له الله فيه في لوز. ومن الأهمية بمكان أيضاً قصة الحجارة الاثني عشر التي أخذها الرجال الاثنا عشر من الأردن لإحياء ذكرى مرور القبائل. ومن الواضح أن كل هذه محاولات لإضفاء طابع يهوه على هذه الأحجار المقدسة المبكرة أو الآلهة المحلية من خلال ربطها بحوادث في النسخة يهوهية من الأساطير العبرية القديمة.

ولكن من الواضح من الرواية اليهودية ذاتها، التي لم تنجح تماماً في محو كل آثار الدين السابق، أن مثل هذه الأحجار كانت تُعبد كآلهة في العصور الأولى، قبل أن تصبح عبادة يهوه عبادة حصرية بين أتباعه. فقد كان صموئيل يحكم على إسرائيل كل عام في بيت إيل، مكان عمود يعقوب المقدس؛ وفي الجلجال، المكان الذي نُصبت فيه أحجار يشوع الاثني عشر؛ وفي المصفاة، حيث كان هناك كومة من الحجارة يعلوها عمود عهد لابان. وبعبارة أخرى، كانت هذه هي مقدسات الآلهة القديمة الرئيسية لإسرائيل. "أخذ صموئيل نفسه حجراً ووضعه بين المصفاة وسام، واسمه نفسه، أبن عازر، "حجر المساعدة"، يُظهِر أنه كان يُعبَد في الأصل قبل الشروع في الحملات الحربية، على الرغم من أن التفسير اليهوئي، "يقول، حتى الآن أعاننا الرب"، يبذل قصارى جهده، بالطبع، لإخفاء المعنى الحقيقي. لذلك، في بيران، في غينيا الجديدة، رأى السيد تشالمرز "حجرًا كبيرًا غريب الشكل"، اسمه رافاي، يُعتبر مقدسًا للغاية. تُقدَّم التضحيات إليه، ويُخاطب بشكل أكثر تحديدًا في أوقات القتال. "قبل الانطلاق، تُقدَّم القرابين، مع الطعام"، ويُطلب من الحجر أن يسبق المحاربين إلى المعركة. أينما كان للحجر اسم، فمن المؤكد تقريبًا أنه من أصل جنائزي. "ومرة أخرى، أمر صموئيل شاول بالذهاب إلى دائرة الحجارة في الجلجال، قائلاً: ""أنا أنزل إليك لأصعد

محرقات وأذبح ذبائح سلامة""." وفي كومة الحجارة في المصفاة اختير شاول ملكًا؛ وبعد الانتصار على العمونيين، ذهب شاول مرة أخرى إلى ستونهنج العظيم في الجلجال ""ليجدد المملكة""، ""وهناك جعلوا شاول ملكًا أمام الرب في الجلجال؛ وهناك ذبحوا ذبائح سلامة أمام الرب""." هذا المقطع مفيد للغاية ومهم، لأننا نرى هنا أنه في رأي الكاتب على الأقل كان يهوه مقيمًا في الجلجال آنذاك، وسط الأحجار المقدسة الأخرى في تلك الدائرة المقدسة.

لاحظ، "ومع ذلك، عندما أُمر شاول بالذهاب للبحث عن حمير أبيه، أُرسل أولاً إلى عمود راحيل في تلصة، ثم إلى سهل تابور، حيث كان من المقرر أن يلتقي "ثلاثة رجال صاعدين إلى الله [وليس إلى يهوه] في بيت إيل،" 122من الواضح للتضحية، "أحدهم يحمل ثلاثة جدي، وآخر يحمل ثلاثة أرغفة من الخبز، وآخر يحمل قارورة من الخمر". هذه وغيرها الكثير من النصب التذكارية المماثلة لعبادة الحجارة متناثرة بكثافة في جميع أنحاء الكتب المبكرة من الكتاب المقدس العبري، في بعض الأحيان يتم الاعتراف بها علانية، وفي بعض الأحيان يتم تغطيتها تحت حجاب رقيق من يهوه.

من ناحية أخرى، أظهرت عمليات استكشاف فلسطين في الوقت الحاضر عدم وجود أي آثار حجرية بدائية في فلسطين ذاتها، على الرغم من أنها شائعة في جميع أنحاء البلاد شرقي نهر الأردن. فكيف إذن نفسر اختفاءها؟ يعتقد الرائد كوندر أنه عندما انتصرت يهوهية نقية أخيرًا تحت قيادة حزقيا ويوشيا، دمر يهوهيون كل هذه الأحجار "الوثنية" في جميع أنحاء الأراضي اليهودية، وفقًا للأوامر الواردة في سفر التثنية بهدم الرموز الدينية للكنعانيين. كان يهوه، إله العبرانيين، إلهًا غيورًا، ولم يكن ليتسامح مع أي حجارة مقدسة غريبة ضمن ولايته.

ومن أو ما هو هذا يهوه نفسه، هذا الإله المحلي والعرقي لبني إسرائيل، والذي لن يسمح لأي إله آخر أو كتلة مقدسة أخرى أن تعيش بالقرب منه؟

ولن أشدد على النقطة التي تقول إنه عندما كان يشوع يحتضر، وفقًا للأسطورة، "أخذ حجرًا كبيرًا" ونصبه بجانب شجرة بلوط كانت بجوار حرم يهوه، قائلًا إنها سمعت كل كلمات يهوه. إن هذه الوثيقة مشكوك فيها للغاية من حيث أنها لا تمنحنا الكثير من السلطة. لكنني سأشير فقط إلى أنه في الوقت الذي يبدو أننا فيه لأول مرة نلتقط لمحات تاريخية واضحة عن عبادة يهوه الحقيقية، نجد يهوه، أياً كان أو أيًا كان ذلك الكائن الصوفي، موجودًا مع تابوته عند الحجارة الاثني عشر في الجلجال. ومن الواضح تمامًا أنه في "معسكر الجلجال"، كما اعتقد المؤلفون اللاحقون، بقي يهوه، إله إسرائيل، الذي أخرج شعبه من مصر، حتى اكتمال غزو الأرض. ولكن بعد نهاية الغزو، تم نقل الخيمة التي سكن فيها إلى شيلوه؛ ومن الواضح أن الرب ذهب معها من حقيقة أن يشوع ألقى قرعة على الأرض هناك "أمام الرب إلهنا". وكان لا يزال هناك عندما صعدت حنة وزوجها إلى شيلوه لتقديم الذبائح للرب؛ وعندما خدم صموئيل الرب أمام عالي الكاهن. لذا فإن كون الرب أقام لفترة طويلة في شيلوه هو تقليد قديم حقيقي - تقليد من العصر الذي سبق البدايات التاريخية للحوليات العبرية.

ولكن يهوه كان شيئاً يمكن حمله، فبعد أن أغفلنا الأوصاف الواردة في الأسفار الخمسة، والتي يبدو أنها من تاريخ متأخر، وغير جديرة بالثقة، بسبب التحرير اليهويّ الشاق، نُقِل من شيلوه في تابوته إلى الجبهة أثناء المعركة الكبرى مع الفلسطينيين في حجر أبنيزر؛ فخاف الفلسطينيون، لأنهم قالوا: "لقد دخل إله إلى المحلة". ولكن عندما استولى الفلسطينيون على التابوت، سقط الإله المنافس، داجون، وتحطم إلى قطع ـ كما أعلنت الأسطورة العبرية ـ أمام يهوه. وبعد أن أعاد الفلسطينيون التابوت المقدس، استقر لفترة في قرية يعاريم، إلى أن نزل داود، عند الاستيلاء على أورشليم من اليبوسيين، إلى ذلك المكان لإحضار تابوت الإله من هناك؛ وبينما كان التابوت في طريقه، على عربة جديدة، "كانوا يعزفون أمام يهوه على كل أنواع الآلات"، وكان داود نفسه "يرقص أمام يهوه". ثم وُضِع يهوه في الخيمة أو المسكن الذي أعدّه له

داود، إلى أن بنى سليمان الهيكل الأول، "بيت يهوه"، وأُقيم فيه تابوت يهوه، "في محراب البيت، قدس الأقداس، تحت أجنحة الكروبيم". وهكذا يخبرنا السيد تشالمرز أنه عندما كان في بيران، في غينيا الجديدة، كان الحجر المقدس ذو الشكل الغريب، رافاي، والصنمين الخشبيين، إيبي وكيفافا، "الذين صُنِعوا منذ زمن بعيد ويُعتَبَرون مقدسين للغاية"، قد وُضِعوا "في منزل قديم، إلى أن يتم الانتهاء من جميع الترتيبات اللازمة لنقلهم إلى الهيكل الجديد الرائع المعد لهم". وهكذا أيضًا، في الطرف المقابل من مقياس الحضارة، كما يقول السيد 124لانغ، "كانت أحجار الأوثان في اليونان هي تلك التي احتلت قدس الأقداس في أقدم المعابد، والمراوح الغامضة داخل بساتين الأرز أو السرو المظلمة، والتي كان من الصعب على البشر دخولها".

إن حقيقة أن يهوه نفسه، في أقدم تقاليد الجنس البشري، كان مختبئاً داخل صندوقه أو تابوته في قدس الأقداس، واضحة، في اعتقادي، لأي قارئ منتبه. صحيح أن التفسيرات اليهويّة اللاحقة لسفر الخروج وتثنية الاشتراع، والتي تم تأليفها بعد أن أصبحت العبادة اليهويّة متطهّرة وروحانية، تبذل قصارى جهدها لتعتيم فهم هذه المسألة من خلال جعل حضور يهوه يبدو دائمًا غير مادي؛ وحتى في التقاليد الأقدم، غالبًا ما يتم استبدال عبارة "تابوت عهد يهوه" بعبارة أبسط وأقدم، "تابوت يهوه". ولكن على الرغم من كل التشوهات التي غطت بها الكتبة الكهنة في عصر يوشيا وكهنة العودة من السبي القصة البدائية، لا يزال بإمكاننا أن نرى بوضوح في العديد من الأماكن أن يهوه نفسه كان في البداية حاضرًا شخصيًا في التابوت الذي غطاه. ورغم أن الكتبة (الذين كانوا يخجلون بوضوح من العبادة المبكرة التي تجاوزوها) احتجوا بشدة أكثر من مرة قائلين: "لم يكن في التابوت شيء إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين قطع الرب عهداً مع بني إسرائيل حين خرجوا من أرض مصر"، إلا أنهم على الأقل يعترفون بهذا. أن الشيء أو الأشياء المخفية في التابوت كانت تتكون من حجر أو أحجار منحوتة؛ وأن الرقص أو الغناء أمام هذا الحجر أو هذه الحجارة كان يعادل الرقص أو الغناء أمام وجه الرب.

إن السؤال عما إذا كان الجسد الغامض المخفي في التابوت عبارة عن قضيب ذكري أم لا، قد أهملته عمدًا هنا، لأنه لا علاقة له باستفسارنا الحالي. ويكفي أن نؤكد من الأدلة التي بين أيدينا، أولاً، أن هذا الجسد كان يهوه نفسه، وثانيًا، أنه كان جسمًا مصنوعًا من الحجر. وعلاوة على ذلك، كان من المثير للاهتمام أن نسأل، وأنا شخصيًا لا أرغب في التطفل على الأسرار.

ولكن حتى لا نبالغ في هذا، يمكننا أن نقول إن هذا أمر مؤكد إلى حد كبير. فقد حمل بنو إسرائيل في العصور الأولى معهم إلهاً قبلياً، هو يهوه، وكان وجوده بينهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتابوت أو صندوق يحتوي على شيء أو أشياء حجرية. وكان هذا الصندوق سهل الحمل، وكان من الممكن حمله إلى الجبهة في حالة الحرب. ولم يكونوا يعرفون أصل الشيء الموجود في التابوت على وجه اليقين، ولكنهم اعتبروه بكل تأكيد "يهوه إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر". وحتى بعد أن تحولت طبيعته الحقيقية إلى إله قومي عظيم، وهو الإله الأكثر تحرراً وجسدية على الإطلاق (كما نجده في أفضل وأنقى أعمال الأنبياء)، فإن صور العصور اللاحقة تعود باستمرار إلى الفكرة القديمة للعمود الحجري أو المنهير. وفي الرواية المزخرفة لخروج بني إسرائيل من مصر، كان يهوه يقف أمام بني إسرائيل كعمود أو كتلة من السحاب في النهار ومن النار في الليل. إن يهوه هو إله إسرائيل، وهو إله إسرائيل. فوفقاً للشريعة اللاوية، لابد أن يبنى مذبحه من حجارة غير منحوتة، "لأنك إن رفعت عليه أداتك فقد نجسته". وكثيراً ما يصف الأنبياء يهوه مجازياً بالصخرة، مستخدمين لغة شبه منسية من أيام سابقة لكي يغطوا بها مفاهيمهم السامية الأكثر نقاءً. إنهم يتطلعون إلى صخرة إسرائيل ـ الحجر المقدس للقبيلة ـ طلباً للعون. بل حتى عندما قبل يوشيا لائحة الشريعة المزورة ووعد بالالتزام بها، "وقف الملك على عمود (منهير) وقطع عهداً أمام يهوه". وحتى آخر لمحة من هذا الكتاب نرى الطبيعة الأصلية الحقيقية لعبادة ذلك الإله الغيور الذي تسبب في تحطيم داجون أمامه، ولم يسمح لأي حجر مقدس آخر بالبقاء دون هدم داخل حدود قبيلته.

لا أرى، إذن، كيف يمكننا بسهولة تجنب الاستدلال الواضح على أن يهوه، إله العبرانيين، الذي صعد فيما بعد إلى السمو والتجلي الروحي في إله المسيحية، لم يكن في أصله أكثر ولا أقل من الحجر المقدس القديم لشعب إسرائيل، مهما كان منحوتًا، وربما في آخر المطاف، عمودًا ضخمًا غير منحوت لبعض الشيوخ أو الزعماء الساميين الأوائل.

الفصل السادس - الأوتاد المقدسة.

يتحدث "إلتون " في سوناتة شهيرة من ذلك الوقت قائلاً: "عندما كان جميع آبائنا يعبدون الخشب والحجارة". هذه العبارة المألوفة والمقتضبة التي استخدمها الشاعر البيوريتاني تغطي في الواقع الغالبية العظمى من الأشياء التي يعبدها الجنس البشري في كل الأوقات وفي كل الأماكن. لقد فحصنا الحجارة؛ ولابد أن يحظى الخشب الآن بنصيبه العادل من الاهتمام. ومع ذلك، لا ينبغي له أن يؤخرنا كثيرًا مثل أخواته من الآلهة، وذلك لأنه في العموم أقل أهمية في حد ذاته، ولأن تطوره من علامات القبور إلى آلهة وأصنام يكاد يكون موازيًا تمامًا لما تابعناه بالفعل بالتفصيل في حالة الحجر القائم أو النصب التذكاري الضخم.

تُستخدم الأوتاد أو الأعمدة الخشبية في كل أنحاء العالم كعلامات للدفن .ومثلها كمثل علامات القبور الأخرى، فإنها تشارك بطبيعة الحال في التكريم الذي يُمنح للشبح أو الإله الناشئ. ولكنها أقل أهمية كعناصر في نمو الدين من الحجارة القائمة لسببين مختلفين. أولاً، غالباً ما يشير الوتد أو العمود إلى دفن شخص لا يحظى باهتمام اجتماعي كبير؛ وعادة ما تُقام النصب الحجرية تكريماً للزعماء والعظماء؛ ولابد أن يكتفي عامة الناس بالعلامات الخشبية، كما قد نلاحظ حتى يومنا هذا في مقبرة بير لاشيز، أو أي مقبرة مسيحية عظيمة أخرى. ثانياً، إن النصب الحجري أكثر ديمومة واستمراراً من النصب الخشبي .وكل من هاتين النقطتين له أهمية. ذلك أن أشباح الزعماء والعظماء غالباً ما تتحول إلى آلهة؛ والأشباح الأقدم، والآلهة الأقدم، والنصب الأقدم هي الأكثر قداسة على الإطلاق. ولهذا السببين، فإن الوتد أقل أهمية من الحجر في تاريخ الدين.

ومع ذلك، فإن لهذا الأمر أهمية خاصة. فكما أن الحجر المقدس مشتق في نهاية المطاف من الصخرة الضخمة التي توضع فوق القبر لإبقاء الجثة في وضعية مستقرة، فإن الوتد، على حد اعتقادي، مشتق من العصا الحادة التي تُغرز في الجسم لتثبيته،

كما رأينا في الفصل الثالث، ولا تزال تستخدم في إنجلترا المسيحية لمنع المنتحرين من المشي. وعادة ما يُسمح لمثل هذا الوتد أو العمود بأن يبرز من الأرض، لتحذير الأحياء من اقتراب روح ما.

ولكنني أتصور أن الوتد أصبح في وقت مبكر للغاية مجرد علامة على القبر؛ ورغم أنه لا يحظى باهتمام كبير نسبياً نظراً لخفته النسبية، فإنه أصبح الآن وكان دائماً الوسيلة الأكثر شيوعاً لحفظ ذكرى المكان الذي دُفن فيه شخص ما. ويضرب لنا السيد وايت جيل من بورت مورسبي في غينيا الجديدة مثالاً جيداً، وهو المثال الذي سيلقي الضوء على العديد من التعديلات اللاحقة .فيقول: "كانت الجثة تُدفن. وعلى جانبها كان يُنصَب وتد، وكان يُربط به رمح المتوفى وهراوته وقوسه وسهمه، ولكن بعد كسره لمنع السرقة. وعلى بعد قليل كان هناك قبر امرأة: كانت أدوات الطبخ الخاصة بها، وتنانيرها المصنوعة من العشب، وما إلى ذلك، معلقة على الوتد". ويضيف أن عادات مماثلة شائعة تقريباً في بولينيزيا.

ورغم أن عبادة الأوتاد أو الأعمدة الخشبية شائعة في مختلف أنحاء العالم، فإنني لا أستطيع أن أذكر سوى أمثلة قليلة لا لبس فيها لمثل هذه العبادة التي تُؤدى لعمود معروف بالفعل أنه يعلو قبرًا لا شك فيه. وأفضل دليل مباشر يمكنني الحصول عليه تقريبًا هو حالة عمود القبر في بورو، والذي اقتبسته بالفعل من السيد هو فوربس. ولكن الرواية التالية لمكان التضحية في ساموييد، المستخرجة من رحلة فيجا للبارون نوردنسكيولد، توحي بالتأكيد. على تلة في جزيرة فايجاتس 129، وجد المستكشف السويدي عددًا من جماجم الرنة، مرتبة بحيث شكلت غابة كثيفة من قرون الأيائل. وحولها كانت توجد عظام أخرى، لكل من الدببة والرنة؛ وفي وسط كل "الكائنات العظيمة التي عُرضت عليها كل هذه الروعة. "كانت تتألف من مئات من العصي الخشبية الصغيرة، كانت أجزاؤها العلوية منحوتة بشكل غير متقن على شكل وجه بشري، وكان طول معظمها من خمسة عشر إلى عشرين سنتيمتراً، لكن

بعضها كان يبلغ ثلاثمائة وسبعين سنتيمتراً. كانت جميعها مغروسة في الأرض في الجزء الجنوبي الشرقي من المرتفع. وبالقرب من مكان التضحية، كان من الممكن رؤية قطع من الخشب الطافي وبقايا الموقد الذي كانت تُحضَّر عنده وجبة التضحية. أخبرنا مرشدنا أنه في هذه الوجبات كانت أفواه الأصنام ملطخة بالدماء ومبللة بالبراندي؛ وقد تأكدت صحة البيان السابق من خلال البقع الكبيرة من الدماء التي وجدت على معظم الأصنام الكبيرة أسفل الثقوب المخصصة لتمثيل الفم". في تاريخ سابق بكثير، كتب ستيفن بورو في عام 1556 ما يلي بنفس التأثير تقريبًا في روايته المثيرة للاهتمام المطبوعة في هاكليوت: "هناك التقيت مرة أخرى بلوشاك، وذهبت إلى الشاطئ معه، وأحضرني إلى كومة من أصنام سامويد، والتي كان عددها حوالي 300، أسوأ وأقل عمل رأيته على الإطلاق: كانت عيون وأفواه العديد منها ملطخة بالدماء، وكان لها شكل رجال ونساء وأطفال، مصنوعة بشكل فظ للغاية، وما صنعوه لأجزاء أخرى كان أيضًا مرشوشًا بالدماء. كانت بعض أصنامهم عبارة عن عصا قديمة بها شقان أو ثلاثة، مصنوعة بسكين فيها. كان هناك أحد زلاجاتهم مكسورًا وملقى بجوار كومة الأصنام، وهناك رأيت جلد غزال أفسده القراد: وأمام بعض أصنامهم كانت الكتل مصنوعة بارتفاع أفواههم؛ وبما أن كل شيء كان ملطخًا بالدماء، فقد اعتقدت أن هذه هي الطاولة التي قدموا عليها تضحياتهم.

"في أي من هذه الروايات، ليس صحيحًا، لم يُذكر بوضوح أن مكان التضحية كان مقبرة ساموييد: 130 لكنني أعتقد أن هذا هو الحال، جزئيًا من القياس، وجزئيًا لأن نوردنسكيولد يذكر في مكان آخر أن الزلاجة المقلوبة هي علامة متكررة على قبر ساموييد. قارن أيضًا الرواية التالية عن مقبرة بين سكان أوستياك السيبيريين المسيحيين اسميًا، أيضًا من نوردنسكيولد: ""وضعت الجثث في توابيت كبيرة فوق الأرض، حيث كان يتم دائمًا تقريبًا نصب صليب."" [يُظهر النقش الخشبي المصاحب أن هذه الصلبان كانت عبارة عن أوتاد خشبية خشنة ذات قضيب أو قضيبين متقاطعين.] ""في أحد الصلبان تم إدراج صورة مقدسة يجب اعتبارها دليلاً إضافيًا

على أن مسيحيًا استراح في التابوت. على الرغم من ذلك، وجدنا بعض الملابس، التي كانت تخص المتوفى، معلقة على شجيرة بجانب القبر، جنبًا إلى جنب مع حزمة تحتوي على طعام، في الغالب سمك مجفف. ويقال إن الناجين يضعون مع الطعام بعض أوراق الروبل عند قبور السكان الأصليين الأثرياء، حتى لا يبقى المتوفى بدون نقود عند دخوله إلى العالم الآخر.

ولإكمال المقارنة، لابد أن أضيف أن النقود كانت تُودع أيضاً في مكان التضحية في جزيرة فايجاتس. ويقول نوردنسكيولد عن مكان آخر للتضحية في يالمال، بعد وصف كومة من العظام وجماجم الرنة وفكوك فرس البحر: "في وسط كومة العظام كانت هناك أربع قطع من الخشب. اثنتان منها كانتا من العصي طول كل منهما متر، وقد حُفرت فيهما شقوق... أما القطعتان الأخريان، اللتان كانتا بوضوح الأصنام المناسبة لهذا المكان للتضحية، فكانتا تتكونان من جذور الأخشاب الطافية، التي نُقشت عليها بعض النقوش لتمييز العينين والفم والأنف. وكانت أجزاء من قطع الخشب، التي كانت مخصصة لتمثيل العينين والفم، قد لطخت بالدماء مؤخراً، ولا تزال أمعاء رنة مقتولة حديثاً ملقاة فوق كومة العظام".

ولقد علمت من مصدر آخر أن "الساموييد يطعمون تماثيل الموتى الخشبية"؛ في حين أن مثالاً من كتاب إيرمان يساعد في تأكيد نفس الاستنتاج. ووفقاً لذلك الكاتب الفطن، نجد بين شعب أوستياك في شرق سيبيريا عادة مثيرة للاهتمام للغاية، حيث يقول الدكتور تايلور: "نرى التحول من صورة الرجل الميت إلى الصنم الحقيقي". فعندما يموت رجل، يقيمون له تمثالاً خشبياً خشناً في الخيمة، ويقبلون عليه القرابين في كل وجبة ويكرمونه، بينما تحتضنه الأرملة وتداعبه باستمرار. وكقاعدة عامة، يتم دفن هذه التماثيل بعد مرور ثلاث سنوات أو نحو ذلك: ولكن في بعض الأحيان "تُنصب صورة الشامان (الساحر المحلي)" كما يقول تايلور، "بشكل دائم، وتبقى قديسة إلى الأبد". وبدلًا من "القديس" أقول "الإله"؛ ونرى التحول يكتمل على الفور.

في الواقع، يضيف إيرمان بحدة عن الآلهة الكبرى للأوستياك: "إن هؤلاء الأخيرين لديهم أيضًا أصل تاريخي، وأنهم كانوا في الأصل آثارًا لرجال متميزين، والتي أعطتها الوصفة واهتمام الشامان تدريجيًا معنى وأهمية تعسفية، يبدو لي أنه ليس من الممكن الشك فيه".

أما فيما يتعلق بالدم الملطخ على مثل هذه الأصنام الخشبية السيبيرية، فيجب أن نتذكر أن أوعية الدم كانت تقدم عادة للموتى؛ وقد قارن الدكتور روبرتسون سميث نفسه، الذي لم يكن شاهداً ودوداً في هذه المسألة، بين قرابين الدم للأشباح وتلك التي تقدم للآلهة. ففي الكتاب الحادي عشر من الأوديسة، على سبيل المثال، تشرب الأشباح بشراهة من دم التضحية؛ وتشكل القرابين الدموية سمة خاصة في القرابين اليونانية للأبطال. لقد رأينا بالفعل أن الدم كان يُقَدَّم للأحجار المقدسة؛ ولاحظنا أنه كان يُقَدَّم هناك كما كان هنا بشكل خاص على الأجزاء التي تمثل الفم. إن قرابين الدم للآلهة، أو سكب الدم على المذابح، أمر شائع للغاية بحيث لا يتطلب اهتمامًا خاصًا؛ وسوف نعود أيضًا إلى هذا الجزء من الموضوع عندما نأتي إلى النظر في القضايا المهمة المتعلقة بالتضحية والأسرار المقدسة. سأضيف هنا فقط أنه وفقًا لميمونيدس، كان الصابئة ينظرون إلى الدم باعتباره غذاءً للآلهة؛ في حين يسأل الرب العبري بغضب في المزمور الخمسين 132: "هل آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس؟"

ولننتقل الآن إلى حالات أكثر وضوحاً في عبادة الأوتاد، حيث لا نستطيع أن نشك في أن الأوتاد تمثل رجلاً ميتاً، لاحظ الكابتن كوك أن "التماثيل الخشبية المنحوتة في أماكن الدفن في جزر سوسايتي لم تكن تعتبر مجرد تذكارات، بل كانت مساكن تأويها أرواح الموتى". وعلى هذا فقد لاحظ إليس أن الأشياء المقدسة التي كان أهل بولينيزيا يقدسونها كانت إما مجرد قضبان وحجارة، أو تماثيل خشبية منحوتة، يتراوح طولها بين ستة أقدام وثمانية أقدام، أو حتى بوصات. وكان بعضها يمثل "تو"، أو الأرواح

الإلهية للموتى؛ في حين كان بعضها الآخر يمثل "تو"، أو الآلهة ذات المكانة والقوة الأعلى. وفي اعتقادي أن هذا التمييز لا فرق فيه؛ فالأولى تمثل أشباح أسلاف ماتوا مؤخراً، والثانية تمثل أشباح أسلاف أبعد. وكان الأراوكانيون القدماء يثبتون فوق قبر جذعاً منتصباً "منحوتاً بوقاحة ليمثل الهيكل البشري". بعد وفاة زعماء نيوزيلندا، أقيمت تماثيل خشبية يبلغ ارتفاعها من عشرين إلى أربعين قدمًا كنصب تذكارية. قد أزيد على ذلك بسهولة؛ لكنني أحجم عن ذكر الأمثلة خشية أن تصبح القائمة مملة.

ويشير الدكتور كودرينجتون إلى أن الأفواه الكبيرة والألسنة المتدلية للعديد من الآلهة النيوزيلندية والبولينيزية ترجع إلى عادة تلطيخ الفم بالدم والقرابين الأخرى.

إن الصور التي يحفظها الإنسان لجثث موتاه لا تظهر على الأغلب؛ ولكن حيثما أدى الخوف من الموتى إلى ممارسة الدفن أو الحرق، فمن المعقول أن تسعى مشاعر المودة التي دفعت إلى تقديم الهدايا والود للمومياء في المرحلة الأولى من التفكير إلى إيجاد منفذ مادي مماثل في ظل الظروف المتغيرة. ففيما بيننا، يتم الحفاظ على صورة فوتوغرافية أو صورة شخصية أو لعب طفل ميت والاعتزاز بها. أما بين المتوحشين، فإن التمثيلات الأكثر خشونة تصبح ضرورية. فهم يدفنون الجثة الحقيقية بأمان بعيدًا عن الأنظار، لكنهم يصنعون بعض التقليد الخشبي الخشن لتمثيلها. وعلى هذا فلا عجب أن نجد أن أهل جزر ماريان يحتفظون بجثث أسلافهم المجففة في أكواخهم كآلهة منزلية، ويتوقعون منهم أن يقدموا لهم العرافة من جماجمهم، في حين أن أهل نيوزيلندا من ناحية أخرى "ينصبون أصناماً تذكارية للموتى بالقرب من مدافنهم، ويتحدثون إليهم بمودة كما لو كانوا ما زالوا على قيد الحياة، ويرمون لهم الملابس عندما يمرون بهم"، في حين "يحتفظون أيضاً في منازلهم بصور خشبية منحوتة صغيرة، كل منها مكرس لروح أحد الأسلاف". أما الزنوج الساحليون "فيضعون عدة صور ترابية على القبور". وبعض أهل بابوا "بعد

ردم القبر، يجتمعون حول صنم ويقدمون له المؤن". ويزين أهل جاوة صورة بملابس المتوفى. وعلى نحو مماثل، علمنا أن أهل الكاريبي في جزر الهند الغربية "ينحتون صوراً صغيرة على الشكل الذي يعتقدون أن الأرواح ظهرت لهم به؛ كما تحمل بعض التماثيل البشرية أسماء الأسلاف تخليداً لذكراهم". ومن هذه الصور الصغيرة، التي استبدلت بوضوح بالجثة التي كانت تُحفظ وتُعتنى بها بمودة، أعتقد أن معظم آلهة المنازل في العالم نشأت - لاريس وبيناتيس عند الرومان، وهواكاس عند البيروفيين، وترافيم عند الساميين.

إننا نستطيع أن نرى كيف يتم تحديد الصورة والأسلاف بشكل مطلق بين سكان جزيرة تينيمبر، حيث "تعتبر رفيقة الحياة أرواح أسلافهم التي تُعبد كأرواح حارسة أو آلهة منزلية. ومن المفترض أن تدخل إلى المنزل من خلال فتحة في السقف، وأن تتخذ مسكنها مؤقتًا في الجماجم، أو في صور من الخشب أو العاج، من أجل المشاركة في القرابين".

إن بعض الحقائق الأخرى في نفس الاتجاه قد تساعد في إبراز هذا التكافؤ الوثيق بين الجثة والصورة. فالأم في غينيا الجديدة تحتفظ بجسد طفلها المحنط وتحمله معها؛ في حين أن الأم في غرب أفريقيا، التي تعيش في قبيلة حيث أدى الخوف من الموتى إلى ممارسة الدفن، تصنع صورة صغيرة لطفلها المفقود من قرع أو قرع، وتلفه بالجلود، وتطعمه أو تجعله ينام مثل طفل حي. لقد رأى باستيان نساء هنديات في بيرو، فقدن طفلاً رضيعًا، يحملن على ظهورهن دمية خشبية لتمثله. وعلى مستوى أعلى إلى حد ما، يقول الدكتور تايلور، الذي أدين له بالعديد من هذه الأمثلة، "كانت الكائنات الروحية في ألجونكوين ممثلة، وفي لغة متطابقة تمامًا مع، الرؤوس الخشبية المنحوتة" (لاحظ هذه النقطة) "أو الصور الأكثر اكتمالاً، التي كانت تقدم لها العبادة والتضحية". وفي كل هذه الحالات نرى بوضوح، على ما أعتقد، مسار نشوء الآلهة

المنزلية. ففي سيام، يتم تشكيل رماد الموتى على نحو مماثل في هيئة صور بوذية، تُعبد فيما بعد باعتبارها آلهة منزلية.

لقد جمع السيد هربرت سبنسر العديد من الأمثلة المثيرة للاهتمام، وسأستعير بعضها، لإظهار مدى اعتماد نمو الصنم أو الصورة على هذا التجريد للجسم الحقيقي للدفن أو ما يعادله. فبينما يتم تحنيط ملك الكونغو المتوفى، يتم وضع تمثال في القصر لتمثيله، ويتم تزويده يوميًا باللحوم والمشروبات. وعندما دفن شارل السادس ملك فرنسا، "كان فوق التابوت صورة للملك الراحل، وهو يحمل تاجًا فاخرًا من الذهب والماس، ويحمل درعين.... وقد تم تزيين هذه الصورة بقطعة قماش من الذهب.... وقد تم حمله في هذه الحالة رسميًا إلى كنيسة نوتردام". تقول مدام دي موتيفيل عن والد كوندي العظيم، "لقد تم تقديم الطعام لتمثال هذا الأمير لمدة ثلاثة أيام، كما كانت العادة" - أربعون يومًا كانت هي الوقت الأصلي الذي تم فيه توفير الطعام لمثل هذه التماثيل في الساعات المعتادة. ويصف مونستريليت شخصية مماثلة استخدمت في دفن هنري الخامس ملك إنجلترا: والصور الموجودة في دير وستمنستر والتي لاحظناها بالفعل تنتمي إلى نفس الفئة.

وكما هي الحال في الأحجار المقدسة، فأنا مستعد للاعتراف مرة أخرى بأنه بمجرد الاعتراف بقداسة بعض الأوتاد أو الأعمدة الخشبية، فإن افتراض أن أي وتد، يتم نصبه بشكل تعسفي، قد يصبح ضريحًا أو منزلًا لروح ساكنة سيكون مجرد نقل للشعور. وهكذا قيل لنا إن القبائل البرازيلية "تنصب أوتادًا في الأرض، وتقدم القرابين أمامها لإرضاء آلهتها أو شياطينها". كما أكد لنا أيضًا أنه بين الدينكا في النيل الأبيض، "رأى المبشرون امرأة عجوز في كوخها تقدم أول طعامها أمام عصا سميكة قصيرة مغروسة في الأرض". ولكن في أي من الحالتين لا يوجد بالضرورة أي شيء يدل على أن المكان الذي تم فيه نصب العصا لم يكن مكانًا للدفن؛ بينما في الحالة الثانية من المحتمل أن يكون هذا، حيث أن الدفن في الأكواخ أمر شائع للغاية في أفريقيا.

وسأقتبس مثالًا آخر فقط، لقيمته التوضيحية في سياق لاحق. في جزر سوسايتي، تُكسى جذوع الأشجار الخام بقماش محلي (مثل صنم مونيجان) وتُدهن بالزيت، وتُقدَّم لها العبادة والتضحية باعتبارها مسكنًا للإله. هذه العادة موازية لعادة الكاريبيين، الذين كانوا يأخذون عظمة صديق ميت من القبر، ويلفونها بالقطن، ويستفسرون منها عن العرافين.

في عمله المثير للاهتمام "الأينو المشعرون"، يصور السيد سافاج لاندور ويصف بعض أوتاد القبور الغريبة التي استخدمها السكان الأصليون اليابانيون. فالأوتاد الموضوعة على قبور الرجال مزودة ببروز على شكل قضيب ذكري؛ أما الأوتاد الموضوعة على قبور النساء فهي مزودة بثقب على شكل قضيب ذكري بنفس القدر. وتساعد هذه الحقيقة في توضيح شكل القضيب الذكري الذي تتمتع به الأحجار المقدسة في سوريا وأماكن أخرى.

إن عبادة الأوتاد كانت تتخذ عادة بين الشعوب السامية، التي تثير اهتمامنا على نحو خاص بسبب ارتباطها الوراثي باليهودية والمسيحية، شكل العبادة التي تُؤدى إلى جذع الخشب الغريب الذي يُوصَف بأنه "أشيرة". ونعرف أي نوع من الأشياء كانت الأشيرة نتعلم من الأمر الوارد في سفر التثنية: "لا تغرس أشيرة من أي نوع من الخشب بجانب مذبح الرب". وهذا الحظر يوازي بوضوح الحظر المفروض على أي حجر منحوت أو "صورة منحوتة". ولكن الساميين كانوا عموماً يعبدون الله كقاعدة عامة عند مذبح حجري خشن، 136 وإلى جانبه أشيرة، تحت شجرة خضراء. حيث تجتمع هذه الأشياء الثلاثة المقدسة العظيمة للبشرية معاً. وليس من غير المألوف أن نجد مزيجاً مماثلاً في الهند، حيث تنتصب غالباً الأحجار المقدسة والأصنام الخشبية تحت ظل شجرة البيبول المقدسة نفسها. يقول البروفيسور روبرتسون سميث: "إن الأشيرة رمز مقدس، ومقر الإله، وربما لا يعني الاسم نفسه، كما اقترح ج. هوفمان، أكثر من "علامة" الحضور الإلهي". ولكن أولئك الذين تابعوني حتى الآن

في العمل الحالي سوف يكونون أكثر ميلاً إلى الاستنتاج بأن الاسم كان يعني في الأصل علامة المكان الذي دفن فيه أحد الأسلاف. ويقول البروفيسور سميث مرة أخرى: "كان لكل مذبح أشيرة، حتى تلك المذابح كما في الأشكال الشعبية التي سبقت النبوة في الدين العبري كانت مخصصة ليهوه".

لقد عومل العمود المقدس السامي في معظم النواحي مثل أوتاد القبور والأصنام الأخرى التي درسناها حتى الآن؛ حيث يمثل نصب تذكاري آشوري من خورساباد، صوره رولينسون، عمودًا زخرفيًا، مزروعًا بجوار مذبح؛ يقف الكهنة أمامه منخرطين في عمل من أعمال العبادة، ويلمسون العمود بأيديهم، "أو ربما"، كما يقول البروفيسور سميث، "يدهنونه ببعض المواد السائلة". إن الأشيرة كانت مغطاة أيضًا، مثل جذوع سكان جزر المجتمع، أو صنم مونيجان الأيرلندي، نتعلم من المقطع الشهير في سفر الملوك الثاني (23: 7) حيث قيل إن النساء "نسجن الستائر للأشيرة". يوضح الدكتور روبرتسون سميث هذا المقطع بمقارنته مع الأريكية المقدسة في جبيل، والتي كانت "مجرد جذع ميت، حيث قطعتها إيزيس وقدمتها إلى الجبيل ملفوفة بقطعة قماش من الكتان ومُدهنة بالمر مثل الجثة. "لذا، فقد كان يمثل الإله الميت" (أوزوريس، أو بالأحرى أدونيس في أصله). "ولكن باعتباره مجرد جذع، فإنه يشبه أيضًا معبد الأشيرا العبري". قد يقترب الإنسان كثيرًا من إدراك الحقيقة، ومع ذلك فقد يفوته تمامًا معناها الفعلي.

ولن أطيل الحديث عن هذه المشتقات البعيدة عن الوتد. بل سأقول باختصار إن كل الأصنام أو الصور الخشبية في رأيي تنحدر بشكل مباشر أو غير مباشر من العمود الخشبي أو العمود الجنائزي الأكثر بدائية. ولا أفترض بالطبع أن كل صورة خشبية كانت بالضرورة ذات يوم نصباً جنائزياً. ولا شك أن تمثال المجدلية في سان جيوفاني في فلورنسا الذي رسمه دوناتيلو، أو العذراء مريم ذات الرداء الأزرق والنجوم المرصعة في ضريح على جانب الطريق، ليس لها أصل مباشر. ولكنني أعتقد أن عادة صنع

الصور الخشبية وعبادتها نشأت بالطريقة التي أشرت إليها؛ ولأولئك الذين يتهمونني بـ "اليوهمرية الفظيعة"، أود أن أشير مرة أخرى إلى أنه حتى في هذه الأمثلة المسيحية العليا، يُعترف في آخر المطاف بأن موضوعات التبجيل كانت في وقت ما نساء جليليات. أليس حتى المزار الموجود على جانب الطريق في أغلب البلدان الكاثوليكية هو في أغلب الأحيان كنيسة الجنائز التي أقيمت حيث مات أحد المسافرين موتًا عنيفًا، بسبب القتل، أو البرق، أو الحوادث، أو الانهيار الجليدي؟

الفصل السابع - الأشجار المقدسة.

الشجرة المقدسة لا ترتبط بشكل واضح بالسلالة المباشرة للآلهة كما يرتبط الحجر المقدس والوتد المقدس الذي تحدثنا عنه للتو. لذلك، أرغب في تجاوزها عن طيب خاطر في هذا التحقيق التمهيدي الطويل، إذا كان بإمكاني القيام بذلك بأمان، من أجل التقدم مباشرة إلى التفكير المحدد في إله إسرائيل وظهور التوحيد. لكن الشجرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالهدفين الرئيسيين الآخرين للعبادة البشرية لدرجة أنني لا أرى كيف يمكنني تجنب النظر فيها هنا في نفس السياق، خاصة وأن لها في النهاية آثارًا مهمة فيما يتعلق بشجرة الصليب، وكذلك بالكرمة الحقيقية، والعديد من العناصر الأخرى للإيمان المسيحي والرمزية المسيحية. لذلك سأخصص لها فصلاً قصيرًا أثناء مروري، على افتراض أنني دخلت بالفعل في الموضوع بمزيد من التفصيل في استطرادي حول أصل عبادة الأشجار، الملحق بترجمتي الشعرية لـ Attis of Catullus.

إن عبادة الأشجار المقدسة منتشرة على نطاق واسع في مختلف أنحاء العالم تقريباً مثل عبادة الجثث والمومياوات والآثار المقدسة والقبور والأحجار المقدسة والأوتاد المقدسة والأصنام الحجرية أو الخشبية. ومن بين أعظم المراجع في موضوع عبادة الأشجار كتاب بومكولتوس لمنهاردت وكتاب الغصن الذهبي للسيد جيه جي فريزر. ولكن أياً من هذين الكاتبين المتعلمين والمتبصرين لم يدرك تماماً الأصل الحقيقي للعبادة من ممارسات الجنازة، ولذلك يصبح من الضروري أن نستعرض نفس الموضوع مرة أخرى بإيجاز من وجهة النظر التي توفرها لنا نظرية الجثث ونظرية الأشباح كأساس للدين. وآمل أن أضيف شيئاً إلى نتائجهما القيمة، وأن أثبت أيضاً بالمناسبة أن كل موضوعات العبادة الرئيسية مجتمعة تقودنا بالإجماع إلى عبادة الموتى كنقطة انطلاق مشتركة.

ولنبدأ في هذه الحالة (على النقيض من ممارساتنا السابقة) بفحص ومحاولة فهم بعض الحالات التي تظهر فيها أرواح الأشجار في مختلف الأساطير. يخبرنا فيرجيل في الإنيادة الثالثة كيف كان إينيس في مناسبة ما يقدم قرباناً على تلة متوجة بشجيرات الكورنيا والآس. فحاول أن يقتلع بعض هذه الشجيرات من جذورها لتغطية المذبح، كما جرت العادة، بأغصان مغطاة بأوراق الشجر. وبينما كان يفعل ذلك، أدهشته أول شجيرة مزقها، إذ خرجت منها قطرات من الدم السائل، فسقطت على التربة تحتها. فحاول مرة أخرى، ومرة أخرى نزفت الشجرة دماً بشرياً. وفي المحاولة الثالثة، سمع أنيناً ينبعث من التلة، وطمأن صوت إينيس بأن التلة التي كان يقف عليها تغطي رفات صديقه المقتول بوليدوروس.

في هذه الأسطورة النموذجية والموضحة للغاية - وهي بلا شك قصة قديمة ومعروفة أدرجها فيرجيل في قصيدته العظيمة - نرى أن الشجرة التي تنمو على التل تعتبر في حد ذاتها ممثلاً وتجسيدًا لروح الرجل الميت، تمامًا كما يُنظر إلى الثعبان الذي ينزلق من قبر أنكيسيس في أماكن أخرى على أنه الروح المجسدة للبطل، وكما يتم التعرف على البوم والخفافيش التي تطارد الكهوف القبرية في كثير من الأحيان في جميع أنحاء العالم بأرواح المغادرين.

وتوجد قصص مماثلة عن الأشجار أو الشجيرات النازفة أو الناطقة بكثرة في أماكن أخرى. يقول أوبري في كتابه "بقايا الوثنية": "عندما تُقطع شجرة البلوط، فإنها تصدر صرخات وأنينًا يمكن سماعها على بعد ميل، وكأنها صرخة عبقرية من شجرة البلوط. وقد سمع السيد إي. وايلد هذا عدة مرات". ويقول باستيان إن بعض الهنود لا يجرؤون على قطع نبات معين، لأنه يخرج منه عصير أحمر يعتبرونه دمه. وأتذكر أنني سمعت وأنا صبي في كندا أن أينما نبتت شجرة الدم الأمريكية "سانجويناريا كانادينسيس" في الغابات، كان هناك هندي دُفن ذات يوم، وأن القطرات الحمراء من العصير التي كانت تسيل من الساق عندما يقطف المرء أزهارها كانت دم الرجل

الميت. ويقول السيد تيرنر إن المسكن الخاص لتويفيتي ملك فيجي في ساموا كان عبارة عن بستان من أشجار أفزيليا الكبيرة المتينة. "لم يجرؤ أحد على قطع هذا الخشب. تُروى قصة عن مجموعة من أوبولو حاولوا ذلك ذات مرة، وكانت النتيجة أن الدماء سالت من الشجرة، وأن الغرباء الذين ارتكبوا المخالفات أصيبوا بالمرض وماتوا". يقول مانهارد إنه حتى عام 1855، كانت هناك شجرة صنوبر مقدسة في ناودرس في تيرول، وكان يُعتقد أنها تنزف كلما تم قطعها. في بعض هذه الحالات، صحيح أننا لا نعرف في الواقع أن الأشجار نمت على تلال، ولكن هذه النقطة ملحوظة بشكل خاص في شجرة قرانيا بوليدوروس، وربما تكون ضمنية في حالة ساموا، كما استنتجت من اللقب الممنوح للروح كملك فيجي.

ولكن في حالات أخرى لا يوجد مثل هذا الشك. فقد قيل لنا صراحة إن أرواح الموتى هي التي يعتقد أنها تبعث الحياة في الأشجار الناطقة أو النازفة. ويقول السيد فريزر: "إن قبيلة دييري في جنوب أستراليا تعتبر بعض الأشجار مقدسة للغاية، وهي الأشجار التي يفترض أنها تعود إلى آبائهم الذين تحولوا؛ ومن ثم فإنهم لا يقطعون الأشجار، ويحتجون على قيام المستوطنين بذلك". ويعتقد بعض سكان جزر الفلبين أن أرواح أسلافهم تسكن أشجاراً معينة، ولذلك فهم يحرصون على عدم قطعها. وإذا اضطروا إلى قطع أحد جذوع هذه الأشجار المقدسة، فإنهم يبررون ذلك بالقول إن الكهنة هم الذين أجبروهم على قطعها.

ولكن كيف نشأت هذه الصلة بين الشجرة والروح أو السلف؟ أتصور أن هذه الصلة تشبه إلى حد كبير الصلة بين الحجر المقدس أو العمود المقدس والزعيم الميت المدفون تحته. فكل ما ينمو أو يقف على القبر يتقاسم التكريم الذي يحظى به الروح التي تسكنه. وعلى هذا فإن الأفعى أو أي حيوان آخر يُرى وهو ينزلق خارج القبر يعتبره المتوحشون وحتى الرجال نصف المتحضرين على الفور عبقرية أو ممثلاً للساكن الميت. ولكن هل تنمو الأشجار من القبور؟ لا شك أن هذا صحيح. ففي

المقام الأول قد تنمو الأشجار بالصدفة، كما قد تنمو في أي مكان آخر؛ وخاصة إذا تم قلب التربة في مثل هذه الحالة والعمل عليها. ولكن إلى جانب هذا، في المقام الثاني، من الشائع في جميع أنحاء العالم زراعة الأشجار أو الشجيرات فوق قبور الأقارب أو أفراد القبائل. ورغم صعوبة الحصول على أدلة مباشرة على هذه النقطة، إلا أننا لم نتوصل إلى الكثير من الأدلة. وفي الجزائر، لاحظت أن النساء العربيات يذهبن يوم الجمعة لغرس الزهور والشجيرات على قبور موتاهن. وعلمت من السيد آر. إل. ستيفنسون أن غرسات مماثلة تجري في ساموا وفيجي. ويضع أهل تاهيتي شجيرات الكازوارينا الصغيرة على القبور. وفي البلدان الكاثوليكية الرومانية، تتم غرس الشجيرات في المقابر عادة في يوم الموتى، وهي العادة التي قد تبرهن على قدمها؛ فرغم أن تفسير هذا الاحتفال بأنه من أصل حديث نسبياً، وأنه بدأ على وجه التحديد من قِبَل قديس معين في فترة معينة، يعد من قبيل الشرف بين الكاثوليك، فإن تشبيهه باحتفالات مماثلة في أماكن أخرى يُظهِر لنا أنه في الحقيقة بقايا باقية من شكل قديم جداً من أشكال عبادة الإنسان.

في العصور القديمة اليونانية الرومانية، من المؤكد أن الأشجار كانت تُزرع بشكل متكرر حول تلال الموتى؛ وأن الأغصان المورقة كانت تشكل جزءًا من مراسم الجنازات المعمول بها. ولا يسعني إلا أن أقتبس في هذا الصدد مرة أخرى حالة بوليدوروس:

"لذلك، نعيد دفن بوليدوروس، وتُكدس الأرض بكميات كبيرة على القبر؛ وتقف المذابح للأرواح، مزينة بأشرطة زرقاء داكنة وسرو أسود". ويخبرنا سويتونيوس مرة أخرى كيف تم زرع قبر أغسطس الإلهي بعناية؛ ويبدو لي أن الطريقة التي سجل بها هذه الحقيقة تشير إلى أن بعض الأهمية الخاصة كانت مرتبطة بالاحتفال. إن شجرة السنط هي واحدة من أكثر الأشجار قداسة في مصر؛ والآثار المصرية، بصراحتها المعتادة، تظهر لنا تابوتًا 142 يخرج منه شجرة سنط، مع شعار ساذج، "ينبع أوزوريس".

إن الحادثة التي وقعت أثناء الحرب الصينية اليابانية الأخيرة تظهر مدى سهولة تجاهل مثل هذه النقاط من قبل الكتاب المتسرعين في الأوصاف الرسمية. فقد نشرت إحدى الصحف المصورة في لندن تقريراً عن دفن الموتى اليابانيين في بورت آرثر، وبعد أن ذكرت شواهد القبور البسيطة التي أقيمت عند كل قبر، أضافت بياناً آخر مفاده أنه لم يكن هناك أي شيء آخر يميز مكان الدفن. ولكن النقش الذي جاء مع ذلك، والذي تم أخذه من صورة فوتوغرافية، أظهر على العكس من ذلك أن شجرة صغيرة كانت مزروعة أيضاً على كل تلة صغيرة.

علمت من السيد ويليام سيمبسون أن مقابر الملوك القريبة من بيكين يمكن رؤيتها من بعيد بفضل بساتينها العالية من أشجار الصنوبر.

أعتقد أن الأشجار دائمة الخضرة تُزرع على القبور أو التلال لأنها تحتفظ بخضرتها طوال فصل الشتاء، وبالتالي فهي تقدم دليلاً مستمراً على حيوية ونشاط الروح الساكنة. وقد أظهر السيد فريزر في كتابه "الغصن الذهبي" أن نبات الهدال يدين بقداسته الخاصة لحقيقة أنه يحمل روح الشجرة دون أن يصاب بأذى في حد ذاته، بينما تقف جميع الفروع المحيطة عارية وبلا حياة. وبالتالي، غالبًا ما تُتوج التلال بأشجار دائمة الخضرة. على سبيل المثال، تعلوها أشجار التنوب الاسكتلندية القديمة جدًا؛ ولأن التنوب الاسكتلندي ليس شجرة محلية جنوب تويد، فمن المؤكد عمليًا أن هذه الصنوبريات القديمة هي من نسل أسلاف وضعتها أيدي البشر عندما أقيمت التلال لأول مرة فوق جثث زعماء ما قبل التاريخ المحروقة والمدفونة. باختصار، يعتبر التنوب الاسكتلندي في إنجلترا الشجرة المقدسة للتلال. ولكن كقاعدة عامة، في شمال أوروبا، يُزرع شجر الطقسوس خصيصًا في المقابر، ويُعتَقَد أن العديد من أشجار الطقسوس في أجزاء مختلفة من إنجلترا وألمانيا تمتلك قدسية خاصة. ولطالما اعتُبِرت مجموعة أشجار الطقسوس القديمة جدًا في متنزه نوربيري بالقرب من دوركينج، والمعروفة باسم بستان الدرويد، غابة مقدسة في العصور

القديمة البعيدة. وفي جنوب أوروبا، يحل السرو محل الطقسوس باعتباره الشجرة الدائمة الخضرة الأكثر ارتباطًا بالمقابر والمقابر. ولكن في بروفانس وإيطاليا، تُعَد شجرة البلوط الدائمة الخضرة من السكان التقليديين لأماكن الدفن. وقد جمع م. لاجارد في مقاله الرائع "حول عبادة قبرص" العديد من الأدلة على عبادة الأشجار الدائمة الخضرة بين اليونانيين والإتروسكان والرومان والفينيقيين والعرب والفرس والهندوس والصينيين والأمم الأمريكية.

إن الأشجار المقدسة، وخاصة عندما تقف وحدها، تُعامل في كثير من النواحي بنفس الطقوس التي تُعامل بها الجثث والمومياوات والقبور والأحجار المقدسة والأوتاد المقدسة والأصنام أو التماثيل المنحوتة. بعبارة أخرى، يمكن تقديم القرابين للروح أو الإله للشجرة التي تنمو على القبر تمامًا كما هو الحال مع أي تجسيد آخر للروح الساكنة. يصف داروين في رحلة البيجل كيف كان الهنود في أمريكا الجنوبية يرحبون بصرخات عالية بشجرة مقدسة تقف منفردة على جزء مرتفع من بامباس؛ وكانوا يسكبون مشروبات البراندي والماتيه في حفرة عند قاعدتها لإرضاء روح الإله الذي يسكن هناك. كان أحد آلهة الأشجار هذه يحمل اسمًا، واليشو. كما كان شعب الكونغو، مرة أخرى، يضعون قشورًا من نبيذ النخيل عند سفح "الأشجار التي تُعامل كأصنام". وفي حالات أخرى، يُلطخون الشجرة بالدم؛ أو يُقَدَّم لها الزيت. يقتل سكان وسط أفريقيا الدجاج عند سفح "شجرة الصلاة"، ويتركون دمها يسيل إلى الجذور. ورأى أولدفيلد في أدا كوودا دواجن والعديد من المواد الغذائية الأخرى معلقة كقرابين لشجرة عملاقة. ويذكر السير ويليام هانتر أنه مرة واحدة في السنة في بيربوم، يقدم السانتاليون "قرابين بسيطة لشبح يسكن شجرة بيلا". وفي تونجا، يضع السكان الأصليون هدايا من الطعام عند سفح أشجار معينة يعتقدون أنها مأهولة بالأرواح. ولست بحاجة إلى مضاعفة 144 حالة؛ فقد تجدها بالمئات في الدكتور تايلور ومجموعات الأنثروبولوجيا العظيمة الأخرى.

"وفضلاً عن ذلك، نجد الشجرة المقدسة في أقرب صلة ممكنة بالآثار الأخرى التي لا شك أنها تعود إلى الأجداد، الحجر المقدس والصنم. يقول السير ويليام هانتر: ""إن كل قرية بنغالية لديها عادة إلهها المحلي، الذي تعبده إما في هيئة حجر خشن غير منحوت، أو جذع شجرة، أو شجرة مُلوَّنة بالرصاص الأحمر""؛ وربما كان هذا الأخير بديلاً عن دماء الضحايا من البشر أو الحيوانات التي كانت تُروى بها الشجرة ذات يوم. ""وفي بعض الأحيان، تؤدي كتلة من الطين توضع تحت شجرة واجب الإله؛ والكاهن المرافق، إذا كان هناك كاهن، ينتمي عمومًا إلى إحدى الطبقات الدنيا نصف الهندوسية. يمثل الحجر الخشن الصنم غير الآري؛ ويبدو أن الشجرة تدين بقداستها للاعتقاد غير الآري بأنها تشكل مسكنًا للأشباح أو الآلهة في القرية"". وهذا يعني أننا هنا أمام عبادة الأجداد في تطورها الأصلي المبكر غير المقنع.

أستطيع أن أذكر هنا باختصار أنه كما سنرى فيما بعد، فإن هذا المزيج الثلاثي من الحجر والخشب والأشجار يشكل التركيبة الطبيعية أو الثابتة تقريبًا للمزار البدائي في جميع أنحاء العالم.

إن ارتباط الشجرة المقدسة بالأصنام الحقيقية أو صور الأسلاف المتوفين واضح في المقطع التالي الذي اقتبسته من الدكتور تايلور: "إن مجموعة من أشجار الصنوبر في سهوب سيبيريا، وهي بستان في أعماق الغابة، هي ملاذ قبيلة تورانية. الأصنام المزينة بالبهجة في معاطف الفرو الدافئة، كل منها منصوب تحت شجرته العظيمة ملفوفة بقطعة قماش أو صفيح، وجلود الرنة التي لا نهاية لها وأغطية الفراء معلقة على الأشجار حولها، والأباريق والملاعق وأبواق السعوط والأشياء الثمينة المنزلية مبعثرة كقرابين أمام الآلهة - هذا هو وصف بستان مقدس سيبيري، في المرحلة التي بدأ فيها اتصال الحضارة الأجنبية بتزيين الطقوس القديمة الفظة التي يجب أن تنتهي بإلغائها. إن العرق المتحالف إثنولوجيا مع هذه القبائل، على الرغم من ارتفاعه إلى ثقافة أعلى، احتفظ بآثار رائعة لعبادة الأشجار في شمال أوروبا. في المقاطعات

الإستونية الـ 145، في القرن الحالي، قد يرى المسافر غالبًا الشجرة المقدسة، وهي عمومًا شجرة ليمون قديمة أو بلوط أو رماد، تقف دون انتهاك حرمتها في مكان محمي بالقرب من منزل السكن؛ وتنتقل الذكريات القديمة عن الوقت الذي كان يُرش فيه أول دم لحيوان مذبوح على جذورها، حتى تزدهر الماشية، أو عندما توضع قربان تحت الزيزفون المقدس، على الحجر حيث يركع العابد على ركبتيه العاريتين، متحركًا من الشرق إلى الغرب والعودة، أي حجر يقبله عندما يقول، "استقبل الطعام كقربان". بعد الأدلة المقدمة بالفعل، لا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك شك معقول، في مثل هذا الجمع بين الشجرة والحجر، أن لدينا هنا تضحية لروح الأجداد.

وعلى نحو مماثل، تُزرع في فناء منزل بودو نبتة الفربيون المقدسة لإله الباتوه، الإله الوطني، حيث يقدم لها أحد الكهنة صلواته ويذبح خنزيراً. وفي جزيرة تجومبا في جزر الهند الشرقية، يُقام مهرجان بعد الحصاد، حيث تُملأ الأواني بالأرز كقربان شكر للآلهة. ثم يُرش الحجر المقدس عند سفح شجرة نخيل بدم حيوان يُذبح، ويوضع الأرز على الحجر للآلهة. وعندما يستقر الخونديون في قرية جديدة، يجب غرس شجرة قطن مقدسة في طقوس مهيبة، ثم يوضع تحتها حجر القربان الذي يجسد أو يمثل إله القرية. ويقول البروفيسور روبرتسون سميث: "من بين الساميين، لم يكن أي مكان مرتفع كنعاني مكتملاً بدون شجرة مقدسة تقف إلى جانب المذبح". ولكننا لن نفهم أهمية هذه الحقائق بشكل كامل إلا عندما نأتي لاحقًا إلى النظر في موضوع تصنيع الآلهة من خلال عملية متعمدة، وطبيعة الاحتفالات الدموية التي تصاحبها دائمًا.

وفي بعض الحالات المذكورة أعلاه، يُذكَر بالمناسبة أن جذوع الأشجار المقدسة تُكْسَى أحيانًا، كما رأينا أن هذا هو الحال أيضًا مع الأحجار المقدسة، والأوتاد المقدسة، والأصنام، والآثار المقدسة. ويرد مثال آخر لهذه الممارسة في رواية شجرة البلوط المقدسة في روموفي، التي كان البروسيون القدماء يقدسونها، والتي كانت تُعلَّق بستائر مثل أشيرا، وتُزيَّن بصور صغيرة معلقة للآلهة. ولا تزال الأشجار

المقدسة في أيرلندا مغطاة بقرابين من القماش. وسوف نلاحظ حالات أخرى في سياقات أخرى فيما يلي.

ومرة أخرى، وكما أن الأحجار تُعَد أسلافاً، فكذلك الأشجار المقدسة تُعَد كذلك. وعلى هذا يقول جالتون في جنوب أفريقيا: "مررنا بشجرة عظيمة. كانت أماً لكل أشجار الدامارا.. وكان المتوحشون يرقصون حولها في فرح عظيم". وتعتقد عدة قبائل هندية أنها من أبناء الأشجار. وقد أشار السيد هربرت سبنسر والدكتور تايلور إلى العديد من الحالات الأخرى. ولا أعتقد أنه من الضروري أن نكررها هنا في حجتنا. ولكن في بعض الأحيان، وخاصة في الأزمنة العقلانية اللاحقة، يُقال إن الشجرة المقدسة قد زرعها الإله أو البطل الذي تحتفل بذكراه. وعلى هذا فقد كان من المعتقد أن أشجار السرو التي زرعها هرقل في دافني قد زرعها ذلك الإله، في حين كان من المفترض أن إبراهيم هو الذي زرع أشجار الطرفاء في بئر سبع.

آمل أن يتضح من هذا الملخص السريع أن كل الحقائق المتعلقة بعبادة الأشجار المقدسة تتطابق تمامًا مع تلك المتعلقة بعبادة القبور والمومياوات والأصنام والأحجار المقدسة والأوتاد المقدسة وغيرها من علامات الأرواح الراحلة. والواقع أننا نمتلك أحيانًا أدلة مباشرة على مثل هذا الانتماء. وعلى هذا النحو يقول السيد تيرنر عن شجرة مقدسة في بقعة معينة من جزيرة سافاي، والتي كانت تتمتع بحقوق الملاذ مثل مدن اللجوء أو الكاتدرائية في العصور الوسطى: "يقال إن ملكًا من إحدى مقاطعات أوبولو، يُدعى أتوا، عاش ذات يوم في ذلك المكان. وبعد وفاته، سقط المنزل في حالة من الاضمحلال؛ ولكن الشجرة كانت تُركت لتمثل الملك الراحل، ومن باب الاحترام لذكراه، تم جعلها بديلاً عن الحامي الحي والملكي". وعلى ضوء هذه الملاحظة، يمكننا بالتأكيد أن نفسر بنفس المعنى تصريحات أخرى للسيد تيرنر مثل أن شجرة ذات رائحة طيبة في مكان آخر "كانت تعتبر موطنًا لإله الأسرة، وأي شيء عطري تحصل عليه الأسرة كان يُقدَّم لها كقربان"؛ أو مرة أخرى، "كان من المفترض

أن يعيش إله الأسرة" في شجرة أخرى؛ "ولذلك لم يجرؤ أحد على قطف ورقة أو كسر فرع". لأن آلهة الأسرة، كما رأينا في الفصل السابق، هي في الواقع أشباح عائلية، يتم ترقيتها لتكون آلهة.

في الروايات الحديثة عن الأشجار المقدسة، عادة ما يتم التركيز على حقيقة أنها كبيرة وناضجة، وكثيراً ما تكون بارزة للغاية، وتحتل ارتفاعاً حيث تعمل كمعالم. ومن ثم فقد كان من المسلم به في كثير من الأحيان أن يتم اختيارها للعبادة بسبب حجمها وموقعها المهيب. ومع ذلك، أعتقد أن هذا هو وضع العربة أمام الحصان، وكأن المرء يقول إن كاتدرائية القديس بطرس ودير وستمنستر ومعبد الكرنك ومسجد عمر، مدينة بقداستها لأبعادها المهيبة. هناك كل الأسباب التي تجعل الشجرة المقدسة تنمو لتصبح كبيرة وبارزة بشكل استثنائي. عادة ما يتم بناء التلال على ارتفاعات مهيبة إلى حد ما، حيث قد تجذب انتباهًا عامًا. يتم العمل بجد على الأرض، وتكديسها عالياً، وتحريرها من الأعشاب الضارة، وإثرائها بالدم والقرابين الأخرى. الشجرة، كونها مقدسة، يتم الاعتناء بها والعناية بها. لا يتم قطعها أبدًا، وبالتالي تنمو بشكل طبيعي في المتوسط لتصبح عينة كبيرة ومتطورة. ومن هنا فإنني أرى أن الشجرة عادة ما تكون كبيرة لأنها مقدسة، وليس لأنها كبيرة. ومن ناحية أخرى، عندما يتم اختيار شجرة ناضجة بالفعل كمكان للدفن، فمن الطبيعي بلا شك أن يتم اختيار شجرة كبيرة وواضحة. وهكذا قرأت عن الشجرة التي دفن تحتها قلب الدكتور ليفنجستون بواسطة خادمه المحلي، "إنها الأكبر في المنطقة".

وإذا نظرنا إلى المسألة من منظور واسع، فإن القضية تقف على هذا النحو. فنحن نعلم أن المتوحشين في كثير من الحالات يدفنون موتاهم تحت ظلال أشجار ضخمة. ونعلم أن هذه الأشجار تعتبر مقدسة بعد ذلك، وتعبد بالدم والملابس والستائر والقرابين. ونعلم أن الشجيرات الصغيرة أو الأشجار تُزرع بشكل متكرر على القبور في جميع البلدان. ونعلم أن كل ما ينمو على القبر أو يخرج منه يعد ممثلاً للروح التي

بداخله. وبالتالي فإن الافتراض يصب في صالح أي شجرة مقدسة بعينها ذات أصل جنائزي؛ ويقع عبء إثبات العكس على عاتق الشخص الذي يؤكد على تفسير أكثر غموضًا وأقل وضوحًا.

وفي الوقت نفسه، فأنا على استعداد تام للسماح هنا، كما في الحالات السابقة، عندما أصبحت فكرة قدسية بعض الأشجار شائعة بين البشر، فقد تكتسب العديد من الأشجار قداسة خاصة بها بمجرد ارتباطها بها. ولا شك أن هذا هو الحال في الهند مع شجرة البيبول، وفي بلدان أخرى مختلفة مع أشجار أخرى مختلفة. وقد حدث الشيء نفسه تمامًا مع الحجارة. وهكذا، مرة أخرى، على الرغم من اعتقادي أن المعبد قد تم تطويره من القبر أو غطائه، فأنا لا أنكر أن الكنائس تُبنى الآن بعيدًا عن القبور، على الرغم من أنها مخصصة دائمًا لعبادة إله من الواضح أنه شخصية معينة مُلهمة.

وهناك نقطة أخرى لابد وأن أتطرق إليها بإيجاز، وهي البستان المقدس أو مجموعة الأشجار. وأعتقد أن هذه الأشجار تمثل في أغلب الأحيان الأشجار المزروعة في التيمنوس أو المساحة المحرمة المقدسة التي تحيط بالمقبرة أو المعبد البدائي. فالقباب أو القباب الصغيرة ذات الشكل القبلي للقديسين المسلمين، والتي كانت شائعة في شمال أفريقيا، تحيط بها جميعاً سور محاط بسياج تزرع فيه عادة أشجار الزينة وغيرها من الأشجار. وفي كثير من الحالات تكون هذه الأشجار أشجار النخيل. الشجرة المقدسة المألوفة في بلاد ما بين النهرين، والتي لابد وأن نتناولها بمزيد من التفصيل في فصل لاحق. أما الشجرة المقدسة الشهيرة في بليدة فهي عبارة عن بستان كبير، وفي وسطه قبة. وكثيراً ما كانت أشجار مماثلة تحيط بالمعبد المصري واليوناني. ولست أزعم أن هذه القبور كانت بالضرورة مقابر حقيقية؛ ولكنها كانت على أي حال مقابر تذكارية. وعندما اعتاد الناس على فكرة أن بعض الأشجار مقدسة لذكرى أسلافهم أو آلهتهم، فلن يكون من السهل زراعة مثل هذه الأشجار حول معبد فارغ. فعندما بنى زينوفون، على سبيل المثال، ضريحًا لأرتميس، وزرع حوله بستانًا

من أنواع عديدة من أشجار الفاكهة، ووضع فيه مذبحًا وصورة للإلهة، لم يتصور أحد للحظة أنه أقامه فوق جسد أرتميس الميتة. ولكن البشر ما كانوا ليشرعوا في بناء المعابد وتكريس البساتين على الإطلاق إذا لم يبنوا أولاً منازل لزعيم الآلهة الميت، وغرسوا الشجيرات والأشجار فوق تلته الموقرة. ولكن حتى النقش الساذج على ضريح زينوفون - "من يعيش هنا ويستمتع بثمار الأرض يجب عليه كل عام أن يقدم الجزء العاشر من المحصول للإلهة، ومن الباقي يستخدم في صيانة المعبد" - ألا يعيدنا ضمناً إلى أصل الكهنوت، والرغبة في الاستمرار في الصيانة الواجبة للمناصب الدينية؟

ولن أتحدث هنا عن تطور آلهة الأشجار المتحضرة العظيمة مثل أتيس وأدونيس، والتي كانت شائعة في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، وذلك جزئيًا لأنني تناولتها بالتفصيل في مقالي عن عبادة الأشجار الذي أشرت إليه أعلاه، وجزئيًا لأنها ستقودنا بعيدًا جدًا عن موضوعنا الحالي. ولكن لا بد من تخصيص بضع كلمات للحديث عن انتشار عبادة الأشجار بين الشعوب السامية، والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بظهور بعض العناصر المهمة في العبادة المسيحية.

يقول البروفيسور روبرتسون سميث: "في كل أنحاء المنطقة السامية، كانت الأشجار تُعبد باعتبارها آلهة". ومن بين الأنواع التي كانت تحظى بالتكريم على هذا النحو، يذكر بشكل خاص أشجار الصنوبر والأرز في لبنان، وأشجار البلوط دائمة الخضرة في التلال الفلسطينية، وأشجار الطرفاء في الغابات السورية، وأشجار السنط في الوديان العربية. وسوف نلاحظ أن معظم هذه الأشجار دائمة الخضرة. وفي شبه الجزيرة العربية، كانت الحالة الأكثر لفتاً للانتباه هي شجرة النخيل المقدسة في نجران. كانت تُعبد في وليمة سنوية، حيث كانت "تُعلق عليها الملابس الفاخرة وحلي النساء". وكانت هناك شجرة مماثلة في مكة، وكان الناس يلجأون إليها سنوياً، ويعلقون عليها الأسلحة والملابس وبيض النعام وغير ذلك من القرابين. وكان من المفترض أن

تعيش آلهة في شجرة سنط مقدسة في نكلا. وما زال العرب المعاصرون يعلقون قطعاً من اللحم على مثل هذه الأشجار المقدسة، ويكرمونها بالقرابين، ويقدمون لها خرقة من القماش القطني والخرز الملون.

أما فيما يتصل بالفينيقيين والكنعانيين، فيقول فيلو بيبلوس إن النباتات كانت في العصور القديمة موضع تبجيل باعتبارها آلهة، وكانوا يكرمونها بالقرابين والتضحيات. ويورد الدكتور روبرتسون سميث عدة أمثلة على ذلك. فالمسيحية لم تلغ تبجيل الأشجار المقدسة في سوريا، حيث لا يزال الناس يصلون إليها وهم مرضى ويعلقونها بالخرق. كما يقدس المسلمون في فلسطين الأشجار المقدسة التي تعود إلى العصور القديمة.

إن عبادة الأشجار تظهر باستمرار في الكتب المقدسة العبرية، وقد تناولها البروفيسور روبرتسون سميث بصراحة، وهو لا يرفض أن يربط بين هذه المجموعة من المعتقدات وأسطورة يهوه في العليقة المشتعلة. وكانت المذابح المحلية للعبادة العبرية المبكرة تُقام عادة "تحت الأشجار الخضراء". وفي هذا الموضوع أود أن أحيل القارئ إلى بحث الدكتور سميث المثير للاهتمام في الصفحة 193 من كتاب "دين الساميين".

أما فيما يتصل بالقداسة العامة للنباتات، وخاصة النباتات الغذائية، مثل الذرة، والكرمة، ونخيل التمر، فإنني أؤجل هذا الموضوع المهم إلى الوقت الحاضر، حتى نأتي إلى النظر في آلهة الزراعة، والمجموعة الغريبة من الأفكار التي أدت تدريجيًا إلى تناول الآلهة المقدسة. وفي موضوع واسع النطاق ومعقد مثل موضوع الدين البشري، يصبح من الضروري تناول نقطة واحدة في كل مرة، والتعامل مع الأجزاء المختلفة بمعزل تحليلي.

لقد قمنا الآن بفحص موجز لكل الأشياء المقدسة الرئيسية في العالم تقريبًا، وفقًا للفئات - الجثة، والمومياء، والصنم، والحجر المقدس، والوتد المقدس، والشجرة المقدسة أو البستان المقدس؛ ولم يتبق سوى مجموعة أخرى من الأشياء المقدسة، المعترف بها على نطاق واسع، والتي لا أعتزم فحصها بشكل منفصل، ولكن قد أخصص لها بضع كلمات في نهاية الفصل. أعني الآبار المقدسة. قد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الآبار لا يمكن أن تكون لها أي صلة بالموت أو الدفن؛ ولكن من الغريب أن نقول إن هذا التوقع مضلل. ويبدو أن هناك بعض الأسباب لإدراج الآبار أيضًا في فئة الأشياء الجنائزية المتزايدة الاتساع. على سبيل المثال، كان بئر الثيران في عكا يزوره الحجاج المسيحيون واليهود والمسلمون؛ لذلك كان هذا البئر موضوعًا مقدسًا قديمًا عظيمًا؛ ولكن لاحظ هذه النقطة: يوجد بجواره قبر مقدس، "ربما يكون الممثل الحديث لميمنونيوم القديم". ولقد كان لكل معبد مصري بحيرة مقدسة. وفي سوريا الحديثة، نجد دائماً صهاريج بجوار قبور القديسين، ويعتقد أن هذه الصهاريج تسكنها نوع من الجنيات. ويعتقد أن الطفل المتلهف هو جنية متحولة، ولابد من إنزاله في الصهريج. ويبدو أن تشابه الاعتقاد بوجود الآبار المقدسة في إنجلترا وأيرلندا، وارتباطها المتكرر باسم أحد القديسين، يشير إلى أنهما ينتميان إلى نفس الأصل. فالأنهار المقدسة تنبع عادة من ينابيع مقدسة، توجد بالقرب منها معابد. وكان نهر أدونيس ينبع من ضريح أفاكا: وكان قبر أدونيس، الذي سنتحدث عنه أكثر فيما بعد، يقع بالقرب من مصب النهر المقدس الذي احمر من دمه. وكان للنهر المقدس بيلوس أيضاً قبره الغريب الذي أطلق عليه اسم ممنونيوم أو أدونيس. ولكن لا بد أن أضيف أن الأنهار المقدسة كانت لها أيضًا ضحاياها الإلهية السنوية، الذين سنتحدث عنهم كثيرًا في مرحلة لاحقة من بحثنا، والذين ربما استمدت منهم قدسيتها جزئيًا. ومع ذلك، أعتقد أن كون قدسيتها ترجع أيضًا جزئيًا، وفي الأصل، إلى المقابر الموجودة عند منابعها، أمر لا يقبل أي شك معقول.

إن تكافؤ البئر المقدسة والحجر المقدس يتجلى في حقيقة أنه بينما كان على المرأة المشكوك في عفتها أن تشرب من ماء نبع مقدس لإثبات براءتها، كان عليها في مكة أن تقسم سبعين يمينًا بالكعبة.

ولقد كان الناس يعبدون الآبار والينابيع المقدسة بنفس الطريقة التي يعبدون بها الأشباح والصور. ففي أفاكا كان الحجاج يلقون في البركة المقدسة جواهر من الذهب والفضة، وأنسجة من الكتان وغير ذلك من الأشياء الثمينة. وكان البستان المقدس ملحقاً بالنبع المقدس: ففي اليونان، وفقاً لبوتيشيه، نادراً ما كان يتم فصلهما. وفي المهرجان السنوي لشجرة التربنتين المقدسة، أو شجرة وبئر إبراهيم في ممرا، كان الزوار الوثنيون يقدمون التضحيات بجانب الشجرة، ويلقون في البئر سكبات من النبيذ، مع الكعك، والعملات المعدنية، والمر، والبخور: وكل هذا يمكننا مقارنته بالقرابين التي كان أهل أوستياك يقدمونها إلى أوتاد القبور. وفي المياه المقدسة في كروا، كان يتم وضع الخبز والفواكه والأطعمة الأخرى بجانب النافورة. وفي مكة، وفي مياه ستيجيا في الصحراء السورية، كانت تُلقى هدايا مماثلة في المصدر المقدس. وفي إحدى هذه الحالات على الأقل نعلم أن البئر المقدسة كانت مرتبطة بدفن حقيقي؛ ففي أفقا، أقدس مزار في سوريا، ظهر قبر البعل المحلي أو الإله المحلي بجوار النافورة المقدسة. ويقول الدكتور روبرتسون سميث في تعليقه على هذه الحقيقة: "الإله المدفون هو إله يسكن تحت الأرض". ومن الأصدق والأكثر فلسفة أن نقول إن الإله الذي يسكن تحت الأرض هو رجل مدفون.

لا أحتاج إلى أن أتذكر العروض المقدمة للأرواح الكورنية والأيرلندية، والتي تحولت الآن في معظمها إلى دبابيس وإبر.

وعلى العموم، ورغم أنه من المستحيل أن نفهم أصل الينابيع والأنهار المقدسة بالكامل دون أن ندرس مسبقًا عملية صنع الآلهة عمدًا، وهو الموضوع الذي أحتفظ به لجزء لاحق من شرحنا، فإنني لا أعتقد أننا سنخطئ كثيرًا إذا افترضنا أن البئر

المقدسة غالبًا ما توجد بصحبة الشجرة المقدسة، والحجر المقدس أو المذبح المقدس، والقبر المقدس؛ وأنها تدين بقداستها في نهاية المطاف، في الأصل على الأقل، إلى الدفن بجانبها؛ رغم أنني لا أشك في أن هذه القداسة كانت في كثير من الحالات تحافظ عليها عملية التضحية السنوية بإله ضحية جديد، من النوع الذي سنظل نذكر أصله فيما بعد. والواقع أن الدكتور روبرتسون سميث يقول عن العبادة السامية بشكل عام: "الرموز الطبيعية المعتادة هي نافورة أو شجرة، في حين أن الرمز الاصطناعي العادي هو عمود أو كومة من الحجارة: ولكن في كثير من الأحيان نجد الثلاثة معًا، وكانت هذه هي القاعدة في المقدسات الأكثر تطورًا". لا أستطيع أن أتفق معه في مسألة "الرمزية": لكن ترتيب الأشياء له أهمية على الأقل.

وهكذا، في التحليل النهائي، نرى أن كل الأشياء المقدسة في العالم هي إما الموتى أنفسهم، كجثث أو مومياء أو أشباح أو آلهة؛ أو القبر الذي دفن فيه هؤلاء الرجال؛ أو المعبد أو الضريح أو الكوخ الذي يغطي القبر؛ أو حجر القبر أو المذبح أو الصورة أو التمثال الذي يقف فوقه ويمثل الشبح؛ أو الوتد أو الصنم أو إله الأسرة الذي يُصنع كنائب لهم؛ أو الشجرة التي تنمو فوق التلة؛ أو البئر أو الخزان أو الينبوع، الطبيعي أو الاصطناعي، الذي وُضِع الميت بجانبه للراحة. وفي شكل أو آخر، من البداية إلى النهاية، نجد فقط، في عبارة السيد ويليام سيمبسون الرسومية، "عبادة الموت"، كأساس وجذر لكل دين بشري.

الفصل الثامن - آلهة مصر.

لقد انتهينا الآن من مسحنا الأولي لطبيعة وأصل الآلهة بشكل عام. رأينا كيف توصل البشر في البداية إلى الاعتقاد بوجود هذه الكائنات القوية غير المرئية، وكيف تعلموا أن يعطوها صفات مهيبة، وكيف أصبحوا يعبدونها تحت أشكال مختلفة من المومياوات أو الصخور، أو الأصنام الحجرية أو الخشبية، أو الأشجار أو الجذوع، أو الآبار، أو الأنهار، أو النوافير. باختصار، وصلنا إلى أصل تعدد الآلهة. يتعين علينا الآن أن ننتقل إلى سؤالنا الثاني: كيف انتقل البشر من الإيمان بآلهة متعددة إلى الإيمان بإله واحد، خالق كل الأشياء وحافظها؟ مهمتنا الآن هي إعادة بناء أصل التوحيد.

ولكن التوحيد يرتكز بالكامل على الإله العظيم عند العبرانيين. لذا، لابد أن نتوجه إليه بعد ذلك. فهل يمكن أن يتحول إلى حجر مقدس، كما أشرت من قبل، أو إلى نصب تذكاري يمثل أحد زعماء ما قبل التاريخ؟ وهل نستطيع أن نتتبع أصل إله المسيحية حتى نجده أخيراً في شبح سامي منسي من أقدم العصور؟

كان الإله العبري الرئيسي يهوه، عندما ألقينا نظرة عابرة على عبادته البدائية من قِبَل شعبه، مجرد واحد من بين عدد من الآلهة المتنافسة، ويبدو أن أغلبها كانت مجسدة من قِبَل أتباعها في هيئة مرئية من الأعمدة الحجرية أو الخشبية، وكانت تعبدها مجموعة صغيرة من القبائل غير المترابطة في المنطقة الجبلية في جنوب غرب سوريا. وكان التحالف بين القبائل التي سكنها يعرف نفسه باسم أبناء إسرائيل؛ وكانوا يعتبرون يهوه إلههم الرئيسي، تمامًا كما كان اليونانيون يعتبرون زيوس، أو الجرمان الأوائل يعتبرون وودن بطلهم الوطني. ولكن هناك تقليد عالمي بينهم يشهد على حقيقة مفادها أنهم عاشوا ذات يوم في حالة من العبودية في مصر، بيت العبودية، وأن إلههم يهوه كان له دور فعال في قيادتهم من هناك إلى الأرض الوعرة التي سكنوها طوال الفترة التاريخية بأكملها، بين وادي الأردن وساحل البحر الأبيض المتوسط. ولقد كان هذا الاعتقاد التقليدي ثابتاً ومؤكداً إلى الحد الذي يجعلنا لا

نستطيع أن نعتبره إلا بمثابة لب الحقيقة؛ ولا يعترف كوينين وغيره من علماء الساميين في الوقت الحاضر بأنه حقيقي فحسب، بل يبدو أيضاً أن علماء المصريات يعترفون عموماً بدقته الجوهرية وتوافقه التام مع الأدب الهيروغليفي. ولا شك أن هذه الإقامة في مصر قد أثرت إلى حد ما على الغرباء الساميين؛ ولذلك سأبدأ بحثي عن الإله العبري بين الآثار المصرية. وإذا اعترفنا بأنه كان في الأساس إلهاً من جميع النواحي على النمط السامي الحقيقي، فإنني أعتقد أنه من المفيد لنا أن نتعلم قليلاً مسبقاً عن الناس الذين عاش بينهم أتباعه لفترة طويلة، وخاصة وأن تاريخ الطوائف المصرية يقدم لنا ربما أفضل مثال تاريخي على نمو وتطور ديانة وطنية عظيمة.

إن تاريخ العقل البشري يولي اهتماماً خاصاً لتطور آلهة مصر. ولا نستطيع أن نتتبع في أي مكان آخر من العالم مثل هذا التطور المستمر من أبسط البدايات إلى أرق مستويات التصوف واللاهوت الفلسفي. صحيح أن هناك طوائف متوحشة تظهر لنا بوضوح أكبر المراحل الأولى في العملية التي ينتقل بها الشبح البسيط إلى شكل أقوى من أشكال الإله الخارق للطبيعة: وهناك عقائد حضارية راقية تظهر لنا بشكل أكثر روعة في شكلها المتطور المفهوم النهائي لحاكم واحد أعلى للكون. ولكن لا يوجد نظام ديني آخر معروف لدينا يمكننا من خلاله أن نتتبع بسهولة، دون انقطاع واحد، الحركة التطورية بأكملها التي تتوسع بها الأفكار المبكرة تدريجياً وتتجسد في الأفكار اللاحقة. إن أصل الديانات التاريخية العظيمة الأخرى ضاع عن أعيننا بين ضباب الأسطورة: ففي مصر وحدها، من بين جميع البلدان المتحضرة، يعود سجلنا إلى الفترة البعيدة عندما كان المفهوم الديني لا يزال في المستوى الوحشي الشائع، ويتبعه إلى الأمام باستمرار إلى النقطة المتقدمة حيث حقق تقريبًا، في حركته التوفيقية، الهدف النهائي للتوحيد الخالص.

ولكنني أود أن أبدأ استعراضي لهذا التاريخ الفريد بالقول مرة واحدة وإلى الأبد، إنه على الرغم من أنني لا أدعي امتلاك معرفة مصرية خاصة، إلا أنني مع ذلك لابد أن

أخالف على أسس أنثروبولوجية عامة الموقف الذي اتخذه السيد لو باج رينوف في محاضراته عن ديانة مصر القديمة. إن عمل هذا الكاتب المتعلم، من الناحية العلمية، متأخر عن عصره بنصف قرن من الزمان. فقد كتبه وكأن عقيدة التطور لم تُعلن قط؛ وتحتوي كل صفحة على تناقضات صارخة مع المبادئ الأكثر بدائية للتطور البشري. لا يزال السيد رينوف متمسكًا بالأفكار المشينة التي تقول إن تعدد الآلهة نشأ عن توحيد سابق؛ وأن عبادة الحيوانات وغيرها من أشكال العبادة "رمزية" في الأصل؛ وأن "الأجزاء الأسمى من الديانة المصرية ليست النتيجة المتأخرة نسبيًا لعملية التطور أو الإزالة من الديانة الأكثر خشونة". إن مثل هذه النظريات في حد ذاتها غير محتملة للغاية، حتى على أكمل الأدلة وأفضلها؛ ولكن الأدلة التي يقدمها السيد رينوف لدعم هذه الحجج هي من النوع الهزيل. إن المسح البسيط للآثار المصرية في وادي النيل، والحقائق المعروفة عن الدين المصري، من شأنه أن يقود أي عقل محايد، خالٍ من التأثير المشوه للأفكار المسبقة، ومعتاد على البحث الأنثروبولوجي الواسع، إلى استنتاجات معاكسة تمامًا وأكثر احتمالية. لأنه يجب أن نضع في الاعتبار بعناية أن المتخصص في هذه الموضوعات هو آخر رجل يجب قبول آرائه ضمناً ودون تردد. يجب الحكم على دين مصر، مثل دين يهودا أو دين هاواي، ليس بمعزل عن ديانات أخرى في أماكن أخرى، ولكن من خلال القياسات؛ يجب على علماء النفس المقارن التخلي نهائيًا عن محاولة تفسيره كظاهرة منفصلة، وهو ما وجد بالفعل أنه كارثي في حالة الطوائف السامية والآرية، باعتباره خطأً ميؤوسًا منه. إن مفتاح أصل الإيمان المصري لا يمكن العثور عليه في التعليقات الفلسفية المتأخرة التي استشهد بها السيد دي روجيه وتلميذه الإنجليزي، بل في المعتقدات البسيطة غير المتغيرة التي توارثها الوحوش الأفارقة آنذاك.

ومن هنا، فإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر هذه ـ وجهة النظر التطورية ـ فلا شيء يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من حقيقة أن الدين المصري المبكر يقوم بالكامل على أساسين رئيسيين: عبادة الأسلاف، والطوطمية.

سأبدأ بالأول من هذه الآلهة، والذي تعلمنا منه كل القياسات أن نعتبره أقدمها وأهمها بلا حدود. وأود أن أضيف أنه، إذا حكمنا من خلال الأدلة المصرية وحدها، فإن هذا العنصر يشكل الأساس لكل المفاهيم الدينية لوادي النيل، كما يشكل العنصر الذي يفسر بشكل مباشر، كما سنرى فيما بعد، كل الآلهة الأكثر أهمية في البانتيون الوطني، بما في ذلك أوزوريس وبتاح وخيم وآمون، وربما العديد من آلهةهم المرتبطة. في الواقع، لا يوجد أي دين عرقي عظيم على وجه الأرض، باستثناء الصين ربما، حيث تظهر الأهمية الأساسية للرجل الميت بشكل واضح كما هو الحال في عبادة مصر الفرعونية القديمة.

إن الدين المصري يقوم على المقابر. ومن المستحيل أن يشكك المرء ولو للحظة في هذه الحقيقة وهو يقف تحت الظلال الخافتة لأشجار النخيل الصحراوية وسط أكوام الغبار الضخمة التي تضربها أشعة الشمس والتي تمثل شوارع طيبة وممفيس. ولا شك أن المومياء هي أكثر الأشياء التي يعبدها المصريون على ضفاف النيل: ففي بعض الأحيان تكون المومياء الخاصة لأحد الأسلاف أو الأقارب، وفي أحيان أخرى تكون المومياوات التي تعبد في العصور القديمة، والتي امتزجت في التصوف التوفيقي اللاحق بإله الشمس وغيره من الآلهة الرمزية، ولكنها كانت تُمَثَّل حتى آخر العصور في كل عصور الفن. على معبد الرامسيوم المحطم في طيبة أو على الأعمدة البطلمية في دندرة التي لم تتزعزع بعد. كمومياوات واضحة لا يمكن أن تخطئها العين. وإذا كان هناك بلد ما حيث تم دفع عبادة الموتى إلى أقصى حد، فإن هذا البلد هو مصر بكل وضوح وحسم.

"إن أقدم المنحوتات لا تظهر لنا أي أعمال عبادة أو تضحية،" كما يقول السيد لوفتي، "باستثناء تلك التي تظهر العبادة عند ضريح أحد الأسلاف أو الأقارب المتوفين". وهذا يتفق تمام الاتفاق مع ما نعرفه عن فجر الدين في أماكن أخرى، ومع الأهمية الهائلة التي كانت تُعلّق دوماً على الحفاظ على المومياء سليمة طوال المسار

الطويل للتاريخ المصري. وعلى الرغم من حضارته العالية، ظل المصريون دائماً في المرحلة الأولى من العادات المتعلقة بالحفاظ على الجثث فيما يتصل بالموتى. وبالتالي فإن الحياة بعد الموت كانت بالنسبة له أكثر جدية من الحياة على الأرض: لقد أدركها تماماً حتى أنه قام باستعدادات لا نهاية لها لها خلال أيامه فوق، وبنى لنفسه قبراً كقصر أبدي. كان القبر مكان إقامة، حيث كان المومياء سيقضي الجزء الأعظم من وجوده؛ وحتى في حالة الأشخاص العاديين (مثل ذلك الرجل الشهير الذي كان قبره المرسوم في سقارة والذي يحرص كل سائح إلى القاهرة على زيارته) كان القبر مزيناً بشكل فخم بالرسوم والنحت. وفي غرف الجنازة أو المصليات الملحقة بالمقابر، كان أقارب المتوفى وكهنة المقبرة يحتفلون في تواريخ محددة بمراسم مختلفة تكريماً للميت، ويقدمون الهدايا المناسبة للمومياء الموجودة بداخلها. "وكانت موائد القرابين، التي كانت بلا شك تشكل جزءاً من أثاث الغرف، مصورة على الجدران، مغطاة بهدايا من اللحوم والفواكه والخبز والنبيذ التي كان لابد من تقديمها في نفس الوقت". ولا شك أن هذه الهدايا كانت تشكل السمة الرئيسية للدين العملي في مصر القديمة، كما ظهر لنا في جميع الآثار باستثناء كهوف المقابر المتأخرة للشخصيات الملكية، المكرسة لعبادة الآلهة العظيمة المحنطة على قدم المساواة.

كانت المقابر المصرية في العادة عبارة عن بقايا من الكهوف التي تم تقليدها بشكل مصطنع. وكانت الغرفة الخارجية، التي كانت تقام فيها مراسم تقديم القرابين، هي الجزء الوحيد الذي يمكن الوصول إليه، بعد الانتهاء من الدفن، من أقدام الناجين. وكانت المومياء نفسها، المخفية في تابوتها، ملقاة في قاع حفرة عميقة خلفها، عند نهاية ممر يحتوي غالبًا على تماثيل أو أصنام للمتوفى. ويقول م. ماسبيرو إن هذه الأصنام كانت تُضاعف إلى ما لا نهاية، في حالة تدمير المومياء نفسها عن طريق الخطأ، حتى يتمكن الكا (الشبح أو المزدوج) من إيجاد مسكن آمن. قارن بين الصور الصغيرة العديدة التي وضعها زنوج الساحل على القبر. كانت الغرفة الخارجية، مع ذلك، هي التي تؤوي المسلة أو العمود الذي يحمل النقش على القبر، وكذلك

المذبح أو المائدة للقرابين، وكان الدخان المنبعث منها ينتقل إلى التماثيل في الممر من خلال فتحة صغيرة في جدار الفصل. وفي أسفل البئر، كانت المومياء ترقد بشخصها، في مسكنها الأبدي، خالية من أي فرصة للانتهاك أو الإساءة. ويقول السيد رينوف: "لقد كانت الأهمية الكبرى مرتبطة باستمرار القبر، واستمرار الاحتفالات الدينية، وصلاة المارة". ومرة أخرى، "هناك صيغة شائعة جدًا تنص على أن الشخص الذي رفع اللوحة "صنعها كتذكار لآبائه الذين يعيشون في العالم السفلي، وبنى ما وجده غير كامل، وجدد ما وجده خارج الإصلاح". وفي النقش الموجود على أحد المقابر العظيمة في بني حسن، يقول المؤسس: "لقد جعلت اسم والدي مزدهرًا، وبنيت مصليات لكاه [أو شبحه]. لقد أمرت بنقل التماثيل إلى المسكن المقدس، ووزعت عليها قرابينها في شكل هدايا نقية. لقد عينت الكاهن المسؤول، الذي قدمت له تبرعات في شكل أرض وهدايا. "لقد أمرت بتقديم قرابين جنائزية لجميع أعياد العالم السفلي [والتي تم إحصاؤها بعد ذلك بـ 160 بتفصيل كبير]. وإذا حدث أن توقف الكاهن أو أي شخص آخر عن القيام بذلك، فلا يجوز له أن يكون موجودًا، ولا يجوز لابنه أن يجلس في مقعده". كل هذا مفيد للغاية من وجهة نظر أصل الكهنوت.

إن السيد رينوف نفسه يوضح لنا في أحد المقاطع المفيدة إلى متى استمر احترام هذه الأوقاف الدينية المبكرة. فقد كان الملوك الذين بنوا الأهرامات في الإمبراطورية المبكرة يخصصون منصباً كهنوتياً بغرض الاحتفال بالطقوس الدورية لتقديم القرابين لأشباحهم أو مومياواتهم. والآن، هناك لوحة في متحف اللوفر تظهر أن شخصاً معيناً عاش في عهد الأسرة السادسة والعشرين كان كاهناً لخوفو، باني الهرم الأكبر، الذي كان قد خصص المنصب قبل ألفي عام من عصره. ولدينا في الواقع مقابر بعض أسلافه الذين شغلوا نفس المنصب مباشرة بعد وفاة خوفو. وعلى هذا فإن عبادة الملك المتوفى استمرت في هذه الحالة على الأقل لآلاف السنين دون انقطاع. يقول م. ماسبيرو: "إذا لم نجد في حالة الدفن الخاص دليلاً على هذا التبجيل المستمر، فذلك لأن المراسم في المقابر العادية لم تكن تُقام بواسطة كهنة خاصين،

بل بواسطة أبناء أو أحفاد الشخص المتوفى. وفي كثير من الأحيان، في نهاية بضعة أجيال، إما بسبب الإهمال، أو الإزالة، أو الخراب، أو انقراض الأسرة، كانت العبادة تُعلَّق، وتختفي ذكرى الموتى تمامًا".

ولهذا السبب، وكما هو الحال في كل مكان آخر بين عبدة الأسلاف، كان المصريون يعلقون أهمية هائلة على إنجاب ابن يقوم بأداء الطقوس العائلية الواجبة، أو يتأكدون من قيام الآخرين بأدائها بعده. ويؤكد كل التعاليم أو النصوص الأخلاقية على واجب القيام بهذه الطقوس؛ ومن ناحية أخرى، فإن الرغبة في ألا يكون للرجل ابن يقوم بأدائها له هي أفظع أنواع اللعنات المصرية القديمة. "بعد قرون عديدة من بناء القبر، ترك الرحالة المصريون سجلاً على جدرانه عن روعة المسكن المقدس، وعن وفرة المواد التي وجدوها كافية لإتمام الطقوس للموتى، وعن تكرارهم هم أنفسهم لصيغة الجنازة". في واقع الأمر، فإن الدين العملي للمصريين العاديين بأكمله، كما يراه المراقب البسيط اليوم في الكتلة الهائلة من الآثار القائمة، يتألف بشكل شبه حصري من عبادة الكا - الجن، أو المانيس، أو لاريس الموتى.

ولو كان حتى القطيع العادي قد تم تحنيطه بعناية شديدة . ولو كان حتى أقل موظفي البلاط أو المعبد قد دفنوا في مقابر باهظة الثمن، مطلية برسومات دقيقة ومنحوتات رائعة. لكان من السهل أن نصدق أن الملوك العظماء من الأسر الحاكمة القوية الفاتحة كانوا ليقيموا لمومياواتهم مساكن أبدية ذات روعة خاصة وفخامة تليق بهم. وهذا ما فعلوه. ففي مصر السفلى كانت مقابرهم عبارة عن تلال أو أهرامات؛ وفي مصر العليا كانت مقابرهم عبارة عن كهوف اصطناعية. وتتكون المنطقة الصحراوية الكئيبة الواقعة إلى الغرب من النيل وإلى الجنوب من القاهرة من عدة أميال، دون انقطاع تقريباً، من مقبرة ممفيس. وهي مدينة ضخمة متعفنة للموتى . والتي كانت أهم آثارها سلسلة الأهرامات الرائعة، والمقابر المدنسة التي تراكمت لملوك الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة. هناك، تحت تلال

حجرية ضخمة الحجم، أو تلال حجرية أو أكوام من الحجارة مبنية بعناية أكبر، كان فراعنة الإمبراطورية القديمة يرقدون في سلام في قبور لا تحمل أي علامات تشير إلى الآلهة الصوفية أو الوحوش المقدسة التي تخيلها خيال لاحق. ولكن هناك مقابر الملوك المنحوتة في الصخر في طيبة، والتي كانت ملكًا لملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، عندما اكتسب الدين تطوره الصوفي الكامل، أكثر أهمية وجمالاً إلى حد لا نهائي. تشكل هذه القاعات الجوفية الرائعة بالمعنى الحقيقي والأكثر حرفية مقبرة حقيقية، ومدينة مومياوات، حيث كان من المقرر أن يسكن كل ملك قصرًا أبديًا من الروعة الملكية، مزينًا بوفرة من الفن متعدد الألوان، ومليئًا بالعديد من القصور لموظفي الدولة، الذين ما زالوا مقدرين على خدمة ملكهم في العالم السفلي. ويبدو أن بعض اللوحات الجدارية تشير إلى أن العبيد أو الأسرى كانوا يضحون بهم في المقبرة، لخدمة سيدهم في منزله الأبدي، كما خدمه حاشيته في القصور الزمنية في مدينة هابو أو ممرات الأقصر.

وقد أظهر السيد مارييت كذلك أن المعابد الطيبية الضخمة التي كانت تمتد على طول حافة الصحراء بالقرب من وادي المقابر كانت في الحقيقة مقابر تذكارية حيث كانت تُحفظ ذكرى الملوك الذين دفنوا بالقرب منها ويعبدون. وهكذا كان معبد الرامسيوم بمثابة المصطبة أو المصلى الجنائزي لمقبرة وروح رمسيس الثاني؛ وكان معبد مدينة هابو يحقق نفس الغرض بالنسبة لرمسيس الثالث؛ ومعبد القرنة بالنسبة لرمسيس الأول؛ وهكذا دواليك في جميع أنحاء السلسلة الطويلة من تلك الآثار العملاقة، مع مجموعتها المرتبطة من الحفريات الجوفية.

وعلى أية حال، فمن المستحيل تماماً على أي شخص محايد أن يفحص الآثار القائمة التي تصطف على تلال الصحراء الرمادية على ضفاف النيل دون أن يرى بنفسه أن المومياء هي في كل مكان موضوع العبادة المركزي. وأن الدين العملي بأكمله للشعب كان قائماً على هذا الشعور الشامل باستمرارية الحياة بعد الموت،

وعلى ضرورة تقديم الاحترام الواجب والقرابين الجنائزية لأرواح الأجداد. وكل شيء في مصر يشير إلى هذا الاستنتاج الواحد. حتى الطقوس المقدسة العظيمة هي كتاب الموتى: والكلمة ذاتها التي يوصف بها الموتى في أغلب الأحيان تعني في حد ذاتها "الأحياء"، وذلك من اعتقاد الناس الراسخ بأنهم كانوا يتمتعون حقاً بالحياة الأبدية. إن "الموتى هم الأحياء" هي خلاصة قصيرة للمفاهيم الدينية المصرية. كان الموت هو البداية العظيمة التي استعدوا لها جميعاً، وكان الموتى هم الموضوعات الحقيقية لعبادتهم الأكثر اجتهاداً في النفوس وفي حياتهم الخاصة.

وعلاوة على ذلك، يمكننا أن نتتبع في المقابر ذاتها تطوراً تدريجياً للشعور الديني من عبادة الجثث إلى عبادة الله. وعلى هذا فإن كل تلك التمثيلات الرمزية للحياة بعد القبر التي ظهرت مع التصوف اللاحق في مقابر سقارة، التي تنتمي إلى الإمبراطورية القديمة (الأسرة الخامسة)، والتي جاءت مع التصوف اللاحق، مفقودة بالكامل تقريباً. والاقتباسات من (أو التوقعات) من كتاب الموتى قليلة وقصيرة. ونادراً ما يتم الإشارة إلى الآلهة العظيمة. ومرة أخرى، في كهوف بني حسن (من الأسرة الثانية عشرة) تمثل اللوحات في الغالب مشاهد من حياة المتوفى، وما زالت العلامات والآلهة الصوفية غائبة. وما زالت عقيدة المكافآت والعقوبات معلقة نسبياً حتى الآن. ولم يتم نسخ فصول كاملة من كتاب الموتى بالتفصيل إلا في مقابر الملوك في طيبة (من الأسرة الثامنة عشرة)، وكانت الجدران مغطاة "بجيش كامل من الآلهة الغريبة والخيالية".

"ولكن قد يعترض البعض قائلاً: "إن المصريين كانوا لديهم أيضاً آلهة عظماء، متميزين عن أسلافهم. آلهة وطنية أو محلية أو مشتركة. وقد وصلت إلينا أسماؤهم وشخصياتهم محفورة على كل الآثار". وهذا صحيح تماماً: أي أن هناك آلهة لا يمكن أن نعتبرها على الفور أسلافاً مؤلهين. آلهة اتسعت قوتها وجبروتها في النهاية على نطاق واسع، ثم تحولت تدريجياً إلى ما هو أبعد من أن يتم التعرف عليها في العصور

الأخيرة. ولكن ليس من المؤكد على الإطلاق أننا لا نستطيع أن نرجع هذه الآلهة العظمى ذاتها في نهاية المطاف إلى أسلاف مؤلهين من أسر حاكمة مختلفة أو مدن مهيمنة؛ وفي حالة أو حالتين من أكثر الحالات أهمية فإن الإشارات إلى مثل هذا الأصل بعيدة كل البعد عن الندرة.

ولنبدأ بمثال نموذجي. فليس هناك إله واحد في البانثيون المصري أكثر أهمية أو انتشاراً من أوزوريس. وفي الأشكال اللاحقة للدين الوطني، رُفِّع إلى قاضي الموتى وملك العالم السفلي: "أن يبرره أوزوريس"، أو كما يقول المفسرون اللاحقون، "أوزوريس المبرر"، هي صلاة كل جثة كما هو منصوص عليه في نقش جنازته؛ ويُنظَر إلى التماثل مع أوزوريس باعتباره مكافأة لكل الموتى السعداء المخلصين. أما أوزوريس، في كل من صوره وأشكاله، فهو ببساطة مومياء. ومن المؤكد أن أسطورته اكتسبت في النهاية أبعاداً هائلة؛ وتشكل علاقاته بإيزيس وحورس مركز سلسلة لا نهاية لها من الحكايات التي لا يمكن التوفيق بينها، والتي تتكرر مراراً وتكراراً في الفن والأدب. وإذا اتخذنا الأساطير دليلاً لنا، بدلاً من الآثار، فسوف نستسلم لإغراء إعطاءه أصولاً مختلفة تماماً. إننا نجده كثيراً ما يرتبط بآلهة أخرى، وخاصة آمون؛ ومن الصعب للغاية أن نكشف عن شخصيته في الآثار التي أقيمت في الإمبراطورية الحديثة، عندما اختلط رع، إله الشمس، ارتباطاً وثيقاً بالعديد من الآلهة الأخرى. ولكن إذا أهملنا هذه التعقيدات اللاحقة التي طرأت على عبادة قديمة جداً، ورجعنا إلى أبسط أصول التاريخ والدين المصريين، فسنرى، على حد اعتقادي، أن هذا الإله الصوفي، الذي كثيراً ما يفسر بالرمزية العنصرية على أنه الشمس أو موطن الموتى، لم يكن في بداياته الأولى أكثر أو أقل مما تظهره كل صوره وتماثيله. مومياء محترمة ومعبودة، أو زعيم أو ملك قديم جداً لمدينة أو منطقة صغيرة في أبيدوس.

لا أنكر أن أوزوريس أصبح في العصور اللاحقة أكثر من هذا بكثير. ولا أنكر أن اسمه كان مقبولاً كرمز لكل الموتى السعداء المتدينين. فضلاً عن ذلك، سنجد في مرحلة

لاحقة أنه تم التعرف عليه في النهاية على أنه إله الذرة الذي يُقتل كل عام. بل إنني أعترف بأنه ربما كان هناك أكثر من أوزوريس أصلي واحد ـ وربما كانت الكلمة في البداية عامة وليست محددة. ولكنني ما زلت أصر على أن الأدلة تُظهِر لنا أن أوزوريس العظيم والرئيسي كان زعيماً ميتاً لأبيدوس.

إننا لابد وأن نتذكر أن التاريخ في مصر وحدها يعود إلى عصور قديمة، ولكنه مع ذلك يظهر لنا منذ بداياته الأولى حضارة متقدمة وكتابة مصورة متطورة. وعلى هذا فإن أقدم دولة معروفة في مصر تفترض بالضرورة حقبة سابقة طويلة من النمو البطيء في التركيز والثقافة. فقبل أن تتحد مصر العليا أو السفلى تحت تاج واحد، لابد وأن هناك قرى لا حصر لها مبنية بالطين وإمارات صغيرة تظللها أشجار النخيل على ضفاف النيل، وكان لكل منها زعيم أو ملك محلي خاص بها، وكل منها تعبد حكامها المتوفين المحليين. وكان شيخ القرية، كما ينبغي لنا أن نسميه اليوم، هو فرعونهم المجهول الاسم، وكانت مومياوات أسلافه هي آلهتهم. وكان لكل قبيلة أيضًا طوطمها الخاص، والذي سأتحدث عنه بمزيد من التفصيل فيما بعد؛ وكانت هذه الطواطم تُعبد محليًا وكأنها آلهة، وقد أدت على الأرجح إلى ظهور عبادة الحيوانات المصرية في وقت لاحق والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية. ولقد حملت الديانة المصرية حتى آخر الزمان آثاراً واضحة لهذا الشكل القبلي الأصلي؛ ويبدو أن التعدد الكبير في الآلهة المصرية يرجع إلى تبني العديد منها، بعد توحيد البلاد، في البانثيون الوطني. ولكن الآلهة المحلية والطوطمات المحلية ظلت تُعبَد على نحو خاص في مواقعها الأصلية. وهكذا كان الإله آمون-خم ذو القضيب الذكري يُعبَد على نحو خاص في طيبة، حيث تظهر صورته بشكل متكرر غير سار في كل معبد؛ وكان أبيس مقدساً على نحو خاص في ممفيس؛ وبشت في بوباستيس؛ وأنوبيس في سخم؛ ونيث في سايس؛ ورع في هليوبوليس؛ وأوزوريس نفسه في أبيدوس، مسكنه القديم.

وحتى التقاليد المصرية تبدو وكأنها تحتفظ ببعض الذكريات الباهتة عن مثل هذه الحالة، لأنها تؤكد أنه قبل عهد مينا، أول ملوك الأسرة الأولى، والذي كان يعتبر أول ملك لمصر الموحدة، كانت سلالات الآلهة تحكم البلاد. وبعبارة أخرى، كان من المعترف به أن الآلهة كانوا في الأصل ملوكاً من سلالات محلية حكموا مختلف مقاطعات وادي النيل قبل الوحدة.

إن الدلائل التي تقودنا إلى هذا الاتجاه لا تقاوم تقريباً في حالة أوزوريس. فمن المؤكد تقريباً أن أوزوريس كان في الأصل إلهاً محلياً لقرية ثيس أو ثينيس، وهي قرية تقع بالقرب من أبيدوس، حيث لا يزال كوم ضخم من القمامة يمثل موقع استراحة الإله العظيم. وقد وصفت بردية هاريس هذه المدينة الأخيرة بأنها "أبود"، أي يد أوزوريس؛ وفي الآثار التي لا تزال باقية في ذلك الموقع، نجد أوزوريس في كل مكان يمثل الإله الرئيسي، الذي يقدم له الملوك والكهنة القرابين المناسبة. ولكن من الحقائق المهمة أن مينا، مؤسس المملكة المتحدة، قد ولد في نفس المكان؛ وهذا يشير إلى احتمال أن أوزوريس ربما كان أكثر أسلاف مينا قداسة وتبجيلاً. وتستمد هذه الفكرة ثقلها من حقيقة مفادها أن أوزوريس يُصوَّر دائماً في هيئة مومياء، وأنه يرتدي غطاء رأس غريباً أو قبعة رسمية، مثل تلك التي كانت تُستخدم في العصور التاريخية كتاج لمصر العليا. كما يحمل بين يديه العصا والسوط اللذين يمثلان علامات المنصب الملكي . العصا التي يستخدمها لقيادة شعبه مثل الراعي، والسوط الذي يستخدمه لمعاقبة مرتكبي الأشرار ودرء الأعداء. وعلى هذا فإن صورته ليست أكثر ولا أقل من صورة ملك محنط. وفي بعض الأحيان يرتدي أيضاً ريش النعام الملكي. لا شك أن لا شيء سوى الولع الأعمى لعلماء الأساطير يمكن أن يجعلهم يتغاضون عن الاستنتاج الواضح بأن أوزوريس كان رئيسًا محنطًا لأبيدوس في الأيام التي سبقت توحيد مصر تحت حكم واحد، وأنه كان يُعبد من قبل خلفائه في الإمارة الصغيرة تمامًا كما نعلم أن مومياوات الملوك الآخرين كانوا يُعبدون من قبل عائلاتهم في أماكن أخرى - تمامًا، على سبيل المثال، كما هو الحال في لوح الأسلاف الشهير الذي وجد في

أبيدوس نفسها، حيث نرى سيثي الأول ورمسيس الثاني يقدمان الولاء لستة وسبعين ملكًا تاريخيًا، أسلافهم على عرش مصر المتحدة.

ولكن ليس فقط أن أوزوريس كان ممثلاً في هيئة ملك ومومياء، بل إن بلوتارخ (أو على الأقل مؤلف كتاب "أوزيريد" الذي يحمل اسمه) أخبرنا صراحة بأن قبر أوزوريس كان موجوداً في أبيدوس، وأن أغنى وأقوا المصريين كانوا يرغبون في أن يدفنوا في المقبرة المجاورة، حتى يتمكنوا من الدفن في نفس القبر مع الإله العظيم لبلادهم. وكل هذا مفهوم وطبيعي تماماً إذا افترضنا أن أسرة ثنيتية غزت مصر بأكملها أولاً؛ وأنها وسعت عبادة إلهها المحلي إلى البلاد بأكملها؛ وأنه مع مرور الوقت، عندما اكتسبت هذه العبادة أهمية وطنية، أصبح الإله المحلي الشخصية الرئيسية في البانتيون المشترك.

لقد توصلت إلى هذا الرأي بشكل مستقل قبل أن أدرك أن السيد لوفتي سبقني في ذلك الرأي. ولكنني وجدت في مقالته النادرة والمثيرة للاهتمام عن الخنافس أنه توصل إلى نفس الاستنتاجات.

"يقول السيد لوفتي: "كانت ألوهية الفرعون هي المادة الأولى في عقيدة عصر الأهرام، وهي أقدم ما نعرفه عن هذا الموضوع. ومع مرور الوقت، ورغم أن الملك كان لا يزال يُدعى إلهًا، فإننا نراه منخرطًا في عبادة آلهة أخرى. وفي النهاية ظهر ككاهن؛ وعندما زار هيرودوتس والمؤرخون اليونانيون اللاحقون مصر، لم يتبق من هذا الجزء من الدين القديم سوى القليل جدًا لدرجة أنهم لم يذكروه حتى كمسألة ذات أهمية". وهذا أمر طبيعي تمامًا، كما يمكنني أن أشير بين قوسين، لأنه مع تزايد قدم وعظمة الآلهة العظيمة، لا بد أن الفجوة بينهم وبين البشر العاديين، حتى ولو كان هؤلاء الرجال ملوكًا وذريتهم، كانت تتسع باستمرار. ويواصل السيد لوفتي: "ليس لدي أي شك على الإطلاق في أن أسماء أوزوريس وحورس هي أسماء حكام قدامى. "أعتقد أنه قبل وقت طويل من بدء التاريخ الحقيقي، حكم آسار وآسيت زوجته مصر، ربما في

ذلك الوادي الواسع في أعالي النيل والذي أصبح الآن موقع جرجة وبربي" (حيث أضع إمارة أوزوريس بالضبط). "كان ابنهما حور، أو حورس، أول ملك لمصر العليا والسفلى؛ ولم يذكر المؤرخون اللاحقون "حور سيشو". خلفاء حورس، بشكل غامض. أعلم أن هذا الرأي لا يشاركه فيه جميع طلاب هذا الموضوع، وقد تم إنفاق الكثير من التعلم والإبداع لإثبات أن آسار وآسيت وحور وبتاح وعنب، هم تمثيلات لقوى الطبيعة؛ وأنهم لا يشيرون إلى أمراء قدامى، بل إلى مبادئ قديمة؛ وأن حورس وخلفائه آلهة ولم يكونوا بشرًا قط. ولكننا لا نجد في أقدم النقوش أياً من ذلك التصوف الذي يظهر في المنحوتات التي تعود إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة وحتى عصر البطالمة والإمبراطور الروماني". وباختصار، يواصل السيد لوفثي طرح نظرية حول أصل الآلهة العظيمة تشبه إلى حد كبير النظرية التي أدافع عنها هنا.

ورغم أن هذا ليس من صميم الموضوع، فلا يسعني إلا أن أشير هنا إلى حقيقة غريبة تؤكد أن عدداً من مومياوات طائر أبو منجل قد عُثر عليها في أبفدوس على مقربة من التل حيث توقع السيد مارييت بثقة أن يكتشف في الصخر القبر الفعلي لأوزوريس نفسه. ومن ثم يمكننا أن نستنتج أن طائر أبو منجل كان على الأرجح طوطم أبيدوس أو هذا، كما كان ثور ممفيس، وتمساح الفيوم، وقط بوباستيس، وقرد طيبة. والآن، فإن إله أبو منجل في أبيدوس هو تحوت؛ ومن الجدير بالذكر أن تحوت، بصفته مسجلاً، كان يرافق أوزوريس دائماً، في الأسطورة اللاحقة، بصفته قاضياً على الموتى: بمعنى آخر، كان للإله المحلي المومياء كمستشار له هو الإله المحلي للطوطم؛ وكلاهما من الشائع رؤيتهما على آثار أبيدوس، برفقة حورس، وأنوبيس، وإيزيس، وغيرهم من الآلهة المحلية (على الأرجح).

ومن السهل أن ندرك كيف أن أوزوريس، بهذا الأصل، كان لابد وأن ينمو مع مرور الوقت ليصبح ملك الموتى والقاضي الأعلى للمناطق السفلى. فباعتباره أقدس أسلاف السلالة الملكية، كان من الطبيعي أن يكون هو الشخص الذي يسعى

الملوك بدورهم إلى استرضائه أكثر من غيره، والذي كانوا يتطلعون إلى الانضمام إليه في وطنهم الأبدي. ومع امتداد الأسطورة، ومع تسلل التفسيرات الصوفية، وربط الآلهة بالشمس أو غيرها من الطاقات الطبيعية، بدأ المعنى الأصلي لعبادة أوزوريس في الاختفاء تدريجياً. ولكن حتى النهاية، كان أوزوريس نفسه، على الرغم من كل الفساد، يُصوَّر في هيئة مومياء: وحتى عندما يتم التعرف عليه بأمون، الإله المتطفل في وقت لاحق، فإنه لا يزال يرتدي ضمادات المومياء، ولا يزال يحمل عصا وسوطًا وصولجان ملكيته البدائية.

ولكن قد يعترض البعض على هذا بأن هناك أشكالاً عديدة لأوريسيس، والعديد من الآلهة المحليين الذين حملوا نفس الاسم. فقد دفن في أبيدوس، ولكنه دفن أيضاً في ممفيس، وفي فيلة. والمعبد الصغير الجميل على السطح في دندرة هو كنيسة صغيرة مزخرفة بشكل رائع لإله أوزوريس المحلي في تلك المدينة، مع غرف مخصصة لمختلف آلهة أوزوريس الآخرين في المقاطعات الاثنتين والأربعين في مصر القديمة. حسناً، هذه الحقيقة تسير بالتوازي تماماً مع مادونا المحلية وأبلوس المحلي في الديانات الأخرى: ولم يبد أحد شكوكه بشأن الواقع البشري للسيدة العذراء مريم لأن العديد من المريمات المختلفة موجودة في مواقع مقدسة مختلفة أو في كاتدرائيات مختلفة. إن سيدة لوريتو هي نفسها سيدة لورد. ومع ذلك، فقد ولد يسوع الناصري في بيت لحم: كان ابن يوسف، لكنه كان أيضاً ابن داود، وابن الله. ولعل اسم أوزوريس كان اسماً شائعاً: وربما كان أوزوريس مختلفاً بعض الشيء يُعبد في مدن مختلفة في مصر في وقت لاحق؛ وربما كان إله مومياء محلي، وهو الجد لبعض السلالات المحلية المنقرضة، قد اغتصب في كثير من الأحيان اسم وامتيازات إله المومياء العظيم في أبيدوس، وخاصة تحت تأثير التصوف الكهنوتي المتأخر. وعلاوة على ذلك، عندما نفكر في موضوع صناعة الآلهة، فسوف نرى أن جسد التجسد السنوي لأوزوريس ربما تم تقسيمه وتوزيعه بين جميع مقاطعات مصر. ويكفي لغرضي الحالي أن أشير بإيجاز إلى أن عبادة الأسلاف تفسر بشكل كافٍ ظهور وانتشار

عبادة أوزوريس، المومياء الملكية، مع عبادة حورس وإيزيس وتوتوس والآلهة الأخرى في دورة أوزوريس.

ولعلني أضيف أن هناك نمواً تدريجياً في عبادة أوزوريس، وهو ما نراه واضحاً على الآثار نفسها. فالنُصب التذكارية التي بنيت في عام 170م، والتي تعود إلى أقدم العصور، نادراً ما تحتوي على أسماء أي إله، ولكنها تعرض أتباعاً يقدمون القرابين في ضريح الأجداد. وعلى نحو مماثل، فإن المشاهد التي تصورها جدران المقابر التي تعود إلى العصور المبكرة لا تشير إلى الآلهة العظيمة في العصور اللاحقة، بل إنها مجرد مشاهد منزلية وزراعية، كما يمكن ملاحظتها في سقارة وحتى إلى حد ما في بني حسن. وفي عهد الأسرة السادسة، بدأت الآثار تذكر أوزوريس بشكل متزايد، الذي أصبح الآن يُنظر إليه باعتباره قاضي الموتى ورب العالم السفلي؛ وعلى لوح من هذا العصر في متحف بولاق، ظهرت لأول مرة عبارة "برر أوزوريس" التي أصبحت شائعة بعد ذلك. وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، أصبحت الأسطورة أكثر بروزاً؛ ويبدو أن الطابع الشمسي والقمري قد أعطيا انعكاسياً لأوزوريس وإيزيس: وأضيف اسم رع، الشمس، إلى العديد من الآلهة المتميزة والمستقلة سابقاً. كما اكتسب خيم، إله طيبة، أهمية أكبر الآن، كما هو طبيعي تماماً في ظل سلالة أمراء طيبة: وخيم، إله المومياء المحلي، يُمثَّل دائماً في ملابسه الملفوفة، ثم يُخلط بعد ذلك بالتأكيد مع آمون، وربما أيضاً مع إله المومياء في أبيدوس. ولكن أوزوريس منذ ذلك الوقت فصاعداً ارتقى بوضوح إلى الصف الأمامي كإله. "لأجله، بدلاً من الموتى، يقدم الأصدقاء والعائلة تضحياتهم. وتُشكَّل له محكمة. ويساعد تحوت، المسجل [إله الطوطم في أبيدوس]، وأنوبيس المراقب، ورع، تجسيد الحقيقة، وآخرون، في الحكم على الروح". ومنذ ذلك الحين أصبح اسم المتوفى مصحوبًا دائمًا بصيغة "المبرر من قبل أوزوريس". وفي نفس الوقت تقريبًا ظهر كتاب الموتى في صورته الكاملة، مع تصوره المتطور للعالم السفلي، وترتيبه المعقد لمستويات التقدم المطهري.

وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة، ازدادت الأسطورة تعقيداً؛ وأصبحت هويات الآلهة أكثر تعقيداً؛ وبدأ البحث عن آمون ورع في هيئة آلهة أخرى لا حصر لها؛ ووضع الأساس لعقيدة التوحيد الباطنية أو عبادة الطبيعة الوثنية التي تبناها الكهنة الفلسفيون في وقت لاحق. وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة، اكتسبت عبادة الثالوث المحلي شكلها الكامل، وبرز التفسير الصوفي للدين المصري إلى الواجهة. ثم تطورت الأسطورة الأوزوريسية العظيمة على نحو أكثر دقة وغموضاً؛ وحتى الثور أبيس، إله الطوطم في ممفيس، تم الاعتراف به باعتباره تجسيداً خاصاً لأوزوريس، الذي أصبح بالتالي، مع آمون، الخلاصة الغامضة لكل الآلهة الوطنية تقريباً. "وأخيرًا نجد الأسطورة تتجه نحو التصوف الخالص، حيث يكون أوزوريس في الوقت نفسه أبًا وأخًا وزوجًا وابنًا لإيزيس، كما أنه ابن طفلها حورس. * إن الجمل التي تحتوي على مزيج من الغموض والوضوح يشبه إلى حد كبير ما جاء في كتاب أثناسيوس، تخبرنا كيف أن "الابن ينحدر من الأب، والأب ينحدر من ابنه"؛ وكيف أن "رع هو روح أوزوريس، وأوزوريس هو روح رع، وكيف أن حورس ابنه، الذي استيقظ من جسده الميت بطقوس سحرية، انتصر على ست، أمير الظلام، وجلس كأوزوريس على عرش الأب الذي أحياه وانتقم له. وهنا، كما في أي مكان آخر، لا تعمل الأسطورة على تفسير الإله، بل تعمل على إفساد المشورة".

* "قصص مثل أسطورة أوزوريس"، كما يقول السيد لانج، "تظهر في الربيع
لا تأتي من مصدر ديني خالص، بل تجسد الأوهام والخرافات.
أحلام خيالية لأدنى البشر وأقلهم تطوراً
"الخيال والتكهنات البشرية." هذه الجملة تفرض
نفس الفكرة بالضبط التي عبرت عنها سابقًا
الفصل الثاني. فيما يتعلق بالعلاقات الحقيقية بين الدين والسياسة.
الأساطير. لا تفسر الأسطورة العبادة في أي مكان؛ ولا تلقي أي تفسيرات.

لا يلقي الضوء على أصله أو تاريخه؛ بل على العكس من ذلك، فهو لا يلقي الضوء إلا على أصله أو تاريخه.
يحجب ويحجب جوهر الحقيقة الأساسية
حقيقة.

وعلى نحو مماثل، أعتقد أن بتاح كان في الأصل إله مومياء محلي لممفيس، وخيم من أب، الذي عُرف فيما بعد باسم كيميس.

ولكن هذا النمو التدريجي لزعيم قرية ميت محنط إلى إله وثني، على الرغم من أنه قد يبدو غريباً، لا يختلف بأي حال من الأحوال عن النمو التدريجي لفلاح جليلي إلى الشخص الثاني في إله أبدي قادر على كل شيء. ولا تتعارض أسطورة موت وقيامة أوزوريس (التي سنتناولها فيما بعد في فصل لاحق) مع حقيقة وجوده البشري، تماماً كما لا تتعارض قصة موت وقيامة يسوع المسيح مع الوجود البشري ليسوع الناصري. وربما يكون "التعبير المخفف الفظ" سيئاً؛ ولكن يبدو لي أن مذهب ماكس مولر الخيالي والهائل لا يقل عنه فلسفية.

إن صعوبة التطور ليست كبيرة على الإطلاق، إذا ما أخذنا في الاعتبار حقيقة أخرى وهي أنه حتى بعد أن تطور مفهوم الألوهية بشكل كامل، ظل الملك على نفس طبيعة الآلهة، ابنهم وذريتهم، شخصية إلهية بحد ذاتها، لا تختلف عنهم إلا في عدم حصولهم بعد على الحياة الأبدية، والتي غالبًا ما يتم تصويرهم كرمز لها في المنحوتات وهم يقدمونها بتعبيرات لطيفة لسلالتهم المفضلة. يقول السيد لو باج رينوف: "كان الحاكم الحاكم في مصر هو الصورة الحية ونائب إله الشمس. كان مُنحًا صفات الألوهية، والتي نمتلك أدلة ضخمة عليها في العصور الأولى". وهذا أمر طبيعي تمامًا، ففي العصور القديمة حكمت الآلهة في مصر، وكان الملك خليفتهم: وكان الملوك قبل مينا معروفين بشكل ملحوظ باسم "خلفاء حورس". لقد رأينا أنه حتى وقت متأخر من عصر البطالمة، كان هناك كهنة لمينيس وفراعنة آخرين من أقدم

السلالات. ولقد أخذ ملوك الأهرام لقب حورس الذهبي، الذي قلده بعد ذلك أحفادهم؛ ومن عصر حفرا فصاعداً أصبح الملك الحاكم يُعرف بابن رع والإله الأعظم. وكان أمنحتب الأول، أثناء حياته، "إلهاً صالحاً مثل رع، والبذرة المقدسة لآمون، والابن الذي ولده". وعلى كل الآثار، يُصوَّر الملك بنفس المكانة الخارقة للطبيعة التي يتمتع بها الآلهة أنفسهم: فهو يتحدث معهم على قدم المساواة؛ ويقودونه من يده إلى مقدساتهم الأكثر عمقاً، أو يقدمون له رموز الحكم الملكي والحياة الأبدية، مثل أصدقاء الأسرة.

يمنحه الحارس السابق نفس المكانة التي احتلوها هم أنفسهم على الأرض؛ ويتقدم الأخير به ليشاركهم أمجاد الوجود الآخر. في معبد كورنيه، يتلقى رمسيس الأول (الذي كان ميتًا آنذاك) القرابين والطقوس الدينية لحفيده الملكي. وعلى مقربة منه، يقدم رمسيس الثاني قرابينه إلى آمون رع وخونسو ورمسيس الأول، دون تمييز بين الألوهية. وعلى الجدار الجانبي، يتلقى سيثي الأول تكريمات إلهية مماثلة من الأيدي الملكية: بينما في الغرفة الوسطى، يقوم سيثي نفسه بالخدمة أمام تمثال والده الموضوع في ضريح. وهكذا فإن الملك ليس سوى الإله الحي: وبالتالي فإن الإله ليس سوى الملك الميت.

ولقد توصلت إلى نتيجة مفادها أن جزءاً كبيراً من الآلهة المصرية الكبرى . الآلهة القومية أو المحلية، على النقيض من تلك التي تعبدها كل أسرة في مقابرها . كانت من ملوك العصور الأولى، الذين توسعت أساطيرهم فيما بعد إلى أساطير، وتحولت إلى عبادة الطبيعة، وزينها الكهنة بالخيالات الرمزية أو الباطنية التي لا تنتهي. ولكن حتى آخر عصر من عصور الاستقلال، كانت النقوش التي تصور الإله يورجيتس والإلهة بيرينيس، أو التمثيلات التي تشبه تلك التي نجدها في فيلة للإله فيلادلفوس الذي أرضعته إيزيس، تشير إلى أن الفجوة بين الإنسانية والإلهية كانت ضيقة للغاية في

العقل المصري، وأن الرجولة الأصلية لكل الآلهة كانت فكرة مألوفة تماماً لدى الكهنة والناس.

ولكن كان هناك نوع آخر من الآلهة لا نستطيع أن نكون على يقين منه إلى حد ما؛ وهو الآلهة الحيوانية والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية التي تطورت من طواطم القرى المختلفة. ويشير البروفيسور سايس إلى أن مثل هذه الأنواع الوحشية "تعيدنا إلى عصر ما قبل التاريخ البعيد، عندما كانت العقيدة الدينية في مصر"، أو بالأحرى العادات المصرية، "ما تزال قائمة على الطوطمية". ولكنني لا أشعر بنفس القدر من اليقين في ذهني بشأن العلاقة الدقيقة بين الطوطمية والخط الرئيسي لتطور الآلهة كما يشعر السيد هربرت سبنسر. ويبدو لي أنه من الممكن أن يكون الطوطم في أصله مجرد حيوان محظوظ أو شارة لقبيلة معينة (مثل الماعز أو الغزلان التي ترمز إلى الفوج). ولكن السيد فريزر اقترح أن أصل الطوطمية كان من عقيدة الروح المنفصلة، وهي أفضل تفسير قدم حتى الآن لهذا الموضوع الغامض. ومهما يكن من أمر، فإذا كانت الطواطم قد ارتفعت تدريجيًا إلى مرتبة الآلهة، فيمكننا أن نفهم بسهولة ملاحظة السيد رينوف بأن السلسلة الطويلة من مقابر ثيران أبيس في سقارة تُظهر "مدى عظمة التفاني في الحيوانات المقدسة في العصور اللاحقة مقارنة بالأزمنة السابقة".

هل يجوز لي أن أضيف أن عبادة الطواطم، على النقيض من مجرد الرعاية التي ينطوي عليها اقتراح السيد فريزر، ربما نشأت من عادة نقش الحيوان الطوطمي للمتوفى على عمود القبر أو لوح القبر؟ لا تزال هذه العادة شائعة بين القبائل الهندية في شمال غرب أمريكا.

ومع ذلك، فمهما كان الأصل الحقيقي للآلهة الطوطمية، فإنني لا أعتقد أن الطوطمية تتعارض بأي شكل من الأشكال مع المبدأ العام لتطور فكرة الإله من الشبح، أو الرجل الميت، أو السلف المؤله. ذلك أنه لم يكن من الممكن بأي حال من الأحوال أن يرتفع أي كائن آخر إلى مرتبة الألوهية إلا بعد أن تشكل مفهوم الإله من عبادة

الأسلاف، وبعد أن تطورت العبادة من القرابين المعتادة للمومياء أو الروح عند القبر. ومن ناحية أخرى، كما أشرت من قبل، لا أشعر بالميل التام إلى الموافقة على رأي السيد سبنسر في أن كل إله فردي كان بالضرورة رجل ميت بعينه. ويبدو لي أنه لا شك في أنه بعد أن ترسخت فكرة الألوهية تمامًا في العقل البشري، بدأ التعرف على بعض الآلهة على الأقل، والتي كانت مؤطرة بشكل مباشر إما من مفاهيم مجردة، أو من أشياء طبيعية، أو من انفجارات خالصة للقدرة الأسطورية. لا أعتقد، إذن، أن وجود فئة معينة (غير مهمة نسبيًا) من آلهة الطوطم في مصر أو في أي مكان آخر يتعارض بالضرورة بأي شكل من الأشكال مع نظريتنا الرئيسية حول أصل الألوهية.

ولكن مهما يكن من أمر، فمن الواضح على أية حال أن الطوطمية نفسها كانت مؤسسة قديمة ومنتشرة على نطاق واسع في مصر القديمة. ويعرّف السيد فريزر الطواطم بأنها "فئة من الأشياء المادية ينظر إليها المتوحش باحترام خرافي، معتقداً أن هناك علاقة حميمة وخاصة تماماً بينه وبين كل عضو من أفراد هذه الفئة". ويقول السير مارتن كونواي: "إن ملاحظة القبائل الطوطمية الموجودة في أفريقيا وأستراليا وأماكن أخرى، تظهر لنا أن واحداً أو أكثر من ممثلي الطوطم كثيراً ما يتغذى أو حتى يبقي على قيد الحياة في الأسر من قبل القبيلة". ويخبرنا السيد فريزر أن "رجال قبيلة النارينيري في جنوب أستراليا يصطادون الثعابين أحياناً، ويخلعون أسنانها، أو يخيطون أفواهها، ويحتفظون بها كحيوانات أليفة. وفي قبيلة الحمام في ساموا، كان يتم الاحتفاظ بالحمام وإطعامه بعناية. "ومن بين قبيلة كالونج في جاوة، التي يعتبر الكلب الأحمر رمزها، تحتفظ كل عائلة كقاعدة بأحد هذه الحيوانات، ولا تسمح بأي حال من الأحوال بضربه أو إساءة معاملته من قبل أي شخص." وعلى نفس المنوال، لا شك أن بعض العشائر المصرية احتفظت بالثيران والقطط والتماسيح والصقور والثعابين والكوبرا والسحالي والطيور أبو منجل والثعابين والخنافس. ومن الشائع العثور على مومياوات لمعظم هذه الحيوانات المقدسة، وصور صغيرة لحيوانات أخرى، في جوار بعض الأماكن التي كانت تُعبد فيها على وجه الخصوص.

إن السؤال الذي لا يمكن حسمه بسهولة هو ما إذا كانت الآلهة ذات الرؤوس الحيوانية تمثل مرحلة لاحقة من نفس عبادة الطوطم، أو ما إذا كانت تمثل مجرد آلهة أسلاف حقيقية تنتمي إلى عشيرة طوطمية معينة، وبالتالي تمثلها طوطمها. ولكن على أي حال فمن الواضح أن العديد من الآلهة تعادل مثل هذه الحيوانات الطوطمية، كما هو الحال مع حورس برأس الصقر، وأنوبيس برأس ابن آوى، وأتور برأس البقرة، وكنوم برأس الكبش، وبشت برأس القطة، وسخت برأس الأسد، وتوت برأس أبو منجل، وخون برأس الصقر. وتظهر هذه الآلهة على الآثار الأقدم كوحوش فحسب، وليس كأشكال بشرية برؤوس وحشية. وحتى الأسرة الثانية عشرة، عندما كان يُذكَر إله طوطم (وهو ما لا يحدث كثيراً)، كان يُمثَّل، كما يقول السيد فليندرز بيتري، "بحيوانه". على سبيل المثال، كان أنوبيس في هذه المرحلة مجرد ابن آوى؛ وكما يقول السيد ماسبيرو، "مهما كان موضوع العبادة في تحوت-أبيس، فقد كان طائراً، وليس هيروغليفية، هو الذي عبده أول من عبدوا أبو منجل". ولكن كانت هناك طواطم أخرى، كانت أقل خصوبة في الآلهة، ولكنها دخلت إلى حد كبير في الأشكال الفنية في الرمزية الدينية اللاحقة. ومن هذه الطواطم على وجه الخصوص الأفعى والجعران المقدس، اللذان يكادان ينافسان قرص الشمس في الدور الكبير الذي يلعبانه في لغة الفن الديني المتطورة في سلالات بناء المعابد العظيمة. أستطيع أن أضيف أنه من بين الرموز الأخرى لهذه الكتابة التصويرية الرمزية الغريبة، هناك Tau أو crux ansata، وهو من حيث الأصل عبارة عن مزيج من linga و yoni؛ اللوتس، الصولجان، الكراث، والهلال.

ولكن هناك فئة ثالثة من الكائنات الإلهية أو شبه الإلهية في البانتيون المصري الحديث، والتي لا يزال السيد أندرو لانج، في مقدمته البارعة لـ "إيوتربي" لهيرودوت، يسمح بإعطائها أهمية كبيرة. وهذه هي الآلهة الأولية أو الأولية الظاهرية، آلهة الطبيعة التي تلعب دورًا كبيرًا في جميع الأساطير العقلانية أو الصوفية. ومن هذه الآلهة بلا شك نوت وسب، السماء والأرض الشخصيتان، اللتان ورد اسمهما منذ وقت مبكر

في نقش على تابوت منكاورع من الأسرة الرابعة في المتحف البريطاني: وربما كان من بين هؤلاء (وإن كان ذلك أقل تأكيدًا) خونس، الذي تم تحديده مع شروق الشمس، وتوم، الذي كان يُنظر إليه على أنه تجسيد لغروبه الليلي. ولكن أياً من الآلهة الأولية الواضحة تمامًا، باستثناء رع، لم يلعب أي دور كبير في العبادة الفعلية والعملية للشعب: وإذا تبنينا التمييز الواسع الذي تجرأت على استخلاصه في فصلنا الثاني، فإن هذه الآلهة آلهة يجب التحدث عنها، وليس آلهة يجب عبادتها. مفاهيم أسطورية أكثر من كونها كائنات دينية. إن أسماءهم تظهر كثيراً في النصوص المقدسة، ولكن صورهم نادرة ومعابدهم غير معروفة. وليست نوت أو سب هي التي نرى صورها محفورة بشكل بارز على أعمدة الحجر الرملي الرمادية في الكرنك والأقصر، أو مرسومة في صفوف لا نهاية لها على الجدران المغطاة بالجبس في مقابر الملوك، أو ممثلة بالعشرات في المجموعة الضخمة من الأصنام البرونزية الصغيرة التي تملأ العديد من الخزائن في متحف بولاق. إن الأشياء الحقيقية التي كانت موضع عبادة أعلى تختلف كثيراً عن هذه المفاهيم العنصرية المجردة: فهي أوزوريس، وإيزيس، وحورس، وأنوبيس، وخيم، وبشت، وأتور. أما الأشكال الغريبة أو الغريبة المحفورة لنوت، والتي صورت في هيئة أنثوية بذراعين وساقين ممتدتين مثل مظلة حية فوق الأرض، كما في دندرة، فهي تنتمي، في اعتقادي، إلى العصر البطلمي، عندما استعار المصريون المفاهيم الفلكية والبروجية بحرية من اليونان وآسيا. إن فكرة نوت وسب، كإلهين وليس كأسطورة، هي باختصار فكرة حديثة في مصر. وحتى قرص الشمس رع، على الرغم من أهميته في العقيدة التي تطورت في وقت لاحق، لم يكن في أصله إلهاً منفصلاً بقدر ما كان ملحقاً أو رمزاً للألوهية متحداً بشكل متناغم مع مختلف الآلهة الأخرى. إن تسمية الملك بالشمس هو نوع شائع من الإطراء في البلاط. إن الشمس تحظى بأكبر قدر من العبادة الفعلية مثل آمون رع أو أوزوريس. ويرتبط اسمها بأسماء الآلهة كما يرتبط بأسماء الملوك: فهو رمز تقريباً مثل تاو أو أفعى؛ ولا يحظى إلا بقليل من العبادة إن وجدت في شكله البسيط، ولكنه يحظى بالكثير منها عندما يقترن في مفهوم مركب مع إله أكثر عملية من أصل بشري بحت. حتى في

"معبد الشمس" العظيم في هليوبوليس، كان يتم عبادة الشمس في صورة الثور مين أو منيفيس: وتعود هذه العبادة، وفقًا لمانيتون، إلى العصور الطوطمية في الأسرة الثانية.

باختصار، أعتقد أن عنصر عبادة الطبيعة هو مجرد إضافة متأخرة أو عامل إضافي في الدين المصري؛ وأنه دائمًا ما يكون أسطوريًا أو تفسيريًا أكثر من كونه دينيًا بالمعنى الدقيق للكلمة؛ وأنه لا يتعارض على الإطلاق مع استنتاجنا العام بأن الآلهة المصرية الحقيقية ككل كانت إما ذات أصل أسلاف أو طوطمية.

ومن الأدلة التي بين أيدينا، إذا نظرنا إليها على نطاق واسع، نستطيع أن نستنتج أن أقدم عبادة في مصر كانت تتألف من عبادة الأسلاف الصرفة، التي تعقدت بفعل عنصر مشكوك في كونه دينياً من الطوطمية، التي تداخلت فيما بعد بطريقة أو بأخرى مع عبادة الأشباح في البلاد. ولعل الآلهة اللاحقة كانت أسلافاً مؤلهين لملوك القبائل الأوائل، وكانوا يعبدون في بعض الأحيان على هيئة مومياوات، وربما كانوا يمثلون في بعض الأحيان بحيوانات الطوطم، أو في وقت لاحق بشخصيات بشرية برؤوس حيوانات. وكل واحد تقريباً من هذه الآلهة العظيمة كان موضعياً في مكان معين . "سيد أبيدوس"، أو "سيدة سنيم"، أو "رئيس طيبة"، أو "ساكن هيرموبوليس"، كما كان من الطبيعي أن تكون الحال إذا كانوا أمراء مؤلهين محلياً، ثم تم قبولهم أخيراً في آلهة وطنية. في الفترة الأولى التي بقيت لنا منها آثار، كانت عبادة الأسلاف أكثر نقاءً وبساطة وتحررًا من الرمزية أو عبادة الآلهة العظيمة مقارنة بأي وقت لاحق. ومع التطور التدريجي للعقيدة والبانثيون، تزايدت الأساطير والخرافات، وظهرت النزعة التوفيقية في كل مكان، وتضاعفت التعريفات، وانتشر التصوف، وحاولت عقيدة باطنية، مع ميول نحو التوحيد الوثني الغامض، تبرير وتفسير الأجزاء الأكثر فظاظة وحماقة من الاعتقاد الأصلي. إن التحسينات والتعليقات التي أدخلت على هذه المرحلة الفلسفية الأخيرة هي التي تمر في الغالب

في الأعمال المنهجية باعتبارها العقائد الحقيقية للدين المصري، والتي عالجها العديد من الباحثين المعاصرين خطأً على أنها تعادل أقدم نتاج للفكر الأصلي. إن الأفكار المتعلقة بوحدة الله، وأساطير الشمس عن حورس وإيزيس وأوزوريس، هي تطورات متأخرة أو إضافات على العقيدة الأصلية، وتكشف في كل مكان عن الروح الباطنية للتفسير الكهنوتي. وحتى النهاية، كانت عبادة الموتى، والتعددية الإلهية الخام التي تستند إليها، هي الدين الحقيقي للمصريين القدماء، كما نراه معبرًا عنه في كل الآثار.

كان هذا هو العالم الديني الذي جلب إليه أبناء إسرائيل، إذا جاز لنا أن نصدق التقاليد السامية الأقدم، إلههم يهوه وغيره من آلهتهم من وراء نهر الفرات في فترة بعيدة للغاية من تاريخهم الوطني. وكان هذا هو الدين الذي مارسه ودرّسه في مصر البطلمية والرومانية، في شكله الأكثر اكتمالاً وغموضاً، في الوقت الذي كانت فيه العقيدة المسيحية قد بدأت للتو في التطور حول النواة التاريخية للإنسان المسيح يسوع، وإياه المصلوب.

الفصل التاسع - آلهة إسرائيل.

إن اليهود هم أول من ابتكر أو طور عقيدة توحيدية خالصة. وقد سعى مفكرون أفراد في أماكن أخرى إلى بلوغ هذه الغاية المثالية، مثل الكهنة المصريين والفلاسفة اليونانيين. كما استعارت أمم بأكملها عقيدة التوحيد من العبرانيين، مثل العرب في عهد محمد، أو إلى حد أقل الرومان والأمم الأوروبية الحديثة عندما تبنوا المسيحية في شكلها الثلاثي. ومع ذلك، لم ينجح أي عرق آخر في الوصول إلى منصة التوحيد الخالص بجهوده الذاتية، مهما كان عدد الأشخاص الذين وصلوا إلى هذا المستوى من خلال الفلسفة الباطنية أو الصوفية. ومن المجد الخاص لإسرائيل أنها طورت إلهها. وتطور الله من الآلهة المنتشرة في الديانة السامية السابقة هو الإسهام العظيم الذي قدمته إسرائيل للفكر العالمي.

إن الكتب المقدسة لليهود، كما نمتلكها اليوم في أشكال مشوهة، تنسب هذا الاعتقاد الغريب إلى أقدم العصور في تاريخ عرقهم. فهي تفترض أن إبراهيم، الأب الأسطوري لجميع القبائل السامية، كان بالفعل موحدًا؛ بل إنها تتعامل مع التوحيد باعتباره الدين العالمي للعالم بأسره، والذي كانت كل الطوائف الوثنية مجرد فساد وارتداد عنه. إن مثل هذا الاعتقاد غير مقبول تمامًا في أيامنا هذه. وكذلك الفكرة الفجة القائلة بأن التوحيد قد تم القضاء عليه بضربة واحدة على يد رجل واحد، موسى، في لحظة خروج العبرانيين من مصر. إن الفكرة المجردة القائلة بأن مفكرًا معينًا، نجا للتو من وسط الوثنيين المتحمسين، الذين اعتنقوا دينًا يضم مجموعة لا نهاية لها من الآلهة وشكلًا دنيويًا من عبادة الحيوانات، كان من الممكن أن يخترع عبادة توحيدية خالصة، تتعارض تمامًا مع كل قانون نفسي معروف للطبيعة البشرية. إن المراحل الحقيقية التي تطورت بها عقيدة التوحيد من تعدد الآلهة السابق في مجموعة صغيرة واحدة من القبائل السامية قد تم بالفعل دراستها بشكل جيد من قبل العلماء الهولنديين والألمان. كل ما أقترح القيام به في هذا المجلد هو إعادة النظر في الموضوع من وجهة

نظرنا الأنثروبولوجية الأوسع، وإظهار كيف يمكننا في الإله اليهودي العظيم نفسه أن نميز، كما في المرآة، بشكل غامض، السمات الغامضة ولكن الثابتة لإله شبح أسلاف.

وحتى فترة متأخرة نسبياً من التاريخ اليهودي، كما نعلم الآن، لم يكن يهوه سوى واحد من أعلى الآلهة بين مجموعة كبيرة من الآلهة الإسرائيلية؛ وكان الأول بين أقرانه، مثل زيوس بين آلهة اليونان، وأوزوريس أو آمون بين آلهة مصر، وودن أو ثونور بين آلهة البانثيون التيوتوني القديم. وحتى القرن الأخير من حكم حزقيا، كانت ديانة الغالبية العظمى من بني إسرائيل واليهود لا تزال تعدداً واسع النطاق وإن كان غامضاً. ويبدو أن الآلهة كانت كثيرة ومحلية كما كانت في مصر: "حسب عدد مدنك تكون آلهتك يا يهوذا"، كما يقول النبي إرميا في القرن السادس. ولم يكن من الممكن أن تبلغ إسرائيل في النهاية المثل الأعلى الكامل للتوحيد الخالص إلا من خلال عملية بطيئة من التوفيق بين المعتقدات، ومن خلال استيعاب جميع المعتقدات الأخرى المتضاربة في عبادة يهوه. ولم يصل الشعب بأكمله إلى هذا المثل الأعلى في النهاية إلا بعد العودة من الأسر. بل كان هذا المثل الأعلى قد استهدفه فقط عدد قليل من عبدة يهوه المتحمسين والحصريين في السنوات الأخيرة الخطيرة والمثيرة للشكوك من الاستقلال الوطني والتي سبقت مباشرة السبي البابلي.

ولكي نفهم الطبيعة الداخلية لهذه الثورة التدريجية الغريبة، يتعين علينا أن ننظر بإيجاز، أولاً، إلى الطابع العام لتعدد الآلهة العبرية القديمة؛ وثانياً، إلى العبادة الأصلية للإله العرقي العظيم يهوه نفسه.

وعلى الرغم من إقامتهم الطويلة في مصر، فإن الديانة القومية للعبرانيين، عندما نبدأ في الكشف عن ملامحها من خلال حجاب التعليقات اللاحقة، تعتبر من قبل جميع الباحثين المعاصرين تقريبًا أنها سامية حقًا ومحلية في أصلها .وعادة ما يتم وصفها بأنها تضم ثلاثة أشكال رئيسية من العبادة: عبادة الترافيم أو آلهة العائلة؛ وعبادة الأحجار المقدسة؛ وعبادة بعض الآلهة العظيمة، جزئيًا محلية، وجزئيًا ربما مستعارة؛

بعضها يعبد في شكل حيوانات، وبعضها يبدو عنصريًا أو شمسيًا في صفاتها المكتسبة. ورغم أن هذه الثلاثة بالنسبة لنا هي واحدة، فسوف أفحصها هنا بهذا الترتيب المعتاد.

إن عبادة الترافيم، على ما أعتقد، لا نستطيع أن نعتبرها، من منظور أنثروبولوجي واسع، إلا معادلاً لكل العبادات العائلية الأخرى المعروفة لنا؛ أي بعبارة أخرى، عبادة منزلية خالصة غير مغشوشه لأسلافنا. يقول كوينين: "بهذا الاسم، كانت هناك تماثيل أكبر أو أصغر، كانت تُعبد كآلهة منزلية، وكان من المفترض أن تعتمد عليها سعادة الأسرة". وفي أسطورة هروب يعقوب من لابان، قيل لنا كيف سرقت راحيل ترافيم أبيها: وعندما فاجأ الزعيم الغاضب الهاربين، سألهم لماذا سرقوا منه آلهته المنزلية. أما عن ميخا، فنعلم أنه صنع تماثيل من ترافيم، وكرس أحد أبنائه ليكون كاهنًا لعائلته: مثل هذا الكهنوت المنزلي والخاص هو بالضبط ما اعتدنا أن نجده في عبادة رجال الأجداد في كل مكان. وحتى في ظل ضباب الترجمة اليهودية اللاحقة، فإننا نلمح، في أثناء مرورنا، لمحات متكررة من العبادة المبكرة لهذه الآلهة العائلية، والتي وُصِف أحدها بأنه ينتمي إلى ميكال، ابنة شاول وزوجة داود؛ بينما يشير هوشع إليهم باعتبارهم قطعانًا من الخشب، وزكريا باعتبارهم أصنامًا تكذب على الناس. ومن الواضح أن الترافيم كانت محفوظة في كل بيت بعناية فائقة، وأن الأسرة كانت تذبحها على فترات محددة، وأن كاهنًا محليًا يرتدي أفودًا كان يستشيرها في كل مناسبة من الشك أو الصعوبة. وأعتقد، إذن، إذا وضعنا هذه الإشارات جنبًا إلى جنب مع إشارات عبادة العائلات في أماكن أخرى، فقد نستنتج أن الدين اليهودي، مثله كمثل كل الديانات الأخرى، كان قائمًا على أساس نهائي من عبادة الأسلاف بشكل عام.

ولقد نفى البعض أن يكون هناك عبادة خالصة للأسلاف بين الأجناس السامية. ويرى السيد لينورمانت أن هذا النفي يتناقض بوضوح مع ما ذهب إليه في تعليقه على الآثار الجنائزية التي عثر عليها في اليمن: "لقد كررنا هنا مرتين سلسلة كاملة من

الأشخاص البشر، الذين كانوا أسلافاً متوفين أو أقارب لمؤلفي هذه الإهداءات. وقد جاءت أسماؤهم مصحوبة بالألقاب التي حملوها أثناء حياتهم. ويدعوهم أحفادهم بنفس الطريقة التي يدعون بها الآلهة. وهم أشخاص معبودون بلا منازع، وموضوعات للعبادة العائلية، وآلهة أو جنيات في اعتقاد أهل عرقهم". وبعد هذا، لا شك أن الترافيم كانت صوراً لآلهة العائلة أو أرواح الأجداد.

ولكن ليس من المستغرب أن تلعب هذه الآلهة المنزلية دوراً صغيراً في تاريخ الشعب كما وصلت إلينا في النسخة اليهودية المتأخرة من التقاليد العبرية. ولا نسمع في أي مكان في الأدب، حتى في ظل أفضل الظروف، كثيراً عن الماني واللاريس، مقارنة بالآلهة العظيمة للعبادة الوطنية. ولم يكن من المحتمل أن تثير مثل هذه الآلهة الصغيرة غضب حتى ذلك "الإله الغيور" الذي اغتصب فيما بعد كل عبادة إسرائيل: حتى أن التنديدات التي وجهت إلى أتباعها كانت نادرة نسبياً في ترانيم الأنبياء. يقول كوينن، متحدثاً عن الترافيم، "كان استخدامها عاماً للغاية، ولم يكن يعتبر بأي حال من الأحوال غير متوافق مع عبادة يهوه". لقد اعتبروا مجرد شؤون عائلية، أعداء فقراء للإله القبلي العظيم المهيب الذي لم يكن له منافس بالقرب من عرشه، والذي لم يكن ليسمح بتظاهرات مولك أو البعليم. ولاستخدام تشبيه حديث، فإن عبادتهم كانت غير متوافقة مع عبادة يهوه، تماماً كما أن الإيمان بالجنيات أو الشياطين أو أشباح العائلة كان غير متوافق في السابق مع الإيمان بالمسيحية.

لا شك أن هذا الاستنتاج سوف يصدم القارئ على الفور باعتباره يتعارض بشكل مباشر مع التأكيد المتكرر على أن العبرانيين الأوائل لم يكن لديهم أي فكرة عن الحياة بعد الموت وعقيدة المكافآت والعقوبات المستقبلية. وأخشى أنه لا يمكن إنكار أن هذا هو الحال. وبقدر ما قد يكون من الصعب معارضة مثل هذا الرأي المتخصص، فإنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأي باحث أنثروبولوجي واسع النطاق أن ينكر على الساميين في القرنين العاشر والثاني عشر قبل المسيح

المشاركة في عقيدة إنسانية عالمية تقريبًا (أو تمامًا)، مشتركة بين أدنى الهمجيين وأعلى الحضارات، ومتطورة بشكل خاص في ذلك المجتمع المصري الذي كان أسلاف العبرانيين يختلطون به منذ فترة طويلة. ومع ذلك، فإن الموضوع أكبر بكثير من أن يتم مناقشته بالكامل هنا. ولابد أن أكتفي بالإشارة إلى أنه بصرف النظر عن استحالة التوصل إلى مثل هذا الاستنتاج، فإن الوثائق العبرية ذاتها تحتوي على العديد من الإشارات، حتى في أقدم شذراتها التقليدية، إلى الاعتقاد بالأشباح وعالم الظلال، فضلاً عن احتمال القيامة في المستقبل. إن عادة الدفن في الكهوف والدفن في الكهوف المحفورة؛ والأهمية التي أضيفت إلى قصة شراء المكفيلة؛ والعبارة الشائعة بأن هذا البطريرك أو ذاك "انضم إلى شعبه"، أو "نام مع آبائه"؛ وتحنيط يوسف، ونقل عظامه من مصر إلى فلسطين؛ وقصة شاول وروح صموئيل؛ والمفهوم الكامل للهاوية، مكان الموتى. كل هذا يدل على أن الاعتقاد العبري في هذا الصدد لم يختلف إلى حد كبير في جوهره عن الاعتقاد العام للشعوب المحيطة. والواقع أن تكرار الإشارات إلى السحر والشعوذة يشير إلى نفس الاتجاه؛ في حين أن العادة الشائعة المتمثلة في ارتداء ثوب الكهنوت أو الذبيحة، الأفود، ثم استشارة الترافيم العائلية باعتبارها وحيًا منزليًا، تتفق تمامًا مع كل ما نعرفه عن عبادة الأسلاف الصغار كما تحدث في أماكن أخرى.

إن العبادة في القبور ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالترافيم. يقول البروفيسور روبرتسون سميث: "كانت المنطقة السامية الشمالية بأكملها مليئة بالمقابر المقدسة، وممنونيا، وتلال سميراميس، وما شابه ذلك؛ وفي كل بقعة من هذه البقع كان هناك مسكن تحت الأرض لإله أو نصف إله". وهذا بالطبع عبادة خالصة للأسلاف. كما أن آثار الدفن في الكهوف الأقدم شائعة أيضاً في الكتابات العبرية. يقول البروفيسور سميث: "في الوقت الحاضر، يوجد في كل موقع مقدس تقريباً في فلسطين كهفه، ومن الواضح أن هذا ليس بالأمر الجديد من خلال الرموز العديدة لعبادة عشتار التي

وجدت على جدران الكهوف في فينيقيا. ولا شك أن أقدم المعابد الفينيقية كانت كهوفاً طبيعية أو اصطناعية".

نحن على حق في أن نستنتج، إذن، كما أعتقد، أن العبادة المنزلية للمانيس أو لاريس، أي موتى العائلة، شكلت الأساس العام للدين العبري المبكر، رغم أنه كما هو الحال في جميع الحالات الأخرى، وبسبب طبيعتها الشخصية البحتة، فإن هذه العبادة العالمية لا تشكل سوى شخصية صغيرة في أدب العرق، مقارنة بعبادة الآلهة والإلهات الوطنية الأكبر.

يأتي في المرتبة الثانية في قائمة الأشياء التي كان الناس يعبدونها في إسرائيل المبكرة الحجارة المقدسة، وقد تحدثت عنها كثيرًا بالفعل في الفصل المخصص لهذا الموضوع المثير للاهتمام، ولكن فيما يتعلق بطبيعتها الخاصة في المجال السامي، قد يكون من المناسب إضافة بضع كلمات أخرى هنا.

إننا ندرك الآن على نطاق واسع أن عبادة الحجارة لعبت دوراً بالغ الأهمية في الديانة السامية البدائية. ولعلنا نستطيع أن نستنتج مدى أهمية هذا الدور بسهولة من أدلة عديدة، ولكننا لا نستطيع أن نستنتج أكثر من حقيقة مفادها أن محمداً نفسه لم يكن قادراً على استبعاد الحجر الأسود المقدس الذي يعبد في الكعبة من الإسلام، وهو أكثر الأنظمة الدينية توحيداً على الإطلاق. ويقول البروفيسور روبرتسون سميث إن المذبح أو الحجر المنحوت في شبه الجزيرة العربية غير معروف، وفي مكانه نجد العمود الخشن أو الركام الذي يذبح بجانبه الضحية التي تقدم قرباناً، ويسكب الدم على الحجر أو عند قاعدته. ولكن في إسرائيل يبدو الحجر المنحوت هو العلامة الأكثر شيوعاً للروح أو الإله. ولقد رأينا بالفعل أن مثل هذا الحجر المقدس كان معروفاً لدى العبرانيين الأوائل باسم بيت إيل، أي "مسكن الإله"، وذلك بسبب الاعتقاد الشائع بأنه يسكنه إله أو شبح أو روح. إن انتشار عبادة الحجارة بين الساميين يشير إلى سبب آخر وهو أن اليونانيين والرومان استعاروا هذه الكلمة (بشكل معدل قليلاً)

للإشارة إلى الحجارة التي يُفترض أنها مأهولة بالآلهة. وتكثر الإشارات إلى مثل هذه الآلهة في جميع الكتب العبرية، وإن كانت تُندد بها أحياناً باعتبارها صوراً وثنية، وأحياناً أخرى تُغطى بطبقة رقيقة من عقيدة يهوه من خلال ربطها بالأبطال الوطنيين وعبادة يهوه في وقت لاحق.

في أسطورة حلم يعقوب نجد حالة حيث تم مسح الحجر المقدس ووعد له بعشر مادة المتحدث كقربان. ومرة أخرى، في مناسبة لاحقة، علمنا أن يعقوب "أقام عمودًا من حجر، وسكب عليه تقدمة سكيبا، وصب عليه زيتًا"؛ تمامًا كما في عبادة القضيب العظيمة للينجا في الهند (المعروفة عمومًا باسم لينجها بوجا)، يتم عبادة عمود أسطواني، مستدير في الأعلى، ويعتبر عالميًا بمثابة قضيب في طبيعته، عن طريق صب أحد سوائل المسحة المقدسة الخمسة عليه، الماء والحليب والسمن والزيت والنبيذ. يتم تقديم طقوس مماثلة في العديد من الأماكن الأخرى للأحجار المقدسة الأخرى؛ وفي كثير من الحالات، تتجلى القيمة القضيبية المعطاة لهم بوضوح من خلال حقيقة أنه من المعتاد أن تصلي لهم النساء العقيمات من أجل نعمة الأطفال، كما تصلي الزوجات الهندوسيات إلى ماهاديو، وكما ورد ذكر العديد من النساء العبرانيات (الذين سنشير إليهم فيما بعد) في نصوصنا وهن يصلين إلى يهوه.

إن قائمة مختصرة بأهم الآلهة الحجرية التي أشار إليها الأدب العبري قد تساعد في تأكيد أهمية الموضوع: ومن الجدير بالذكر أن الأحجار كثيراً ما تُذكَر في ارتباطها بالأشجار المقدسة . وهو الارتباط الذي نعرفه بالفعل. ففي جوار سيكيم كانت توجد شجرة بلوط . "شجرة الأنبياء" أو "شجرة العرافين" . كان بجوارها حجر، وقد تفسر قدسيته على نحو مختلف بوصفه في مكان ما مذبح إبراهيم، وفي مكان آخر مذبح يعقوب، وفي مكان ثالث نصب تذكاري ليشوع. ولكن الحقيقة تشير إلى أن الحجر كان يُستخدم للتضحية، وأن أتباعه كانوا يطلبون منه العرافة أو الاستجابة. وهذا يعني أنه كان نصباً تذكارياً. وبالقرب من الخليل كانت توجد "شجرة ممرا"، وتحتها

حجر مقدس، يُعَد مذبح إبراهيم، الذي كانت تُقَدَّم إليه الذبائح في زمن داود. وبالقرب من بئر سبع نجد شجرة ثالثة، وهي شجرة الطرفاء، التي قيل إن إبراهيم زرعها، ومذبحاً أو عموداً حجرياً يُنسب إلى إسحق. وفي معسكر الجلجال كانت هناك "اثني عشر حجراً"، والتي يُشار إليها أحياناً على ما يبدو باعتبارها "التماثيل المنحوتة"، ولكن في بعض الأحيان يُفسَّر ذلك على أنه تذكارات لمساعدة الرب عند عبور الأردن. ومن الأمثلة الأخرى حجر إبينيزر، "حجر المساعدة"، وطوبيلث، "حجر الحية"، فضلاً عن "الحجر الكبير" الذي كانت تُقَدَّم له الذبائح في بيت شمس، والحجر الكبير الآخر في جبعون، والذي كان أيضاً بلا شك إلهاً عبرانياً مبكراً.

في كثير من الأحيان يتم ربط اسم إبراهيم بهذه الحجارة، وفي الواقع، كما اقترح بعض العلماء الألمان، ربما يمكن اعتبار إبراهيم نفسه صخرة مقدسة، الصخرة التي نشأت منها إسرائيل في الأصل.

وعلى أية حال، لا أحتاج إلى أن أقول إننا يجب أن ننظر إلى مثل هذه الأحجار المقدسة باعتبارها في حد ذاتها دليلاً إضافياً على عبادة الأسلاف في فلسطين، على غرار جميع الأحجار المماثلة في أي مكان آخر. 188وقد نستنتج أنه، كما في الحالات المذكورة سابقاً، تم تشييدها على قبور الزعماء المتوفين.

والآن نأتي إلى القسم الثالث والأصعب في الديانة العبرية المبكرة، وهو عبادة الآلهة العظيمة التي حل محلها يهوه الغيور نفسه في النهاية. إن شخصية هذه الآلهة غامضة للغاية، ويرجع هذا جزئيًا إلى طبيعة المواد التي نستمد منها إلهامنا، والتي بذلت قصارى جهدها للتغطية على "الآلهة الزائفة"؛ ولكنني أعتقد أيضًا أن السبب في ذلك يرجع جزئيًا إلى أنه في عملية تطور التوحيد، دمجت حركة توفيقية كل صفات هذه الآلهة تقريبًا في يهوه نفسه، الذي أصبح في النهاية التوليف الشامل لمجموعة كاملة من الآلهة. ومع ذلك، يمكننا الإشارة إلى إشارة أو اثنتين غامضتين إلى مثل هذه الآلهة العظيمة، إما بالاسم وحده، أو بالشكل الذي كانت تُعبد به عادةً.

لا شك أن علماء الجيل الأقدم كانوا ليحصوا بين هذه الآلهة الأسماء المألوفة لبعل ومولك. أما في الوقت الحاضر فإن مثل هذا الحصر غير ممكن. فلم يعد بوسعنا أن نرى في البعل الموجود في الكتب العبرية الحالية إلهاً عظيماً واحداً. بل يتعين علينا أن ننظر إلى الكلمة باعتبارها صفة مشتركة. "الرب" أو "السيد". تصف العلاقة بين كل إله مميز والمكان الذي يسكنه. وبعبارة أخرى، يبدو أن البعل كانوا الآلهة المحلية أو الرؤساء المؤلهين في المنطقة السامية؛ ولا شك أنهم كانوا الملوك الأموات أو مؤسسي الأسر، على النقيض من الآلهة الأقل شأناً في كل أسرة بعينها. ومن غير المستبعد إذن أن يكونوا قد تم تحديدهم حقاً بالأحجار المقدسة التي تحدثنا عنها للتو، وبالأشيرة الخشبية. إن البعل يُذكَر عادةً بلا نهاية، دون اسم خاص، تمامًا كما كان الناس في ديلوس يتحدثون عن "الإله"، وفي أثينا يتحدثون عن "الإلهة"، والآن في بادوا يتحدثون عن "إل سانتو"، أي أبولو، وأثينا، والقديس أنطونيوس على التوالي. وبالتالي فإن ملكارت هو بعل صور، وعشتروت هي بعل جبيل؛ وكان هناك بعل لبنان، وجبل حرمون، وجبل فغور، وما إلى ذلك. وقد حفظت لنا أسماء عدد قليل من البعل في تسمية المدن؛ مثل بعل تامار، رب شجرة النخيل؛ وبعل جاد، وبعل بريث، وبعل معون، وبعل صفون. ولكن في الكتب المقدسة العبرية، كقاعدة عامة، بُذِلَت كل الجهود لمحو ذكرى هذه "الآلهة الكاذبة"، وتقديم يهوه وحده باعتباره الأمير والحاكم الحقيقي الوحيد في إسرائيل منذ أقدم العصور.

أما بالنسبة لمولك، فإن هذا اللقب يعني ببساطة "الملك"؛ وربما كان يُطلق على أكثر من إله واحد مميز. ولا يتردد الدكتور روبرتسون سميث في القول بأن مولك الذي كان اليهود يقدمون له تضحيات بشرية من الأطفال قبل الأسر كان يهوه نفسه؛ ويعتقد أن هذه الطقوس النارية كانت تُقام للإله الوطني في "توفت" أو المحرقة في الوادي أسفل المعبد مباشرة.

إننا نضطر إلى أن نحصر أنفسنا في التفاصيل الأكثر غموضاً عن هذه الآلهة العظيمة التي كان يعبدها العبرانيون، باستثناء يهوه، في الفترة التي سبقت السبي البابلي. ويبدو أن كل ما هو مؤكد هو أن عدداً كبيراً من الآلهة المحلية كانت تُعبد هنا وهناك في مقدسات خاصة، ويبدو أن كلاً منها كان يتألف من مذبح أو تمثال حجري، يقف تحت شجرة مقدسة أو غابة مقدسة، ويتحد مع سور. وفي حين وصلت إلينا أسماء كيموش إله موآب وداجون إله الفلسطينيين بصراحة ووضوح تامين، إلا أن أي إله عبراني محلي باستثناء يهوه لم يترك لنا اسماً يمكن تمييزه الآن بأي قدر من اليقين. وينبغي أن نضيف أن عبادة العديد من آلهة القبائل السامية المحيطة امتدت بلا شك منذ أقدم العصور إلى إسرائيل أيضاً.

يجب أن أفترض أيضًا أن عبادة البعليم، داخل إسرائيل وخارجها، كانت موجهة بشكل خاص إلى الحجارة المخروطية العمودية، وهي أكثر الأشياء قدسية في جميع المقدسات؛ وأن هذه الحجارة من المسلم به عمومًا أنها كانت تمتلك بالنسبة لعابديها أهمية ذكورية.

ولقد حاول بعض الكتاب أن يثبتوا أن بعض الآلهة الحيوانية دخلت في عبادة العبرانيين في وقت مبكر. ولست متأكداً من أن حججهم مقنعة؛ ولكن من أجل استكمال الموضوع، فقد أدرجت الحالتين الأكثر احتمالاً في هذه المراجعة الموجزة للآلهة الغامضة والمراوغة في إسرائيل المبكرة.

إن أحد هذه الآلهة هو الإله الذي يتخذ شكل ثور صغير، والذي كان يعبد بشكل خاص في دان وبيت إيل، كما كان يعبد الثور أبيس في ممفيس، والثور منيفيس في أون أو هليوبوليس. وقد تم إرجاع عبادة الثور هذه في التقاليد اللاحقة إلى فترة الخروج، عندما صنع الإسرائيليون لأنفسهم "عجلاً ذهبياً" في البرية. والواقع أن كوينين يؤكد على النقطة التي مفادها أن عبادة الثور السامية هذه تختلف جوهرياً عن عبادة أبيس في حقيقة أنها كانت موجهة إلى صورة أو صنم، وليس إلى حيوان حي. وهذا صحيح، وأنا

بالتأكيد لا أرغب في التأكيد على أي صلة خاصة بين مصر والثيران الذهبية ليربعام في مدن أفرايم: رغم أنني أعتقد أنه ربما يكون من المبالغة في المبالغة في الاختلافات السطحية والقليل من التشابهات العميقة الجذور في هذه الأمور، حيث إن عبادة الثور هي مرافقة شائعة لعبادة القضيب في المنطقة الواسعة بأكملها بين مصر والهند. إن العقل المدرسي يميل في الواقع إلى الإفراط في تفصيل التفاصيل التافهة، وإلى الإفراط في التمييز بين التفاصيل الدقيقة. ولكن على أية حال، فنحن على أرض آمنة نسبيًا عندما نقول إن الإله الثور كان موضوعًا للعبادة في إسرائيل حتى فترة متأخرة جدًا؛ وأن عبادته تنحدر من عصر مبكر من الوجود الوطني؛ وأن المراكز الرئيسية لتماثيله كانت في دان وبيت إيل في أفرايم، وفي بئر سبع في يهوذا.

هل كان هذا الإله على شكل الثور هو يهوه نفسه، أم أحد الأشكال المتعددة الأشكال ليهوه؟ هذا هو رأي كوينن، الذي يقول صراحةً: "كان يهوه يُعبد على شكل ثور صغير. ولا شك أن عبادة العجل الثور كانت في الحقيقة عبادة ليهوه شخصيًا". ومن المؤكد أنه في الكتابات النبوية في القرن الثامن، يمكننا أن نلاحظ بوضوح أن عبدة الثور اعتبروا أنفسهم يعبدون الإله يهوه، الذي أخرج شعبه من أرض مصر. ومع ذلك، وبقدر ما قد يبدو من الخطورة أن يختلف شخص من الخارج في مثل هذا الموضوع مع علماء ساميين عظماء، فإنني أجازف بالاعتقاد أنه قد يكون من المنطقي أن نستنتج فيما بعد أن هذا لم يكن الحال في الأصل: أن الإله الذي كان يُعبد على شكل العجل الثور كان إلهًا آخر، مثل مولك الذي نعرف أنه كان يُمثل برأس ثور؛ ولكن من الواضح أن هذا الإله الثور لم يتم التعرف عليه في النهاية إلا من خلال عملية التوفيق اللاحقة، وهو إله (كما يبدو من المرجح) من أصل مختلف تمامًا، تمامًا كما اعتُبِر منيفيس في هليوبوليس تجسيدًا لرع، وكما اعتُبِر أبيس في ممفيس تجسيدًا لبتاح وفي وقت لاحق لأوزوريس. ومن ناحية أخرى، يجب أن نتذكر أنه، كما أظهر السيد فريزر، غالبًا ما يُعتَبر الحيوان المقدس ممثلًا وتجسيدًا للإله نفسه الذي يُقَدَّم له

عادةً. وهنا مرة أخرى نحفر على أرضية لا يمكن احتلالها بشكل مرضٍ إلا في مرحلة لاحقة من حجتنا المتعددة الأشكال.

كان هناك إله حيواني ثانٍ، على ما يبدو، كان يُعبد أيضًا في شكل صورة معدنية، وهو الأفعى أو الثعبان، والمعروف في نسختنا باسم "الأفعى النحاسية"، وربطه محررو يهوه للتقاليد السابقة بموسى في البرية. وقد ورد اسم هذا الإله في سفر الملوك باسم نحشتان، "إله النحاس"؛ ولكن لا يمكننا أن نجزم ما إذا كان هذا هو حقًا تسميته الصحيحة أم مجرد لقب وصفي ازدرائي. ويقال إن عبادة الأفعى استمرت بلا انقطاع حتى أيام حزقيا، عندما تحطمت الصورة إلى قطع باعتبارها شيئًا وثنيًا تحت تأثير التفاني الحصري ليهوه الذي أصبح شائعًا آنذاك. ويكاد يكون من غير الضروري أن نشير إلى أن الأفعى كانت واحدة من أكثر الحيوانات قداسة في مصر: ولكن كما في حالة الثور، كانت الأفعى أيضًا موضوعًا للعبادة على نطاق واسع في جميع البلدان المحيطة؛ ولذلك فمن المحتمل أن عبادة الثعبان عند اليهود كانت موازية لعبادة الثعابين المصرية، وليست مشتقة منها.

إن هذه هي السمات الغامضة التي تميز ذلك المجمع غير المؤكد الذي وجد فيه يهوه نفسه، في القرن الثامن على الأقل، الإله الأكثر أهمية. وأقول إنه الأكثر أهمية، لأن من الواضح من سجلاتنا أن عبادة يهوه وعبادة البعليم استمرتا جنبًا إلى جنب على مدى عصور عديدة دون تنافس واعٍ.

وأي نوع من الإله كان هذا يهوه المقدس نفسه، الذي اعترف به العبرانيون منذ وقت مبكر جدًا باعتباره "إله إسرائيل" بكل تأكيد وفوق كل الآخرين؟

إن كان قد تم تصوره على أنه ثور ذهبي، أو إن كان قد تم اعتباره إلهًا للضوء أو النار أو الشمس، فإن هذه المفاهيم، في اعتقادي، لابد وأن تكون نتيجة لانتقال متأخر للصفات وخلط بين الأشخاص، كما قد نراه منتشرًا على نطاق واسع في الديانة

الصوفية الحديثة في مصر. أعتقد أنه يمكننا الحكم على طبيعة يهوه في الأيام الأولى من ظهوره الأول من خلال جمع بعض المقاطع في الأساطير التقليدية القديمة التي تتعلق بشكل واضح بشخصيته ووظائفه.

في الرواية الأسطورية عن أقدم تعاملات يهوه مع العرق العبري، قيل لنا إن الإله العرقي ظهر لإبراهيم في حاران، ووعده بجعله "أمة عظيمة". وفي وقت لاحق، يشكو إبراهيم من افتقاره إلى وريث، قائلاً ليهوه: "لم تعطني نسلا". ثم "أخرجه يهوه إلى الخارج وقال: انظر إلى السماء وقل للنجوم: هكذا يكون نسلك". ومرة بعد مرة، نجد وعودًا مماثلة بالإثمار تُعطى لإبراهيم: "سأكثرك كثيرًا جدًا"؛ "ستكون أبًا لأمم كثيرة"؛ "سأجعلك مثمرًا جدًا"؛ "منك يخرج ملوك"؛ "لأني جعلتك أبًا لأمم كثيرة". وكذلك الأمر بالنسبة لسارة: "ستكون أمًا لأمم؛ ملوك شعوب يكونون منها". "وأما إسماعيل: ""فأباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا. اثني عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمة عظيمة""." وتتكرر هذه البركات مرارًا وتكرارًا لإبراهيم وإسحق وكل عائلته: ""أكثِّر نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه""."

في كل من هذه المقاطع، وفي العديد من المقاطع الأخرى التي لا داعي لذكرها، ولكن من السهل أن تخطر على بال كل قارئ، يُصوَّر يهوه على أنه إله التكاثر والتكاثر والتكاثر والخصوبة. وعلى هذا النحو أيضًا، نجده يُعبَد كثيرًا وبشكل ملحوظ في المناسبات الخاصة. كان هو الإله الذي تصلي إليه النساء العقيمات، والذي يتوقعن منه البركة الخاصة المتمثلة في إنجاب ابن، للحفاظ على عبادة أسلاف العائلة. بقيت هذه السمة حتى في شعر الفترة الأخيرة. يقول كاتب المزامير عن يهوه: "يجعل العاقر تدير البيت، وتكون أمًا سعيدة للأطفال". ومن بداية الأسطورة العبرية إلى نهايتها نجد سمة مماثلة للإله العرقي مبررة تمامًا. عندما أصبحت سارة عجوزًا ومتقدمة في السن، زارها يهوه وحملت بإسحق. ثم دعا إسحق بدوره "يهوه من أجل امرأته لأنها كانت عاقرًا؛ "فأجابه الرب فحملت رفقة امرأته". ومرة أخرى، "ولما رأى الرب أن ليئة

مكروهة فتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقرا". ومرة أخرى، قيل لنا عن ولادة شمشون أن زوجة منوح كانت "عاقراً ولم تلد": ولكن "ظهر ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت الآن عاقر ولم تلد، ولكنك تحبلين وتلدين ابناً". وعن حنة قيل لنا، على نحو أكثر أهمية، أن الرب "أغلق رحمها". ولذلك، صلت إلى الرب في مزار الرب في شيلوه لكي يُزال عنها هذا العار ويولد لها طفل. "إن كانت قد أنجبت ""ذكراً""، فإنها كانت ستقدمه طيلة حياته ناسكاً ليهوه، ليكون نذيراً للرب، زاهداً ومتعصباً. ""تذكرها الرب""، فولدت صموئيل. وبعد ذلك أيضاً ""زار الرب حنة، فحملت وولدت ثلاثة بنين وبنتين""". وفي العديد من المقاطع الأخرى نجد نفس السمة: يُنظَر إلى الرب فوق كل شيء باعتباره إلهاً للتكاثر وواهباً للذرية. يقول مؤلف قصيدة مألوفة في وقت لاحق: ""الأولاد ميراث من الرب""، ""ثمرة البطن مكافأة منه""."

ومن الواضح أيضاً أن هذه الرغبة في الإنجاب، وفي تكوين عشيرة قوية، وفي زيادة عدد الشعب، كانت رغبة سائدة في كل مكان في أفرايم ويهوذا. يقول الرب لمريده على لسان الشاعر: "تكون امرأتك ككرمة مثمرة؛ ويكون أولادك كغرس الزيتون حول مائدتك". ويقول كاتب مزمور آخر: "طوبى للرجل الذي تملأ جعبته منهم؛ فيتكلمون مع الأعداء في الباب". ويتكرر الوعد مراراً وتكراراً بأن نسل إبراهيم أو يوسف أو إسماعيل سوف يكثر مثل نجوم السماء أو رمال البحر: ومن الواضح أن الامتياز الرئيسي الذي يتمتع به الرب هو عطية الزيادة، التي تمتد غالباً إلى الماشية والحمير، ولكنها تشمل دائماً على الأقل الأبناء والبنات. إذا أطاعت إسرائيل الرب، يقول كاتب التثنية: "يُكَثِّرُكَ الرَّبُّ خَيْرًا فِي ثَمَرِ بَطْنِكَ وَثَمَرِ بَهَائِمِكَ وَثَمَرِ أَرْضِكَ": ولكن إن كان الأمر غير ذلك، "فإنَّه مَلْعُونَةٌ ثَمَرُ بَطْنِكَ وَثَمَرُ أَرْضِكَ وَنِتاجُ بِقَرِكَ وَأَغْنَامِكَ".

والآن، في أماكن أخرى من العالم نجد على نحو مماثل فئة معينة من الآلهة القضيبية التي تصور على أنها تمنح الخصوبة، والتي تقدم لها النساء العاقر صلوات وقرابين. والنقطة التي يجب ملاحظتها هي أن هذه الآلهة تتجسد عادة (وربما نستطيع أن

نقول دائماً) في أعمدة حجرية أو أحجار ضخمة قائمة. والإله العملي العظيم في الهند . الإله الذي يعبده الناس حقاً . هو ماهاديو؛ وماهاديو، كما نعلم، هو أسطوانة حجرية، تُقام لها طقوس لينجا بوجا، وتصلي لها النساء العاقر من أجل إنجاب الأطفال. وهناك أحجار مقدسة في أوروبا الغربية، توجت الآن بصليب، لا تزال النساء العاقر يصلين عندها إلى الله والسيدة العذراء، أو إلى أحد القديسين المحليين، من أجل الحصول على نعمة الأطفال. من المقبول أن المسلة، في حين أنها من وجهة نظر واحدة (في النظرية اللاحقة) شعاع من الشمس، فهي من وجهة نظر أخرى (في الأصل الأقدم) "رمز للقوة الإنجابية للطبيعة"، وهي طريقة أخرى للقول بأنها حجر أسلاف للفضيلة القضيبية. باختصار، دون التركيز كثيرًا على الصلة، يمكننا أن نستنتج بشكل عام أن العمود المستقيم أصبح يُنظر إليه في وقت مبكر، ليس فقط باعتباره تذكارًا للموتى ومسكنًا للروح أو الإله الساكن، ولكن أيضًا بطريقة غامضة وباطنية كممثل للمبدأ الذكوري والإنجابي.

وإذا تذكرنا أن العمود الحجري كان يُعَد في كثير من الأحيان رمزاً للسلف أو الأب، فلن يكون من الصعب علينا أن نفهم سبب هذه الفكرة. فيفكر المتعبد البدائي: "من هذه الحجارة ننحدر جميعاً، هؤلاء هم آباؤنا؛ وبالتالي فهم واهبو الأطفال، ومنتجو ووالدو كل أجيالنا، ومبدأ الخصوبة، والآلهة المناسبة التي نصلي إليها من أجل النسل". وإذا أضفنا إلى ذلك أن العديد من هذه الحجارة، التي يتم تصويرها على أنها بشرية، أو بشرية في الجزء العلوي منها على الأقل، تنمو مع الوقت لتصبح ذات قضيب ذكري، مثل بريابوس، الذي يتسم بالهمجية البشعة، ولكن جزئياً أيضاً كعلامة على جنس المتوفى: وبوسعنا أن نرى طبيعية هذا الانتقال السهل. فمن هيرميا عند الإغريق إلى الآلهة القضيبية الفظة عند العديد من الأجناس المتوحشة القائمة، نجد في كل مكان علامات على هذا الارتباط الدائم بين الحجر المقدس وفكرة الأبوة. وعندما يمثل الحجر قبر امرأة، فإن الإلهة تُصوَّر على أنها إلهة، ولكن بنفس

الدلالات. وقد رأى هيرودوت في سوريا شواهد محفور عليها فرج أنثوي. وعلى هذا فإن الإله الحجري المستقيم يُعَد في كل مكان ودائمًا إلهًا للإخصاب.

ولكن هل امتدت فكرة العمود الحجري إلى فلسطين والأمم السامية؟ هناك أدلة تشير إلى ذلك، إلى جانب رأي هيرودوت. يقول الميجور كوندر، الذي يستحق رأيه في كل مسائل علم الآثار المحض (على النقيض من علم اللغة) أعلى درجات الاحترام، عن العصور الكنعانية: "كان المنهير، أو الحجر المخروطي، رمزاً في جميع أنحاء سوريا للآلهة التي ترأس الخصوبة، وكانت التجاويف التي تشكلت في المنهير والدولمنات دلالات على القرابين، غالباً من الدم البشري، التي كان يسكبها المصلون الأوائل على هذه الأحجار". ويربط بين هذه الآثار وعبادة لينجا في الهند، ويضيف أن الدكتور تشابلن وجد مثل هذه العبادة لا تزال باقية بالقرب من بحر الجليل. ويتحدث لوسيان عن العمودين العظيمين في معبد هيرابوليس باعتبارهما قضيبين. "يقول الميجور كوندر عن الفينيقيين: ""كان الرمز الرئيسي الذي كان يُعبد في المعابد عمودًا أو مخروطًا، مشتقًا بلا شك من المناشير البدائية التي كانت تُعبد من قبل القبائل المتوحشة المبكرة، مثل الدرافيديين والعرب والسلتيين والهوتنتوت"". ويمكننا أن نستنتج أن هذه المناشير كانت في الأصل ذات طابع قبري من حقيقة أنها ""كانت غالبًا ما تُوضع أسفل تماثيل ثلاثية أو دولمن، أو توضع أمام مذبح مصنوع من حجر يوضع بشكل مسطح على قاعدة عمودية"". ""يبدو أن الرسوم الموجودة على الأسطوانات البابلية المبكرة للطاولات التي يمكن إشعال نار صغيرة عليها، أو وضع بعض الأشياء الصغيرة عليها، تشير إلى اشتقاقها من هياكل مماثلة. كان المعبد الأصلي الذي وضع فيه المخروط ومزاره، أو مذبحه، مجرد كرومليش أو سياج، مربع أو دائري، مصنوع من الحجارة المثبتة"". تم العثور على بقايا مثل هذه الأسوار، مع الدولمن على أحد جانبيها، في أماكن مختلفة في موآب وفينيقيا. لا يوجد شيء يمكن أن يكون أكثر وضوحًا في طابعه القبري من هذه الأضرحة أو الجلجال الخشنة، مع

العمود أو حجر القبر، والتي تم تطوير المعابد الحجرية في جبيل وبعلبك منها في النهاية، كما يقترح الرائد كوندر.

إن الدليل على أن يهوه نفسه في صورته الأولى كان إلهاً حجرياً، وإن لم يكن قاطعاً تماماً، فهو على أقل تقدير دليل مثير للدهشة. وقد سبق لي أن لفتت الانتباه إلى هذا في فصل سابق، ولست بحاجة إلى إعادة تلخيصه بالكامل هنا؛ ولكن بعض الإضافات الضالة قد لا تكون بلا قيمة. فإلى جانب الاحتمال العام، بين عِرق كانت آلهته ممثلة على نطاق واسع تقريباً بالحجارة المقدسة، أن أي إله بعينه، ما لم يثبت العكس، كان ممثلاً على هذا النحو، فهناك الدليل من كل اللغات اللاحقة، ومن القصائد التي كتبت بعد هلاك الإله الحجري نفسه، على أن يهوه كان لا يزال يُنظر إليه شعبياً، على الأقل بالمعنى المجازي، على أنه حجر أو صخرة. يقول كاتب التثنية في الأغنية التي وُضِعَت على فم موسى: "إنه الصخرة؛ سأنشر اسم يهوه؛ أنسب العظمة لإلهنا". "حي هو الرب ومبارك صخرتي"، هذا ما يقوله ترنيمة ألفها كاتب لاحق لداود في سفر صموئيل الثاني: "يرتفع إله صخرة خلاصي". وفي المزامير تتكرر الصورة مراراً وتكراراً: "الرب صخرتي وحصني"؛ "من هو إله غير الرب، ومن هو صخرة سوى إلهنا؟"؛ "وضع قدمي على صخرة وثبت خطواتي"؛ "هدني إلى صخرة أعظم مني"؛ "الرب ملجئي وإلهي صخرة ملجئي"؛ "هلموا نرنم للرب، نهتف لصخرة خلاصنا". وأن شكل هذا الحجر كان على الأرجح عمودًا مستديرًا مشطوفًا في الأعلى، نرى ذلك في حقيقة أن العصور اللاحقة صورت لأنفسها يهوه المتجلي وهو يقود بني إسرائيل في البرية كعمود من نار في الليل وعمود من سحاب في النهار.

ولكن بني إسرائيل الأوائل لم تكن لديهم مثل هذه الأوهام الشعرية. فبالنسبة لهم كان إلههم يهوه هو ببساطة الشيء. عمود حجري أو غيره. المحفوظ في التابوت أو الصندوق 198 الذي استقر طويلاً في شيلوه، والذي حُفِظ بعد ذلك "بين فخذي البناء" (كما جاء في تفسير لاحق)، في هيكل أورشليم. وتبين لنا كل التقاليد المبكرة

المضمنة في أسفار القضاة وصموئيل والملوك بوضوح تام أن يهوه نفسه كان يُنظَر إليه آنذاك باعتباره ساكن التابوت، وأنه كان يحمله من مكان إلى آخر في كل تجواله. إن قصة المعركة مع الفلسطينيين في حجر أبن عازر، وسقوط داجون أمام الإله المنافس، ومصير التابوت بعد عودته إلى شعب إسرائيل، ونقله إلى أورشليم على يد داود، وتنصيب سليمان أخيراً على العرش، كل هذا يُظهِر بوضوح أن يهوه كان ساكناً شخصياً داخل التابوت، بين الكروبيم الحارسين. "من يستطيع أن يقف أمام وجه الرب الإله المقدس هذا؟" سأل رجال بيت شمس عندما تجرأوا على النظر داخل ذلك المسكن المقدس، وضربهم "الإله الغيور" الذي أحب أن يعيش في ظلمة المقدس الداخلي. *

* السيد ويليام سيمبسون لديه بعض الملاحظات الممتازة حول
تشابهات بين التوابيت والمقدسات المصرية والعبرية في
كتيبه عن عبادة الموت.

ولعل من المفيد أن نلاحظ في هذا الصدد حقيقتين مهمتين: الأولى أن مثل هذا التابوت كان يستخدم في مصر لاحتواء الأشياء المقدسة أو صور الآلهة. والثانية أن سلالة طيبة كانت تحكم البلاد في الفترة التي كان فيها بنو إسرائيل تابعين لمصر، وكانت عبادة الإله الطيبي العظيم، خيم، منتشرة على نطاق واسع في كل جزء من الأراضي المصرية.

ولكن هل هناك أي دليل على أن لينجا أو أي عمود حجري آخر كان يُقَدَّس ويُعَد على هذا النحو كإله عظيم لمعبد؟ من الواضح أن الميجور كوندر قد قدم بعض الأدلة بالفعل، وسيأتي المزيد من المصادر الأخرى. فالمخروط الذي يمثل أفروديت في قبرص كان يُقَدَّس على نحو مماثل باعتباره الغرض الرئيسي للمعبد، كما كانت الحال مع شواهد جميع المومياوات المصرية. ويقول الميجور كوندر: "يتحول التريليثون فيما بعد إلى ضريح، حيث يقف المخروط أو التمثال". وسوف يتضح على

الفور أهمية هذا الارتباط إذا تذكر القارئ كيف أظهرت في الفصل الخاص بالأحجار المقدسة أصل الصنم من المينهير البدائي أو العمود المستقيم. "ويقول كوندر مرة أخرى: "إن قبائل الخوند وغيرها من القبائل غير الآرية في الهند تبني مثل هذه المعابد من الحجارة الخام المطلية باللون الأحمر، وهو ما يشكل بقاءً للممارسة القديمة المتمثلة في دهن المناشير والمخروط أو العمود المقدس بدماء الضحايا، الذين يبدو أنهم بشر في بعض الأحيان. وبين الهنود، كان العمود هو لينغام، وكان هذا هو معناه على ما يبدو بين الفينيقيين". وفي المدن اليونانية، نعلم من باوسانياس أن الحجر غير المنحوت كان يُكرَّس على نحو مماثل في أروع ملحق في أرقى المعابد اليونانية. والواقع أن القاعدة كانت أن يكون الحجر هو الغرض الرئيسي للعبادة في أرقى المعابد.

ولابد من ملاحظة سمة أخرى غريبة في عبادة يهوه. فلم يكن يفرح بالتضحيات البشرية فحسب، بل كان يطلب أيضًا بشكل خاص تقديم قربان من كل مولود، وكان يطلب فدية فريدة ومهمة من كل طفل ذكر يسمح له بالعيش بين أتباعه المميزين. ولا حاجة بي إلى الإصرار على حقيقة التضحيات البشرية: فقد كانت جزءًا لا يتجزأ من كل عبادة سامية، وقد سمح جميع العلماء غير المتحيزين على نطاق واسع بوجودها في عبادة يهوه. إن حالتي أجاج، الذي قطعه صموئيل إربًا أمام وجه يهوه، وابنة يفتاح، التي قدمها والدها كقربان شكر على انتصاره، على الرغم من أنهما لم تكونا تاريخيتين تمامًا من وجهة نظر نقدية، إلا أنهما دليل كافٍ تمامًا لإظهار مزاج وعادات عبدة يهوه الذين وصفوا هاتين الحالتين. وهكذا الحال مع أسطورة تقديم إسحق، الذي لم يُنقذ إلا في اللحظة الأخيرة لكي يجعله إله الإنجاب أباً لآلاف عديدة. ومرة أخرى، يسعى داود إلى تهدئة غضب الرب بتضحية سبعة من أبناء شاول. ويسأل النبي ميخا: "هل أعطي ابني البكر عن معصيتي، ثمرة جسدي عن خطيئة نفسي؟" . وهو المقطع 200 الذي يشير بلا شك إلى أن مثل هذه التضحية بالابن الأكبر كانت في زمن ميخا حدثاً شائعاً في عبادة الرب في الوقت الحاضر.

إن الانتقال من التضحية البشرية إلى الختان كان أقل عنفاً مما قد يبدو للوهلة الأولى. ونجد نمطاً وسيطاً في تكريس المولود الأول، حيث يبدو أن يهوه يطالب لنفسه، ليس كضحية، بل كعبد ومخلص، بأولى ثمار هذا النمو الذي من وظيفته الخاصة ضمانه. وفي شرائع مختلفة، يطالب يهوه بأول مولود من الإنسان والحيوان، وأحياناً يطالب بجميع المولودين، وأحياناً أخرى يطالب بأول مولود من الذكور فقط. وكانت الحيوانات تُذبح؛ أما الأبناء، في العصور اللاحقة على الأقل، فكانوا إما يُعادون إلى نذير أو يُفتدون بقربان أو بفدية مالية. ولكن لا يمكننا أن نشك في أن الطفل الأول كان يُذبح أمام يهوه في العصور الأولى. وفي الأسطورة الغريبة عن موسى وصفورة نجد حكاية شعبية غريبة تربط بين هذه العادة وممارسة الختان بشكل غير مباشر. إن يهوه يسعى إلى قتل موسى، على ما يبدو لأنه لم يقدم ابنه: ولكن صفورة زوجته أخذت سكيناً حجرياً وختنت ابنها وألقت القربان الدموي عند قدمي يهوه، الذي أطلق سراح زوجها. ويبدو أن هذه، وليس الرواية اللاحقة لتأسيس إبراهيم للختان، هي الأسطورة القديمة الحقيقية التي تفسر أصل الختان. وهي أسطورة تشبه تلك التي نجدها في التاريخ الروماني وغيره من العصور القديمة التي تجسد أو تفسر بعض العادات القديمة أو الصيغ القانونية. والواقع أن الختان يبدو في الواقع ذبيحة دموية ليهوه، باعتباره إله الإنجاب: ذبيحة من طبيعة الفدية في الأساس، وبالتالي فهي قابلة للمقارنة بكل تلك التشويهات الجسدية الأخرى التي أظهر السيد هربرت سبنسر أصلها بشكل جيد في المؤسسات الاحتفالية.

وفي الوقت نفسه، تساعد طبيعة التقدمة في إلقاء الضوء على شخصية يهوه باعتباره إله النمو؛ تمامًا كما أن "الأشرار" التي عانى منها الفلسطينيون بسبب أسر يهوه وتابوت عهده تظهر طبيعة الانتقام الذي يمكن توقعه بشكل طبيعي من إله التكاثر.

وأخيرا، كيف استطاع الكتاب العبرانيون اللاحقون أن يعتقدوا أن الشيء المخفي في التابوت لم يكن حجرا ذكريا، بل نسخة من "الكلمات العشر" التي قيل إن يهوه

سلمها لموسى؟ من الصعب أن نقرر ذلك: ولكن هنا على الأقل لمحة عامة عن الموضوع أطرحها لكم إن كان ذلك يستحق العناء. من الواضح أن العبرانيين اللاحقين، عندما اتسعت آراؤهم عن يهوه وأصبحت أكثر إشراقا، شعروا بالخجل من عبادتهم القديمة للحجر، إذا كانوا حقا علماء آثار بعد السبي بما يكفي ليعرفوا أن هذه العبادة كانت موجودة حقا. إذن، ما هو الأكثر طبيعية بالنسبة لهم من افتراض أن الحجر الذي سمعوا أنه كان محاطا بالتابوت كان نسخة من "الكلمات العشر" - عهد يهوه؟ ومن هنا، ربما، استبدال مصطلح "تابوت العهد" في وقت لاحق بعبارة أقدم وأكثر تصحيحا، "تابوت يهوه". وهناك اقتراح آخر، لا يزال أكثر من مجرد افتراض. فقد كان الفينيقيون يستخدمون المخاريط ذات الرؤوس الهرمية التي تحمل نقوشاً للمتوفى في دفن الموتى. ومن الممكن أن يكون يهوه الأصلي عبارة عن عمود قديم مغطى بكتابات ذات طابع سابق، والتي تم تفسيرها فيما بعد على أنها مكافئات أو رموز لـ "الكلمات العشر".

إذا جمعنا كل الأدلة معًا، بقدر ما نستطيع الآن استعادتها، وفسرناها على أسس أنثروبولوجية واسعة النطاق بالقياس من أماكن أخرى، أود أن أقول إن المقترحات التالية تبدو محتملة إلى حد ما:

كانت الديانة الأصلية لإسرائيل عبارة عن تعدد آلهة مختلط، يشتمل على أنواع عديدة من الآلهة، ويستند مثل جميع الديانات الأخرى إلى عبادة الأسلاف المنزلية والقبلية. كانت بعض الآلهة على شكل حيوانات؛ وكانت بعضها الآخر على شكل بشري إلى حد ما. لكن الأغلبية كانت تُعبد على شكل أحجار مقدسة أو أشجار أو مخاريط خشبية. كانت الغالبية العظمى من هذه الآلهة سامية في نوعها، وكانت مشتركة بين أبناء إسرائيل وجيرانهم وأقاربهم. ومع ذلك، يبدو أن طبيعة العبادة العبرية خضعت لبعض التعديلات الطفيفة في مصر؛ أو على الأقل، أدت التأثيرات المصرية إلى تفضيل بعض الآلهة على غيرها في فترة الخروج. يبدو أن أحد الآلهة، على وجه

الخصوص، يهوه بالاسم، كان غريبًا تقريبًا على أبناء إسرائيل، إلههم العرقي، وبالتالي فمن المحتمل أنه كان أحد أسلاف القبائل الأوائل أو الممثل الحجري لمثل هذا السلف. إن الأساطير على الأرجح محقة في تلميحها إلى أن هذا الإله كان يعبد بالفعل (وليس حصرياً بالطبع) من قِبَل أبناء إسرائيل قبل إقامتهم في مصر؛ ومن المؤكد تقريباً أنها محقة في إسناد النمو الكبير والتوسع في عبادته إلى فترة الخروج. فقد حمل أبناء إسرائيل، على الأقل منذ تاريخ الخروج فصاعداً، هذا الإله أو صورته الفظة معهم في تابوت أو صندوق طوال تجوالهم. وربما كان الغرض الذي حملوه على هذا النحو عموداً حجرياً مخروطياً، يمكننا أن نفترض أنه كان حجر قبر أحد الأسلاف المتألهين: وربما كان "يهوه" هو الاسم الصحيح أو لقب وصفي لهذا السلف. وحتى لو كان الاسم نفسه، كما يقترح كولنسو، كنعانياً، وينتمي بالفعل إلى إله محلي، فإن تطبيقه على الحجر المقدس في التابوت لن يكون سوى مثال آخر على الميل الشائع إلى تحديد آلهة عرق أو بلد ما بآلهة عرق أو بلد آخر. كان الحجر نفسه محاطًا دائمًا بالغموض المصري، ولم يكن يُسمح لأي شخص عادي برؤيته. كانت التضحيات، سواء كانت بشرية أو غير بشرية، تُقدَّم له، كما تُقدَّم للآلهة الأخرى، ولأمثاله، ثم لمنافسيه المكروهين. كان الحجر، مثله كمثل الأحجار المقدسة الأخرى ذات الشكل العمودي، يُعتَبر رمزًا للقوة الإنجابية. كان الختان علامة على التفاني ليهوه، في البداية، بلا شك إما طوعيًا، أو على سبيل الفدية، لكنه أصبح مع نمو عبادة يهوه وحصريتها طقسًا مميزًا لشعب يهوه المختار. (لكن الساميين الآخرين كانوا أيضًا يختتنون أنفسهم كذبيحة دم لآلهتهم ذات القضيب الذكري إلى حد ما).

وبإيجاز أكبر، من بين العديد من الآلهة العبرية، كان يهوه في الأصل إلهًا واحدًا فقط، إلهًا قبليًا أسلافًا، يُعبد في شكل حجر أسطواني، وربما كان في البداية حجر قبر، ويُنظر إليه على أنه إله النمو في الأساس، وموضوع خاص للتبجيل من قبل النساء العقيمات.

ومن هذا الإله العرقي الفظ، الذي كان مجرد عمود مقدس لقبيلة همجية، نشأ تدريجيًا الرب الإله الذي ظهرت اليهودية والمسيحية في وقت لاحق. وهو قوة أبدية، كلي العلم، قديرة، مقدسة؛ الإله الأكثر سماوية، والأكثر سموًا، والأكثر تفوقًا على البشر، والذي لم يخطر ببال عقل الإنسان على الإطلاق. وبواسطة عملية التطور البطيئة من التوفيق بين المعتقدات والاستبعاد، والتصوف الروحي والحماس الوطني، والجهد الأخلاقي والدافع الخيالي، انبثق الإله العظيم أخيرًا من أصل غير واعد إلى هذا الحد، وهو ما سوف تكون مهمة الفصول التالية التحقيق فيه ووصفه.

الفصل العاشر - نشوء التوحيد.

لقد رأينا أن العبرانيين كانوا في الأصل مشركين، ويبدو أنهم كانوا يعبدون إلههم العرقي يهوه في العصور الأولى تحت الشكل المادي لعمود حجري أسطواني. أو بالأحرى، كانوا يعبدون الكائن الذي اعتبروه إلهًا وأطلقوا عليه اسم يهوه. والسؤال الذي يواجهنا بعد ذلك هو: كيف تمكن شعب إسرائيل من الوصول من هذه البداية المتواضعة إلى التوحيد الخالص في عصره اللاحق؟ ما الذي كان في موقف أو ظروف الجنس العبري الذي دفع اليهود لاحقًا إلى رفض جميع آلهتهم الأخرى، واختلاق من حجرهم المقدس الوطني المبكر أعظم وأقسى إله عرفته البشرية؟

إن الإجابة على هذا السؤال المعقد تكمن جزئياً في اتجاه عام معين في العقل السامي، وجزئياً في الحالة السياسية والاجتماعية الخاصة التي كانت عليها القبائل الإسرائيلية أثناء القرون التاسع والثامن والسابع والسادس والخامس قبل الميلاد. أو لنقل الحل المقترح للمشكلة بشكل أبسط: إن التوحيد العبري كان إلى حد ما نتيجة لمعاملة توفيقية لجميع الآلهة، حيث اندمجت صفات وخصائص كل منها في الآخر، ولم يبق سوى الأسماء المميزة؛ وإلى حد ما نتيجة للوطنية القومية الشديدة، التي كان الإله العرقي يهوه نتاجها وتعبيرها وأملاً عزيزاً عليها في آن واحد. إن الاعتقاد بأن يهوه قاتل من أجل إسرائيل، وأن إسرائيل بالثقة في يهوه وحده تستطيع الصمود في وجه مصر وآشور، على الرغم من أنه يبدو لنا اليوم متعصباً للغاية، وقد دحضته تماماً كل الحقائق في القضية كما كانت في النهاية، إلا أنه شكل مع ذلك فكرة مركزية لدى الوطنيين العبرانيين، وأدى تدريجياً إلى إنشاء عبادة يهوه حصرية أولاً، ثم عبادة توحيدية حقيقية.

إن من المفارقات الرائعة التي طرحها إرنست رينان أن العقل السامي كان بطبيعته موحداً. والواقع أن العقل السامي أظهر هذا الميل الفطري في مراحله الأولى من خلال تطوره في كل مكان إلى نفس البانثيون الوثني الذي تطور لدى كل مجموعة أخرى

من البشر في كل مكان. ومع ذلك، ربما نجد هذه الحقيقة الجوهرية في مزاعم رينان المتناقضة؛ فالساميون، أكثر استعداداً من معظم الشعوب الأخرى، لدمج سمات آلهتهم بعضها في بعض. وهذا ليس في الواقع بأي حال من الأحوال سمة سامية حصرية. لقد رأينا بالفعل، في التعامل مع الدين المصري، كيف تلاشت كل أشكال ووظائف الآلهة في النهاية إلى مزيج لا يمكن فصله، أو ذرة من الألوهية، كان من المستحيل عملياً فصل الشخصيات الأصلية لرع وترن، وآمون وأوزوريس، ونيث وإيزيس، وبتاح وأبيس. وحتى في البانثيون الثابت والمتفرد نسبياً في اليونان القديمة، كثيراً ما يحدث أن يختلط الأمر بين الشخص والامتياز، فيطمس التمييز بين الآلهة المختلفة. فأفروديت وهيراكليس يجسدان آلهة متعددة الأشكال. ولكن في الديانات السامية، على الأقل في تلك المرحلة المتأخرة حيث نصادفهما لأول مرة، تكون ملامح الآلهة المختلفة غامضة وغير محددة إلى الحد الذي لا يمكن معه التعرف على أي شيء أكثر من مجرد الأسماء. ولا يوجد آلهة أخرى غامضة وغامضة إلى هذا الحد . والنوع الذي ينتمي إليه هذا البانثيون هو ذلك الشكل الغامض لإيل شداي، وهو موضوع العبادة العبرية المبكر والرهيب، والذي لا نعرف شيئاً عن صفاته وطبيعته على وجه اليقين، ولكنه يقف في خلفية كل الفكر العبري باعتباره تجسيداً للرعب الذي لا اسم له والذي تولده قوى الطبيعة القاسية التي لا تقاوم في روح الإنسان.

إن هذا الغموض والظلال التي تكتنف المفاهيم الدينية السامية يبدو أنها تعتمد إلى حد ما على الطبيعة غير الفنية للثقافة السامية. فنادراً ما كان السامي ينحت صورة لإلهه. ولقد لاحظ المراقبون الرومان بدهشة أن مزار الكرمل لم يكن يحتوي على صنم. ولكن هذا كان يعتمد أيضاً على خصائص راسخة في العرق السامي. ولعل العرب اليوم، الذين يتسمون بالحزن والتأمل والكبرياء والتحفظ، ولكنهم يبالغون في الخيال، هم الذين يقدمون لنا الدليل على الطبيعة غير المحددة للتفكير الديني السامي المبكر. فلم يكن هناك قط عالم أكثر شبحية من الهاوية؛ ولم يكن هناك قط آلهة أكثر رعباً من الإلوهيم الذين يطفون في القصص المبكرة للدورة الصوفية

العبرية. ولا نكاد نعرف أسماء هذه الآلهة: فهي تأتي إلينا من خلال حجاب التحرير اليهودي اللاحق بألقاب وصفية مثل إله إبراهيم، ورعب إسحق، والقوة الجبارة، والإله الأعظم. إن العبري الحقيقي، مثله كمثل العديد من البرابرة الآخرين، يبدو وكأنه يحجم إما عن النظر إلى الشكل الحقيقي لإلهه نفسه، أو عن نطق اسمه الحقيقي بصوت عالٍ. لقد كان إلهه محاطًا بظلام تابوت العهد أو الظلام العميق في خيمة داخلية أو حرم؛ ولم يكن يتم نطق المقاطع التي تشير إلى موضوع عبادته بالكامل، إلا في أكثر المناسبات مهابة، بل كان يتم التهرب منها أو التلعثم فيها من خلال بعض الألقاب الوصفية. حتى لقب يهوه الذي لا يمكن نطقه يبدو من وثائقنا أنه كان اسمًا لاحقًا أُطلق أثناء الخروج على إله قديم: بينما لم يكن اللقبان المتنافسان البعل ومولك يعنيان أكثر من الرب والملك على التوالي. لقد منع التبجيل المفرط الساميين من معرفة أي شيء عن المظهر الشخصي لإلههم أو اسمه الحقيقي، وبالتالي ترك ملامح جميع الآلهة تقريبًا غير مؤكدة وغير واضحة.

ولكن إلى جانب الصعوبة التي واجهها المعتقد المتطور في التمييز الدقيق بين أشكال ووظائف الآلهة السامية المختلفة، والتي لابد وأن أتباعها شعروا بها منذ البداية، فقد كانت هناك صعوبة إضافية في العقيدة المتطورة، بسبب تراكب التصوف العنصري وعبادة الطبيعة على عبادة الأشباح الأسلاف البدائية باعتبارها آلهة. وكما تم التعرف على رع، الشمس، في العصور الأخيرة مع كل إله مصري تقريبًا، فقد أثرت الأفكار الشمسية والأساطير الشمسية في النهاية على الشخصية المميزة لكل إله سامي تقريبًا. والنتيجة هي أن جميع الآلهة أصبحت في النهاية غير قابلة للتمييز عمليًا: فالأحد يشبه الآخر إلى الحد الذي يجعل المفسرين المختلفين يقومون بتعريفات مختلفة للغاية، ويبدو أنهم مبررون في القيام بذلك (من وجهة نظر أسطورية) بسبب التشابه القوي بين الأسرة الشمسية أو العنصرية التي تمر عبر البانتيون بأكمله في مراحله اللاحقة. ولقد شكك علماء المدرسة القديمة في أن يهوه ليس في حد ذاته شكلاً من أشكال منافسه العظيم بعل: وهل كان كلاهما متماثلين في الأساس .

مجرد شكلين متباعدين لإله واحد متعدد الأسماء هو الشمس. وبالنسبة لنا، الذين ندرك في كل بعل إلهاً شبحياً منفصلاً لمقبرة مميزة، فمن الواضح أن هذا التحديد مستحيل.

ولكن هذه المشاكل الأسطورية الغامضة لم تطرح نفسها قط على عابدي البعليم أو يهوه أنفسهم. فقد كان الاختلاف في الاسم والمكان المقدس كافياً بالنسبة لهم، على الرغم من التطابق الجوهري للصفة أو الطبيعة. وكانوا يقتلون بعضهم بعضاً من أجل لقب وصفي، أو يخاطرون بالموت بدلاً من تقديم الذبائح على مذبح معاد.

ومع ذلك، فقد تضافرت مؤثرات مختلفة، هنا كما في أماكن أخرى، لإحداث حركة تدريجية من التوفيق بين المعتقدات . أي دمج العديد من الآلهة المتميزة في إله واحد؛ والتعريف النهائي لعدة آلهة منفصلة في الأصل. وعلينا الآن أن نفكر بإيجاز في ماهية تلك المؤثرات.

في المقام الأول، يجب أن نتذكر أنه بينما في مصر، بمناخها الجاف والحافظ بشكل خاص، قد تظل المومياوات والأصنام والمقابر والمعابد دون تغيير أو تدمير 208 لعصور، في حين أن المطر والرياح والوقت في جميع البلدان الأخرى تقريبًا هي عوامل معادلة قوية للحرف اليدوية البشرية. وبالتالي، بينما لا تزال عبادة السلف الميت في مصر قائمة على هذا النحو بشكل معترف به ومفتوح لعدة قرون، في معظم البلدان الأخرى، فإن الاتجاه هو أن يتم نسيان الأشياء الشخصية الفعلية للعبادة بشكل متزايد؛ حيث تغتصب الآلهة والأرواح الغامضة تدريجيًا مكان الإنسان التاريخي؛ وفي النهاية تتشبث الطقوس بالمواقع أكثر من الأشخاص المعينين. قد يختفي القبر؛ ومع ذلك قد يظل الحجر المقدس محترمًا بالتبجيل المعتاد. قد يختفي الحجر المقدس؛ ومع ذلك قد تُروى الشجرة المقدسة سنويًا بدماء الضحايا. قد تموت الشجرة نفسها؛ ومع ذلك، قد يظل الجذع مزينًا بملابس احتفالية في ذكرى ميلاده. وقد يتحلل الجذع ذاته؛ ومع ذلك، قد تُلقى هدايا الطعام أو القرابين من الخرق كما

كانت في الماضي في النبع المقدس الذي كان ينبع ذات يوم بجواره. وهكذا يصبح المكان مقدسًا في حد ذاته، ويمنحنا مصدرًا واضحًا وجليًا لعبادة الطبيعة في وقت لاحق.

إن الآلهة أو الأرواح التي تسكن مثل هذه الأضرحة من الطبيعي أن نتصورها مع مرور العصور متشابهة إلى حد كبير. ولا يبقى من صفاتهم الفردية سوى الألوهية. وكثيراً ما تكون أسماؤهم مجهولة؛ ولا يذكرهم الناس إلا باعتبارهم رب لبنان، أو بعل جبل فغور. ولا عجب إذن أن يصبحوا بعد فترة من الزمن مرتبطين عملياً ببعضهم البعض، في حين كثيراً ما تربط الأجيال اللاحقة بينهم أساطير مماثلة. والواقع أننا نعلم أن الأسماء الجديدة، وحتى الأسماء الأجنبية المتطفلة، تحل في كثير من الأحيان محل الألقاب الأصلية، في حين يستمر عبادة الإله نفسه باعتباره نفس الحجر عديم الشكل، بنفس الطقوس المقررة، في نفس المعابد البائسة أو الفخمة. وعلى هذا فقد كان ملكارت، بعل صور، يعبد في الأيام الأخيرة تحت الاسم اليوناني هرقل؛ وعلى هذا فقد تم في بابلوس تحديد إلهين محليين، بعد أن تم تحديدهما أولاً بالآلهة السورية أدونيس وعشتروت، ثم تم تحديدهما لاحقاً بالآلهة المصرية أوزوريس وإيزيس. 209 ومع ذلك، فإن أساطير المكان تظهر لنا أنه طوال ذلك الوقت كانت العبادة الحقيقية تُقدم لجذع شجرة مقدسة ميتة، قيل إنها نمت من قبر إله. أو بعبارة أخرى، من تلة زعيم قديم. وبصرف النظر عن مدى تغير الأساطير إلى حد كبير، فإن هذه الطقوس المحلية تظل ثابتة إلى الأبد؛ حيث توصف الأحجار المقدسة هنا بأنها مسكونة بالجن، وهناك بأنها تذكارات للشهداء المسيحيين؛ والآبار المقدسة هنا مخصصة للحوريات أو الأبطال، وتستقبل هناك القرابين للقديسين أو الجنيات. وعلى هذا فإن أشجار البلوط المقدسة التي كانت تُعبد منذ فجر التاريخ في إنجلترا أصبحت "أشجار بلوط ثور" في ظل الوثنية السكسونية، و"أشجار بلوط الإنجيل" في ظل المسيحية في العصور الوسطى.

وأخيراً، في المراحل الأخيرة من العبادة، تُبذَل دائماً محاولة للعمل في الأجرام السماوية والطاقات العظيمة للطبيعة في الأساس الأسطوري أو النظرية الدينية. فكل ملك هو سليل الشمس، وكل إله عظيم هو بالضرورة الشمس في شخصه. وتنشأ أساطير لا حصر لها من هذه العبارات، التي يخطئ علماء الأساطير في اعتبارها الحقائق والمصادر المركزية للدين. ولكنها ليست كذلك على الإطلاق. فلا يمكن للتصوف والرمزية أن يكونا بدائيين أبداً؛ فهما محاولات حسنة النية من جانب المفكرين الدينيين المثقفين في الأيام الأخيرة لقراءة المعاني العميقة الجذور في الأفكار الخام والممارسات الأكثر خشونة في الدين التقليدي. وأود أن أضيف أن أعمال الدكتور روبرتسون سميث المتعلمة والقادرة تفسد باستمرار بهذه الطريقة بسبب تصميمه العنيد على اعتبار عبادة الطبيعة بدائية، حيث تكون في الحقيقة مشتقة، باعتبارها نقطة البداية الأولى، حيث تشكل في الحقيقة أعلى وأحدث تطور.

من الواضح أنه عندما تصبح جميع الآلهة شمسية إلى حد ما في سماتها الخارجية والمكتسبة، فإن عملية التعريف بها وإضفاء الطابع الدولي عليها تصبح سهلة إلى حد ما.

إن المزج بين المعتقدات الدينية المختلفة الذي نشأ في الديانة العبرية نتيجة لتداخل عبادة الطبيعة مع عبادة الأديان البدائية لابد وأن يكون قد مهد الطريق للاعتراف فيما بعد بالتوحيد، تماماً كما حدث في العقيدة الباطنية في مصر، وذلك بجعل كل الآلهة متشابهة إلى الحد الذي لم يكن معه على المتعبدين سوى تغيير اسم معبودهم، وليس صفات المفهوم الجوهري. ولننظر أولاً إلى مدى تأثير هذا المزج بين المعتقدات الدينية المختلفة على فكرة يهوه، الإله الحجري الذكري المحفوظ في تابوت العهد؛ ثم لنبحث بعد ذلك كيف كان رد الفعل الوطني ضد العدوان الآشوري بمثابة حجر الأساس الأخير في بناء عبادة يهوه التوحيدية.

إن هناك من يزعم أن يهوه كان يعبد في أماكن عديدة في إسرائيل على هيئة عجل ذهبي. وهذا يعني أن العبرانيين الذين أقاموا تماثيل لثور معدني كانوا يعتقدون رغم ذلك أنهم يعبدون يهوه. وحتى أنبياء القرن الثامن اعتبروا عبادة الثور شكلاً من أشكال عبادة يهوه، وإن لم يكن ذلك الشكل الذي يمكنهم أن يمنحوه موافقتهم الشخصية. ولكن الثور ربما كان في أصله إلهاً متميزاً عن الحجر في تابوت العهد؛ وإذا كانت عبادته مرتبطة بعبادة صخرة إسرائيل، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا من خلال قطعة متأخرة من التصوف التوفيقي. ولعل الصلة هنا، كما في حالة أبيس، كانت اعترافاً كهنوتياً بالثور باعتباره رمزاً للقوة الإنجابية للطبيعة؛ وهي فكرة مناسبة بشكل خاص للإله الذي كانت وظيفته العظيمة تشجيع الإخصاب. ولكن على أية حال، لا يسعنا إلا أن نرى في عبادة العجل اللاحقة هذه عنصراً إضافياً متميزاً تمام التميز عن عبادة الحجر المقدس الأقدم، تماماً كما كانت عبادة رع متميزة تمام التميز في الأصل عن عبادة الطوطم لمنيفيس، أو كما كانت عبادة آمون متميزة تمام التميز عن عبادة خيم وأوزوريس. وفي النهاية يندمج إله الحجر وإله الثور في إله واحد، تماماً كما اندمج الإنسان يسوع في تاريخ لاحق كثيراً مع الإله العبري، وتلقى في الديانات الحديثة قدراً أعظم من التبجيل من الإله الأقدم الذي حل محله عملياً.

وحتى في الهيكل نفسه في القدس، كان من الواضح أن رموز عبادة الثور كانت مقبولة. فكان المذبح الذي كانت تُحرق عليه الذبيحة اليومية له أربعة قرون؛ وكان المغسل الموجود في الفناء، "البحر النحاسي"، يستند على أشكال اثني عشر ثورًا. وعندما نتذكر أن تمثال مولك كان له رأس ثور، فلا يسعنا إلا أن نرى في هذه الرموز رمزًا لذلك التوحيد التدريجي الذي يؤثر على جميع الآلهة المتقدمة في جميع البلدان المتحضرة.

إن أكثر أهمية من ذلك بكثير هي العلامات المفترضة التي تدل على تحديد يهوه لاحقًا بالشمس، وظهوره كإله شمس معدل ومتحول. قد يبدو غريبًا للوهلة الأولى أن

مثل هذه الشخصية يمكن أن تكتسبها حجر مقدس، لو لم نتذكر التاريخ المماثل تمامًا للمسلة المصرية، والتي تمثل بنفس الطريقة، أولاً وقبل كل شيء، العمود المستقيم أو الحجر الضخم - أي حجر القبر البدائي - ولكن بشكل ثانوي ومشتق، يمثل في الوقت نفسه المبدأ التوليدي وشعاع الشمس. مع هذا القياس المضيء لتوجيهنا في بحثنا، فلن نواجه صعوبة كبيرة في التعرف على كيف يمكن إعطاء شخصية شمسية للصفات والأوصاف اللاحقة ل يهوه.

أنا لا أعطي أهمية مفرطة لهذه الخصائص الشمسية ليهوه المتطور بالكامل؛ ولكن تم عمل الكثير منها من قبل مدرسة معينة من المفكرين المعاصرين بحيث لا يجب أن أتجاهلها في صمت تام.

لقد كان يهوه بالنسبة لعبدته الأوائل، كما رأينا، مجرد حجر في التابوت. لقد سكن هناك بشكل مرئي، وحيثما ذهب التابوت، ذهب يهوه معه. ولكن العبرانيين المتأخرين ـ في القرن الثامن على سبيل المثال ـ اكتسبوا فكرة مختلفة تمام الاختلاف عن مسكن يهوه. فقد عدلت الأفكار الفلكية والشمسية (التي لا شك أنها آكادية في أصلها) مفاهيمهم البدائية الفظة بشكل عميق. وبالنسبة لعاموس وإشعياء الحقيقي، فإن يهوه يسكن في السماء المفتوحة أعلاه وهو "يهوه الجنود"، القائد بين جيش السماء المتألق، ملك عالم النجوم. "ويحكم يهوه على تلك الأجرام السماوية والسكان السماويين"؛ فهم يحيطون به وينفذون أوامره: 212إن جنود السماء هم رسله ـ باللغة الأكثر شيوعاً في ديننا الحديث، "ملائكة الرب"، خدام يهوه. إن السماء بالنسبة لميخا هي "هيكل قداسة الرب": "الله في الأعالي"، هي العبارة الوصفية التي يشير بها النبي إليه. وفي كل هذا توصلنا إلى مفهوم مختلف تمامًا عن مفهوم الإسرائيليين الأوائل البسطاء الذين حملوا إلههم معهم على عربة يجرها ثور من محطة إلى أخرى.

وعلاوة على ذلك، فإن هؤلاء المفكرين اللاحقين يعتبرون النور والنار باستمرار مظهرين من مظاهر يهوه؛ وحتى في تحرير الأساطير السابقة، يقدمون مثل هذه الأفكار الأحدث، فيجعلون "مجد يهوه" يضيء التابوت، أو يظهر في العليقة المشتعلة، أو يجمعون بين كلا الرأيين، الأكبر والأصغر، في عمود النار الذي سبق الحشد البدوي لإسرائيل في البرية. ويقال إن يهوه "يرسل" أو "يلقي نارًا" من السماء، وفي هذه التعبيرات نرى مرة أخرى المفهوم المتقدم لإله عنصري، صوته هو الرعد، وسلاحه هو البرق. كل هذه تطورات مألوفة للإله الرئيسي في البانتيون. يقول زكريا في قصيدته، "اطلبوا من يهوه المطر في وقت الأمطار الأخيرة. يهوه يصنع البرق". ويقول إشعياء، "سيكون نور إسرائيل نارًا وقدوسه لهيبًا". "هوذا اسم الرب قادم من بعيد، غضبه متقد، ودخانه يتصاعد إلى الأعالي، شفتاه مملوءتان غضبًا، ولسانه كنار آكلة". في هذه الآيات ومئات الآيات الأخرى التي يمكن الاستشهاد بها، يبدو أننا نرى أن يهوه يُصوَّر إلى حد كبير كإله الشمس، ويرتدي كل صفات مولك الناري تقريبًا.

إن هذه السمات التي تميز مولوك في بعض الأحيان تقترب كثيراً من سمات آلهة النار المعترف بها على نطاق واسع. يقول كوينن: "وهكذا نقرأ أن مجد يهوه كان مثل نار آكلة على قمة جبل سيناء؛ وأن ملاكه ظهر في لهيب نار من وسط شجيرة: كانت الشجيرة تحترق بالنار ولكنها لم تحترق". 213 وهكذا يُدعى يهوه نفسه "ناراً آكلة، إلهاً غيوراً": ويصف أحد الشعراء مظهره على هذا النحو: "يخرج الدخان من منخريه، وتأكل النار من فمه؛ يشعل جمر النار منه". ومن الواضح أن هذه امتيازات مشتقة ومقتبسة للغاية لتزيين العمود الحجري البدائي الذي قاد شعب إسرائيل إلى الخروج من مصر. ومع ذلك فإننا نعلم أن آلهة حجرية أخرى في أماكن أخرى قد خضعت لتطورات مماثلة تماماً.

مرة أخرى، ورغم أن هذا قد يكون بمثابة استباق لما قد يحدث، فإن عبادة يهوه اللاحقة تبدو وكأنها استوعبت في ذاتها بعض العناصر الفلكية التي كانت غريبة عنها

في الأصل، وتنتمي إلى عبادة آلهة أخرى. ومن ذلك على سبيل المثال مؤسسة السبت، ذلك اليوم المشؤوم للإله الشرير كيوان أو زحل، الذي كان من غير المرغوب فيه القيام بأي نوع من العمل، والذي كان يستريح فيه الساميون الخرافيون تمامًا من أعمالهم الأسبوعية. أما تقسيم الشهر القمري (الفترة المقدسة لعشتار، ملكة السماء) إلى أربعة أسابيع كل منها سبعة أيام، مكرسة بدورها لآلهة الكواكب السبعة، فهو ينتمي بوضوح إلى نفس العبادة المتأخرة للآلهة العنصرية والتنجيمية، أو بالأحرى الآلهة التي تم تحديد هذه الأجرام السماوية بها أخيرًا تحت التأثير الأكادي. ولقد ندد الأنبياء الأوائل الذين كانوا يعبدون يهوه وحده بعبادة السبت والأعياد الفلكية باعتبارها عبادة وثنية. "إن سبتكم ورؤوس شهوركم مكروهة عندي"؛ ووفقاً لعاموس فإن كيوان نفسه كان هو الهدف الرئيسي للعبادة الوثنية من قِبَل مواطنيه في البرية. ولكن في وقت لاحق وجد أتباع يهوه أنفسهم عاجزين عن كسر تيار الخرافات بشأن مسألة السبت، ولذا كان من الضروري إيجاد طريقة جديدة للعيش. فقاموا بترتيب تسوية حكيمة. فقد تبنى أتباع يهوه السبت جسدياً في عبادة يهوه التوحيدية، وأعطوا سبباً أسطورياً لتأسيسه وطبيعته المقدسة التي ربطته اسمياً بعبادة الإله العرقي. وفي ذلك اليوم، كما قال علماء الكون الكهنة، استراح يهوه من عمله في الخلق. وبنفس الطريقة، كانت العديد من الأجزاء الأخرى من العبادات الخارجية مرتبطة بشكل فضفاض بعبادة يهوه من خلال اتصال لفظي مع جزء من الأسطورة يهوهية المنقحة، أو تم نسبها إلى أبطال يهوهيين أو يهوهيين وطنيين.

وبعد أن استعرضنا بإيجاز التغيرات التدريجية التي طرأت على مفهوم يهوه نفسه خلال العصور التي كانت فيها سيادته تتأسس ببطء في اتحاد إسرائيل، دعونا الآن نعود مرة أخرى إلى المشكلة الأخيرة ونهاجمها، لماذا أصبحت عبادة يهوه الخاصة في النهاية حصرية وتوحيدية؟

ولنبدأ بالتذكير بأن يهوه كان يُنظَر إليه بوضوح منذ بداية الوجود القومي، باعتباره الإله العرقي، والإله الخاص لإسرائيل. وقد أوضح الدكتور روبرتسون سميث العلاقة بين هذه الآلهة العرقية وشعبها بشكل رائع في كتابه "دين الساميين". ورغم أننا لا نستطيع أن نقبل وجهة النظر التي قدمتها لنا التوراة عن الخروج باعتبارها تاريخية، ولا أن نعترف بأن يهوه لعب أي دور كبير في الهجرة القومية الكبرى كما هو مذكور في التوراة، فمن الواضح أنه منذ اللحظة التي شعرت فيها إسرائيل بأنها أمة، تم الاعتراف بيهوه باعتباره إلهها الرئيسي. لقد كان "إله إسرائيل"، تمامًا كما كان ملكوم إله بني عمون، وكيموش إله موآب، وعشتاروث إلهة صيدا. وكما أن كل أثيني، بينما كان يعبد زيوس وهيرا وأبولون، كان يعتبر أثينا هي الراعي الخاص لأثينا، كذلك كان كل إسرائيلي، بينما كان يعبد البعليم والمولك والآلهة المحلية بشكل عام، يعتبر يهوه هو الراعي الخاص لإسرائيل.

فضلاً عن ذلك، فمنذ البداية، هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن بني إسرائيل اعتبروا يهوه إلههم الأعلى. وفي نهاية المطاف استقرت أغلب الآلهة في تسلسل هرمي معترف به، حيث يتولى أحد الآلهة أو الآخر تدريجياً المرتبة الأولى. وعلى هذا النحو، كانت تفوق زيوس في اليونان بلا شك؛ وكذلك كانت تفوق جوبيتر في روما. وفي بعض الأحيان، كما كان الحال بين أسلافنا التيوتونيين، نرى مجالاً للشك بين إلهين متنافسين: فمن الصعب أن نحدد الأولوية الدقيقة لأي من الإلهين الرئيسيين: فبين الإنجليز، كان وودن هو الإله الأعلى على ثونور؛ وبين الإسكندنافيين، كان ثور هو الإله الأعلى على أودين. وعلى نحو مماثل، كان هناك في إسرائيل وقت حيث كانت رئاسة الخالدين تحوم بين يهوه وواحد أو آخر من البعليم المحليين. ولكن في النهاية، وربما منذ البداية، كانت أصوات الشعب في المقام الأول لصالح الحجر المقدس، تابوت العهد. كان هو إله إسرائيل، وكانوا هم شعب يهوه المختار.

لا شك أن عادة الختان كانت بمثابة الرمز والسبب والنتيجة لهذا التفاني العام للشعب لإله واحد أعظم. ففي البداية، لم يكن من الممكن أن يخضع للطقوس التي تميزهم بوضوح باعتبارهم من أتباع إله الخصوبة. ولكن مع مرور الوقت، وقبل فترة طويلة من انتصار عبادة يهوه الحصرية، بدا الأمر وكأن ممارسة تقديم كل طفل ذكر للإله الوطني أصبحت عالمية. ومنذ عهد داود الغامض، كانت أساطيرنا تشير إلى الفلسطينيين على أنهم "غير المختونين"؛ ومن هنا ربما نستنتج (على الرغم من الشك في صحة هذا الزعم) أن الختان كان حتى في ذلك الوقت متزامناً مع المواطنة الإسرائيلية. ولا بد أن هذا التفاني الشامل لجميع الذكور من الجنس البشري للإله الوطني كان له دور كبير في ضمان انتصاره النهائي.

وإذا نظرنا إلى الظروف التي عاشها الإسرائيليون في فلسطين، فسوف نرى بسهولة كيف عززت طبيعة ملكيتهم للأرض وحدتهم الدينية ووطنيتهم القومية؛ كما نرى لماذا أصبح الإله الذي كان يُنظَر إليه في المقام الأول باعتباره إله الإنجاب أهم عضو في آلهةهم القومية. ويمكن مقارنة وضعهم خلال القرون القليلة الأولى من حياتهم في سوريا السفلى بوضع الدوريين في البيلوبونيز: فقد كانوا مجرد حامية صغيرة في أرض معادية تقاتل بلا انقطاع ضد رعاياها الذين لم ينتصروا عليهم إلا جزئياً، وأعداء يحاصرونهم؛ والآن يعانون من تمردات أعدائهم الداخليين؛ والآن يخضعون مرة أخرى للفلسطينيين المعادين على حدودهم البحرية. إن حفنة المحاربين الفظين الذين اقتحموا الأرض تحت قيادة زعماء متعطشين للدماء مثل يشوع الصوفي لم يكن بوسعهم أن يأملوا في النجاح إلا من خلال زيادة سريعة ومستمرة في أعدادهم، وتجنب الخلافات الداخلية التي كانت دائماً مقدمة للعار الوطني. إن "الأم في إسرائيل" هي أعظم أمل لكل امرأة عبرية. ومن ثم كان من الطبيعي أن يصبح إله التكاثر رئيساً بين الآلهة المحلية، وأن يجعل الوعد الذي قدمه كهنته بالتكاثر غير المحدود منه العضو الأكثر شعبية وقوة في البانتيون الإسرائيلي. ورغم أن جميع

الآلهة الحجرية كانت على الأرجح ذات قضيب ذكري، إلا أن يهوه، باعتباره الراعي العرقي، كان يُنظر إليه على أنه الواهب للتكاثر لإسرائيل.

ويبدو واضحاً أيضاً أن عبادة يهوه المشتركة كانت في البداية الرابطة الوحيدة المتينة التي تربط بين القبائل المتفرقة المتنافرة التي نمت فيما بعد لتصبح الشعب الإسرائيلي. وقد أصر الأستاذ روبرتسون سميث على أن هذا التضامن بين الإله والقبيلة هو سمة مشتركة بين كل العبادات السامية. ويبدو أن تابوت يهوه في بيته في شيلوه كان يشكل مكان الاجتماع العام للوطنية العبرية، كما شكل حرم أوليمبيا فيما بعد مركزاً للشعور الناشئ بالوحدة اليونانية. وكان التابوت يُخرج ليحمل أمام الجيش العبري، حتى يتمكن إله إسرائيل من القتال من أجل عابديه. ومن الواضح إذن أنه منذ وقت مبكر للغاية كان يهوه يُنظر إليه بالمعنى الحرفي باعتباره إله المعارك، والقوة التي قد تعتمد عليها إسرائيل بشكل خاص لحمايتها من أعدائها. وعندما تحققت الوحدة الوطنية، كما تخبرنا الأساطير، في عهد داود؛ وعندما اندمجت الشعوب الخاضعة أخيراً في كيان متجانس؛ إن هذا الشعور لابد وأن يكون قد ازداد في مداه وشدته عندما تم القضاء على آخر الآثار الكنعانية من خلال الغزو النهائي لليبوسيين، وعندما أصبحت القدس عاصمة لإسرائيل الموحدة. ولابد وأن يكون قد ساعد إحضار يهوه إلى القدس بواسطة داود، وبناء هيكله بواسطة سليمان (إذا كانت هذه الحقائق تاريخية)، في ترسيخه باعتباره الإله الأعظم للجنس البشري: ورغم أن سليمان أقام أيضًا معابد لآلهة عبرية أخرى، والتي ظلت قائمة لعدة قرون، إلا أنه يمكننا أن نكون على يقين من أنه منذ تاريخ افتتاح المزار المركزي العظيم، ظل يهوه الإله الرئيسي للمملكة الجنوبية على الأقل، بعد الانفصال.

ولكن هناك سمة واحدة تميزت بها عبادة يهوه، ساعدت بشكل خاص في تحويلها في النهاية إلى عبادة حصرية، وبالتالي مهدت الطريق لتطورها النهائي إلى توحيد خالص. كان يهوه معروفًا بشكل خاص بأنه "إله غيور": وهذه سمة في مزاجه منذ

وقت مبكر وكثيرًا ما أصر عليها. لا نعرف متى أو أين تم نشر "الكلمات العشر" الشهيرة لأول مرة؛ ولكن لدينا كل الأسباب للاعتقاد بأنها في جوهرها على الأقل ترجع إلى فترة قديمة جدًا. الآن، على رأس هذه الوصايا القديمة ليهوه يقف حظر وضع أي آلهة أخرى أمام وجهه. في الأصل، لا شك أن الحظر كان يعني بالضبط ما ينص عليه؛ أن يهوه لن يتسامح مع أي آلهة رفيقة لمشاركته معبده؛ وأنه أينما سكن، سيعيش بمفرده دون ما كان اليونانيون يسمونه شركاء الضريح. وبالتالي فإننا نعلم أنه لم يكن من المقرر أن تُدفن أي عشيرة بالقرب من تابوت يهوه؛ "وعندما وجد داجون نفسه وجهاً لوجه أمام صخرة إسرائيل، تحطم إلى قطع، ولم يستطع الوقوف أمام الوجود المروع للعمود العبري العظيم. لم يطلب "الإله الغيور" أكثر من هذا في البداية: طلب من عابديه أن يبقوا بعيدًا عن مجتمع كل الآلهة الأدنى، 218 وألا يسمحوا لأي إله أقل شأناً أو منافس بدخول حرمه.

ولكن مع مرور الوقت، ومع تعمق عبادة يهوه، واتساع مفهوم الألوهية وسموها، بدأ عابد يهوه في وضع تفسير أكثر صرامة للوصية القديمة للإله الغيور. وكان من المفترض أن كل شخص مختون، وكل رجل مخلص ليهوه بشكل واضح، مدين ليهوه وحده بخدمته الدينية بالكامل. ولم يشك أحد حتى الآن في وجود آلهة أخرى: ولكن يهوه المتطرفين في الأيام الأخيرة من الاستقلال الوطني اعتبروا من عقيدة إيمانهم أنه لا ينبغي لأي إسرائيلي حقيقي أن يكرمهم بأي شكل من الأشكال. وهكذا نشأ صراع ديني داخلي بين عابدي يهوه وعابدي البعليم، حيث كان أتباع الإله الوطني، كما قد نتوقع، هم المستفيدون إلى حد كبير. ومنذ ذلك الحين أصبحت عبادة يهوه الحصرية هي المثل الأعلى لليهوه المتطرفين: فقد بدأوا ينظرون إلى جميع الآلهة الأخرى باعتبارها "أصنامًا"، يتماهون مع صورهم؛ وبدأوا ينظرون إلى الرب وحده باعتباره الإله الحي، على الأقل ضمن حدود الأمة الإسرائيلية.

ولقد ساهم في هذه النتيجة إلى حد كبير حظر قديم آخر فرض على كهنة يهوه. فقد اعتبر الكهنة أنه من غير المشروع صنع أو مضاعفة تماثيل يهوه. وكان الحجر المقدس الوحيد الموجود في تابوت العهد هو الذي يجب أن يعبد: ومن خلال التركيز على شيلوه، أو بعد ذلك على أورشليم، الروح الدينية بأكملها للعبادة العرقية، فلا بد أنهم نجحوا إلى حد كبير في ترسيخ الوحدة الوطنية. وكان أنصار يهوه المتشددون ينظرون بكراهية إلى العبادة التي كانت تُقدَّم لتماثيل الثيران في المملكة الشمالية، رغم أن هذه التماثيل كانت تعتبر أيضاً (على الأقل في الأيام اللاحقة) ممثلين ليهوه. وكانوا يعتقدون أن الإله الحقيقي لإبراهيم لا يمكن العثور عليه إلا في تابوت العهد في أورشليم، وأن إعطاء صخرة إسرائيل شكلاً بشرياً أو شكلاً وحشياً كان في حد ذاته جريمة كبرى ضد عظمة إلههم. ومن هنا نشأ الكراهية العبرية الغريبة لـ "عبادة الأصنام"؛ إن هذا الكراهية لم تكن مشتركة بين أي شعب آخر سوى الشعوب السامية، والتي يبدو أن جذورها عميقة في عبقرية الشعب غير الفنية وفي الطابع الميتافيزيقي العميق والخيالي للتفكير السامي. والواقع أن الفراغ النسبي للأضرحة السامية كان يشكل دوماً حجر عثرة أمام اليونانيين، بصورهم العديدة والرائعة للآلهة المجسمة.

لقد كان كل ما كان مطلوباً الآن لدفع عبادة يهوه التي كانت تزداد استبعاداً وتجاهلاً إلى التوحيد الخالص بين الشعب كله هو دافع حماس وطني عظيم، رداً على أي هجوم خارجي خطير على وجود إسرائيل وإله إسرائيل. وقد أعطت عدوان آشور، ثم بابل في وقت لاحق، هذه اللمسة الأخيرة. فقد ظلت المملكتان الإسرائيليتان الصغيرتان لسنوات طويلة تتمتعان باستقلال هش بين الإمبراطوريتين العظيمتين مصر وبلاد ما بين النهرين. وفي القرن الثامن، أصبح من المؤكد أنهما لم تعدا قادرتين على ممارسة لعبتهما المعتادة في الدبلوماسية الذكية والخضوع المهذب. لقد أصبح وجود إسرائيل ذاته على المحك؛ واندفع عباد يهوه المتعصبون الآن إلى أقصى درجات الهياج بسبب المضايقات اليائسة التي انحدروا إليها، وانفجروا في تلك

النشوة التي لا تنسى من الحماسة والتي يمكننا أن نطلق عليها بحق عصر الأنبياء، والتي أنتجت أقدم روائع الأدب العبري في الجهد الجامح لمقاومة أسلحة الغزاة المقاومة السلبية ليهوه الأعظم. في الأزمنة القديمة، يقول الأنبياء، عندما كان الرب يقود قوات إسرائيل، كانت خيول ومركبات أعدائهم لا قيمة لها: إذا توقفت إسرائيل في هذه الأزمة عن التفكير في المساعدة من مصر أو التحالف مع آشور - إذا تخلصت إسرائيل من جميع آلهتها الأخرى ووثقت فقط في الرب - فإن الرب سوف يحطم قوة آشور وسيجعل بابل لا شيء أمام شعبه المختار.

وهذه هي اللغة التي لجأ إشعياء إلى استخدامها في أزمة الخطر القومي الخطير.

ولكن من الغريب أن نرى أي شعب يلقي بنفسه في مثل هذه الحالة العامة من الحماقة المتعصبة، ولكن من الصحيح مع ذلك أن هذه النصائح غير العادية سادت في المملكتين الإسرائيليتين، وأن اللحظة التي تعرضت فيها الوجود الوطني للخطر بشكل خطير كانت هي اللحظة التي اختارها الحزب يهوه لمحاولة الإصلاح الديني بقوة. ولم يؤد سقوط أفرايم إلا إلى تسريع الاعتقاد المتعصب لدى المتعصبين في يهوذا بأن عبادة يهوه الخالصة هي الدواء الشافي الوحيد الممكن للصعوبات التي تواجه إسرائيل. وباستغلال الأقلية والملك الشاب القابل للتصرف، نجحوا في فرض يهوهية حصرية على الشعب الرافض جزئيًا. وسرعان ما تبع تزوير سفر التثنية. وهو أول بذرة من أسفار التوراة. على يد كهنة الهيكل في القدس انتصارًا مؤقتًا لعبادة يهوه الخالصة. في هذه الوثيقة التي لا تنسى، قيل زوراً إن عبادة يهوه الحصرية انحدرت من أقدم فترات الوجود الوطني. ويقال إن يوشيا، الذي انزعج من الإدانات في مخطوطة القانون المزورة، شرع على الفور في العمل على استئصال كل أشكال "عبادة الأصنام" بوسائل عنيفة. وأخرج من بيت يهوه "الأواني المصنوعة للبعل والعاشورة وكل جند السماء، وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون". وألغى جميع الأضرحة والكهنوت للآلهة الأخرى في مدن يهوذا، وأباد "الذين كانوا يحرقون البخور

للبعل والشمس والقمر والكواكب وكل جند السماء". كما أخرج العشيرة من هيكل يهوه وأحرقها حتى تحولت إلى رماد؛ "وأخذ الخيول التي أعطاها ملوك يهوذا للشمس، وأحرق مركبات الشمس بالنار". وبتدمير المعابد التي قيل إن سليمان بناها لكيموش وملكوم وعشتاروث، ترك عبادة يهوه الحصرية المنتصرة الدين الوحيد المعتمد لإسرائيل.

ولكن كل هذا لم يجدي نفعاً. فلم يكن التعصب الديني قادراً على إنقاذ الإمارة الصغيرة من الأسلحة العدوانية التي كانت تستخدمها جاراتها الأقوياء. وفي غضون عشرين أو ثلاثين عاماً من إصلاح يوشيا، توقف البابليون عن اللعب بفروعهم الصغيرة، واستولوا على القدس ثلاث مرات ونهبوها. وأحرقوا هيكل يهوه، وأزيلت الزخارف الرئيسية، وبات الموقع الخرب نفسه خالياً مهجوراً. ونُقِل السكان الرئيسيون إلى بابل، وتوقفت مملكة يهوذا لفترة من الوقت عن أي وجود مستقل من أي نوع.

ولكن ماذا حدث ليهوه نفسه في هذه الكارثة؟ كيف سقط الحجر المقدس في تابوت العهد، صخرة إسرائيل، في هذا الدمار الشامل لكل ممتلكاته المقدسة؟ من الغريب أن المؤرخ العبري لا يتوقف عن إخبارنا بذلك. ففي الكتالوج الحزين للأخطاء التي ارتكبها البابليون في القدس، تم تعداد كل وعاء ومجرفة وإناء، ولكن "تابوت العهد" لم يُذكَر ولو مرة واحدة. ولعل المؤرخ تردد في سرد تلك العار الأخير الذي لحق بإله بلاده؛ وربما منعه شعور بالاحترام من تسجيله؛ وربما لم يكن يعرف شيئًا عما حدث أخيرًا للعمود الحجري العزيز والمكرم لأسلافه. ومن المحتمل أيضاً أنه مع مفاهيمه اللاحقة الأكثر غموضاً لعبادة إلهه، توقف عن اعتبار التابوت ذاته مسكناً ليهوه، ولم يكن يعلم أن إله قبيلته كان ممثلاً في المزار الأعمق للمعبد بعمود خشن. ومهما يكن من أمر، فإن المصير الفعلي ليهوه نفسه أصبح الآن محاطاً بغموض لا يمكن اختراقه. ولعل الغزاة الذين استولوا على "كنوز بيت يهوه، وقطعوا كل أواني الذهب

التي صنعها سليمان ملك إسرائيل"، لم يكونوا يكترثون كثيراً بالحجر المقدس الخشن لشعب محتل. وقد نفترض أنهم حطموا يهوه إلى ألف قطعة وطحنوه حتى تحول إلى مسحوق، كما فعل يوشيا بالبعليم والعشتار، حتى أن أتباعه لم يعودوا قادرين على التعرف على رفاته أو عبادتها. وعلى أية حال، لم نسمع بعد ذلك، عن يهوه نفسه، كوجود مادي، أو عن الفلك الذي سكن فيه. لقد بقيت روحه وحدها، غير المرئية، لحراسة وحماية شعبه المختار.

ولكن من الغريب أن هذا الاختفاء النهائي ليهوه نفسه، كإله مرئي وملموس، من صفحات التاريخ، بدلاً من أن يكون بمثابة إشارة إلى السقوط الكامل لطائفته وقدسيته، كان بمثابة بداية عبادة يهوه كدين روحي وتوحيدي وعالمي. وفي اللحظة التي توقف فيها يهوه عن الوجود، بدأ دين يهوه في الوصول إلى أعلى وأكمل تطور له. وحتى قبل الأسر، كما رأينا، بدأ الأنبياء وحزبهم في تكوين مفهوم روحي سامٍ لعظمة يهوه وقداسته وطبيعته التي لا يمكن الاقتراب منها وسمو يهوه الخارق للطبيعة وقدرته المطلقة. ولكن الآن بعد أن اختفى يهوه المادي نفسه، الذي كان يسد أفكارهم ويضيقها، إلى الأبد، اتسع هذا المفهوم الروحي لإله عظيم غير مرئي وتعمق بشكل مذهل. لقد حرمت عقيدتهم وأمر يهوه الصريح من صنع أي صورة لإلههم المختار، فطور العبرانيون في بابل تدريجياً فكرة الحاكم الأعلى المتحرر تماماً من القيود المادية، والذي يمكن عبادته دون صورة أو ممثل أو رمز؛ ساكن في السماء، غير مرئي للبشر، أعلى وأطهر من أن تراه العيون البشرية. لقد حل الحجر المخروطي في التابوت محل كائن غير مادي، لا يمكن فهمه، وقادر على كل شيء.

ولقد أصبح التوحيد الخالص خلال فترة السبي أيضاً هو عقيدة إسرائيل للمرة الأولى. فقد اقتنع اليهود أثناء فترة نفيهم بأن هجرانهم ليهوه كان السبب وراء كل المصائب التي حلت بهم في الماضي، فازدادوا تعلقاً بالإله الذي يمثل وحدتهم الوطنية ووجودهم الوطني. ولقد عادوا إلى يهودا بعد أن مضى جيلان من الزمان، وهم على

قناعة راسخة بأن سعادتهم كلها تتوقف على استعادة عبادة لم تكن أبداً عبادة آبائهم، في نقاء مثالي. ولقد أصبح شكل جديد من أشكال عبادة ليهوه شغفاً بين أولئك الذين جلسوا حزينين على ضفاف مياه بابل. وقليلون هم من الغيورين الذين عادوا أخيراً إلى أورشليم، إن وجدوا، من هم الذين عرفوا ذات يوم الإله الحجري الذي كان مسجى في تابوت العهد: لقد كان يهوه الروحاني هو الذي يحكم في السماء فوق بين الجيوش النجمية التي قدموا لها تطلعاتهم في أرض غريبة لاستعادة إسرائيل. في المعبد الذي بنوه على الموقع المقدس، وفقًا لخيالاتهم الجديدة، لم يعد يهوه حاضرًا شخصيًا: لم يكن "بيته" كثيرًا، مثل البيت القديم الذي هدمه الغزاة البابليون، بل كان المكان الذي تُقدم فيه التضحيات وتُؤدى العبادة للإله العظيم في السماء. كان الدين الجديد روحانيًا بحتًا؛ انتصر يهوه، ولكن فقط بفقدان خصائصه الشخصية المميزة، والخروج من الأزمة، كما كانت الحال، بالشكل الفارغ أو المفهوم العام للإله الخالص بشكل عام.

إن هذا هو ما يعطي التوحيد قوته الخاصة، ويمكّنه من شق طريقه في كل مكان بسهولة. ذلك أن التوحيد هو الدين الذي اختزل في عنصره المركزي الوحيد؛ فهو لا يحتوي على شيء سوى ما يؤمن به ضمناً كل من ينتسب إلى كل الآلهة، مع إزالة كل تعقيد أو فردية غير ضرورية وتبسيطها. إن بساطته توصي به كل العقول الذكية؛ ويجعله اتساقه الشكل الأسهل والأكثر اقتصاداً من أشكال الآلهة التي يمكن للإنسان أن يصوغها لنفسه.

ولقد كان من الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن يهوه هو الإله الوحيد الذي لا يمكن أن يتصوره اليهود في أي مكان آخر. ولقد كان هذا الاعتقاد بمثابة انعكاس لأفكار جديدة. ولقد تم تحرير وتسجيل جميع سجلات إسرائيل تحت تأثير هذه الأفكار الجديدة في وقت قريب، كما تم تدوينها في شكل يهوه؛ كما اتخذت أسفار موسى الخمسة والكتب التاريخية القديمة الشكل الذي نعرفها به الآن. ومنذ لحظة العودة من الأسر،

استمر مفهوم التوحيد في الاتساع. ولا شك أن اليهود في القرن السادس كانوا ينظرون إلى يهوه في البداية باعتباره الإله العرقي لإسرائيل. ولكن مع مرور الوقت، بدأ المفهوم الأسمى والأوسع نطاقاً لبعض الأنبياء الشعريين الأوائل يكتسب قبولاً عاماً، وأصبح يهوه يعتبر في الواقع الإله الحقيقي الوحيد للعالم أجمع . وهو الإله الذي يعترف به الإسلام والمسيحية اليوم. ومع ذلك، فقد كان يهوه حتى ذلك الوقت وثيق الصلة بالشعب اليهودي، الذي كان من المتوقع أن يتعلم غير اليهود من خلاله عظمته في ملء الزمان. لقد كان من المقرر بعد خمسة قرون أن يحقق يهودي يوناني من قيلق، المثل الأعلى النهائي للتوحيد العالمي الخالص، وأن يعلن في الخارج وحدة الله لجميع الأمم، مع الكنيسة الكاثوليكية كشاهد أرضي أمام أعين البشرية جمعاء. إننا مدينون لبولس الطرسوسي قبل كل البشر بهذا المفهوم العظيم والعالمي بشكل عام.

الفصل الحادي عشر - الآلهة البشرية.

لقد حققنا الآن إلى حد ما هدفنا في تتبع تطور الآلهة والله. أوضحنا كيف نشأت تعدد الآلهة، وكيف ارتقت منها مجموعة معينة من البشر، وهم الإسرائيليون الأوائل، تدريجيًا، من خلال مراحل طبيعية، إلى المفهوم التوحيدي. قد يبدو الأمر إذن وكأن المهمة التي وضعناها أمام أنفسنا قد اكتملت الآن تمامًا. ومع ذلك، لا تزال العديد من الأسئلة الغامضة والصعبة تنتظرنا. لم يتم حل مشكلتنا حتى الآن. أعتقد أننا ما زلنا نتساءل: كيف تقدم هذا الإله العبري المحلي والوطني المحض إلى غزو العالم المتحضر؟ كيف تمكن إله قبيلة صغيرة من الرعاة المحتقرين والهمجيين من العيش ببطء في بابل وسوسا وهيلاس وإيطاليا؟ ومرة أخرى، علينا أن نتساءل: لماذا تعتقد أغلب الأمم الحديثة التي تبنت التوحيد اسمياً أن إلهها مركب بطريقة غامضة غير مفهومة من ثلاثة أشخاص، الآب والابن والروح القدس؟ باختصار، أنا لست راضياً عن تتبع فكرة الإله من المومياء البدائية أو الشبح الثانوي إلى الإله الأعظم الواحد للعبرانيين القدماء؛ أرغب أيضاً في متابعة هذا المفهوم المتطور حتى يندمج أخيراً في الإله الثلاثي للمسيحية الحديثة. فمن الطبيعي أن يكون الإله الذي يؤمن به الناس هنا والآن هو الذي يهمنا ويشغلنا أكثر من أي شيء آخر.

ولعلني أضيف أيضاً أنه في إطار هذا البحث التكميلي، سوف نصادف عدة سمات إضافية في فكرة الألوهية وعدة مصادر مهمة للربوبية السابقة، والتي كان علينا أن نؤجل النظر فيها إلى وقت أكثر ملاءمة. وسوف نجد أن عملية تعقب المسيحية إلى ينابيعها الخفية تشير إلينا بالعديد من جوانب الدين البدائي التي اضطررنا إلى إهمالها في أول محاولة سريعة لتلخيصها.

إن القارئ لابد وأن يتذكر أنه في التعامل مع موضوع معقد مثل موضوع المعتقدات والطوائف البشرية، فمن المستحيل أن نلخص كل الحقائق في عرض واحد .فلا نستطيع أن نستوعب في آن واحد كل الأدلة. وفي حين نتتبع دليلاً ما، لابد وأن نهمل

دليلاً آخر. ولا نستطيع أن نتقدم تدريجياً إلى إعادة بناء كاملة وشاملة لهذا النسيج الضخم إلا من خلال فحص كل مجموعة رئيسية من المكونات في تمييز تحليلي. ومن ثم يتعين علينا أن نصحح ونكمل في الجزء التالي الكثير مما قد يبدو غامضاً أو غير دقيق أو غير كاف في مسحنا الأولي.

إن الديانة المسيحية التي سنتناولها الآن تستند أساسًا إلى شخصية رجل يُدعى يسوع، والذي يُطلق عليه عادةً اسم المسيح، أي "الممسوح". وقد أكدت المسيحية الحديثة، كما أكد المسيحيون الأرثوذكس منذ فترة مبكرة جدًا، أن هذا الشخص الأكثر قداسة وتأليهًا لم يكن في الأصل مجرد إنسان، ثم أصبح لاهوتًا، بل إنه وُلِد من البداية ابن الله، أي من يهوه العبري؛ وأنه كان موجودًا من قبل منذ كل العصور؛ وأنه حُبل به بطريقة معجزية من أم عذراء؛ وأنه صُلب ودُفن؛ وأنه قام من بين الأموات في اليوم الثالث؛ وأنه الآن شخص حي ومتميز في ثالوث إلهي متحد باطنيًا. إنني أعتزم أن أعرض في الفصول التالية مدى انتشار كل هذه المفاهيم في مختلف أنحاء العالم الذي انتشرت فيه المسيحية، وإلى أي مدى كان نجاح الدين الجديد السريع يرجع إلى حقيقة مفادها أنه لم يكن سوى خلاصة أو تجسيد مثالي لكل المفاهيم الرئيسية المشتركة بالفعل بين الطوائف الرئيسية في حضارة البحر الأبيض المتوسط. وفي اللحظة التي كانت فيها الإمبراطورية تعمل على إضفاء طابع عالمي على العالم، بدأت المسيحية في إضفاء طابع عالمي على الدين، من خلال استيعاب كل ما كان مركزياً ومشتركاً وعالمياً في عبادة الشعوب التي نشأت بينها.

سنبدأ بالسؤال حول التجسد، الذي يكمن في جذر المفهوم المسيحي. لقد سبق لي أن قلت إن "الإله في مصر القديمة وفي أماكن أخرى كان هو الملك الميت، وكان الملك هو الإله الحي". وهذا صحيح حرفياً ومطلقاً. وبما أن الملوك الأوائل كانوا آلهة، فإن الملوك الحاليين، من نسلهم، هم بطبيعة الحال آلهة بالنسب؛ ودماؤهم إلهية؛ وهم يختلفون في طبيعتهم وفي مكانتهم عن البشر العاديين. وهم في حياتهم آلهة

على الأرض؛ وعندما يموتون ينتقلون إلى مجتمع الآلهة أسلافهم، ويشاركونهم الخلود السعيد والملكي. لقد رأينا كيف أن هذه الألوهية الأساسية للفرعون تشكل مادة أساسية في الإيمان الديني لبناة الأهرامات المصريين. ورغم أنه في الأيام اللاحقة، عندما تولت أسرة يونانية، ليست من الدم الإلهي القديم، السلطة في مصر، خفت هذا الاعتقاد في ألوهية الملك، إلا أن البطالمة وكليوباترا حملوا حتى آخر لحظة لقب الإله أو الإلهة، وحملوا في أيديهم التاو المقدس أو كروس أنساتا، رمز وعلامة الألوهية الجوهرية.

إن الاستنتاج الذي توصل إليه أهل مصر بأن أبناء الآلهة لابد وأن يكونوا آلهة أنفسهم قد توصل إليه أهل أغلب البلدان الأخرى، وخاصة تلك التي ترسخت فيها أنظمة استبدادية مماثلة في مرحلة مبكرة من مراحل الحضارة. وهكذا كان شعب الإنكا في بيرو آلهة. وكانوا أبناء الشمس؛ وعندما ماتوا قيل إن أباهم الشمس أرسل ليأخذهم. وكان ملوك المكسيك آلهة أيضاً، وكانوا يتمتعون بالسيطرة الكاملة على مجرى الطبيعة؛ فقد أقسموا عند توليهم العرش على أن يجعلوا الشمس تشرق، والمطر يهطل، والأنهار تجري، والأرض تنتج ثمارها في موسمها المناسب. ويبدو لنا في البداية أنه من الصعب علينا أن نتصور كيف كانوا يعدون بكل هذا؛ ولكن هذا سوف يصبح أكثر قابلية للفهم في مرحلة لاحقة من بحثنا، عندما نأتي إلى النظر في آلهة الزراعة: حتى في الوقت الحاضر، إذا تذكرنا أن الملوك هم أبناء الشمس، وأن الأشجار المقدسة والبساتين المقدسة والآبار المقدسة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمقابر أسلافهم، فيمكننا تخمين بداية مثل هذا الارتباط العقلي. وبالتالي فإن الإمبراطور الصيني هو ابن السماء؛ وهو مسؤول أمام شعبه عن حدوث الجفاف أو غيره من الاضطرابات الخطيرة في الطبيعة. يقول السيد فريزر، الذي أدين له كثيرًا بمعظم الحقائق التالية، إن الملوك البارثيين من بيت أرساسيد أطلقوا على أنفسهم اسم إخوة الشمس والقمر، وكانوا يعبدون كآلهة. ويستشهد السيد فريزر بحالات أخرى لا حصر لها، وهو أول من أشار إلى الأهمية الكاملة لهذا الاعتقاد الواسع الانتشار في آلهة البشر. وسوف

أتبعه إلى حد كبير في المناقشة اللاحقة لهذا الموضوع الأساسي، وإن كنت سأقدم للوقائع تفسيراً مختلفاً قليلاً عن التفسير الذي قد يعتبره هو التفسير الصحيح. ففي نظري، تنبع الألوهية دائماً من الإنسان الميت البدائي، بينما يرى السيد فريزر أنها روحية أو حيوية في أصلها.

وإلى جانب هؤلاء الآلهة البشر الذين هم آلهة بالنسب من أسلاف مؤلهين، هناك فئة أخرى من الآلهة الذين هم آلهة بالإلهام أو حلول الروح الإلهية، أي شبح أو إله يسكن جسد إنسان حي بشكل مؤقت أو دائم. وقد نرى فكرة هذا الاستحواذ الإلهي في حالات الصرع، والتصلب، والحلم، والجنون. وفي كل هذه الحالات من الحالة العصبية غير الطبيعية، يبدو للإنسان البدائي، كما بدا لليهود في عصر الأناجيل، أن المريض قد دخل أو استولى عليه روح ما، يسكنه جسديًا. وقد ترمي الروح الإنسان إلى أسفل، أو قد تتحدث من خلال فمه بألسنة غريبة غير معروفة؛ وقد ترفعه حتى يتمكن من أداء مآثر غريبة ذات قوة عجيبة، أو قد تحطه إلى موقف من الذل والهوان. إن الصيام والزهد الديني يمكن أن يحققا هذه الحالة بشكل مصطنع، عندما يتحدث الإله من خلالهم، كما تحدث من خلال فم بيثيا في دلفي. والصيام هو دائمًا أحد التمارين الدينية للرجال الممسوسين بالآلهة، والكهنة والرهبان والنساك والزهاد بشكل عام. حيث تعلمت الأجناس كيفية تصنيع المشروبات المسكرة، أو التعبير عن العصائر المخدرة من النباتات، فإنهم يعزون أيضًا تأثيرات مثل هذه النباتات إلى العمل الشخصي لروح ملهمة - وهي فكرة مستمرة حتى في العصور المتحضرة حتى أننا نتحدث عادةً عن المشروبات الكحولية باعتبارها أرواحًا. كلتا الطريقتين لتحقيق حضور إله ساكن تمارسان بشكل شائع بين المتوحشين والأشخاص نصف المتحضرين.

عندما نتذكر كيف رأينا بالفعل أن الأرواح الأسلاف قد تنزل من وقت لآخر إلى الجماجم التي كانت لهم ذات يوم، أو إلى التماثيل الطينية أو الخشبية التي تمثلهم،

وتصدر هناك أوراكل، فلن نندهش عندما نجد أنها يمكن أن تدخل في بعض الأحيان إلى جسم بشري، وتتحدث من خلال شفتيه، للخير أو الشر. في الواقع، لقد تحدثت قليلاً في هذا الكتاب عن هذه القوة المهاجرة وهذا الوجود في كل مكان للأرواح، لأنني رغبت في تركيز الاهتمام بشكل رئيسي على ذلك الجانب الأساسي من الدين الذي يتعلق مباشرة بالعبادة؛ لكن القراء المألوفين لأعمال مثل عمل الدكتور تايلور والسيد فريزر سيدركون جيدًا القوة المشتركة التي تمتلكها الأرواح لإسقاط نفسها بسهولة في كل جزء من الطبيعة. إن القدرة على التملك أو التكهن ليست سوى مثال واحد خاص لهذه الصفة المعروفة. إن أسرار وأوراكل جميع المعتقدات مليئة بمثل هذه الظواهر.

"ومن ناحية أخرى، يولد بعض الأشخاص من الرحم كتجسيدات لإله أو روح أسلاف. ويقول السيد فريزر: ""إن الآلهة المتجسدة شائعة في المجتمع البدائي. وقد يكون التجسيد مؤقتًا أو دائمًا... وعندما تستقر الروح الإلهية في جسد بشري، فمن المتوقع عادة أن يدافع الإله عن شخصيته من خلال عمل المعجزات"". ويعطي السيد فريزر عدة أمثلة ممتازة لكلا الفئتين. وسأقتبس بعض الأمثلة حرفيًا تقريبًا.

إن بعض الأشخاص يصابون من وقت لآخر بروح أو إله؛ وبينما يستمر هذا الاستحواذ، تظل شخصيتهم في حالة سكون، ويكشف وجود الروح عن طريق ارتعاشات وتشنجات في الجسم. وفي هذه الحالة غير الطبيعية، يتم قبول أقوال الرجل على أنها صوت الإله أو الروح الذي يسكنه ويتحدث من خلاله. في مانجايا، على سبيل المثال، كان الكهنة الذين اتخذهم الآلهة مسكنًا لهم يُطلق عليهم اسم صناديق الآلهة أو الآلهة. وقبل إلقاء الوحي، كانوا يشربون مشروبًا مسكرًا، وكانت الكلمات التي يتحدثون بها في جنونهم تعتبر إلهية. وفي حالات أخرى، ينتج الشخص الملهم حالة التسمم المرغوبة عن طريق شرب دم طازج لضحية، إنسان أو حيوان، والذي، كما سنرى فيما بعد، ربما يكون هو نفسه تجسيدًا للإله الملهم. في معبد

أبولو ديراديوتيس في أرغوس، كان يتم التضحية بخروف ليلاً مرة واحدة في الشهر؛ في الهند، كانت هناك امرأة تشرب دم ثور، وكانت مضطرة إلى الالتزام بقاعدة العفة، ثم كانت تلقي نبوءات. وفي إيجيرا في آخيا، شربت كاهنة الأرض دم ثور طازج قبل أن تنزل إلى كهفها لتتنبأ. (لاحظ بالمناسبة أن الكهوف، أماكن الدفن القديمة، هي أيضًا الأماكن المعتادة للإلهام النبوي). وفي جنوب الهند، يشرب ما يسمى راقص الشيطان دم عنزة، ثم يصاب بالنشوة الإلهية. ويُعبد باعتباره إلهًا، ويطرح عليه المارة أسئلة تتطلب معرفة خارقة للطبيعة للإجابة عليها. ويوسع السيد فريزر هذه القائمة من الممارسات النبوية بالعديد من الأمثلة الأخرى المذهلة، والتي أود أن أحيل القارئ إليها المجلد الأصلي.

"ويقدم السيد فريزر أمثلة مناسبة أيضاً عن الآلهة البشرية الحية الدائمة، المستوحاة من السكنى الدائمة للإله. ففي جزر ماركيساس كانت هناك فئة من الرجال الذين كانوا يُعَبدون في حياتهم. وكان من المفترض أن يمارسوا سيطرة خارقة للطبيعة على العناصر. وكانوا قادرين على إعطاء أو منع المطر والحصاد الجيد. وكانوا يقدمون لهم القرابين البشرية لاسترضاء غضبهم. ""وصف أحد المبشرين أحد هذه الآلهة البشرية من خلال الملاحظة الشخصية. كان الإله رجلاً عجوزاً للغاية يعيش في منزل كبير داخل حظيرة"" (معبد في تيمينوس الخاص به). ""في المنزل كان هناك نوع من المذبح، وعلى عوارض المنزل والأشجار المحيطة به كانت تُعلَّق هياكل عظمية بشرية، ورؤوسها لأسفل. لم يكن أحد يدخل الحظيرة، باستثناء الأشخاص المكرسين لخدمة الإله؛ فقط في الأيام التي يتم فيها التضحية بضحايا بشرية كان يُسمح للناس العاديين بدخول المنطقة. تلقى هذا الإله البشري قرابين أكثر من جميع الآلهة الأخرى؛ كان يجلس على نوع من السقالة أمام منزله ويستدعي اثنين أو ثلاثة من الضحايا البشرية في كل مرة. وكان يتم إحضارهم دائمًا، لأن الرعب الذي يثيره كان شديدًا. كان يتم استدعاؤه في جميع أنحاء الجزيرة، وكانت القرابين تُرسل إليه من كل جانب. في الواقع، في جميع أنحاء جزر بحر الجنوب، كان لكل جزيرة رجل يجسد

معبودها. كان هؤلاء الرجال يُطلق عليهم آلهة، وكانوا يُعتبرون من جوهر إلهي. كان الإله البشري أحيانًا ملكًا؛ وغالبًا ما كان كاهنًا أو رئيسًا تابعًا. كانت آلهة ساموا تتجسد أحيانًا بشكل دائم في رجال، يقدمون أوراكل، ويتلقون القرابين (أحيانًا من لحم بشري)، ويشفون المرضى، ويجيبون على الصلاة، ويؤدون عمومًا جميع الوظائف الإلهية. يقال عن الفيجيين: "يبدو أنه لا يوجد خط فاصل معين بين الأرواح الراحلة والآلهة، ولا بين الآلهة والرجال الأحياء، لأن العديد من الكهنة والزعماء القدامى يُعتبرون أشخاصًا مقدسين، وليس قليل منهم يزعمون لأنفسهم حق الألوهية. "أنا إله"، هكذا كان يقول تويكيلكيلا، وكان يؤمن بذلك أيضًا. ويقال إن هناك طائفة في أوريسا تعبد ملكة إنجلترا باعتبارها إلهتها الرئيسية؛ وطائفة أخرى في البنجاب كانت تعبد خلال حياته الجنرال العظيم نيكلسون.

إنني أعتقد أن الملوك في بعض الأحيان يكونون مقدسين بالميلاد، باعتبارهم من نسل الآلهة؛ ولكن في بعض الأحيان تُمنح الألوهية لهم مع الملكية، كما كانت الحال حتى في المثال النموذجي لمصر. فقد تم تأليه تاناتوا، ملك راياتيا، من خلال احتفال معين أقيم في المعبد الرئيسي. لقد تم تأليهه أمام الآلهة التي أسلافه، كما حصل زعماء السلتيك على الزعامة وهم يقفون على الحجر المقدس لآبائهم. وبالتالي، باعتباره أحد آلهة رعيته، كان الملك يُعبد ويُستشار باعتباره وحيًا ويُكرم بالقرابين. لقد تلقى ملك تاهيتي عند تنصيبه حزامًا مقدسًا من الريش الأحمر والأصفر، والذي لم يرفعه إلى أعلى مكانة أرضية فحسب، بل جعله أيضًا مرتبطًا بالآلهة السماوية. قارن الطريقة التي تجعل بها آلهة مصر الملك واحدًا منهم، كما هو موضح في النقوش البارزة، من خلال تقديم التاو الإلهي. في جزر بيليو، قد يتجسد إله في شخص عادي؛ فيرتفع هذا الرجل المحظوظ إلى مرتبة السيادي، ويحكم كإله وملك على المجتمع. ولا يختلف أسلوب اختيار اللاما الأعظم عن ذلك. ففي المراحل اللاحقة، يتوقف الملك عن كونه إلهًا تمامًا، لكنه يحتفظ بالمسحة، والتكريس على حجر مقدس، والمطالبة بـ "الحق الإلهي"؛ كما يُظهِر بعض آثار الألوهية الأخيرة في قدرته

الإلهية على شفاء الأمراض، والتي تتلاشى في النهاية في ممارسة "لمس شر الملك". وفي كل هذه الأسئلة، مرة أخرى، يعد عمل السيد فريزر العظيم قاموسًا مثاليًا للأمثلة المناسبة. وأنا أمتنع عن الاستشهاد بمجلديه بالكامل.

ولكن هل كانت أفكار مثل هذه الشخصية لا تزال باقية في عالم البحر الأبيض المتوسط في القرنين الأول والثاني، حيث تطورت المسيحية؟ لا شك أنها كانت كذلك. ففي مصر، كانت السلالة الإلهية للبطالمة قد انقرضت للتو. وفي روما نفسها، كان القيصر الإلهي قد خضع للتو لتأليه رسمي؛ وكان أغسطس الإلهي يحكم الإمبراطورية باعتباره الابن المتبنى للإله الجديد؛ وارتفعت المذابح في المدن الإقليمية للروح الإلهية للحاكم تراجان أو هادريان. والواقع أن كلا الشكلين من أشكال الألوهية كانا مدعيين بشكل غير مباشر للإله يوليوس؛ فقد كان إلهاً بالتأليه، ولكنه كان أيضاً من نسل الإلهة فينوس. وعلى هذا فقد تم تقديم ادعاء مزدوج للشخصية المركزية في الإيمان المسيحي: فهو ابن الله. أي من نسل يهوه؛ ولكنه كان أيضاً من أصل يهودي ملكي، ومن نسل داود، وفي الأنساب الملفقة له في الأناجيل، تم إعطاء أهمية قصوى لهذا النسب الملكي المزعوم. فضلاً عن ذلك، فإن مدى سهولة تحديد هوية الأشخاص الأحياء بالآلهة التي نراها في قصة بولس وبرنابا في لسترة. باختصار، كان التجسد سمة عادية تماماً للدين والحياة اليومية كما كان مفهوماً آنذاك. وبالنسبة للأفكار الشرقية على وجه الخصوص، لم يكن هذا المفهوم جديداً على الإطلاق. تقول قوانين مانو، التي تعود إلى جذور الكثير من التفكير الشرقي، "حتى الملك الرضيع لا ينبغي أن يُحتقر بسبب فكرة أنه مجرد بشر: لأنه إله عظيم في هيئة بشرية".

ولكن أغلب المفكرين المعاصرين قد يبدو لهم للوهلة الأولى أن موت إنسان عادي على أيدي أعدائه يشكل صعوبة بالغة في قبول ألوهية المسيح. ولكن هذه الحقيقة لا تشكل عائقاً أمام قبول ألوهية المسيح، بل تشكل في واقع الأمر ضمانة ودليلاً على ذلك. ذلك أن أتباع الآلهة البشرية كانوا يقتلونهم في كثير من الأحيان أو ربما

بشكل اعتيادي، على الرغم من غرابة هذا الأمر. ولقد نجح السيد فريزر في فك رموز هذه الطقوس الغريبة والعادات المستمرة ببراعة، حيث كرس كتابه بالكامل تقريباً لهذين السؤالين الرئيسيين: "لماذا يقتل البشر آلهتهم؟" و"لماذا يأكلون ويشربون لحمهم ودمهم على هيئة خبز وخمر؟". ولابد وأن نستعرض هنا بعض النقاط نفسها في ملخص سريع، مع إضافة نتائج تكميلية؛ ولابد وأن نجعل الحقائق الغريبة التي ذكرها السيد فريزر متوافقة مع مبادئنا العامة حول أصل الألوهية.

في غضون ذلك، قد يكون من الجيد أن نضيف هنا مثالين مماثلين من التأليهات المعاصرة تقريبًا. قُتل الدكتاتور يوليوس على يد عصابة من المتآمرين الرجعيين، ومع ذلك تم رفعه على الفور إلى مرتبة الشرف الإلهية. بعد ذلك بقليل، كرس أنتينوس، المفضل لدى الإمبراطور هادريان، نفسه للموت من أجل تجنب سوء الحظ عن سيده؛ تم تكريمه على الفور بالمعابد والعبادة. كان الاعتقاد بأنه من المناسب أن "يموت رجل واحد من أجل الشعب"، وأن الشخص الذي يموت على هذا النحو هو إله في هيئة بشرية، كما سنرى، مكونًا مشتركًا للعديد من الأديان، وخاصة أديان شرق البحر الأبيض المتوسط. في الواقع، بعد ذلك بقليل، يتبع كل استشهاد مسيحي تقديسًا - أي تأليهًا صغيرًا. تتبع السيد فريزر نشأة هذه المجموعة من المعتقدات المتحالفة في ذبح الإله الإنسان بأسلوب متقن للغاية. إنها تنبع من عدد كبير من الأفكار المتقاربة، وبعضها لا يمكن أن يخرج كاملاً إلا عندما ننتقل في الفصول اللاحقة إلى فروع أخرى من موضوعنا.

في كل أنحاء العالم، يعد الاهتمام بالطقس من أكثر المهام والوظائف شيوعًا للإله البشري. بصفته ممثلًا للسماء، فإن وظيفته هي التأكد من سقوط المطر بكميات مناسبة، وأن الأرض تنتج زراعتها في الوقت المناسب. ولكن، على الرغم من كونه إلهًا، فلا بد من إكراهه إذا لم يهتم بهذه المهمة على النحو اللائق. على سبيل المثال، في غرب إفريقيا، عندما تفشل الصلوات والقرابين المقدمة للملك في الحصول على

المطر، يربطه رعيته بالحبال ويأخذونه إلى قبر أسلافه المؤلهين، حتى يتمكن من الحصول منهم على التغيير الضروري في الطقس. هنا نرى في أكمل شكل طبيعة العلاقة بين الآلهة الميتة والآلهة الحية. الابن هو الوسيط الطبيعي بين البشر والأب. بين الأنتيمور في مدغشقر، الملك مسؤول عن المحاصيل السيئة وجميع المصائب الأخرى. عندما كان الطعام شحيحًا، وضع السكيثيون القدماء ملوكهم في القيود. 235 ينسب البانجريون في غرب أفريقيا إلى ملكهم القدرة على إحداث المطر أو الطقس الجميل. وما دام المناخ مناسبًا، فإنهم يحمّلونه بالهدايا من الحبوب والماشية. ولكن إذا تسبب الجفاف الطويل أو المطر في ضرر جسيم، فإنهم يهينونه ويضربونه حتى يتغير الطقس. وكان البورغنديون يخلعون ملكهم إذا فشل في جعل محاصيلهم تنمو على النحو الذي يرضيهم.

"وإلى جانب ذلك، فإن بعض القبائل كانت تقتل ملوكها في أوقات الشح. ففي أيام الملك السويدي دومالد، اندلعت مجاعة شديدة، استمرت عدة سنوات، ولم يكن من الممكن إيقافها بالتضحيات البشرية أو الحيوانية. وعلى هذا، قرر الزعماء في جمعية شعبية كبيرة عقدت في أوبسالا أن الملك دومالد نفسه كان سبب الشح، ويجب أن يُضحى به في المواسم الجيدة. ثم قتلوه، ولطخوا مذابح الآلهة بدمه. وهنا يجب أن نتذكر أن الملك الإلهي هو نفسه إله، سليل الآلهة، وأنه يُضحى به لأرواح أسلافه المظلومة. وسوف نرى فيما يلي كم مرة تحدث حوادث مماثلة - كيف يُضحى بالإله، نفسه لنفسه؛ وكيف يُضحى بالابن للأب، وكلاهما إلهان؛ وكيف يضحي الآب بابنه، ليجعل منه إلهًا. ولنأخذ مثالاً اسكندنافياً آخر من مجموعة السيد فريزر: في عهد الملك أولاف، حلت مجاعة شديدة، وظن الناس أن العيب في الملك، لأنه كان يبخل في تقديم التضحيات. لذا حشدوا جيشاً وزحفوا ضده؛ ثم حاصروا قصره وأحرقوه، وهو بداخله، "قدموه إلى أودين كذبيحة من أجل محاصيل جيدة". ولابد من الإشارة إلى العديد من النقاط هنا. كان أولاف نفسه من أصل إلهي، من نسل أودين. وقد أحرق كقربان لأبيه، تماماً كما أحرق القرطاجيون أبناءهم، أو أحرق ملك موآب

ابنه البكر، كقرابين لملكارث وكيمش. وهنا يُقَدَّم الشخص الملكي الإلهي إلى آبائه، تماماً كما كتب على صليب مؤسس المسيحية: "يسوع الناصري ملك اليهود"، وكما قدم الله في اللاهوت المسيحي ابنه كذبيحة لعدالته المهينة.

وتشير أمثلة أخرى في أماكن أخرى إلى نفس التشبيهات. ففي عام 1814 انتشر وباء بين حيوانات الرنة لدى قبيلة تشوكشي (قبيلة سيبيرية)؛ وأعلن الشامان أن الزعيم المحبوب كوخ لابد أن يُقَدَّم قرباناً للآلهة الغاضبة (ربما أسلافه)؛ لذا طعنه ابن الزعيم بخنجر. وفي جزيرة نيوي المرجانية في جنوب المحيط الهادئ حكم ذات يوم سلالة من الملوك؛ ولكنهم كانوا أيضاً "كهنة عظماء" (أي ممثلين إلهيين لأسلاف إلهيين)؛ وكان من المفترض أن يجعلوا المحاصيل تنمو، لسبب سوف يتبين بشكل أكثر تفصيلاً في الجزء الثاني. وفي أوقات الندرة، كان الناس "يغضبون منهم ويقتلونهم"، أو على الأرجح، كما أفسر الحقائق، كانوا يضحون بهم من أجل المحاصيل لأسلافهم المعبودين. وهكذا لم يعد هناك ملوك مع مرور الوقت، وتوقفت الملكية تماماً في الجزيرة.

وبما أن الملوك الإلهيين مسئولون عن المطر والرياح وعن نمو المحاصيل، والتي سنتعرف على مدى اعتمادها عليهم بشكل أكبر فيما بعد، فمن الواضح أنهم أشخاص يتمتعون بأهمية وقيمة كبيرة للمجتمع. وعلاوة على ذلك، في أفكار البشر الأوائل، فإن روحهم تكاد تكون واحدة مع روح الطبيعة الخارجية، التي يمارسون عليها مثل هذه القوى غير العادية. ويبدو أن هناك تعاطفًا خفيًا بين الملك والعالم الخارجي. الأشجار المقدسة التي تجسد أسلافه؛ والمحاصيل، التي سنرى فيما بعد أنها تجسدهم على قدم المساواة؛ وسحب المطر التي يسكنونها؛ والسماء التي يسكنونها؛ - كل هذه، كما كانت، هي أجزاء من الجسد الإلهي، وبالتالي فهي ضمناً جزء من الملك الإله، الذي ليس سوى تجسيد لآبائه المؤلهين. وبالتالي، فإن كل ما يؤثر على الملك يؤثر على السماء والمحاصيل والمطر والناس. وهناك أيضًا سبب

للاعتقاد بأن الإله الإنسان، ممثل الروح الأجدادية والإله القبلي، هو بالتالي ممثل وتجسيد القبيلة نفسها - روح الأمة.

الدولة هي أنا إن هذا ليس مجرد فخر شخصي من جانب لويس كواتورز؛ بل إنه بقاء متأخر لاعتقاد قديم كان قوياً للغاية في الماضي، وكان يتقاسمه الملوك والشعوب في العصور القديمة. فكل ما يؤذي الملك، يؤذي الشعب، ويؤذي الطبيعة الخارجية ضمناً. وكل ما يحفظ الملك من الخطر، يحفظ العالم والأمة وينقذهما.

لقد أظهر السيد فريزر العديد من النتائج الغريبة لهذه المعتقدات المبكرة - والتي يرجعها، مع ذلك، إلى الروحانية البدائية المزعومة، وليس (كما فعلت) إلى تأثير نظرية الأشباح. ومع ذلك، أيا كان التفسير الذي نقبله، فإن الحقائق التي يقدمها على الأقل لها نفس القيمة. إنه يلفت الانتباه إلى عدد المحرمات الملكية التي تهدف جميعها إلى منع الإله البشري من تعريض حياته الإلهية للخطر أو المجازفة بها، أو من القيام بأي شيء قد يتفاعل بشكل ضار مع الطبيعة ورفاهية شعبه. إن الإله البشري محروس بأشد القواعد صرامة، ومحاط باحتياطات من أقصى درجات التعقيد. لا يجوز له أن يضع قدمه المقدسة على الأرض، لأنه ابن السماء؛ لا يجوز له أن يأكل أو يشرب بفمه المقدس بعض الأطعمة الخطرة أو النجسة أو غير المقدسة؛ لا يجوز له قص شعره المقدس، أو تقليم أظافره المقدسة؛ يجب أن يحافظ على جسده الإلهي سليمًا، وكل جزء منه - تجسيد المجتمع، - لئلا يأتي الشر من تهوره أو حماقته.

إن الميكادو، على سبيل المثال، كان ولا يزال يُنظَر إليه باعتباره تجسيدًا للشمس، الإله الذي يحكم الكون بأكمله، بما في ذلك الآلهة والبشر. لذا، يجب أن يولي كل من الميكادو والميكادو أقصى درجات العناية. يجب تنظيم حياته بالكامل، حتى أدق تفاصيلها، بحيث لا يمكن لأي فعل من أفعاله أن يخل بالنظام القائم للطبيعة. كان يُحمَل أينما ذهب على أكتاف البشر خشية أن يلمس الأرض. لم يكن بوسعه أن يعرض شخصه المقدس للهواء الطلق، ولا أن يأكل من أي إناء إلا إذا كان جديدًا

تمامًا. كان يتم الحفاظ على قدسيته وصحته بكل الطرق، وكان يُعامَل كشخص يشكل أمنه أهمية كبيرة لمسار الطبيعة بأكمله.

ويستشهد السيد فريزر بعدة أمثلة مماثلة، أبرزها مثال البابا الأعظم لقبيلة الزابوتيك، وهي قبيلة قديمة من جنوب المكسيك. كان هذا الرب الروحي، وهو بابا أو لاما حقيقي، يحكم مدينة يوبيا، إحدى المدن الرئيسية في المملكة، بسلطة مطلقة. وكان الناس ينظرون إليه باعتباره إلهاً "لا تستحق الأرض أن تحتضنه ولا أن تشرق عليها الشمس". وكان ينتهك حرمته إذا لمس الأرض المشتركة بقدمه المقدسة. وكان الضباط الذين يحملون نقالته على أكتافهم يختارون من بين أفراد أعلى العائلات؛ وكان نادراً ما يتفضل بالنظر إلى أي شيء حوله؛ وكان أولئك الذين يقابلونه يسجدون بتواضع على الأرض، خشية أن يدركهم الموت إذا رأوا ظله الإلهي. (قارن ظهور يهوه بموسى). وكان يُفرَض عليه عادة الامتناع عن الشرب؛ ولكن في أيام معينة من السنة التي تقام فيها الأعياد الكبرى، كان من المعتاد أن يسكر احتفالاً واحتفالاً بالأسرار المقدسة. في مثل هذه الأيام، يمكننا أن نكون على يقين من أن الآلهة العليا كانت تدخل إليه بطريقة غريبة بالقرع المسكر، وكانت الأرواح الأسلافية تعزز ألوهيته. وبينما كان في هذه الحالة السامية ("ممتلئًا بالإله"، كما قد يقول اليونانيون أو الرومان) استقبل البابا الإلهي زيارة من إحدى أجمل العذارى المكرسات لخدمة الآلهة. وإذا كان الطفل الذي ولدته له ابنًا، فقد خلفه في الوقت المناسب على عرش الزابوتيك. وهنا نجد مرة أخرى مزيجًا مفيدًا من الأفكار المختلفة التي تتشكل منها هذه الملكية الإلهية والألوهية.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الناس الذين يحمون ويصونون ملكهم الإلهي، تجسيد الطبيعة، يقتلونه عادة واحتفالاً. ومع ذلك فإن المفارقة الظاهرة، من وجهة نظر المتعبدين الأوائل، طبيعية ومعقولة. نقرأ عن الزنوج في الكونغو أنهم لديهم بابا أعلى يعتبرونه إلهاً على الأرض، وكلي القدرة في السماء. ولكن "إذا مات موتة طبيعية، فقد

ظنوا أن العالم سوف يهلك، وأن الأرض، التي كان وحده يدعمها بقوته ومزاياه، سوف تُباد على الفور". إن فكرة الإله باعتباره الخالق والداعم لكل الأشياء، والذي بدونه لا شيء يكون، هي بالطبع عنصر مكون مألوف في اللاهوت الأكثر تقدماً. لكن العديد من الأمم التي تعبد الآلهة البشرية تنفذ الفكرة إلى نهايتها المنطقية بأكثر الطرق صرامة. بما أن الإله رجل، فمن الواضح أنه من الخطأ تمامًا تركه يشيخ ويضعف؛ "لأن هذا قد يؤدي إلى إضعاف مسار الطبيعة بالكامل بشكل دائم؛ ولن يهطل المطر إلا بالتنقيط، وستنمو المحاصيل بشكل ضئيل، وستتقطر الأنهار، وسيتضاءل الجنس الذي يحكمه إلى العدم. وبالتالي، لا ينبغي للشيخوخة أن تتغلب على الإله البشري المقدس؛ بل يجب قتله في أوج قوته وصحته (لنفترض أنه في حوالي الثلاثين من عمره)، حتى تتمكن الروح الساكنة فيه، رغم أنها شابة ونضرة، من الهجرة دون إعاقة إلى جسد ممثل أحدث وأكثر قدرة. وأعتقد أن السيد فريزر كان أول من أشار إلى هذه النتيجة الغريبة للتفكير البشري البدائي، وأوضحها بأمثلة عديدة وحاسمة.

لا أستطيع أن أنقل هنا بالكامل حجة السيد فريزر الرائعة، مع الأمثلة التي تدعمها؛ ولكن يجب أن أقدم على الأقل الكثير منها بإيجاز بما يكفي لفهم شرحنا اللاحق. يقول: "لا يمكن لأي قدر من العناية والحذر أن يمنع الإله البشري من الشيخوخة والضعف، وفي النهاية الموت. يجب على عابديه أن يحاسبوا أنفسهم على هذه الضرورة الحزينة وأن يواجهوها بأفضل ما في وسعهم. والخطر هائل؛ فإذا كان مسار الطبيعة يعتمد على حياة الإله البشري، فما الكوارث التي لا يمكن توقعها من الضعف التدريجي لقواه وانقراضها النهائي بالموت؟ هناك طريقة واحدة فقط لتجنب هذه المخاطر. يجب قتل الإله البشري بمجرد أن تظهر عليه أعراض تشير إلى أن قواه بدأت في الفشل، ويجب نقل روحه إلى خليفة قوي قبل أن تتضرر بشكل خطير بسبب التحلل المهدد. إن فوائد قتل الإله البشري بهذه الطريقة بدلاً من تركه يموت بسبب الشيخوخة والمرض واضحة بما فيه الكفاية بالنسبة للمتوحش. فإذا مات الإله البشري بما نسميه موتًا طبيعيًا، فهذا يعني، وفقًا للمتوحش، أن روحه إما

غادرت جسده طواعية ورفضت العودة، أو على الأكثر أنها استُخرجت أو على الأقل احتجزت في تجوالها بواسطة شيطان أو ساحر. وفي أي من هذه الحالات، تُفقَد روح الإله البشري من قِبَل عابديه؛ ومع ذلك يختفي رخاؤهم ويتعرض وجودهم للخطر. وحتى لو تمكنوا من ترتيب الإمساك بروح الإله المحتضر كما خرجت من شفتيه أو منخريه ونقلها إلى خليفة، فلن يحقق هذا غرضهم؛ لأن موته بسبب المرض يعني بالضرورة أن روحه ستترك جسده في المرحلة الأخيرة من الضعف والإرهاق، وبالتالي ستستمر في إطالة وجودها الضعيف في الجسم الذي قد تُنقل إليه. "وبقتله، كان بإمكان عابديه، في المقام الأول، التأكد من الإمساك بروحه أثناء هروبها ونقلها إلى خليفة مناسب؛ وفي المقام الثاني، بقتله قبل أن تضعف قوته الطبيعية، فإنهم سيضمنون عدم سقوط العالم في الاضمحلال مع اضمحلال الإله البشري. وبالتالي، تم تحقيق كل غرض، وتجنب كل المخاطر بقتل الإله البشري ونقل روحه، وهي لا تزال في أوج قوتها، إلى خليفة قوي".

ولهذا السبب، عندما كبر بابا الكونغو، وبدا أنه على وشك الموت، دخل الرجل الذي كان مقدرًا له أن يخلفه في البابوية إلى منزله بحبل أو هراوة، وخنقه أو أسقطه. وكان ملوك مروي الإثيوبيون يعبدون كآلهة؛ ولكن عندما رأى الكهنة ذلك مناسبًا، أرسلوا رسولًا إلى الملك، يأمرونه بالموت، ويزعمون أن وحي الآلهة (أو الملوك السابقين) هو سبب أمرهم. وقد أطاع الملوك هذا الأمر دائمًا حتى عهد إرغامينس، وهو معاصر لبطليموس الثاني ملك مصر. لذلك، عندما مرض ملك يونيورو في وسط إفريقيا، أو بدأ يظهر عليه علامات اقتراب السن، اضطرت إحدى زوجاته بسبب العادة إلى قتله. وكان ملوك صوفالا يعتبرون من قبل شعوبهم آلهة يمكنهم منح المطر أو أشعة الشمس؛ ولكن أدنى عيب جسدي، مثل فقدان سن، كان يعتبر سببًا كافيًا لقتل أحد هؤلاء الآلهة البشر الأقوياء؛ يجب أن يكون سليمًا وسليمًا، وإلا فإن الطبيعة كلها تدفع ثمن ذلك. وقد أحصى السيد فريزر العديد من الملوك والآلهة البشر والكهنة الإلهيين والسلاطين، ويجب أن يكون كل منهم كاملًا على نحو مماثل في كل عضو وأطرافه.

ولا يزال نفس الرجولة الكاملة مطلوبة من البابا المسيحي، الذي، مع ذلك، لا يُقتل في حالة الشيخوخة الشديدة أو الضعف. ولكن هناك سبب للاعتقاد بأن اللاما الأعظم، البابا الإلهي للبوذيين التبتيين، يُقتل من وقت لآخر، حتى يظل "نضرًا وشبابًا إلى الأبد"، وحتى يسمح للإله المتأصل بداخله بالهروب بدم كامل إلى تجسيد آخر.

في كل هذه الحالات يسمح الشعب للملك الإلهي أو الكاهن بالاحتفاظ بمنصبه، أو بالأحرى بإيواء الألوهية، حتى يظهر لهم من خلال عيب خارجي، أو بعض التحذيرات المرئية من الشيخوخة أو المرض، أنه لم يعد قادرًا على الأداء السليم لوظائفه الإلهية. حتى تظهر مثل هذه الأعراض، لا يتم إعدامه. ومع ذلك، كما يوضح السيد فريزر، لم يعتقد بعض الشعوب أنه من الآمن الانتظار حتى أدنى أعراض التحلل قبل قتل الإله أو الملك البشري؛ لقد دمروه في ملء حياته وقوته. في مثل هذه الحالات، حدد الناس فترة لا يجوز للملك بعدها أن يحكم، ويجب أن يموت في نهايتها، وهي فترة قصيرة بما يكفي لمنع احتمال الانحطاط في هذه الأثناء. في بعض أجزاء جنوب الهند، على سبيل المثال، تم تحديد الفترة باثني عشر عامًا؛ عند انتهاء تلك الفترة، كان على الملك أن يقطع نفسه إربًا بشكل واضح أمام المعبود المحلي العظيم، والذي كان من المحتمل أن يكون معادلًا له من البشر. "يقول أحد المراقبين الأوائل: "من يرغب في الحكم لمدة اثنتي عشرة سنة أخرى، والقيام بهذا الاستشهاد من أجل الصنم، يجب أن يكون حاضرًا وينظر إلى هذا؛ ومن هذا المكان يقيمونه ملكًا".

ولقد اضطر ملك كاليكوت، على ساحل مالابار، إلى قطع رقبته علناً بعد أن حكم اثني عشر عاماً. ولكن مع حلول نهاية القرن السابع عشر، كانت هذه القاعدة قد أصبحت أكثر رخاءً إلى الحد الذي سمح للملك بالاحتفاظ بالعرش، وربما بمكانته كإله، إذا كان بوسعه أن يحمي نفسه من كل من يهاجمه. وما دام الملك قوياً بما يكفي لحماية منصبه، فقد كان من المعتقد أنه قوي بما يكفي للاحتفاظ بالقوة الإلهية دون أن يلحق به أذى. وكان ملك الغابة في أريشيا يحتفظ بكهنوته وملكيته الشبحية بنفس

الشرط؛ فما دام بوسعه أن يدافع عن نفسه ضد كل من يهاجمه، فقد يظل كاهناً؛ ولكن أي عبد هارب كان له الحق في مهاجمة الملك؛ وإذا تمكن من قتله، فإنه يصبح ملك الغابة حتى يقتله شخص آخر بدوره. وقد ناقش السيد فريزر هذه الحادثة الغريبة بإسهاب وبقدر كبير من المعرفة، وتشكل الموضوع الرئيسي لأطروحته الرائعة.

ولكن في كثير من الأحيان كان الكهنوت الإلهي أو الملك أو الألوهية يُعقدان لمدة عام واحد فقط، وذلك لسبب سوف نفهمه بشكل أكثر اكتمالاً بعد أن ندرس آلهة الزراعة السنوية. والمثال الأكثر إثارة للاهتمام، والأكثر ارتباطًا باستفسارنا الحالي، هو العادة البابلية التي ذكرها بيروسوس. فخلال الأيام الخمسة للمهرجان المسمى "ساكيا"، كان السجين المحكوم عليه بالإعدام يرتدي ثياب الملك، ويجلس على عرش الملك، ويُسمح له بالأكل والشرب وطلب ما يشاء، بل وحتى يُسمح له بالنوم مع محظيات الملك. ولكن في نهاية الأيام الخمسة، جُرِّد من شارته الملكية، وجُلد، وصُلب. ولست بحاجة إلى الإشارة إلى الأهمية الحاسمة لهذه الحالة الفريدة، التي حدثت في بلد داخل الدائرة السامية. ويخلص السيد فريزر بحق إلى أن الرجل المحكوم عليه بالإعدام كان من المفترض أن يموت بدلاً من الملك؛ وكان هو نفسه، في الواقع، بديلاً للملك؛ ولقد كان الملك في ذلك الوقت يتمتع بكامل امتيازات الملك. ولا شك أننا هنا نتعامل مع تعديل لقاعدة أقدم وأكثر صرامة، كانت تجبر الملك نفسه على القتل سنويًا. يقول السيد فريزر: "عندما اقترب موعد إعدام الملك، تنازل عن العرش لبضعة أيام، وخلال هذه الفترة حكم ملك مؤقت وعانى في مكانه. في البداية، ربما كان الملك المؤقت شخصًا بريئًا، وربما كان أحد أفراد أسرة الملك نفسه؛ ولكن مع نمو الحضارة، كان التضحية بشخص بريء أمرًا مثيرًا للاشمئزاز بالنسبة للرأي العام، وبالتالي كان المجرم المحكوم عليه بالموت يُمنح السيادة القصيرة والمميتة... وسوف نجد أمثلة أخرى لمجرم يمثل إلهًا يحتضر. لأنه يجب ألا ننسى أن الملك يُقتل بصفته إلهًا، حيث يُعتبر موته وقيامته، الوسيلة الوحيدة لإدامة الحياة الإلهية دون

إعاقة، ضرورية لخلاص شعبه والعالم". ولست بحاجة إلى الإشارة إلى أهمية مثل هذه الأفكار في المساعدة على تشكيل الأساس للعقائد المسيحية.

ولقد جمع السيد فريزر أدلة أخرى حول هذه النقطة، ذات طبيعة غير مباشرة؛ وسوف يأتي المزيد منها في الفصول التالية. أما الآن فسوف أضيف فقط أن الطابع السنوي لبعض هذه التضحيات يبدو أنه مستمد من تشبيه آلهة الزراعة التي تذبح سنويًا، والتي لم نفحص أصلها ومعناها بعد. فهذه الآلهة، التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمحصول كل عام، وخاصة محاصيل الحبوب والبقول والحبوب السنوية الأخرى، كانت تُقتل بشكل طبيعي في بداية كل عام زراعي، وكقاعدة عامة في فترة الاعتدال الربيعي، على سبيل المثال، في عيد الفصح. وانطلاقًا من هذا التشبيه، كما أعتقد، اعتقدت العديد من الأجناس أنه من المناسب أن يُقتل الشخص الإلهي الآخر، الملك الإله الإنسان، سنويًا أيضًا، وغالبًا في نفس الفترة تقريبًا. بل إنني أجازف حتى بالإشارة إلى إمكانية أن يكون لمؤسسة القناصل والأركونات السنوية، وما إلى ذلك، علاقة بمثل هذه التضحيات السنوية. 244من المؤكد أن أسطورة كودروس في أثينا وريجيفوجيوم في روما تشير إلى عادة قديمة لقتل الملوك.

وعلى أية حال، فمن المؤكد الآن أن قتل رجل إله كان حدثاً شائعاً في العديد من الديانات. ومن الواضح أيضاً أن المسافرين وغيرهم من المراقبين قد ارتكبوا في العديد من الحالات أخطاء جسيمة بسبب عدم فهمهم للطبيعة الداخلية لمثل هذه الممارسات التي تستهدف قتل الآلهة. على سبيل المثال، من المؤكد الآن أن شعب تاهيتي قتل الكابتن كوك لمجرد أنه كان إلهاً، وربما من أجل الحفاظ على روحه بين الناس. ومن الواضح أيضاً أن العديد من الطقوس، التي تُفسَّر عادةً على أنها تضحيات بشرية لإله، هي في الواقع قتل للآلهة؛ وكثيراً ما يبدو الإله في أحد تجسيداته البشرية وكأنه يُقَدَّم لنفسه، في تجسيده الدائم كصنم أو صورة حجرية. إن فكرة التضحية بإله، بنفسه لنفسه، هي فكرة سوف نراها كثيراً في المستقبل؛ ولا أحتاج إلى

الإشارة إلى أنها، باعتبارها "تضحية جماعية"، قد ترسخت حتى في الحرم المركزي للدين المسيحي.

يبدو أن المسيحية نشأت بين مجموعة من بني إسرائيل الشماليين غير النظاميين، الجليليين، الذين انفصلوا عن جماهير إخوانهم في الدين، اليهود، بسبب تدخل مجموعة من الهرطقة والإسرائيليين المشكوك فيهم، السامريين. وعلى هذا فإن المؤمنين الأوائل بالمسيح كانوا في وضع وسط بين اليهود والسوريين. وطبقاً لتقاليدهم الخاصة، فقد وُصِفوا أولاً باسم المسيحيين في أنطاكية؛ ويبدو أنهم اجتذبوا الانتباه أولاً في سوريا عموماً، وفي دمشق على وجه الخصوص، لأسباب عديدة. ومن ثم، يمكننا أن نجزم بأن عقائدهم منذ البداية كانت تحتوي على العديد من العناصر السورية المميزة إلى حد ما، وخاصة تلك العناصر التي شكلت أفكاراً مشتركة بين جميع الشعوب المحيطة تقريباً. والواقع أن المسيحية، كما سنرى فيما بعد، يمكن اعتبارها تاريخياً مزيجاً من أكثر الأفكار الدينية الأساسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وخاصة في شرق البحر الأبيض المتوسط، والتي تم تطعيمها على العبادة اليهودية والكتب المقدسة اليهودية، وتجمعت حول شخصية الإله الإنسان يسوع. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن العبادة الرئيسية في سوريا والمنطقة السامية الشمالية كانت عبادة إله بشري مقتول، أدونيس، . الذي كان في الأصل، كما يوضح السيد فريزر، إلهاً بشرياً يُقتَل سنوياً، ثم يُقتَل بعد ذلك ويُنوح عليه في تمثال، وهو الأسلوب الذي سنرى أمثلة عديدة عليه في الجزء الثاني، والذي لم يكن القداس نفسه سوى بقاء أثيري له. وعلى نحو مماثل في فريجيا، حيث تركت المسيحية انطباعاً كبيراً في وقت مبكر، كان أتيس هو الإله الأكثر عبادة بين الآلهة، والذي كما يشير الأستاذ رامزي، كان يتجسد على الأرجح في العصور الأولى في صورة إله بشري مقتول سنوياً، وكان عبادته تُمارس دائماً عن طريق ملك كاهن إلهي، يحمل اسم أتيس. ورغم أن الكاهن لم يكن يضحي بنفسه في الأيام الأخيرة كل عام، إلا أنه في عيد الإله السنوي، في الاعتدال الربيعي (الذي يوافق عيد الفصح المسيحي)، كان يسحب

الدم من ذراعيه، كبديل بلا شك للممارسة السابقة المتمثلة في ذبح الذات. وأود أن أضيف في هذا الصدد (للتنبؤ مرة أخرى) أنه في كل طقوس ذبح الإله، كانت أهمية هائلة تُعلَّق دائمًا على دم الإله البشري؛ تمامًا كما يظل "دم المسيح" في المسيحية فعالاً للغاية حتى نهاية الخلاص. لقد تم تصور كل من أدونيس وأتيس كشابين في ريعان العمر، مثل الضحايا الذين تم اختيارهم لطقوس ذبح الآلهة الأخرى.

لقد تناولت في هذا الفصل بإيجاز شديد هذه المسألة الشائكة والمثيرة للاهتمام المتعلقة بالآلهة البشرية. وقد خصص السيد فريزر لهذا الموضوع مجلدين كبيرين ومثيرين للاهتمام. ويمتلئ عمله بحقائق لا حصر لها فيما يتصل بمثل هذه الآلهة البشرية ذاتها، وطريقة ذبحهم نيابة عن المجتمع، والاستعاضة عن المجرمين المحكوم عليهم بالعقوبة بالملوك الإلهيين في البلدان الأكثر تحضراً، والتخفيف العرضي حيث يكتفي الملك الإلهي بسفك دمه بدلاً من قتل نفسه، أو حيث يتم صنع تمثال ليحل محل الضحية الفعلية، وما إلى ذلك إلى ما لا نهاية. ولا أستطيع أن أكرر كل هذه الاقتراحات والأفكار القيمة هنا دون أن أقتبس بالكامل العديد من صفحات كتاب الغصن الذهبي، حيث حشد السيد فريزر الأدلة الكاملة حول هذه النقطة بفعالية مدهشة. لذلك سأكتفي بإحالة القراء إلى هذا الكتاب الأكثر علماً وإثارة للاهتمام والممتع في نفس الوقت. ولن أقول في الختام إلا إن ما يهمنا هنا أكثر من أي شيء آخر هو الدليل الوافر والمقنع الذي قدمه السيد فريزر على الدور الكبير الذي لعبته مثل هذه الآلهة البشرية المذبوحة (والبعثة) في ديانة تلك البلدان الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث نشأت المسيحية لأول مرة كمنتج طبيعي من خيال الناس. إن موت وبعث الإله المتجسد في صورة بشر يشكلان في الواقع النغمة الأساسية لأعظم الديانات وأكثرها قدسية في غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا.

الفصل الثاني عشر - صناعة الآلهة.

في الأصل، أعتقد أن كل الآلهة تنمو تلقائيًا، فهي تتطور تدريجيًا من أسلاف أو زعماء أموات ومتألهين. الآلهة المنزلية هي موتى العائلة، والآلهة الأكبر هم زعماء الدولة أو المدينة أو القرية الموتى. ولكن على هذا المحصول المبكر والعفوي من الآلهة ينشأ لاحقًا محصول اصطناعي، مصنوع عمدًا. وأهمية هذه الفئة الاصطناعية اللاحقة عظيمة للغاية، وخاصة فيما يتعلق بآلهة الزراعة، وعادة أكل جسد الإله كالذرة وشرب دمه كالنبيذ، حتى أصبح من الضروري لنا هنا أن نفحص طبيعتهم بالترتيب المناسب. وسوف نجد أن بعض المعرفة بها ضرورية أولًا لفهم النظام المسيحي.

لقد رأينا أن الاعتقاد بوجود عالم آخر في غرب أفريقيا أمر واقعي ومادي إلى الحد الذي يجعل الزعيم الذي يرغب في التواصل مع والده المتوفى يقتل عبداً كرسول، بعد أن يفرض عليه أولاً طبيعة الرسالة التي سينقلها. ويقول السيد دوف ماكدونالد إنه إذا نسي أي شيء، فإنه يقتل عبداً ثانياً ويرسله بعده "كملحق". لقد رغب أحد أفراد قبيلة الخوند في الانتقام من عدو؛ لذا فقد قطع رأس والدته، التي اقترحت عليه هذا الترتيب المنزلي بمرح، حتى يطارد شبحها الجاني ويرعبه. إن هذا الوفرة من الإيمان بحقيقة العالم الآخر وقربه تجعل المرافقين والزوجات وحتى أصدقاء الرجل الميت، في العديد من البلدان، يتطوعون لقتل أنفسهم في جنازته، حتى يتمكنوا من مرافقة سيدهم إلى العوالم السفلية. وتتحد كل هذه الأمثلة لتظهر لنا شيئين: أولاً، أن الحياة الأخرى حقيقية وقريبة جدًا من الأشخاص الذين يتصرفون على هذا النحو؛ وثانياً، أنه لا يوجد عادة أي إحجام كبير عن الهجرة من هذه الحياة إلى الحياة الآخرة، إذا كانت المناسبة تتطلب ذلك.

إذا ما بدأنا بمثل هذه الأفكار، فلا نستغرب أن يعمد العديد من الأجناس إلى جعل أنفسهم آلهة عن عمد من خلال قتل رجل، وخاصة رجل من دم إلهي أو ملكي، يجسد إلهاً، حتى تتمكن روحه من أداء وظيفة إلهية معينة. ولا نستغرب أيضاً أن يستسلم

الضحية الذي يتم اختياره لمثل هذا الغرض طواعية للموت، الذي يسبقه في كثير من الأحيان تعذيب عنيف، حتى يصل في النهاية إلى مكانة الثقة والأهمية باعتباره إلهاً وصياً. وما علينا إلا أن نتذكر السهولة التي يواجه بها المتعصبون المسلمون الموت، على أمل التمتع بملذات الجنة، أو الحماسة التي اعتاد المؤمنون المسيحيون بها على اعتناق تاج الشهادة، من أجل إقناع أنفسنا بحقيقة وعمق مثل هذه المشاعر. وكلما عدنا إلى الوراء في الزمن أو الثقافة، كلما ازدادت قوة المشاعر المعنية؛ فالمفكر المتحضر المتشكك وحده هو الذي يتردد في استبدال وسائل الراحة الصلبة في هذا العالم بالملذات الغامضة وغير المؤكدة في العالم الآخر.

لقد تم الاعتراف بوجود مثل هذه الآلهة المصطنعة منذ فترة طويلة إلى حد ما، وقد لفت السيد بارينغ جولد والسيد جيه جي فريزر الانتباه إلى فئة أو أخرى منها؛ ولكنني أعتقد أن العمل الحالي سيكون الأول الذي يتم فيه الإشارة إلى أهميتها العميقة ومكانتها في نشأة الديانات العليا بشكل كامل وبتفصيل منهجي.

إن أشهر الأمثلة على هذا النوع من التضحية بالآلهة هي تلك التي تشير إلى تأسيس المدن وأسوارها والمنازل. وفي مثل هذه الحالات، كثيراً ما يتم التضحية بضحية بشرية حتى يمكن استخدام دمها كإسمنت، 249وتُبنى روحها في أحجار البناء ذاتها. وبعد ذلك يصبح الضحية الإله الوصي أو "الثروة" للمنزل أو المدينة. وفي كثير من الحالات، يقدم الضحية نفسه طواعية لهذا الغرض؛ وكثيراً ما يكون من أصل ملكي أو إلهي. وكما تكون الشاة صامتة أمام جازيها، فهي لا تفتح فمها. وفي بولينيزيا، حيث نقف عادةً أقرب إلى جوهر الدين، سمع إليس أن العمود المركزي للمعبد في مايفا قد غرس فوق جسد ضحية بشرية. ومن بين الدياك في بورنيو، سُحقت خادمة حتى الموت تحت العمود الأول من أحد المنازل. في أكتوبر/تشرين الأول 1881، أعدم ملك آشانتي خمسين فتاة حتى يختلط دمهن بالطين المستخدم في إصلاح المباني الملكية. وحتى في اليابان، منذ قرنين من الزمان، عندما كان من المقرر بناء سور

عظيم، كان "أحد العبيد البائسين يقدم نفسه كأساس". لاحظ في هذه الحالة الحقيقة المهمة المتمثلة في أن التضحية كانت طوعية بحتة. صحيح أن السيد تايلور يعامل معظم هذه الحالات كما لو كان المقصود من الضحية استرضاء شياطين الأرض، وهو التفسير الطبيعي للمدرسة المفكرين الأكبر سناً لإقامة مثل هذه المراسم؛ ولكن أولئك الذين قرأوا السيد فريزر والسيد بارينج جولد سيعرفون أن القربان هو في الحقيقة جزء من صنع الإله المتعمد. والواقع أن العديد من الشهود الأصليين أفادوا بشكل صحيح بهذه النية من جانب الجناة؛ وهكذا أخبر أحد شهود العيان ميسون أنه عند بناء مدينة تافوي الجديدة في تيناسيريم "كان يتم وضع مجرم في كل حفرة من حفر الأعمدة ليصبح شيطانًا حاميًا" أو بالأحرى إلهًا. وعلى هذا ففي سيام، عندما كانت بوابة المدينة الجديدة قيد الإنشاء، يقول السيد سبث، ألقى الضباط القبض على أول أربعة أو ثمانية أشخاص يمرون، ودفنوهم تحتها "كملائكة حارسين". وفي رومانيا، يُعرَّف الستاهيك بأنه "شبح شخص تم حبسه في جدران المبنى لجعله أكثر صلابة". ولا شك أن البانشي الأيرلندية من أصل مماثل.

وهناك أمثلة أخرى غريبة وردت من أفريقيا. ففي مدينة غالام كان الناس يدفنون 250 صبياً وفتاة أحياء أمام البوابة الكبرى للمدينة، لجعلها منيعة؛ وأستنتج هنا أن التضحية كانت تتجدد من وقت إلى آخر، كما سنرى في حالات أخرى كثيرة. وفي مدينة باسام الكبرى وياريبا، كانت التضحيات المماثلة تُقدم عادة عند تأسيس منزل أو قرية. ومن الواضح أن الفكرة في هذه الحالات كانت تزويد الموقع بإله وصائي، إله يرتبط وجوده بالمكان الذي كُرِّس له. ومن ذلك الوقت فصاعداً أصبح هو والمدينة واحداً؛ فهو روحها، وكانت المدينة جسده. ويقال إن الضحايا من البشر كانوا يدفنون "لمراقبة الأرواح" تحت بوابات مانديلاي. وعلى نحو مماثل، ووفقاً للأسطورة، فقد غرقت هنا ملكة، كانت مرشدة آمنة إلى حد ما، في خزان بورمي، لجعل السد آمناً؛ في حين أن اختيار ضحية ملكية لمثل هذا الغرض يُظهِر بوضوح رغبة في وجود دم إلهي في جسد الإله المستقبلي. عندما كان راجا سالا باين يبني حصن سيالكوت في

البنجاب، كانت الأساسات تنهار في كثير من الأحيان حتى أنه استشار أحد العرافين. نصحه العراف بسفك دم الابن الوحيد على الفور؛ ونتيجة لذلك قُتل الابن الوحيد لأرملة هناك. وأود أن أضيف أن دم "الابن الوحيد" كان يُعتَقَد دائمًا أنه يمتلك فعالية خاصة.

وفي أوروبا ذاتها، لا نملك سوى القليل من الآثار الباقية من آلهة الأساس، أو أرواح المدن، وأسوار المدن، والمنازل. ويقال إن أهل بيتيس كانوا يغسلون أحجار الأساس بدماء البشر، وخاصة في بناء حصونهم وقلاعهم. ولم يتردد القديس كولومبا نفسه، رغم أنه مسيحي اسمياً، في تأمين سلامة ديره. فقد قال كولومبكايل لشعبه: "من الأفضل لنا أن تمتد جذورنا إلى هذه الأرض". وقال لهم: "يُسمح لكم أن يذهب أحدكم تحت الأرض لتكريسها". وتطوع القديس أوران بقبول المهمة، وتم تكريمه منذ ذلك الحين باعتباره القديس الراعي للدير. وهنا مرة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن القربان كان طوعياً. وفي عام 1463، عندما كان لابد من إصلاح سد نوجات المكسور، قيل إن الفلاحين، بعد أن نُصحوا بإلقاء رجل حي، جعلوا متسولاً يسكر (وهو في هذه الحالة كان ليصبح "مليئاً بالإله") واستخدموه لهذا الغرض. وفي عام 1885، أثناء ترميم كنيسة هولسوورث في ديفون، عُثر على هيكل عظمي مغطى بكمية كبيرة من الملاط على فمه مدفوناً في زاوية من المبنى. ولجعل قلعة ليبنشتاين قوية ومنيعة، تم شراء طفل بأموال والدته، وتم حصره في جدار المبنى. ومرة أخرى، عندما تم بناء كنيسة بليكس في أولدنبورج، عبرت سلطات القرية نهر فيزر، "واشترت طفلاً من أم فقيرة في بريميرليكه، وبنته حياً في الأساسات". وسنرى فيما بعد أن عبارة "أن يتم إحضاره بثمن" هي شكل مختلف، كما كانت الحال، من التبرع الطوعي؛ إن هذه الحقيقة بالذات غالباً ما يتم التأكيد عليها بشدة عندما يتم تقديم الضحية، والتي يُعتقد أنها تُبرئ مرتكبي جريمة قتل الإله. لذا، سنرى في الجزء الثاني، أن الضحية الحيوانية الإلهية، والتي هي الإله الذي يُقدم لنفسه، تجسيده الحيواني لصورته أو مذبحه، يجب أن توافق دائمًا على تضحيتها؛ إذا رفضت أو أظهرت أدنى قدر من عدم

الرغبة، فهي ليست ضحية جيدة. تقول الأسطورة أن الطفل في حالة قربان ليبنشتاين قد تم إغراؤه بكعكة، ربما لجعله طرفًا موافقًا، وتم دفنه ببطء في الجدار أمام أعين الأم. كل هذه التفاصيل مليئة بالدروس والأهمية العرضية. وفقًا للسيد سبث، وجد بعض العمال المسيحيين، الذين يعملون في منزل محصن في دوجا، بالقرب من سكوتاري، طفلين مسيحيين صغيرين في أيدي محمدان أرناوتس، الذين كانوا يحاولون دفنهما أحياء تحت المنزل المحصن.

ولكننا كثيراً ما نقرأ مثل هذه القصص الأسطورية عن أسوار المدينة. وهكذا انهار جدار كوبنهاجن بنفس السرعة التي بُني بها؛ فأخذوا فتاة صغيرة بريئة، ووضعوها على مائدة عليها ألعاب وأطعمة. ثم بينما كانت تلعب وتأكل، أغلق اثنا عشر من البنائين المهرة قبواً فوقها. ومع موسيقى صاخبة لإسكات صراخ الطفلة، ارتفع الجدار، وظل ثابتاً إلى الأبد. وفي إيطاليا، انهار جسر أرتا مرة أخرى، مراراً وتكراراً، حتى حوصرت زوجة البنّاء المهرة؛ والنقطة الأخيرة هي تفصيلة مهمة، سيتضح معناها بشكل أكثر وضوحاً في الجزء التالي. وفي سكوتاري في صربيا، لم يكن من الممكن بناء القلعة بشكل مرضٍ إلا بعد أن حوصرت ضحية بشرية داخلها؛ لذا قرر الإخوة الثلاثة الذين عملوا على بناء القلعة أن يقدموا أولى زوجاتهم اللاتي أتوا إلى المكان لإحضار الطعام لهم. (قارن حالة ابنة يفتاح، حيث كان أول كائن حي التقى بالصدفة هو التضحية به ليهوه). وبالمثل، في الأسطورة الويلزية، لم يتمكن فورتيجرن من إنهاء برجه حتى تم ترطيب حجر الأساس "بدم طفل ولد من أم بلا أب" - هذه الحلقة من الطفل المولود من عذراء هي عنصر مشترك في جيل الآلهة البشر، كما أثبت لنا السيد سيدني هارتلاند بكل وضوح.

في إحدى الحالات المذكورة أعلاه، رأينا تخفيفًا للعرف البدائي، حيث تم استبدال مجرم بشخص من الدم الملكي أو الأصل الإلهي - وهو شكل من أشكال الاستبدال الذي قدم السيد فريزر أمثلة وفيرة عليه في مناسبات أخرى. هناك أيضًا تخفيفات أخرى

تتمثل في إدخال شخص ارتكب تدنيسًا أو نذرًا دينيًا للعفة في مكانه. في متحف الجزائر يوجد قالب جبس من القالب الذي تركه جسد جيرونيمو ، وهو مسيحي مغربي (وبالتالي رافض للإسلام)، تم بناؤه في كتلة من الخرسانة في زاوية الحصن في القرن السادس عشر. كانت الراهبات الخائنات محصورات في أوروبا أثناء العصور الوسطى؛ وقد أثار بيان السيد رايدر هاجارد أنه رأى في المتحف في المكسيك أجسادًا محصورة بشكل مماثل من قبل محاكم التفتيش الكثير من الغضب والإنكار الكاثوليكي لدرجة أنه لا يمكن للمرء أن يتردد في قبول دقته الكبيرة. ولكن في حالات أخرى، ذهب الاستبدال إلى أبعد من ذلك؛ إننا لا نجد في التضحية بالبشر ضحايا من البشر، بل ضحايا من الحيوانات. فقد رأى القديس يوحنا دجاجة تُذبح من أجل خادمة في مبنى بين قبائل الدياك في بورنيو. وفي الدنمرك كان الناس يدفنون خروفاً تحت مذبح كنيسة ما، حتى يظل ثابتاً على قيد الحياة؛ أو كانوا يدفنون باحة الكنيسة بدفن حصان حي أولاً، وهو ما يشبه بوضوح حالة القديس أوران. وعندما هدمت كنيسة الرعية في تشوملي في ديفونشاير قبل بضع سنوات، عثر في جدار يعود إلى القرن الخامس عشر على تمثال منحوت للمسيح مصلوباً على كرمة . وهو شكل من أشكال الاستبدال الذي سوف نجد له عدة معادلات لاحقاً. ويقول الدكتور تايلور، الذي أدين له بالعديد من هذه الأمثلة، إن بقايا هذه الفكرة لا تزال باقية في اليونان الحديثة، حيث يعتقد الناس أن أول من يمر بعد وضع حجر الأساس سوف يموت في غضون عام؛ لذا فإن البنائين يتوصلون إلى تسوية للمسألة بقتل ديك أو خروف أسود على حجر الأساس. ويصبح هذا الحيوان هو روح المبنى.

وسوف نرى ما يدعونا إلى الشك، بينما نواصل حديثنا، في أن كل ضحية مذبوحة في كل طقس كانت في البداية كائنًا إلهيًا بشريًا؛ وأن الضحايا من الحيوانات هي دائمًا بدائل، وإن كان من المفترض أن تكون إلهية بنفس القدر مع الإله البشري الذي تجسده. وسأطلب من القارئ أن ينتبه إلى مثل هذه الحالات أثناء تقدمنا، وأن يلاحظ

أيضًا، حتى عندما لا ألفت انتباهي إليها، وجهة الرأس الوحي، والمصاحبة المتكررة لـ "الموسيقى الصاخبة".

وفي أماكن أخرى نجد عادات أخرى تساعدنا على تفسير هذه البقايا الغريبة. فكثيراً ما يتم تعريف الظل بالروح؛ وفي رومانيا، عندما يتم تشييد مبنى جديد، يحاول البنائون الإمساك بظل شخص غريب يمر، ثم يضعون حجر الأساس عليه. أو يتم إغراء الغريب بالتسلل إلى الحجر، عندما يقيس البنّاء سراً جسده أو ظله، ويدفن القياس الذي تم أخذه تحت الأساس. وهنا نجد بقايا لفكرة مفادها أن الضحية يجب أن لا يكون على الأقل غير راغب. ويعتقد أن الشخص الذي يتم قياسه بهذه الطريقة سوف يذبل ويموت في غضون أربعين يومًا؛ ويمكننا أن نكون على يقين من أن الاعتقاد في الأصل كان يسود بأن روحه أصبحت الإله أو الروح الحارسة للمبنى. 254إذا لم يتمكن البلغاريون من الحصول على ظل بشري ليضعوه في الجدار، فإنهم يكتفون بظل أول حيوان يمر. وهنا نجد مرة أخرى ذلك الشكل من أشكال الصدفة الإلهية في الإشارة إلى الضحية كما رأينا في حالة ابنة يفتاح. إن هناك بدائل أكثر اعتدالاً في التابوت الفارغ الذي يحيط بجدار كنيسة في ألمانيا، أو الصور الفظة للأطفال الرضع في قماطات والتي تزين جدران الكنيسة في هولندا. أما آخر أثر لهذه العادة فقد وجدناه في إنجلترا في الممارسة الحديثة المتمثلة في وضع العملات المعدنية والصحف تحت حجر الأساس. وهنا يبدو الأمر وكأن الضحية كان يُنظَر إليه باعتباره قرباناً للأرض (وهي فكرة متأخرة ومشتقة)، وكانت العملات المعدنية بمثابة دفعة نقدية بدلاً من القربان البشري أو الحيواني. إنني مدين بالعديد من الحالات التي ذكرتها هنا للبحث الدقيق الذي أجراه صديقي السيد كلود. ولكن منذ كتابة هذا الفصل، حلت محل جميع الرسائل الأخرى حول هذا الموضوع كتيب السيد سبث الشامل والعلمي عن "طقوس واحتفالات البناء"، وهو بضعة أمثلة أدرجتها في حجتي.

إننا لابد وأن نتناول بإيجاز بعض الدلالات الأخرى. فالشبح أو الإله الأفضل لهذا الغرض يبدو أنه شخص إلهي أو ملكي؛ وفي المراحل التي لا يزال معنى الممارسة فيها واضحاً تماماً للبنائين، كثيراً ما يتم اختيار الابن أو الزوجة المحبوبين للملك لشرف الوصاية. وفي وقت لاحق، تنتقل هذه الفكرة إلى التضحية بطفل أو زوجة المعلم البنّاء؛ وتحتوي العديد من الأساطير أو التقاليد على هذا العنصر الأحدث. ولكن في حالة فورتيجرن، فإن الطفل هو بوضوح كائن إلهي، كما سنرى بعد قليل في بعض الأمثلة السامية. وأخيراً، فإن ارتباط الأطفال بمثل هذه التضحيات هو الأكثر وضوحاً؛ فعندما تسبب الجليد على نهر إلبه في انهيار أحد السدود في عام 1813، سخر أحد الفلاحين العجائز من جهود مهندس الحكومة، قائلاً له: "لن تتمكن أبداً من تثبيت السد ما لم تغرق أولاً طفلاً بريئاً تحت الأساسات". وهنا يكشف لنا وصف "البريء" في حد ذاته عن صدى أخير للألوهية. وعلى نحو مماثل، في عام 1843، عندما كان من المقرر بناء جسر جديد في هاله بألمانيا، أخبر الناس المهندسين المعماريين أن الرصيف لن يصمد إلا إذا دفن طفل حي تحت الأساسات. ويقول شرادر إنه عندما بدأ بناء جسر السكة الحديدية العظيم فوق نهر الجانج، ارتجفت كل أم في البنغال على طفلها. وأرسل زعماء السلاف الذين أسسوا ديتينيز رجالاً للقبض على أول صبي يقابلونه ودفنه في الأساس. وهنا مرة أخرى نجد ضحية الفرصة المقدسة. وباختصار أود أن أقول إن هناك تفضيلاً في كل هذه الحالات للأطفال، وخاصة الفتيات؛ من أصل ملكي، إذا أمكن، ولكن على الأقل من أقارب صاحب البناء.

يشير السيد سبث إلى أن رؤوس الخيول كانت تُثبَّت في كثير من الأحيان على الكنائس أو غيرها من المباني، ويشير إلى أنها تنتمي إلى ضحايا من الحيوانات. وهذا الاستخدام للجمجمة يتفق تمامًا مع الغرض المعتاد منها.

إن بعض الحكايات التاريخية أو الأسطورية البارزة عن آلهة المدن والقرى، والتي تم تصنيعها عمداً، يمكن أن نأخذها في الاعتبار الآن. نقرأ في سفر الملوك الأول أنه عندما

بنى حيئيل البيتيلي أريحا، "وضع أساسها في أبيرام ابنه البكر، ونصب أبوابها في سجوب الأصغر". وهنا نرى بوضوح بنّاءً أميرياً ماهراً يضحي بابنيه كإلهين حارسين لمدينته الجديدة. وتوجد آثار وفيرة لمثل هذا الإنتاج المتعمد لثروة من أجل المدينة. ومن المحتمل أيضاً أن التضحية الأصلية كانت تتكرر سنوياً، وكأنها للحفاظ على التدفق المستمر للحياة الإلهية، على غرار أسلوب الآلهة البشرية الذي كان علينا أن نفكر فيه في الفصل السابق. ويبدو أن ديدو كانت إلهة الثروة أو الأساس لقرطاج؛ وهي ممثلة في الأسطورة باعتبارها الملكة المؤسسة، ويقال إنها قفزت إلى محرقة إلهية من جدران قصرها. ولكن يبدو أن التضحية البشرية السنوية كانت تُقدم في نفس المكان؛ "فمن المؤكد أن المكان الذي ذكرت فيه الأسطورة أن ديدو ضحت بنفسها لزوجها سيكارباس كان هو المكان الذي كانت تُقدم فيه القرابين البشرية في وقت لاحق في قرطاج". وفي لاودكية، كانت تُقدم مرة أخرى قرابين سنوية بغزال بدلاً من عذراء؛ وقد قيل لنا صراحة إن هذه القرابين كانت تُقدم لإلهة المدينة. وتقول الأسطورة إن الإلهة كانت عذراء، وقد ضحيت بها على نحو مماثل لتكريس أساس المدينة، ومنذ ذلك الحين كانت تُعبد باعتبارها ثروتها، مثل ديدو في قرطاج؛ ويقول البروفيسور روبرتسون سميث: "لذلك كان موت الإلهة نفسها هو الذي يتجدد سنويًا في الطقوس الدينية". (لا أعترف بعدالة لقب "العذراء"). مرة أخرى، يخبرنا مالالاس أن الثاني والعشرين من شهر مايو كان يُحتَفَل به في أنطاكية باعتباره ذكرى تضحية العذراء عند تأسيس المدينة، وكان الناس يعبدونها بعد ذلك باعتبارها حظ المدينة. وفي دورنا في شبه الجزيرة العربية، كان الناس يدفنون ضحية سنوية تحت الحجر الذي كان يشكل المذبح.

في أغلب الأساطير، كما وصلت إلينا من العصور القديمة المتحضرة والمتعلمة، فإن الطبيعة الحقيقية لطقوس التأسيس الدموية هذه مغطاة ومموهة بتخمينات عقلانية لاحقة، وأود أن أذكر أن الدكتور روبرتسون سميث على وجه الخصوص يتعامل عادة مع التخمينات العقلانية باعتبارها بدائية، ويعامل التقليد القديم

الحقيقي للعذراء المذبوحة باعتبارها أسطورة تفسيرية لـ "السوريين اليوهيمريستيين اللاحقين". ولكن بعد الأمثلة التي رأيناها بالفعل عن آلهة التأسيس، أعتقد أنه لا يمكنني الشك في أن هذا عكس الترتيب الحقيقي؛ أن فتاة كانت تُضحى بها حقًا لإله وصائي عند تأسيس مدينة، وأن استبدال ضحية حيوانية عند التجديد السنوي كان تحسينًا لاحقًا. يستشهد السيد سبث بمثال على ذلك من تقليد شعبي مفاده أن فتاة صغيرة تم بناؤها في قلعة نيدر ماندرشيد؛ وعندما تم فتح الجدار في عام 1844، وجد العمال اليوهيمريستيون تجويفًا يحيط بهيكل عظمي بشري. إنني أزعم مرة أخرى أن رومولوس في الأسطورة الأصلية لتأسيس روما كان يصور أخاه ريموس باعتباره ثروة أو إله المدينة، وأننا لابد وأن نستعين بعبارات مثل "توربا ريمي" في وصف الشعب الروماني. إن كلمة "فوروم" في معناها البدائي تعني المساحة الفارغة التي تُترَك أمام قبر. "لان" أو "تيمينوس". ومن هنا فإنني أزعم أن المنتدى الروماني وغيره من المنتديات اللاتينية كانت في واقع الأمر أسواراً لمقابر ضحايا التأسيس الأصليين. * وعلى نحو مماثل فإن المساحات الخضراء في القرية الإنجليزية و"ملعب اللعب" ربما كانت المساحة المخصصة لإله القبيلة أو القرية. إله الإنسان القتيل؛ وعادة ما ترتبط هذه المساحات بالحجر المقدس والشجرة المقدسة. وأنا أثق في أن هذه النقطة سوف تتضح أكثر مع تقدمنا في هذا البحث، وتطويرنا لنظرية إله أو إلهة التأسيس، والحجر المقدس المرتبط به والشجرة أو الجذع التذكاري.

* في حالة روما، فإن المنتدى يمثل القبر
من إله الأساس اللاحق للمركب اللاتيني وسابين
مدينة.

"فإذا كنت على حق، فإن الطقوس البدائية الكاملة لتأسيس قرية تتألف من قتل ضحية بشرية أو دفنها حية أو بناء جدار في الجدار، كإله للمدينة أو القرية، ورفع حجر

وغرس شجرة بالقرب منه لإحياء ذكراه. وبعد ذلك، كانت طقوس القرية تُقام عند هذين النصبين التذكاريين. وهكذا نجد الحجر والشجرة في اقترانهما المعتاد؛ وكلاهما موجود في القرية الهندية حتى يومنا هذا، كما هو الحال في الغابات السيبيرية أو الغابات السلافية. وهكذا، في روما، ليس لدينا فقط أسطورة وفاة ريموس، أمير الدم الملكي من ألبا لونجا، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا ببناء جدار روما كوادراتا، ولكن لدينا أيضًا شجرة التين المقدسة لرومولوس في المنتدى، والتي كانت تُعتبر تجسيدًا للحياة الحضرية لروما الموحدة، بحيث عندما تظهر عليها علامات الذبول، ينتشر الذعر في جميع أنحاء المدينة؛ ولكننا نجد في المقابل الحجر المقدس أو البالاديوم، الذي تحرسه العذارى المقدسات فيستال اللاتي كن يحرسن موقد المدينة، والذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بثروة روما الثانوية التي كان مقرها في المنتدى. أليست هذه الثلاثة هي الشكل الثلاثي لإله الأساس لروما الموحدة في الكابيتول والبلاتين؟ وهل يمكن أن يكون القرن المقدس على البالاتين أيضًا شجرة الأساس المقدسة لروما القديمة أودراتا والتي ترتبط بشكل خاص باسم رومولوس؟ يخبرنا بلوتارخ عن هذه الشجرة أنه عندما بدا لأحد المارة أنها منحنية، أثار ضجة وصراخًا، وسرعان ما استجاب الناس من جميع الجهات للأمر وهرعوا إليها بدلاء من الماء لصبها عليها، وكأنهم يسارعون لإطفاء حريق. من الواضح أننا هنا مرة أخرى نتعامل مع ثروة مجسدة.

إننا لا نحصل في كثير من الأحيان على هذه الثروات الثلاثة مجتمعة. الضحية البشرية، والحجر، والشجرة، مع القربان السنوي الذي يجدد قدسيتها. ولكننا نجد آثاراً لواحد أو آخر من هذه الثلاثية في كثير من الأحيان، حتى أننا نبرر، في اعتقادي، ربطها معاً كأجزاء من كل واحد، حيث يبقى عنصر هنا، وعنصر آخر هناك. يقول السيد جوم: "من بين جميع المجتمعات البدائية، عندما تأسست قرية لأول مرة، كان يتم وضع حجر. ولهذا الحجر، كان رئيس القرية يقدم قرباناً مرة واحدة في السنة". وحتى يومنا هذا، تحتفظ لندن بإله تأسيسها في شكل حجر لندن، الذي يحيط به الآن سياج أو

شبكة حديدية مقابل محطة كانون ستريت مباشرة. والآن، كان حجر لندن يعتبر على مر العصور ممثلاً وتجسيداً للمجتمع بأكمله. وكانت الإعلانات وغيرها من الأعمال الحكومية المهمة تُعلَن من أعلى الحجر؛ ولقد تم استدعاء المتهم في المحاكمات في محكمة اللورد عمدة المدينة للحضور من حجر لندن، وكأن الحجر نفسه كان يتحدث إلى الجاني بصوت موحد للمواطنين المجتمعين. وكان أول عمدة مدينة هو هنري دي لوندونستون، ولا شك أنه كما يشير السيد لوفتي، كان الحارس الوراثي لهذا التمثال الحضري، أو باختصار، ممثل رئيس القرية. لقد كتبت بإسهاب أكبر عن الآثار المترتبة على هذه الآثار المثيرة للاهتمام في مقال عن حجر لندن في مجلة لونجمان، والذي أود أن أحيل القارئ إليه لمزيد من المعلومات. 259 لن أضيف هنا سوى الحادثة الغريبة لجاك كيد، الذي عندما شق طريقه إلى المدينة، تحت اسمه المستعار مورتيمر، في عام 1450، توجه أولاً إلى هذه الآثار المقدسة، تجسيد البالاديوم في لندن القديمة، وبعد أن ضربها بسيفه صاح، "الآن أصبح مورتيمر سيد هذه المدينة".

يوجد حجر مقدس مماثل حتى يومنا هذا في بوفي تريسي في ديفون، ويخبرنا أورميرود أن عمدة بوفي كان يركب حوله في اليوم الأول من توليه منصبه، ويضربه بعصا، وهو ما يفسر بشكل أكبر تصرف جاك كيد. ووفقًا لصحيفة توتنس تايمز الصادرة في 13 مايو 1882، أُجبر شباب البلدة في نفس اليوم على تقبيل الحجر السحري وتعهد الولاء لدعم الحقوق والامتيازات القديمة لبوفي. (أدين بهذه التفاصيل إلى مجتمع قرية السيد لورانس جوم). لا أعتقد أنه يمكننا فصل الأحجار المقدسة الأخرى في بريطانيا عن هاتين الحالتين، مثل حجر الملك في كينغستون في ساري، حيث توج العديد من ملوك غرب ساكسون؛ ولا حجر سكون في كرسي التتويج في دير وستمنستر؛ ولا حجر كلاكمانان، ولا الأحجار المقدسة التي سبق ذكرها في فصل سابق والتي نجح فيها رؤساء العشائر أو الطوائف الأيرلندية في خلافة زعامة أسرهم. ربما كانت هذه الآثار جزءًا من الآثار التي تعود إلى الأجداد أو القبور: ولكن من

المحتمل أنها شاركت أيضًا في جزء من هذه القداسة المصطنعة والمصطنعة. ومن المؤكد أنه في بعض الحالات تم تجديد هذه القداسة من خلال التضحية بالحيوانات.

"وإلى جانب هذه الأمثلة الواضحة إلى حد ما، أود أن أربط بين بعض التصريحات الأخرى التي يبدو لي أنها قد أسيء تفسيرها حتى الآن. فمثلاً عندما حاصرت الجيوش ميشع ملك موآب المدينة، أحرق ابنه كمحرقة على سور المدينة. أليس هذا قرباناً لحماية السور من خلال تصنيع إله إضافي عن عمد؟ إذ يبدو أن المحاصرين شعروا على الفور أنهم تغلبوا عليهم، فرفع الحصار. لاحظ هنا مرة أخرى أن ابن الملك الحبيب هو الذي اختير ليكون الضحية. ومرة أخرى، في أماثوس، قُدِّمت تضحيات بشرية لجوبيتر هوسبيس "أمام الأبواب"؛ وهذا جوبيتر هوسبيس، كما يسميه أوفيد، هو هرقل أو ماليكا الأماثوسي، الذي حفظ لنا هسيخيوس اسمه، والذي يحدده على الفور باعتباره إلهاً محلياً مشابهاً لملكارث الصوري. أليس هذا أيضاً هو حظ المدينة؟ وفي صور ذاتها، عُرِض قبر هرقل ملكارت، حيث قيل إنه أُحرِق. ذلك أن حرق جثث الآلهة كان أمراً طبيعياً بين الشعوب التي تحرق الجثث، وليس ذبحها، في كل عام. وفي طرسوس، كان هناك احتفال سنوي، حيث كان يتم نصب محرقة جميلة للغاية، وحرق تمثال هرقل أو بعل المحلي عليها. ولا شك أننا لا نستطيع أن نشك في أن هذا كان تخفيفاً لمحرقة بشرية سابقة. والواقع أن الدكتور روبرتسون سميث يقول عن هذه الحادثة: "لا بد أن هذا الاحتفال السنوي بموت الإله في النار له أصله في طقوس أقدم، حيث لم تكن الضحية مجرد تمثال، بل كانت تضحية إلهية بشرية، أي رجل حقيقي أو حيوان مقدس، كانت حياته، وفقاً للمفهوم القديم المألوف لنا الآن، تجسيداً للحياة الإلهية البشرية". وهذا قريب جداً من وجهة نظري في هذا الموضوع.

ومن هذه الأمثلة نستطيع أن ننتقل، على ما أعتقد، إلى مجموعة أكثر غرابة، ويبدو لي أن المفسرين اللاحقين قد أخطأوا في فهمها بشكل أكثر خطورة. وأعني بذلك حالة أطفال الملوك أو الأسر الحاكمة، الذين يُقَدَّمون في أوقات الحرب أو الخطر كآلهة

إضافية أو مساعدة. وعلى هذا النحو يقول فيلون الجبيلي: "كانت العادة القديمة في أوقات الأزمات الخطيرة أن يقدم حاكم مدينة أو أمة ابنه الحبيب ليموت من أجل الشعب كله، كفدية تُقَدَّم للشياطين المنتقمة؛ وكان الأطفال الذين يُقَدَّمون بهذه الطريقة يُقتَلون وفقًا لطقوس صوفية. وعلى هذا فإن كرونوس، الذي يسميه الفينيقيون إسرائيل، وكان ملكًا للبلاد، وكان له ابن وحيد يُدعى جود (لأن جود تعني في اللغة الفينيقية الابن الوحيد)، ألبسه ثيابًا ملكية وقدمه ذبيحة على مذبح في أوقات الحرب، عندما كانت البلاد في خطر عظيم من العدو". لا أظن أن فيلو كان محقاً في تفسيره أو تخمينه بشأن "الشياطين المنتقمة"، ولكن قصته تشكل دليلاً مثيراً للاهتمام. فهي تساعدنا بشكل مباشر إلى حد ما على ربط التضحيات الشائعة بالأطفال عند الفينيقيين والعبرانيين بهذا التصنيع المتعمد للآلهة الاصطناعية. لا أشك في أن الأطفال كانوا يضحون جزئياً لآلهة عظيمة موجودة مسبقاً ومحددة المعالم؛ ولكنني أعتقد أيضاً أن هذه الممارسة نشأت في البداية باعتبارها تصنيعاً متعمداً للآلهة، واحتفظت حتى النهاية بالعديد من آثار أصلها.

إننا نعلم أن الفينيقيين كانوا في أوقات الكوارث الوطنية يضحون بأعز ما لديهم لبعل. ونعرف من فرفوريوس أن التاريخ الفينيقي مليء بمثل هذه التضحيات. فحين هزم أغاثوكليس القرطاجيين وحاصرهم، نسبوا كوارثهم إلى غضب الإله؛ فبينما اعتادوا في الأزمنة السابقة أن يضحوا بأبنائهم لبعل، فقد اعتادوا في وقت لاحق (كما سنرى فيما بعد) شراء الأطفال وتربيتهم كضحايا. وهكذا تم اختيار مائتي شاب من أرقى العائلات للتضحية بهم؛ وكانوا يرافقون ما لا يقل عن ثلاثمائة آخرين تطوعوا للموت من أجل الوطن. وكانوا يضحون بهم بوضعهم واحداً تلو الآخر على يدي التمثال النحاسي المائلتين، ثم تدحرجوا من هناك إلى حفرة من النار. وعلى نحو مماثل، كان الأطفال في أورشليم، في لحظات الخطر الشديد، يُقَدَّمون ذبيحة لمولك، سواء كان يهوه أو غيره، بوضعهم بين ذراعي التمثال الناريتين في توفته. وأعترف بأننا في هذه الحالات الأخيرة نقترب كثيراً من التضحية البشرية البسيطة؛ ولكننا سنرى، عندما

تتعامل مع آلهة الزراعة، وعقيدة الكفارة، أنه من الصعب رسم خط فاصل بين الاثنين؛ في حين أن حقيقة كون الابن الحبيب أو الوحيد هو الضحية. وخاصة ابن ملك ذي دم إلهي. تربط مثل هذه الحالات بشكل مباشر بالحالات الأكثر وضوحاً لصنع الآلهة المتعمد. ويبدو لي أن بعض هذه التضحيات الطوعية 262 محفورة في الصور الجميلة في الإصحاح الثالث والخمسين من سفر إشعياء. ولكن اللغة هنا شديدة البساطة.

إن فكرة أن التضحيات البشرية السنوية نشأت عن صنع آلهة متعمد من هذا النوع هي استنتاج توصل إليه بالفعل مفكرون أكثر تقليدية. يقول الدكتور روبرتسون سميث: "يبدو أن الرأي الأكثر شيوعًا بين الساميين بشأن التضحيات السنوية هو أنها تخلد ذكرى مأساة إلهية - موت أحد الآلهة أو الإلهات. يمكن تفسير أصل هذه الأساطير بسهولة من طبيعة الطقوس. في الأصل، لم يكن موت الإله سوى موت الضحية الإلهية البشرية؛ ولكن عندما لم يعد من الممكن فهم هذا الأمر، اعتقد الناس أن التضحية السنوية تمثل مأساة تاريخية قُتل فيها الإله". ولكن سنرى فيما يلي أن فكرة التكفير في التضحية فكرة متأخرة ومشتقة إلى حد كبير؛ ويبدو من المرجح أن الضحية كانت في البداية إلهًا بشريًا، ثم حلت محله لاحقًا ضحية حيوانية. في ثارجيليا الأثينية، كان الضحايا بشرًا حتى النهاية، رغم أنه لا شك أنهم كانوا يعتبرون أنهم يحملون خطايا الناس نيابة عنهم. وسوف نصادف في الفصول اللاحقة تدخلات مماثلة لفكرة الكفارة؛ حيث تنتمي هذه الفكرة إلى مرحلة من مراحل الفكر حيث اعتبر الناس أنه من الضروري تفسير العنصر الدموي في الطقوس البدائية من خلال بعض الإشارات الأخلاقية. وهكذا، في مدينتين يونانيتين، كما نتعلم من باوسانياس . في بوتنيا وباتراي . كانت هناك تضحية سنوية كانت في السابق تضحية بضحية بشرية؛ ولكن تم تفسير ذلك فيما بعد على أنه تكفير عن جريمة قديمة كان لابد من تقديم الكفارة عنها من جيل إلى جيل. والواقع أن العصور اللاحقة كانت تنظر كقاعدة

عامة إلى قتل الإله باعتباره جريمة واضحة، وبالتالي اعتبرت ذبح الضحية، الذي حل محل الإله، بمثابة تكفير عن موته، بدلاً من اعتباره إطلاقاً متعمداً لروحه الإلهية.

لقد تحدثت هنا بشكل أساسي عن ذلك الشكل الخاص من أشكال صنع الآلهة الاصطناعية الذي يتعلق بتأسيس المنازل والقرى والمدن والأسوار والحصون، لأن هذا هو الشكل الأكثر شيوعًا والأكثر بروزًا خارج الزراعة، ولأنه مرتبط بشكل خاص بالمؤسسة العالمية لإله القرية أو المدينة. ولكن هناك أنواع أخرى كثيرة؛ ولا بد من تخصيص بضعة أسطر لها الآن.

كان من الشائع عند إنزال السفن أن يتم تزويدها بروح حارسة أو إله بجعلها تتدحرج فوق جسد ضحية بشرية. وكان الفايكنج النرويجيون يلونون بكراتهم بالدم البشري. وهذا يعني أنه عند إنزال السفن الحربية كان يتم ربط الضحايا من البشر بالجذوع المستديرة التي كانت تبحر فوقها السفينة الحربية إلى البحر، بحيث كان يتم رش ساق السفينة بدمائهم المتدفقة. وعلى هذا فإن الضحية كانت تُدمج في ألواح السفينة ذاتها. ووجد الكابتن كوك أن سكان جزر بحر الجنوب كانوا يطلقون على زوارقهم الحربية نفس الاسم. ويقول السيد ويليام سيمبسون إنه في عام 1784، عند إنزال إحدى سفن باي طرابلس، "كان يتم اقتياد عبد أسود إلى الأمام وربطه في مقدمة السفينة لإحداث استقبال سعيد في المحيط". ويستشهد السيد سبث برواية صحفية عن التضحية بشاة عندما تم إنزال أول قارب شراعي في مضيق البوسفور من أجل "القسطنطينية في أوليمبيا". وفي كثير من الحالات الأخرى، يلاحظ أن الضحية، سواء كانت بشرية أو حيوانية، تُذبح عند إنزال السفينة. وتشكل طقوسنا الخاصة بكسر زجاجة من النبيذ فوق مقدمة السفينة آخر بقايا هذه الممارسة الوحشية. وهنا، كما في أي مكان آخر، يقوم النبيذ الأحمر بواجبه تجاه الدماء، وذلك بسبب لونه. ولا أشك في أن صور الآلهة في مقدمة السفينة كانت في الأصل أصناماً قد تسكنها الأرواح المحررة، وأن البحارة كانوا يصلون إليها طلباً للمساعدة في

العواصف أو المخاطر. وكان الإله مرتبطاً بنسيج السفينة ذاته. ولا يزال تمثال رأس السفينة الحديث يمثل هذه الآلهة؛ وتوجد تماثيل رأسية تشبه الأصنام المحلية بشكل أساسي على زوارق الحرب النيوزيلندية والبولينيزية.

على سبيل المثال، غالبًا ما تحمل قوارب الكانو البالغ عددها 264 التي يمتلكها سكان جزر سليمان "رأسًا منحوتًا يمثل النصف العلوي من جسد رجل يحمل بين يديه رأسًا بشريًا". هذا الرأس، المعروف باسم "إله القارب" أو "السحر"، "يمثل الحياة التي أُزهقت عندما استُخدم القارب لأول مرة". يقول الدكتور كودرينجتون إن القارب المهم "يحتاج إلى حياة لافتتاحه".

وهناك مثال آخر غريب نجده في العادات والمعتقدات المتعلقة بآلهة الأنهار. فقد ذكرت أن الأنهار كثيراً ما تكون مقدسة لأنها تنبع بالقرب من قبر أحد الأبطال أو ترتبط به. ولكن كثيراً ما يُمنح لها هذا الإله عمداً، ويتجدد سنوياً بتضحية تصنع إلهاً: كما كان اليهود في عيد الفصح يذبحون سنوياً حيواناً ضحية، ويلطخون عتبات الأبواب بدمائه، كنوع من تجديد التضحية التي تقام في الأساس. وأفضل مثال وجدته لهذه العادة الغريبة هو ما ذكره السيد جوم من ميجور إليس. فعلى طول ضفاف نهر براه في غرب أفريقيا توجد العديد من الآلهة، وكلها تحمل الاسم الشائع براه، وكلها تعتبر أرواح النهر. وفي كل بلدة أو قرية كبيرة على طول النهر، تقام تضحية في يوم ما في منتصف شهر أكتوبر/تشرين الأول. وكانت التضحية المعتادة تتكون من شخصين بالغين، أحدهما ذكر والآخر أنثى. ويؤمن سكان كل قرية بروح منفصلة لبراه، الذي يقيم في جزء من النهر بالقرب من قريتهم. في كل مكان على طول النهر، يقوم كهنة هذه الآلهة بأداء طقوسهم في مجموعات تتألف من ثلاثة، اثنان من الذكور وواحدة من الإناث، وهو ترتيب خاص بآلهة النهر. وهنا، ما لم أكن مخطئًا، لدينا حالة واضحة من صنع الآلهة عمدًا.

إن هذه الحادثة الوحشية، وحوادث أخرى مماثلة، تشير إلى الاستنتاج بأن العديد من آلهة الأنهار من أصل اصطناعي. فقد كانت آلهة الووهاندا في إستونيا تتلقى قرابين من الأطفال الصغار، الذين يمكننا مقارنتهم بالأطفال المحبوسين في المباني أو الذين يتم تقديمهم إلى مولك. كما أن العديد من الأنهار الأخرى تلتقط ضحاياها تلقائيًا سنويًا؛ وهكذا تقول القافية في ديفونشاير:

نهر دارت، نهر دارت،
كل عام تطالب بقلب.

إن نهر سبي يقتل نفساً كل عام، وهذا ما تفعله العديد من الأنهار البريطانية في أماكن أخرى. ولا شك أن الضحية في الأصل كانت تُختار عمداً وتُقتل سنوياً؛ ولكن في وقت لاحق، كنوع من التخفيف من وطأة العادة، يبدو أن النهر نفسه كان يختار روحه بالصدفة الإلهية. وبعبارة أخرى، إذا غرق أحد المارة عن طريق الخطأ، كان يتم قبوله بدلاً من الضحية المتعمدة. ومن هنا يأتي خطر إنقاذ رجل من الغرق؛ فأنت تتدخل في مسار الاختيار الإلهي، وسوف تدفع ثمن ذلك بنفسك من خلال كونك الضحية التالية.

عندما يسقط رجل عن طريق الخطأ في نهر في جزر سليمان وتهاجمه سمكة قرش، لا يُسمح له بالفرار. وإذا نجح في الإفلات من القرش، فإن رفاقه من أفراد القبيلة يرمونه إلى مصيره، معتقدين أنه قد تم اختياره للتضحية به لإله النهر. وبالمثل، يوجد في منطقة لانكشاير ريبل في بريطانيا روح مائية تسمى بيج أو نيل، ممثلة بتمثال حجري مقطوع الرأس الآن، يقف عند النبع حيث ينبع النهر في أراضي وادون. كانت بيج أو نيل هذه في الأصل، وفقًا للتقاليد، فتاة من الحي؛ لكنها ماتت بسبب التعويذات، وهي الآن تطلب كل سبع سنوات أن تُطفئ حياتها في مياه ريبل. وعندما تأتي "ليلة بيج" في نهاية السبعية، ما لم يغرق طائر أو قطة أو كلب في النهر، فمن المؤكد أن يطالب بضحيته البشرية.

من الواضح أن اسم بيج هذا هو تحريف لبعض الكلمات السلتية المحلية القديمة أو ما قبل السلتية للحورية أو روح الماء؛ فهناك بيج آخر في تيز، يُعرف باسم بيج باولر؛ وكان الأطفال يُحذرون من اللعب على ضفاف النهر، خوفًا من أن يسحبهم بيج إلى الماء. ومثل هذه الآثار التي تدل على تضحية الأطفال لها أهمية بالغة.

لا يسعني إلا أن أشير هنا إلى أننا نجد في هذه القصص والممارسات الأصل الأكثر احتمالاً للأسطورة الشائعة التي تفسر وجود آلهة الأنهار أو حوريات الأنهار من خلال حادثة غرق شاب أو فتاة هناك. أريثوزا هي المثال الذي يتبادر إلى ذهن الجميع. ورغم أن هذا قد يبدو وكأنه يوهيمري مبتذل، إلا أنني أعتقد مع ذلك أن مثل هذه الأساطير عن التحول ترجع إلى التصنيع المتعمد لإله الماء عن طريق التضحية به في النهر؛ وأن التجديد السنوي لمثل هذه التضحية كان يرجع جزئيًا إلى الرغبة في الحفاظ على ذكرى الآلهة حية - للتأكد من وجودهم هناك، لجعلهم "طازجين وجديدين"، إذا جاز لي أن أجازف بالقول - وجزئيًا إلى القياس مع تلك الآلهة الاصطناعية المهمة جدًا للزراعة والتي لا يزال علينا أن نفكر في أصلها ومعناها.

وأود أن أضيف أن شيوع وجود أحصنة البحر وأحصنة الأنهار في أساطير العالم يرجع بلا شك إلى الفكرة الطبيعية المتمثلة في "الخيول البيضاء" على الأمواج، ولكن أيضًا إلى التضحية العمدية بالخيول للبحر أو الأنهار، والتي اقترحتها هذه الفكرة، والتي كانت تميل إلى تكثيفها. في رودس، على سبيل المثال، كان يتم إلقاء أربعة خيول سنويًا في البحر؛ ولست بحاجة إلى الإشارة إلى الخيول التقليدية لبوسيدون ونبتون. إن منطقة Ugly Burn في روس شاير هي موطن حصان مائي؛ وفي بقايا المعبد الروماني في ليدني، يظهر الإله نودينز، الذي يمثل نهر سيفرن، في رصف الفسيفساء وهو يجر في عربة تجرها أربعة خيول؛ ولا يزال يور، بالقرب من ميدلهام، موبوءًا بحصان مائي يزعم سنويًا أنه يقتل ضحية بشرية واحدة على الأقل. وفي أماكن أخرى،

تحل حيوانات أخرى محل الحصان. فيقوم شعب أوستياك بتقديم تضحيات لنهر أوب بإلقاء حيوان الرنة الحي في النهر عندما تكون الأسماك قليلة.

لا أنكر أن فكرتين مختلفتين في كثير من هذه الحالات. الفكرة الأولى عن الضحية باعتباره إله المستقبل، والفكرة الثانية عن الضحية باعتباره فريسة أو قرباناً. قد اختلطتا بشكل لا فكاك منه؛ ولكنني أعتقد أن ما قيل يكفي للإشارة إلى احتمال أن العديد من آلهة الأنهار قد تم إنتاجها صناعياً، وأن هذا هو إلى حد كبير أصل الحوريات والأسماك البحرية. والواقع أن الأساطير تصورها على هذا النحو في أغلب الأحيان؛ ولا يدرك علماء الأساطير لدينا، بسبب كراهيتهم العمياء للفلسفة اليوهيمرية، هذا المضمون الواضح. وحتى الضحية العرضية كانت تُتصوَّر في كثير من الأحيان باعتبارها إلهاً للنهر بعد وفاته، وهذا ما نراه بوضوح من العادة البوهيمية المتمثلة في الذهاب إلى ضفة النهر حيث يغرق رجل، وإلقاء رغيف من الخبز الجديد وزوج من الشموع الشمعية في النهر، كقرابين واضحة لروحه.

إنني أرى أن هناك العديد من الآلهة المصطنعة الأخرى، والتي لا بد أن أتجاهل وجودها هنا في صمت تام. وهذه هي الآلهة التي يتم خلقها في بداية الحرب، من خلال التضحية البشرية أو غيرها من التضحيات؛ وهي الآلهة التي تهدف إلى مساعدة المحاربين في مهمتهم القادمة من خلال تحريرهم من القيود الجسدية لهذا الغرض بالذات. وعلى هذا، وفقًا لفيلاركوس، كانت التضحية البشرية أمرًا معتادًا في اليونان في بداية الأعمال العدائية؛ ونحن نعلم أنه في وقت متأخر من عصر ثيميستوكليس تم تقديم ثلاثة أسرى بهذه الطريقة قبل معركة سلاميس. وتشكل تضحية إفيجينيا مثالاً أسطوريًا جيدًا في هذا الصدد، لأنها تضحية عذراء، أو أميرة، أو ابنة الزعيم، وبالتالي فهي تضحية نموذجية لإطلاق سراح روح إلهية أو ملكية. وهنا، كما هي العادة، تصور الفلسفة اللاحقة الفعل باعتباره تكفيرًا عن ذنب مميت؛ ولكن يمكننا أن نكون على يقين من أن القصة الأصلية لم تحتوي على مثل هذا العنصر الأخلاقي أو الديني.

ويبدو أن الدعوة إلى الحرب كانت تتم بين العبرانيين الأوائل بإرسال قطع دائرية من الضحية البشرية؛ وفي الاستخدام العبري اللاحق، تنحدر هذه الطقوس إلى التضحية بقربان محترق؛ وإن كنا نمر بمرحلة وسيطة عندما يرسل شاول قطعًا دائرية من ثور مذبوح، كما أرسل اللاوي في سفر القضاة أجزاء مبتورة من سريته لإيقاظ بني إسرائيل. وفي أفريقيا، لا تزال الحرب تُفتتح بتضحية مهيبة، بشرية أو غير بشرية؛ ويعطي السيد هو فوربس وصفًا بيانيًا للطقوس المماثلة التي سبقت رحلة استكشافية إلى جزيرة تيمور.

وفي الختام، لن أقول إلا إن العديد من الطقوس الغامضة الأخرى أو الأساطير المشكوك فيها تبدو لي قابلة للتفسير من خلال ممارسات متعمدة مماثلة لصنع الآلهة. وسنرى في الجزء الثاني مدى شيوع مثل هذه التضحية في العلاقات الزراعية؛ ولكنني أعتقد أن الأبحاث المستقبلية ستفسر أيضًا العديد من العادات الأخرى في مجالات أخرى من الحياة. إن التضحية بالنفس التي قام بها كودروس، وسردانابالوس، وبيوس ديشيوس موس، والعديد من الملوك أو الأبطال أو الآلهة أو الإلهات الآخرين؛ والكائنات الإلهية التي ألقت بنفسها من المنحدرات إلى البحر؛ وميخائيل كورتيوس الذي كرس نفسه في الخليج في المنتدى؛ ومقابر العشاق الذين دفنتهم سميراميس أحياء؛ كل هذه، في اعتقادي، لها دلالات متشابهة إلى حد ما. وحتى حكايات مثل قصة ت. مانليوس توركواتوس وابنه يجب أن تُشبَّه، في اعتقادي، بقصة ملك موآب الذي قتل ابنه على السور، أو قصة القرطاجيين الذين قدموا أطفالهم للإله المسيء. فقط، في أوقات لاحقة، تم تفسير الحكاية بشكل خاطئ واستخدامها للإشارة إلى الأخلاق المفترضة للنظام الروماني القديم الصارم وغير المرن.

ويبدو أن تكرار التضحيات بشكل متكرر أمر ضروري أيضًا، من أجل الحفاظ على قدسية الصور والطقوس المقدسة - لإضفاء روح جديدة عليها. وعلى هذا، كانت

الأنهار بحاجة إلى إله نهر جديد كل عام؛ ومؤخرًا في أشانتي اكتُشِف أن التعويذة لن "تعمل" إلا إذا تم التضحية بضحايا بشرية بكثرة من أجلها.

ولعل هذا هو المكان المناسب أيضاً لملاحظة أنه كما تم تقليص الإله العظيم بعل من خلال الدراسات الحديثة إلى العديد من البعليم المحليين، وكما تم تقليص الإله العظيم أدونيس من خلال الأبحاث الحديثة في كل حالة إلى أدون أو سيد معين من بين العديد، فإن كل إله منفصل من هذا القبيل، تم تصنيعه بشكل مصطنع، على الرغم من تسميته بالاسم الشائع براه أو تيبر، إلا أنه يحتفظ حتى النهاية بهوية مميزة. في الواقع، يبدو أن الآلهة العظيمة عبارة عن فئات أكثر من كونها أفرادًا. كان معروفًا منذ فترة طويلة أنه كان هناك العديد من الحوريات والعديد من الفونيات والعديد من السيلفانيين والعديد من مارتيس؛ بدأ يتضح أنه كان هناك أيضًا العديد من زحل والعديد من المشترى والعديد من جونون والعديد من فيستا. حتى في اليونان، من المحتمل جدًا أن الأسماء العامة للآلهة العظيمة قد أعطيت في العصور اللاحقة لأحجار مقدسة قديمة مختلفة وأماكن مقدسة من أصول مختلفة: كان الهدف الحقيقي للعبادة في كل حالة هو الإله العفوي أو الاصطناعي؛ إن هذا الاسم لم يكن سوى لقب عام يُطلَق على نحو مشترك، وربما على نحو صفة، على عدة آلهة منفصلة. وفي البانتيون الروماني، أصبح هذا المبدأ راسخاً تماماً الآن؛ وفي البانثيون السامي من المحتمل أن يكون كذلك؛ وفي أغلب البانثيون الأخرى، يقودنا تقدم البحوث الحديثة تدريجياً إلى هذا المبدأ. وحتى الآلهة الأولية نفسها لا تبدو في أصلها الأول وكأنها مفردة حقاً؛ فهي تنمو، على ما يبدو، من عبارات عامة، مثل "السماء" و"العناية الإلهية"، التي تُطلَق في البداية على الإله المعين الذي يفكر فيه المتحدث في تلك اللحظة. ويختلف زيوس أو جوبيتر باختلاف المكان. وعلى هذا، فعندما تحدى القاضي اللاتيني، عند اندلاع الحرب اللاتينية، جوبيتر الروماني، يمكننا أن نكون على يقين من أن الإله الفعلي الذي كان مرئياً أمامه هو الذي أطلق عليه تحديه التجديفي، وليس الإله المثالي في السماء فوق رأسه. والواقع أننا نعلم الآن أن كل قرية وكل

مزرعة كان لها جوفيس خاص بها، وكان يُنظَر إليه باعتباره إله الخمر في الأساس، وكان يُعبَد على وجه الخصوص في وليمة الخمر في شهر أبريل/نيسان، عندما كان يتم فتح البرميل الأول. وهذه الفردية بين الآلهة تشكل نقطة مهمة ينبغي لنا أن نضعها في الاعتبار؛ ذلك أن ميل اللغة يميل دوماً إلى معاملة العديد من الآلهة المتشابهة باعتبارها متطابقة عملياً، وخاصة في أواخر القرن السابع عشر وفي أشكال الدين الخيالية. وقد استغل علماء الأساطير هذا الميل إلى التوفيق بين المعتقدات إلى أقصى حد.

إن مثالاً واحداً ملموساً من شأنه أن يساعد في توضيح هذا المبدأ العام. فأنا أعتقد أن الحدود كانت في الأصل تحت مسؤولية آلهة محلية واصطناعية، وذلك بذبح ضحية بشرية عند كل نقطة تحول في الحدود، وإقامة حجر مقدس في المكان الذي مات فيه للحفاظ على ذكراه. وكثيراً ما كان يتم زرع شجرة مقدسة إلى جانب النصب الحجري المقدس، وفقاً للقاعدة الشائعة. وكل ضحية من هذه الضحايا أصبحت على الفور إلهاً للحدود، وروحاً حامية ومراقباً، وعرفت منذ ذلك الحين باسم هيرميس أو تيرمينوس. ولكن كان هناك العديد من هيرميس والعديد من تيرمينوس، ليس في اليونان وإيطاليا وحدهما، بل في مختلف أنحاء العالم. ولم ينشأ إلا بعد ذلك بكثير إله عام، هيرميس أو تيرمينوس، من الاتحاد في مفهوم تجريدي واحد لكل هذه الآلهة المنفصلة والفردية. ومرة أخرى، كان إله الحدود يتجدد كل عام بضحية جديدة. ويبدو أن ممارستنا الخاصة في "ضرب الحدود" هي آخر بقايا هذه التضحيات السنوية التي تنتهي صلاحيتها. إن الحدود تُضرب، على ما يبدو، من أجل طرد كل الآلهة الغريبة أو الأرواح المعادية؛ أما الصبية الذين يلعبون دوراً كبيراً في هذه المراسم فهم ممثلو الضحايا من البشر. إنهم يُضربون بالسياط عند كل حجر من الأحجار النهائية، جزئياً من أجل جعلهم يذرفون الدموع كتعويذة للمطر (وفقاً للأسلوب الذي جعلنا السيد فريزر نألفه)، ولكن جزئياً أيضاً لأن كل الآلهة المصطنعة تُجلد أو تُعذب قبل إعدامها، لسبب لا أعتقد أننا نفهمه بالكامل بعد. إن التفسير المنطقي القائل بأن الصبية

يُضربون بالسياط "من أجل جعلهم يتذكرون الحدود" هو أحد التفسيرات السطحية المعتادة التي يقدمها القرن الثامن عشر بسهولة. وحقيقة أن المراسم تُقام عند الأحجار المقدسة أو "شجر البلوط الإنجيلي" تعلن بشكل كافٍ عن معناها الأصلي.

إن الفكرة التي تقوم عليها الاستشهادية المسيحية، حيث يكرس الشهيد نفسه طواعية للموت من أجل الحصول على التاج والنخلة في السماء، تشبه في جوهرها التضحية بالنفس من قبل الآلهة الاصطناعية، وتساعد في تفسير طبيعة مثل هذه التضحية بالنفس. فالمسيحية ليست إلا ديانة توحيدية اسميًا، والقديسون والشهداء يشكلون فيها عمليًا مرتبة ثانوية أو ثانوية من الآلهة.

ومن ناحية أخرى، لا يمكن التعبير عن وجهة نظر قاتلي الآلهة بشكل أكثر وضوحًا مما في القصة التي رواها السيد ويليام سيمبسون عن السير ريتشارد بيرتون. يبدو أن بيرتون كان يستكشف منطقة إسلامية نائية على الحدود الهندية، ولكي يفعل ذلك بحرية وسهولة أكبر، تنكر في هيئة فقير من فقهاء الإسلام. كانت معرفته بالشعائر الدينية الإسلامية عظيمة لدرجة أن الناس سرعان ما بدأوا في احترامه كثيرًا باعتباره شخصًا مقدسًا للغاية. كان يهنئ نفسه على نجاح تنكره، ويتطلع إلى إقامة طويلة في الوادي، عندما جاء إليه أحد شيوخ القرية ذات ليلة خلسة، وتوسل إليه، إذا كان يقدر سلامته، أن يرحل. سأل بيرتون ما إذا كان الناس لا يحبونه. أجاب الشيخ، نعم؛ كان هذا هو أصل المشكلة. لقد تصوروا في الواقع أعلى رأي ممكن حول قدسيته الاستثنائية، ورأوا أنه سيكون من الرائع للقرية أن تمتلك قبر رجل مقدس كهذا. لذا فقد كانوا يبحثون الآن عن أفضل طريقة لقتله. وسواء كانت هذه القصة صحيحة أم لا، فإنها على الأقل تعرض بألوان زاهية للغاية الحالة الذهنية لقاتل الآلهة العادي.

إن الدكتور تايلور والسيد سبث وغيرهما من الكتاب الذين تناولوا موضوع التضحيات التأسيسية يعتبرونها نابعة من الروحانية البدائية. ولكنني أرى أنهم

يوحون بالعكس تماماً. فإذا كان كل شيء يتمتع بروح بطبيعته، فلماذا نقتل إنساناً أو مجرماً لنزوده بروح؟

الفصل الثالث عشر - آلهة الزراعة.

بإن أكثر الآلهة التي صنعت صناعياً إثارة للاهتمام في هذه المجموعة الغريبة من الآلهة هي تلك التي يتم التضحية بها في إطار الزراعة. وهذه الآلهة تروق لنا من عدة وجهات نظر. ففي المقام الأول، تشكل هذه الآلهة بين الأجناس الزراعية ككل أهم الأشياء التي يتم عبادتها وتبجيلها. وفي المقام الثاني، أعتقد أن العديد من الآلهة الصناعية الأخرى أصبحت تتجدد أو يتم التضحية بها سنوياً من خلال تأثيرها أو على أساس تشبيهها. وفي المقام الثالث، فإن آلهة الزراعة هي التي يتم ذبحها في المقام الأول في طقوس مقدسة، حيث يأكل أتباعها أجسادها على شكل كعكات من الخبز أو غيرها من المواد الغذائية، ويشرب دمها في شكل نبيذ. والارتباط المباشر بين هذه الطقوس المقدسة وتضحية القداس، وتماثل المسيح مع الخبز والنبيذ، يعطي هذا الفرع من بحثنا أهمية خاصة من وجهة نظر تطور المسيحية. يتعين علينا إذن أن نتعمق أكثر في أصل هذه الآلهة الفريدة والقسمية، التي تقف بشكل مباشر في الخط الرئيسي لتطور الشخصية الإلهية المركزية في الدين المسيحي.

في كل أنحاء العالم، حيثما توجد الزراعة، نجد فئة خاصة من آلهة الذرة أو آلهة الحبوب، آلهة المواد الغذائية الرئيسية، سواء كانت الذرة، أو التمر، أو الموز، أو الأرز، ومن

السمات المشتركة بين كل هذه الآلهة أنها تمثلها ضحايا بشرية أو شبه بشرية، يتم قتلهم سنويًا في وقت البذر. ويعتقد أن هذه الآلهة البشرية تظهر مرة أخرى في شكل المحصول الذي يرتفع من أجسادهم المقدسة؛ ويتم الاحتفال بموتهم وقيامتهم في المهرجانات؛ ويأكلهم ويشربونهم كطقوس مقدسة من قبل أتباعهم، في شكل باكورة الثمار، أو الكعك والنبيذ، أو أي تجسيد آخر للكائن الإلهي. لذلك يتعين علينا التحقيق في أصل هذه الخرافة الغريبة، والتي تنطوي، كما يبدو لي، على أصل الزراعة نفسها كعادة بشرية. ولذلك يتعين علي أن أطلب من القراء السماح لي إذا انحرفت لفترة من الوقت إلى ما قد يبدو للوهلة الأولى انحرافًا نباتيًا بحتًا.

لا شك أن أغلب الناس قد أصابهم التناقض في الزراعة. فلنقل إن نباتاً معيناً في حالته الطبيعية لا ينمو ويزدهر إلا في الماء، أو في بعض البيئات الرطبة للغاية. فإذا أخذت هذا النبات على ضفة الماء بملعقة ذات يوم، وحركته على الفور إلى فراش جاف في حديقة مشمسة، ففجأة، بدلاً من أن يذبل ويموت، كما قد يتوقع المرء منه بطبيعة الحال، بدأ ينمو بسرعة، ويزدهر بشكل أفضل وأكثر حيوية مما كان عليه في موطنه الأصلي. أو ربما نقلت بعض الأعشاب الصحراوية الجافة من صخورها القاحلة إلى مناخ رطب ممطر؛ وبدلاً من أن تذبل، كما يتصور المرء أنه ينبغي لها أن تفعل في ظل الظروف المتغيرة، فإنها تنتشر في القالب الغني العميق لفراش الشجيرات، وتبلغ مكانة لا يمكن أن تصل إليها في بيئتها الأصلية. والواقع أن حدائقنا تعرض لنا نباتات جنباً إلى جنب، وهي في حالتها البرية تتطلب مواطن متنوعة ومختلفة إلى حد كبير. تتفتح أزهار بصل سيبيريا بشكل ودي في نفس الفراش مع زهور التوليب الإيطالية؛ وتنشر زهرة الكاسترد الألبية وريداتها الأرجوانية في منافسة ودية مع زهرة القطيفة التي تعشق المستنقعات أو زهرة السوسن الإسبانية الجافة. لذا فإن السؤال الذي يخطر على بال الباحث عاجلاً أم آجلاً هو: كيف يمكن لهذه الأزهار أن تعيش جميعها معاً على هذا النحو الجيد هنا في عالم الإنسان، بينما تتطلب كل منها في العالم الخارجي موقفاً مختلفاً ومتخصصاً للغاية؟

إن هذا التناقض الظاهري لا يمكن أن يربك إلا عالم الأحياء عديم الخبرة. ولابد أن يدرك الحل الحقيقي للغز قريبًا، إذا قرأ واستوعب تعاليم داروين. فالحقيقة أن أغلب هذه النباتات، سواء في الحديقة أو خارجها، تستطيع أن تنمو جيدًا في مجموعة كبيرة ومتنوعة من المناخات أو المواقف . إذا كانت محمية فقط من المنافسة الخارجية. وهنا تكمن المشكلة الحقيقية. فليس الأمر أن النباتات المحبة للرطوبة لا تستطيع أن تعيش في ظروف جافة، بل إن النباتات المحبة للجفاف، المتخصصة والمتكيفة مع هذه الظروف، تستطيع أن تنافس النباتات الجافة في هذه الظروف بميزة هائلة، وبالتالي فإنها تتغلب عليها تمامًا في وقت قصير جدًا. إن كل نوع في حالة الطبيعة يتعرض باستمرار للمنافسة المستمرة بين الأنواع الأخرى؛ وكل نوع على أرضه يستطيع أن يهزم منافسيه. ولكن في الحديقة، فإن الهدف الذي نهدف إليه هو الحد من المنافسة ومنعها؛ إن الحديقة هي المكان الذي نمنح فيه كل نوع من الأنواع فرصة عادلة للحياة، حتى في ظل الظروف التي قد تتفوق فيها الأنواع الأخرى الأكثر تكيفاً على الأنواع الأخرى. وهذا في الواقع هو كل ما نعنيه بالحديقة . مساحة من الأرض يتم تنظيفها وإبقاؤها خالية من نباتاتها الطبيعية (والتي تسمى عادة بالأعشاب الضارة)، ويتم تخزينها عمداً بنباتات أخرى، والتي قد تتلاشى معظمها أو كلها إذا لم يتم منع نمو الأعشاب الضارة بشكل مصطنع.

إننا ندرك حقيقة وجهة النظر هذه في اللحظة التي نُهجر فيها الحديقة، كما نقول، أي تُترك مرة أخرى لتدخل الطبيعة دون مساعدة. فالنباتات التي نزرعها في الحديقة تظل واهنة وغير مؤكدة لفترة من الوقت، ولكنها في النهاية تختنق بالأعشاب الضارة الأقوى والأكثر تكيفًا والتي تشكل الغطاء النباتي الطبيعي للمنطقة. فالحشيشة والقراص تعيشان مع الوقت بعد نبات الحوذان والفاوانيا. والأمر الأساسي في الحديقة، باختصار، هو إزالة الأعشاب الضارة من الأرض، أي من الغطاء النباتي الأصلي. وقد نضيف أو لا نضيف بعض الأشياء الثانوية، مثل التسميد، وقلب التربة،

والحماية بالمأوى، وما إلى ذلك؛ ولكن إزالة الأعشاب الضارة في حد ذاتها هي الشيء الوحيد الضروري.

إن هذه النقطة قد تبدو تافهة للوهلة الأولى، ولكنني أعتقد أنها تتضمن السر الكامل وراء أصل الزراعة، وبالتالي، ضمناً، سر آلهة الزراعة. ذلك أن الزراعة، إذا نظرنا إليها من حيث الجوهر، هي إزالة الأعشاب الضارة، وإزالة الأعشاب الضارة هي الزراعة. وعندما نقول إن عِرقاً معيناً يزرع نوعاً معيناً من النباتات الأساسية، فإننا لا نعني في النهاية أكثر من مجرد زراعته أو وضعه في تربة تم تطهيرها بشكل مصطنع من الأنواع المنافسة. إن الزراعة دون تطهير التربة لا طائل منها على الإطلاق. وعلى هذا فإن مسألة أصل الزراعة تنحل في النهاية ببساطة إلى هذا: كيف توصل بعض الرجال أولاً إلى معرفة أنه من خلال تطهير الأرض من الأعشاب الضارة وإبقائها خالية منها يمكنهم تعزيز نمو بعض المواد الغذائية البشرية المرغوبة؟

إننا لنبدأ بالقول إن مشكلة أصل الزراعة أكثر تعقيداً مما تبدو للوهلة الأولى. ذلك أننا لا ينبغي لنا أن نسأل فقط، كما قد يبدو للباحث غير المعتاد على مثل هذه التحقيقات: "كيف اكتشف البدائيون الأوائل أن البذور تنمو بشكل أفضل عندما تُزرع في تربة مفتوحة، خالية من الأعشاب الضارة أو المنافسين الطبيعيين؟"، بل يتعين علينا أيضاً أن نسأل السؤال الآخر الأكثر صعوبة: "كيف اكتشف البدائيون الأوائل أن النباتات تنمو من البذور على الإطلاق؟". إنني أتصور أن هذا هو اللغز الحقيقي للموقف، وهو اللغز الذي لم يتمكن حتى الآن، على حد علمي، كل الباحثين في تاريخ وأصل التقدم البشري من الإجابة عليه.

ولكي ندرك تماماً الطبيعة العميقة لهذه الصعوبة، فلابد أن نعود إلى حالة الإنسان البدائي وموقفه. فنحن نعرف منذ أمد بعيد وبطريقة مألوفة حقيقة مفادها أن النباتات تنمو من البذور. وأن البذرة هي الجزء التناسلي الأساسي للكائن النباتي. حتى أصبح من الصعب علينا أن نتجاهل هذه المعرفة العادية، وأن ندرك أن ما

نعتبره حقيقة بديهية تقريباً بالنسبة لنا قد يكون استنتاجاً طويلاً وصعباً بالنسبة للإنسان البدائي. والواقع أن معرفتنا المشتركة والواضحة بهذه الحقيقة مستمدة بالكامل من ممارسة الزراعة. فقد رأينا البذور تُزرع منذ طفولتنا المبكرة. ولكن قبل أن تنمو الزراعة، لم يكن من الممكن للإنسان البدائي أن يعرف أو حتى يشك في الصلة بين البذرة والشتلة، وهو الذي لم يكن يميل بأي حال من الأحوال إلى إجراء تحقيقات مجردة في الطبيعة النباتية أو الغرض الفسيولوجي للأعضاء المختلفة في الأعشاب التي حوله. إن حقيقة أن البذرة هي الجزء التناسلي من النبات كانت حقيقة لا تقل احتمالاً في حد ذاتها عن حقيقة أن الأسدية هي الأعضاء الذكرية، أو أن الأوراق هي الأسطح الاستيعابية والهضمية. ولم يكن بوسعه أن يكتشف أن النباتات تنمو من البذور إلا من خلال العملية التجريبية المتمثلة في زرعها ونموها. ولم يكن من المرجح أن يجرب مثل هذه التجربة من أجل التجربة ذاتها. ولابد أن تكون مصادفة أخرى قد قادته إلى هذه التجربة.

ولكن ما الذي كان من المحتمل أن يعرفه الإنسان البدائي ويلاحظه عن النباتات المحيطة به؟ أولاً وقبل كل شيء، شيء واحد فقط: أن بعضها صالح للأكل، وبعضها الآخر غير صالح للأكل. وهنا نجد تمييزًا ذا أهمية مباشرة للبشرية جمعاء. وما هي أجزاء النباتات التي من المرجح أن تكون مفيدة له في هذا الصدد كمواد غذائية؟ تلك الأجزاء التي ملأها النبات خصيصًا بمادة غنية لاستخدامه الخاص أو استخدام ذريته. الجزء الأول هو الجذور أو الجذور أو البصيلات أو الدرنات التي يضع فيها المواد الغذائية لنموه في المستقبل؛ والجزء الثاني هو البذور التي ينتجها ويثريها من أجل استمرار نوعه للأجيال القادمة.

إن الإنسان البدائي يعرف الثمار والبذور والدرنات، كما يعرفها السنجاب والقرد والببغاء، باعتبارها غذاءً جيدًا مناسبًا لأغراضه. ولكن لماذا يحلم بحفظ أو حفظ بعض هذه الثمار أو البذور، عندما يجدها، ودفنها في التربة، على أمل أن تنتج غيرها بالسحر

الخالص؟ لا توجد فكرة أكثر غرابة من هذه الفكرة لطبيعة وعادات الإنسان البدائي. أولاً، إنه بعيد كل البعد عن العناية؛ فطريقته هي أن يأكل على الفور ما يقتله أو يجمعه؛ وثانيًا، كيف يمكنه أن يتصور أن البذور المدفونة في الأرض يمكن أن تنتج المزيد من البذور في المستقبل؟ ولكن حتى لو كان يعلم ذلك - وهو أمر شبه مستحيل - فهل من المرجح، وهو مخلوق طائش كهذا، أن ينقذ أو يدخر حفنة من البذور اليوم حتى تنبت بذور أخرى من مدفنها بعد اثني عشر شهراً؟ إن الصعوبة هائلة إلى الحد الذي يجعل المرء يتساءل عما إذا كان من الممكن حقاً أن نتخذ الخطوات الأولى في الزراعة.

إن المتوحش، عندما يقتل غزالاً أو طائراً، لا يدفن جزءاً منه أو بيضة منه في الأرض، على أمل أن ينمو ليصبح غزالاً أو طائراً آخر في المستقبل. فلماذا إذن، عندما يلتقط حفنة من الفاكهة أو الحبوب البرية، يدفن بعضها في الأرض، وينتظر الحصاد؟ إن المتوحش شخص بسيط وخرافي؛ لكنني لا أعتقد أنه أحمق إلى الحد الذي قد يجعله هذا التصرف يبدو عليه. ومن غير المرجح أن يلاحظ قط أن النباتات في حالتها البرية تنمو من البذور - على الأقل قبل ظهور الزراعة، التي أعتقد أنه اكتسب منها هذه المعرفة المفيدة أولاً وببطء. ومن المؤكد أنه من غير المرجح أن يكون قد حاول قط إجراء تجارب متعمدة على خصائص النباتات، كما لو كان زميلاً في الجمعية الملكية. وبما أن هذين الطريقين مسدودان أمامنا فعليًا، فيتعين علينا أن نتساءل: "هل كانت هناك أي طريقة يمكن بها للإنسان البدائي أن يخطئ معصوب العينين في معرفة الحقيقة، وأن يكتشف بشكل عرضي، إلى جانب وظيفة أخرى من وظائف حياته، حقيقتين أساسيتين مفادهما أن النباتات تنمو من البذور، وأن نمو وتوفير نباتات الغذاء المفيدة يمكن زيادتها بشكل مصطنع عن طريق دفن أو زرع مثل هذه البذور في أرض خالية من الأعشاب الضارة، أي من النباتات الطبيعية المنافسة؟"

إنني أعتقد أن هناك طريقة واحدة، وطريقة واحدة فقط، كان من المرجح أن يتعرف بها الإنسان البدائي على هذه الحقائق. وسأحاول أن أثبت أن كل عمليات الزراعة البدائية تشير بقوة إلى هذا الأصل الغريب والسحري تقريبًا للزراعة؛ وأن كل الزراعة الوحشية تحتفظ حتى آخر لحظة بالعديد من آثار أصلها؛ وأن زرع البذور في حد ذاته لا يعتبر جزءًا مهمًا وجوهريًا من العملية المعقدة مثل بعض الممارسات الخرافية والمتعطشة للدماء التي تصاحبها لفترة طويلة. وبكلمة واحدة، لكي لا أبقي القارئ في شك لفترة أطول، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الزراعة وزرع البذور للمحاصيل كانا قد بدأا كملحق لنظام الدفن البدائي.

حتى الآن، على حد علمي، لم يُقترَح أصل واحد للزراعة حتى الآن؛ وهو أصل صعب. فقد قيل إن أول إشارة إلى الزراعة ربما جاءت من ملاحظة أن البذور التي ألقيت بالصدفة في أكوام القمامة في المطبخ، أو في المساحة الخالية حول الأكواخ أو الكهوف أو غيرها من أماكن السكن البشرية، نبتت وأنتجت المزيد من البذور في المواسم التالية. ومن المحتمل جدًا أن العديد من المتوحشين لاحظوا حقيقة أن النباتات الغذائية تنمو غالبًا على مثل هذه الأكوام من النفايات. لكن هذه الملاحظة وحدها لا تقربنا كثيرًا من أصل الزراعة. فلماذا يربط الإنسان المبكر هذه الحقيقة بالبذور أكثر من ربطها بالعظام أو القواقع أو مجرد القرب العرضي؟ يجب أن نتخلص من عقولنا من كل الأفكار المسبقة للعلم الاستقرائي والتجريبي، ونلقي بأنفسنا عقليًا مرة أخرى في موقف المتوحش الذي يرى أن الطبيعة عبارة عن حقل واسع من الأحداث غير المترابطة، دون تسلسل ثابت أو سبب مادي. علاوة على ذلك، فإن كومة المطبخ ليست مساحة خالية: بل على العكس من ذلك، فهي عبارة عن فراش أعشاب بحرية يتميز بفخامة غير عادية. ولا يقربنا هذا من أصل الخلاء.

ولكن هناك مجموعة من الوظائف التي يؤدي بها الإنسان البدائي كل الأعمال الأساسية للزراعة، دون أن يقصد ذلك على الإطلاق؛ وهي العمل الذي يكاد يكون

شاملاً لدفن الموتى. والدفن، على حد علمي، هو الغرض الوحيد الذي من أجله كانت الأجناس المبكرة، أو ما يعادل نفس الشيء، المتوحشون البسطاء، يحفرون الأرض. وقد رأينا بالفعل أن الفكرة الأصلية للدفن كانت حبس شبح أو جثة الميت بوضع ثقل من التراب فوقه؛ وحتى لا يكون هذا كافياً لمنعه من الظهور مرة أخرى بشكل مزعج، كان يتم دحرجة حجر كبير فوق تله أو تله، وهو أصل كل آثارنا، التي تحولت الآن إلى تكريم وإحياء ذكرى المتوفى. ولكن النقطة التي أود أن ألفت الانتباه إليها الآن هي أن عملية الدفن، وفي هذه العملية وحدها، تشكل بداية أولى لقلب التربة، وكشف التربة الجديدة، وبالتالي القضاء على الأعشاب الضارة. وباختصار، لدينا هنا أول مقدمة ضرورية لتطور الزراعة.

إن الخطوة التالية لابد وأن تكون زرع البذور. وهنا، أجازف بالتفكير، فإن عادات الجنازة تزودنا بالطريقة الوحيدة التي يمكن تصورها لبدء مثل هذا البذر. ذلك أن البشر الأوائل لم يكونوا ليهدروا البذور الثمينة التي استغرق جمعها من النباتات البرية المحيطة بهم الكثير من الوقت والجهد، في مجرد تجارب علمية عديمة الفائدة على نمو النباتات. ولكننا رأينا أن من عادة جميع المتوحشين أن يقدموا عند قبور أسلافهم الطعام والشراب من نفس النوع الذي اعتادوا على استخدامه. والآن، عندما كان الناس في مرحلة الصيد، كانت هذه القرابين تتكون بلا شك في أغلب الأحيان من اللحوم، ولحوم الحيوانات المصطادة أو الطيور البرية؛ ولكنها كانت تشمل أيضًا الأسماك والفواكه والبذور والدرنات والتوت، وخاصة الحبوب الغنية مثل البقوليات والحبوب المحلية. لقد تم جمع الأدلة على تقديم مثل هذه الأشياء عند قبور الموتى بكثرة من قبل الدكتور تايلور والسيد فريزر والسيد هربرت سبنسر، لذلك لا أحتاج هنا إلى تقديم أي أمثلة أخرى لمثل هذه الممارسة المألوفة.

"ولكن ما النتيجة الواضحة التي قد تترتب على ذلك؟ هنا، وهنا فقط، يزرع المتوحشون البذور دون وعي على أرض محروثة حديثًا، خالية من الأعشاب الضارة،

ويسمدونها بدماء ولحم القرابين التي تقدم إليهم بشكل متكرر. ولابد أن تنبت هذه البذور وتنمو بسرعة ووفرة لا يمكن إلا أن تدهش خيال الصياد البدائي. وهذا ينطبق بشكل خاص على تلك الفئة من النباتات التي تتطور في نهاية المطاف إلى محاصيل غذائية للمجتمع المتحضر. ذلك أن خصوصية هذه النباتات هي أنها واحدة وكلها ـ الذرة أو الأرز أو البازلاء أو الفول أو الدخن ـ نباتات سنوية سريعة النمو وعظيمة الحجم؛ نباتات ازدهرت في صراعها من أجل البقاء من خلال تخزين كميات كبيرة من المواد القابلة للاستخدام في بذورها لاستخدام الشتلات؛ وهذه الخصوصية تمكنها من البدء في الحياة في كل جيل وهي موهوبة بشكل استثنائي، وبالتالي تتنافس مع جميع أقرانها. إن مثل هذه البذور سوف تزدهر بشكل كبير في التربة التي تم تسويتها حديثًا وخصبت جيدًا في قبر أو تلة؛ وسوف يؤدي إنتاج كمية من الحبوب الغنية والصالحة للأكل هناك إلى جذب انتباه ذلك الرجل العملي والمراقب، المتوحش. فبالرغم من أنه لا يهتم كثيرًا بالأشياء غير الضرورية، فإن متوحشك شخص عنيد بشكل غريب فيما يتعلق بكل ما يتعلق بمصلحته المباشرة.

ما الاستنتاج الذي سيفرض عليه على الفور؟ أن البذور المزروعة في تربة طازجة مخصبة جيداً تنتج ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف؟ لا شيء من هذا القبيل. إنه لا يعرف شيئاً عن البذور والأسمدة والتربة؛ وسوف يستنتج على الفور، مثل أمثاله، أن الشبح المخيف والقوي في التلة، مسروراً بالهدايا من اللحوم والبذور المقدمة إليه، قد رد تلك الهدايا بالمثل من خلال إعادة الحبوب مائة ضعف من جسده. يبدو لي أن هذا الارتباط الأصلي بين الأفكار يفسر تمامًا ذلك التطابق الغريب بين الشبح أو الروح والذرة أو أي مادة غذائية أخرى، وهو ما شرحه السيد فريزر بشكل رائع وحاسم في كتابه الغصن الذهبي.

وهناك بعض الأدلة القليلة التي تؤكد أن الغطاء النباتي يظهر بالفعل وفرة استثنائية على القبور وعربات التلال. ويذكر القس ألكسندر ستيوارت من بالاتشوليش أن

بائعات الألبان في لوخابر وفي أماكن أخرى من المرتفعات الاسكتلندية كن يصبن القليل من الحليب يومياً من الدلو على "عربات التلال الجنية" أو عربات التلال التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ؛ وكانت النتيجة أن "تلال الجنيات هذه كانت مغطاة بخضرة أكثر جمالاً من أي بقعة أخرى في البلاد". وفي فيجي، يلاحظ السيد فيسون أن نباتات البطاطا تنبت بوفرة من أكوام البطاطا التي تُقدم إلى أرواح الأجداد في الحظيرة الحجرية المقدسة أو التيمنوس؛ وقد نقل إليّ اثنان أو ثلاثة من المراسلين مؤخراً (منذ نشر هذا الفصل لأول مرة في مجلة شهرية) حقائق مماثلة من مدغشقر وأفريقيا الوسطى وأرخبيل الملايو. ومن الواضح من رواياتهم أن القبور تنتج في كثير من الأحيان محاصيل من المواد الغذائية، والتي تنشأ عن طريق الخطأ من الطعام الذي يوضع فوقها.

في البداية، وفي ظل هذه الظروف، لا شك أن المتوحش سوف يكتفي بمجرد قطف وأكل البذور التي تنمو على قبور ملوكه وأقاربه. ولكن بمرور الوقت، سوف يحدث بالتأكيد أن تتسع مساحة الزراعة إلى حد ما. وأعتقد أن الخطوة الأولى نحو هذا التوسيع سوف تنشأ من ملاحظة أن الحبوب والبذور الأخرى لا تنمو إلا بشكل استثنائي على القبور التي تم حفرها حديثًا، وليس على القبور بشكل عام. فبمجرد أن تعود النباتات الطبيعية إلى الظهور، يبدو أن قوة الشبح المنشطة قد استنفدت. وبالتالي فقد يكون من الجيد الاحتفاظ بأشباح جديدة دائمًا لأغراض الزراعة. ومن ثم قد تنشأ تدريجيًا عادة إنشاء قبر جديد سنويًا، في أكثر أوقات البذر ملاءمة، وهو ما يمكن التعرف عليه من خلال التجربة والملاحظة شبه اللاواعية. "وهذا القبر الجديد، كما سأبين أسباب تصديقي بعد قليل، لن يكون قبر شخص مات في ذلك الوقت بالصدفة، بل سيكون قبر ضحية متعمدة، قُتلت من أجل توفير روح النبات، إله اصطناعي، وجعل الذرة تنمو بقوة ووفرة. وأعتقد أنه خطوة بخطوة، سيُكتشف في النهاية أنه إذا حفرت على نطاق واسع بما فيه الكفاية، فإن الذرة ستنمو جيدًا حول قبر الضحية الإلهية وعلى قبرها الفعلي. وهكذا سيتطور الحقل المزروع ببطء،

والمساحة الأوسع، التي يتم حفرها أو العمل بها يدويًا، وأخيرًا الحقل المحروث، والذي يظل قبرًا من الناحية النظرية وفي جميع الأساسيات.

لقد تجرأت على تقديم هذه المقدمة الطويلة التي تبدو غير ضرورية، لأنني أريد أن أوضح أن الإله المصطنع أو الاصطناعي لحقل الذرة أو أي قطعة أرض مزروعة أخرى يعود تاريخه في الواقع إلى أصل الزراعة. فبدون الإله، لن يكون هناك حقل ذرة على الإطلاق؛ وأعتقد أن حقل الذرة كان يُنظر إليه منذ فترة طويلة على أنه مجرد تجسيد لروحه النباتية. بل إن الحقل المحروث غالبًا ما يكون في أيامنا هذه، وحتى في بلادنا، قبرًا من الناحية النظرية.

إن القول بأن كل فعل من أفعال الحياة عند الإنسان البدائي والمتوحشين له أهمية مقدسة أمر شائع في الوقت الحاضر؛ وخاصة الزراعة التي تحظى بقداسة خاصة في كل مكان ودائمًا. وبالنسبة لنا، قد يبدو من الطبيعي أن ننظر إلى عملية زرع البذور باعتبارها عملية عملية وفسيولوجية بحتة؛ وأن ننظر إلى البذرة باعتبارها مجرد جزء من النبات مخصص للتكاثر، وأن نعتبر إنباتها عملية طبيعية وعادية. ولكن المتوحشين والإنسان البدائي لا يحملون مثل هذه المفاهيم. فبالنسبة لهم فإن الأمر برمته عبارة عن قطعة من السحر الطبيعي؛ فأنت تزرع البذور، أو بالأحرى تدفن بعض الحبوب الغذائية في التربة الطازجة، وفقًا لبعض الطقوس والاحتفالات السحرية؛ وبعد مرور فترة زمنية معينة، تبدأ النباتات في النمو على هذه التربة، والتي تحصل منها أخيرًا على محصول من الذرة أو القمح أو الشعير. إن دفن البذور أو الحبوب ما هو إلا جزء واحد من الدورة السحرية، وليس بالضرورة أكثر أهمية من العديد من الأجزاء الأخرى لتحقيق الغاية المرجوة.

وما هي الأعمال السحرية الأخرى اللازمة لكي تنمو النباتات الحاملة للحبوب على التربة المعدة لاستقبالها؟ لقد جمع السيد فريزر أدلة وفيرة للإجابة على هذا السؤال، وسأعيد تلخيص جزء صغير منها هنا لفائدة أولئك الذين لم يقرأوا عمله الرائع،

وأحيل الطلاب إلى كتاب الغصن الذهبي نفسه للحصول على تفاصيل أكثر وتطورات جانبية. وفي الوقت نفسه أود أن أوضح بوضوح أن السيد فريزر ليس مسؤولاً شخصيًا بأي حال من الأحوال عن الاستخدام الذي أقوم به هنا لمواده الرائعة.

في جميع أنحاء العالم، اعتاد المتوحشون والشعوب شبه المتحضرة على التضحية بضحايا بشريين، حيث يتم دفن أجسادهم في الحقل مع بذور الذرة أو غيرها من المواد الغذائية. وكثيراً ما يتم خلط دم الضحية بالحبوب لتخصيبها. وأشهر مثال على ذلك هو حالة الخونديين في أوريسا، الذين اختاروا ضحايا خاصة، تُعرف باسم ميرياه، وقدموها كقرابين لضمان حصاد جيد. وكثيراً ما كان يتم الاحتفاظ بالميرياه لسنوات قبل التضحية به. وكان يُنظر إليه باعتباره كائناً مقدساً، ويعاملونه بمودة شديدة ممزوجة بالاحترام. وعندما بلغ شاب من الميرياه سن الرجولة، أعطي زوجة كانت هي نفسها ميرياه؛ وتم تربية ذريتهم جميعاً كضحايا. "يقول السيد فريزر: "كانت التضحيات الدورية تُرتَّب عمومًا على أساس القبائل وأقسام القبائل بحيث كان كل رب أسرة قادرًا، مرة واحدة على الأقل في السنة، على الحصول على قطعة من اللحم لحقوله، وعادةً ما يكون ذلك في الوقت الذي يُنتَج فيه محصوله الرئيسي". وفي يوم التضحية، الذي كان فظيعًا إلى حد لا يمكن وصفه في تفاصيله، كانت الجثة تُقطَّع إلى قطع، وكان اللحم المقطوع منها يحمله على الفور الأشخاص الذين عيّنتهم كل قرية لإحضارها إلى المنزل. وعند وصولها إلى وجهتها، كان الكاهن يقسمها إلى قسمين، يدفن أحدهما في حفرة في الأرض، وظهره إلى الخلف ودون أن ينظر إليها. ثم يضيف كل رجل في القرية القليل من التراب لتغطيته، ويسكب الكاهن الماء على التلة المقلدة. ويقسم الكاهن الجزء الآخر من اللحم إلى حصص بعدد رؤساء الأسر الحاضرين. وكان كل رئيس أسرة يدفن قطعته في حقله، ويضعها في الأرض خلف ظهره دون أن ينظر إليها. أما البقايا الأخرى من الضحية البشرية ـ الرأس والعظام والأمعاء ـ فقد أحرقت على كومة جنائزية، ونثرت الرماد على الحقول، أو خلطت بالذرة الجديدة لحمايتها من الضرر. ولابد من ملاحظة كل هذه التفاصيل بعناية.

والآن، في هذه الحالة، من الواضح لي تمامًا أن كل حقل يُنظَر إليه باعتباره قبرًا في الأساس؛ حيث تُدفن أجزاء من الضحية الإلهية فيه؛ وتُمزج رماده بالبذور؛ ومن الأرض التي تُعالَج بهذه الطريقة، تنبت مرة أخرى في هيئة ذرة أو أرز أو كركم. وتشير هذه العادات، كما لاحظ السيد فريزر بحق، "إلى أن جسد المرياه كان يُنسب إليه قوة مباشرة أو جوهرية لجعل المحاصيل تنمو. بعبارة أخرى، كان يُعتقد أن لحم ورماد الضحية يتمتعان بقوة سحرية أو جسدية لتخصيب الأرض". وأكثر من ذلك، يبدو لي أن البذرة نفسها لا تُعَد كافية لإنتاج محصول: فالبذرة المدفونة في القبر المقدس مع اللحم الإلهي هي التي تنبت أخيرًا إلى مواد غذائية في العام التالي.

إن هناك بعض النقاط الأخرى التي يجب أن نلاحظها فيما يتصل بهذه الحالة الأساسية، والتي تعد واحدة من أكثر الأمثلة النموذجية للألوهية المصطنعة. فلم يكن الميريا مرضياً إلا إذا تم شراؤه. "شراؤه بثمن"، مثل الأطفال الذين بُنِيوا كآلهة أساس في الجدران؛ أو كان ابن مريا السابق. أو بعبارة أخرى، كان من أصل إلهي بالنسب والميراث. وكثيراً ما كان الخونديون في محنة يبيعون أطفالهم باعتبارهم مريا، "معتبرين تطويب أرواحهم" (أو تأليههم، كما أقول) "أمراً مؤكداً، وموتهم، من أجل مصلحة البشرية، هو أعظم شرف ممكن". إن هذا الشعور بالتضحية كحالة "رجل واحد يموت من أجل الناس" هو الأكثر وضوحاً في رواياتنا، وهو أمر مثير للاهتمام بشكل خاص من خلال تشبيهه بالمنطق المسيحي. فقد عُرف ذات يوم أن رجلاً من قبيلة بانوا وبخ أحد الخونديين لأنه باع ابنته التي أرادت قبيلة بانوا الزواج منها مقابل مريا؛ ولقد سارع الخونديون إلى عزاء الأب المهان، قائلين: "لقد مات ابنك حتى يحيا العالم أجمع". وهنا وفي أماكن أخرى نجد فكرة إضافية عن القيمة التافهة المرتبطة بالتضحية، والتي لابد وأن نتناولها بمزيد من التفصيل في فصل لاحق. وكان من المفترض أن يضمن موت ميرياه ليس فقط المحاصيل الجيدة، بل وأيضاً "الحصانة من كل الأمراض والحوادث". وصاح الخونديون في أذنه المحتضرة: "لقد اشتريناك بثمن؛ فلا خطيئة علينا". ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الضحية كانت تُدهن

بالزيت، وهي النقطة التي تذكرنا باسم المسيح نفسه. ومرة أخرى، لا يجوز تقييد الضحية أو إظهار أي مقاومة؛ ولكن عظام ذراعيه وساقيه كانت تُكسر في كثير من الأحيان لجعل المقاومة مستحيلة. ومع ذلك، كان يتم تخديره أحياناً بالأفيون، وهو أحد السمات العادية في صناعة الآلهة، كما رأينا بالفعل، وهو التخدير الأولي. ومن بين الطرق المختلفة التي قتل بها مريا، أود أن أشير بشكل خاص إلى طريقة الإعدام بحشره حتى الموت في شق شجرة. وأذكر هذه النقاط هنا، رغم أنها تقاطع إلى حد ما المسار العام لحجتنا، وذلك بسبب أهميتها الكبرى باعتبارها مقدمة للنظرية المسيحية. والواقع أنني أعتقد أن الأسطورة المسيحية قد بُنيت في الأساس على تفاصيل مثل هذه التضحيات المبكرة لصنع الآلهة؛ وأعتقد أن المسيح هو في الأساس أحد هذه الآلهة الاصطناعية؛ وأثق في أن القارئ سوف يلاحظ بعناية بنفسه أثناء تقدمنا في هذا المقال كيف أن العديد من التفاصيل الصغيرة (مثل كسر العظام) تذكرنا بعدة طرق بأحداث آلام المسيح وصلبه.

ولكن أهل كوندز قد حوّلوا مفهوم صنع الآلهة الاصطناعية إلى شيء أثيري، وذلك بالسماح لضحية واحدة بالعمل في حقول عديدة معاً. وهناك متوحشون آخرون أكثر إسرافاً في استخدام الآلهة في زراعة المحاصيل. ولنأخذ مرة أخرى من مخزن السيد فريزر. كان الهنود في غواياكيل في أميركا الجنوبية يضحون بدماء البشر وقلوب الرجال حين يزرعون حقولهم. وكان المكسيكيون القدماء، الذين تصوروا الذرة ككائن شخصي يمر عبر مسار الحياة بالكامل بين وقت البذر والحصاد، يضحون بالأطفال حديثي الولادة حين تُزرع الذرة، والأطفال الأكبر سناً حين تنبت، وهكذا حتى تنضج تماماً، حين يضحون بالشيوخ. ألا يمكننا أن نقارن بين هذه الحادثة والحقيقة الفريدة التي مفادها أن الرومان كانوا يتخذون إلههم الزراعي الرئيسي ساتورنوس، إله البذر، ولكن كان لديهم أيضاً العديد من آلهة المحاصيل الفرعية الأخرى، مثل سيا، التي تتعامل مع الذرة عندما تنبت، وسيجيتيا، التي تتعامل مع الذرة عندما تنبت، وتوتيلينا التي تتعامل مع الذرة المخزنة في المخازن؟ (وسوف نجيب على اعتراض

واضح يستند إلى العديد من آلهة الطفولة والفنون العملية في روما في فصل لاحق). مرة أخرى، كان الباونيون يضحون بضحية بشرية سنويًا في الربيع، عندما يزرعون حقولهم. كانوا يعتقدون أن إغفال هذه التضحية سيؤدي إلى فشل محاصيل الذرة والفاصوليا والقرع تمامًا. وفي رواية إحدى هذه التضحيات بفتاة في عام 1837 أو 1838، قيل لنا: "بينما كان لحمها لا يزال دافئًا، تم تقطيعه إلى قطع صغيرة من العظام، ووضعه في سلال صغيرة، ونقله إلى حقل ذرة مجاور. وهنا أخذ الزعيم قطعة من اللحم من سلة، وعصر قطرة من الدم على حبات الذرة التي تم دفنها حديثًا. وتبعه الباقون، حتى تم رش كل البذور بالدم؛ ثم تم تغطيتها بالتراب. ويمكن الاستشهاد بالعديد من الحالات الأخرى من أمريكا.

وفي غرب أفريقيا، كانت إحدى ملوك القبائل تذبح رجلاً وامرأة في شهر مارس/آذار. وكانوا يقتلونهما بالمجارف والمعاول، ثم يدفنون جثتيهما في وسط حقل تم حرثه للتو. وفي لاجوس في غينيا، كان من المعتاد سنوياً أن يطعنوا فتاة صغيرة حية بعد الاعتدال الربيعي مباشرة من أجل تأمين محصول جيد. وما زال الناس يقدمون تضحية مماثلة سنوياً في بنين. فالماريموس، وهي قبيلة من البتشوانا، يذبحون إنساناً من أجل المحصول. وعادة ما يكون الضحية المختار رجلاً قصير القامة سميناً. ويتم القبض عليه بالعنف أو السُكر (لاحظ هذه التفاصيل) ويؤخذ إلى الحقول، حيث يقتل بين القمح "ليستخدم كبذرة". وبعد أن يتخثر دمه في الشمس، يحرق مع ذلك الجزء المقدس بشكل خاص، العظم الجبهي، واللحم المتصل به، والدماغ؛ ثم ينثر الرماد على الأرض لتخصيبه. ويحدث هذا النوع من نثر الرماد في كثير من الحالات، وسوف نلتقي به مرة أخرى في حالة أوزوريس.

وفي الهند، مرة أخرى، اختطف الغونديون، مثلهم في ذلك كمثل الخونديين، صبية البراهمة، واحتفظوا بهم كضحايا للتضحية بهم في مناسبات مختلفة. وفي أثناء البذر والحصاد، وبعد موكب نصر، كان أحد الصبية يُقتَل بسهم مسموم. ثم يُرش دمه على

الحقل المحروث أو المحصول الناضج، ثم يُلتهم لحمه على نحو مقدس. وسوف تستدعي النقطة الأخيرة مرة أخرى مزيداً من الفحص في مرحلة لاحقة.

ولن أتناول المزيد من هذه الحالات (من بين الآلاف الموجودة) خوفًا من أن أبدو مملًا. لكن التفسير الذي أضعه على الحقائق هو هذا. في البداية، لاحظ الرجال أن النباتات الغذائية تنمو بوفرة من تربة القبور التي تم تخصيبها جيدًا. ولاحظوا أن هذا الثراء نشأ من تصادف ثلاثة عوامل - الحفر، والجثة المقدسة، وبذور المواد الغذائية. وبمرور الوقت، لاحظوا أنه إذا حفرت على نطاق واسع بما فيه الكفاية ونثرت البذور بعيدًا بما فيه الكفاية، فإن جثة واحدة قادرة على تخصيب مساحة كبيرة. وينمو القبر في الحقل أو الحديقة. لكنهم ما زالوا يعتقدون أنه من الضروري دفن شخص ما في الحقل؛ وتشير معظم الأدلة إلى أنهم اعتبروا هذا الضحية شخصية إلهية؛ وأنهم اعتبروه المصدر الرئيسي للنمو أو الخصوبة؛ وأنهم سعوا إلى كسب رضائه من خلال معاملته بشكل جيد خلال الجزء الأكبر من حياته. ففي كثير من الروايات، ورد صراحة أن الضحية المقصودة كانت تُعامَل كإله أو كملك إلهي، وكانت تُزوَّد بكل أنواع الرفاهية حتى لحظة ذبحها. ومع مرور الوقت، أصبح مفهوم الحقل مختلفاً عن القبر أكثر وضوحاً، وتم الاعتراف بشكل كامل بالجزء الأكبر الذي تحمله البذور في الإجراء. ومع ذلك، لم يحلم أحد بزراعة البذور وحدها دون جسد الضحية. أصبح كل من الحبوب واللحم أو الدم يُنظَر إليهما على أنهما "بذرة": أي أن توافق الاثنين كان يُعتبر ضرورياً لإنتاج التأثير المطلوب من الإنبات والخصوبة. وحتى فترة متأخرة للغاية، ظلت التضحية الفعلية أو بعض بقاياها الغامضة جزءًا أساسيًا من الزراعة. وتزخر صفحات السيد فريزر بمثل هذه البقايا في العادات الشعبية الحديثة. ومن خلال عمله ومن مصادر أخرى، سأقدم بعض الأمثلة على هذه البقايا الأخيرة المحتضرة للخرافة البدائية.

في كتابه "علم الأعراق في التراث الشعبي"، يروي السيد جوم قصة مهرجان فريد من نوعه في إحدى القرى في جنوب الهند. وفي هذا المهرجان، يضحي كاهن يُعرف باسم بوتراج، مسلح بسوط إلهي، مثل سوط أوزوريس، بجاموس مقدس، يُطلق سراحه عندما يصبح عجلاً، ويُسمح له بالتغذية والتجول في القرية. وفي هذه الحالة، نجد أن استبدال الضحية البشرية بحيوان أمر شائع، وهو ما يصاحب تقدم الحضارة في أغلب الأحيان. وفي المهرجان الكبير، كان يتم قطع رأس الجاموس بضربة واحدة، ووضعه أمام ضريح إلهة القرية. وحوله توضع أواني تحتوي على الحبوب المختلفة، ويضغط عليها كومة من الحبوب المختلطة مع محراث مثقاب في المنتصف. ثم يتم تقطيع الجثة إلى قطع صغيرة، ويحصل كل مزارع على جزء لدفنه في حقله. وفي النهاية يتم تقسيم كومة الحبوب بين جميع المزارعين، ليدفنها كل منهم في حقله مع قطعة اللحم. وأخيرًا، دُفِن الرأس، ذلك الجزء المقدس للغاية، أمام معبد صغير مقدس لإلهة الحدود. وتمثل الإلهة حجر بلا شكل - لا شك أنه نقطة النهاية، أو بالأحرى حجر قبر إلهة اصطناعية، فتاة مدفونة تحت علامة حدودية قديمة. وهنا لدينا على ما يبدو المرحلة الأخيرة من نفس الطقوس التي أجريت في حالة الخوند مع ضحية بشرية. ومن الجدير بالذكر أنه كجزء من هذه المراسم، حدث صراع على أجزاء من الضحية.

وقد ذكر الكابتن هاركنس وآخرون شكلاً أكثر تخفيفاً من نفس الطقوس، كما يحدث بين قبائل باداغا في تلال نيلجيري. وسأختصر رواياتهم، مستخرجاً من كل عنصر العناصر الأكثر ارتباطاً بغرضنا. ومن بين هؤلاء البرابرة، يقوم كورومبار من الطبقة الدنيا بحراثة الثلم الأول، ويمنح بركاته للحقل، والتي لولاها لما كان هناك محصول. وهنا، يُنظَر إلى عضو العرق الأصلي بوضوح باعتباره كاهناً أو أحد أقارب الآلهة المحلية، ولابد وأن يحصل على تعاونه من الأجناس المتطفلة اللاحقة. ولكن كورومبار لا يبارك الحقل فحسب؛ بل إنه يضع حجراً في وسطه أيضاً؛ ثم يسجد أمام الحجر، ويضحي بتيس، ويحتفظ برأسه كمكافأة له. وهذه القيمة الخاصة للرأس الوحي الذي يحتفظ به الكاهن مهمة أيضاً. وعندما يحين وقت الحصاد، يُستدعى نفس الكورومبار مرة

أخرى، حتى يتمكن من حصاد أول حفنة من الذرة، وهي الحادثة التي لن يتضح أهميتها الكاملة إلا لأولئك الذين قرأوا تحليل السيد فريزر لعادات الحصاد. ولكن في هذه الحالة أيضًا، فإن مظهر الحجر المقدس يحمل الكثير من المعاني. لا نستطيع مقاومة الاستدلال بأننا هنا نتعامل مع بديل الحيوان للتضحية البشرية في نظام صنع الآلهة، حيث يتم ذبح الضحية، ووضع حجر لتحديد موقع التضحية، والحفاظ على الرأس كإله لإعطاء الوحي، بالطريقة التي نعرفها بالفعل. بمقارنة هذه الحالة بالحالة السابقة للجاموس المقدس والحالات السابقة من الرؤوس الأجداد المحفوظة كآلهة لأغراض الوحي، أعتقد أن الانتماء واضح للغاية بحيث لا يمكن تجاهله.

إن الأدلة على عادات مماثلة موجودة بكثرة في أماكن أخرى، لذا لا أستطيع أن أذكر سوى جزء صغير منها في الوقت الحالي، حتى لا أخصص مساحة كبيرة لمسألة ثانوية؛ وآمل أن أتناولها بالتفصيل بالكامل في مجلد لاحق. وهنا مثال واضح من كتاب السيد جوم "الإثنولوجيا في الفولكلور"، وسوف يتضح على الفور التشابه بينه وبين الأمثلة السابقة.

"في قرية هولن، الواقعة على أحد نتوءات جبل دارتمور، يوجد حقل مساحته حوالي فدانين، وهو ملك للرعية، ويُسمى حقل بلوي. وفي وسط هذا الحقل يقف عمود من الجرانيت (منهير) يبلغ ارتفاعه ستة أو سبعة أقدام. وفي صباح شهر مايو، قبل شروق الشمس، اعتاد شباب القرية التجمع هناك، ثم يتجهون إلى المستنقع، حيث يختارون خروفًا، وبعد مطاردة طويلة، يحضرونه منتصرين إلى حقل بلوي، ويربطونه بالعمود، ويقطعون حلقه، ثم يشويونه بالكامل، جلدًا وصوفًا، إلخ. وفي منتصف النهار، كان هناك صراع، مع خطر قطع الأيدي، من أجل الحصول على شريحة، حيث يُفترض أنها تمنح الحظ في العام التالي للآكل المحظوظ. وكعمل من أعمال الشجاعة، كان الشباب أحيانًا يشقون طريقهم عبر الحشد للحصول على شريحة للمختارين من بين الشابات، اللاتي حضرن جميعًا، في أفضل ملابسهن، وليمة الكبش، كما كان

يُطلق عليها. "الرقص والمصارعة وغيرها من الألعاب، إلى جانب المشروبات الوفيرة من عصير التفاح خلال فترة ما بعد الظهر، أطالت فترة الاحتفال حتى منتصف الليل."

وهنا نجد مرة أخرى العديد من السمات المثيرة للاهتمام في الطقوس البدائية المحفوظة لنا. فالارتباط بالحجر الذي يقدس إله القرية الأصلي واضح تمامًا. ولا شك أن هذا الحجر يمثل المكان الذي قُتِل فيه إله الأساس المحلي في عصور بعيدة جدًا؛ وبالتالي فهو المكان المناسب لتقديم تضحيات التجديد السنوية. واختيار صباح مايو للطقوس؛ والذبح عند العمود الحجري؛ وشواء الحيوان بالكامل؛ والصراع على القطع؛ والفكرة القائلة بأنها ستجلب الحظ، كل هذا يُظهِر بقاء الشعور البدائي. وينطبق نفس الشيء على عصير التفاح، حيث يشكل التسمم المقدس جزءًا لا يتجزأ من كل هذه الإجراءات. وكل تفصيلة، في الواقع، لها معناها لمن ينظر عن كثب؛ فالصراع في منتصف النهار له أهمية في حد ذاته، وكذلك إطالة العيد حتى منتصف الليل. لكننا نغفل دفن القطع في الحقول؛ حتى الآن يبدو أن الهدف البدائي للطقوس قد نُسي أو أُغفِل في ديفونشاير.

ويستشهد السيد جوم بذكرة أخرى أكثر قتامة من قرية إنجليزية أخرى. "يُوصَف عادة عيد العنصرة في أبرشية كينجز تينجتون، ديفونشاير، على النحو التالي: يُجر خروف حول الأبرشية في يوم الاثنين من عيد العنصرة في عربة مغطاة بأكاليل من الليلك والزنابق وغيرها من الزهور، عندما يُطلب من الأشخاص التبرع بشيء ما لتغطية نفقات الحيوان والنفقات المصاحبة؛ وفي يوم الثلاثاء يُذبح الخروف ويُشوى بالكامل في وسط القرية. ثم يُباع الخروف شرائح للفقراء بسعر رخيص. يُنسى أصل العادة، ولكن هناك تقليد يُفترض أنه يعود إلى أيام الوثنية، وهو على هذا النحو: عانت القرية من ندرة المياه، عندما نصح الكهنة السكان بالصلاة إلى الآلهة من أجل الماء؛ "وبعد ذلك، تفجرت المياه تلقائيًا في مرج على ارتفاع ثلث ميل تقريبًا فوق النهر، في

عقار يُدعى الآن رايدون، وهو ما يكفي تمامًا لتلبية احتياجات المكان، وفي الوقت الحالي يكفي، حتى في الصيف الجاف، لتشغيل ثلاثة مطاحن. ويقال إنه منذ ذلك الوقت، كان يتم التضحية بحمل كقربان شكر نذري في عيد العنصرة بالطريقة المذكورة أعلاه. تبدو المياه المذكورة وكأنها بركة كبيرة، حيث يمكن رؤية النفاثات تنبع منها في الطقس الممطر على ارتفاع بضع بوصات فوق السطح في أجزاء عديدة. وكان لها دائمًا اسم "المياه العادلة".

إنني أذكر هذه الحادثة الغريبة هنا، لأنها توضح لنا بوضوح الطريقة الغامضة التي تندمج بها مثل هذه العادات الإلهية ذات الأصول المختلفة مع بعضها البعض؛ وكذلك الطريقة التي ترتبط بها أفكار مختلفة في أماكن مختلفة بطقوس متشابهة للغاية. فقد أظهر السيد فريزر أن فكرة تعويذة المطر ترتبط ارتباطًا وثيقًا أيضًا بآلهة الزراعة؛ فلابد أن يبكي الخوند ميريا، وإلا فلن يكون هناك مطر في ذلك العام؛ ولابد أن يسيل دمه الأحمر، وإلا فلن ينتج الكركم لونه الأحمر المناسب. (قارن بين الدم الأحمر الذي سال من قرنفل بوليدوروس، ودم الهندي الذي يسيل من جذر الدم الكندي). وفي هذه الحادثة الأخيرة من مراسم الملك في تيجنتون، فإن تعويذة المطر هي التي بقيت بوضوح حتى أيامنا هذه: وهناك إشارات واضحة إلى تضحية بشرية قدمت لصنع إله النهر في الأزمنة الغابرة، والتي حلت محلها الآن ضحية حيوانية. ومع ذلك، فإن أكاليل الزهور من أزهار الليلك واللبورنوم وغيرها من الزهور هي زينة شائعة لإله الزراعة الاصطناعي؛ وقد ظهرت في طقوس ديونفيشيا ومهرجان أتيس، ولا تزال محفوظة في العديد من العادات الأوروبية.

إن الآلهة النهائية التي تحدثت عنها في الفصل السابق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآلهة الاصطناعية للزراعة؛ وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً إلى الحد الذي يجعل من المستحيل أحياناً فصلها عن بعضها البعض. وقد رأينا بالفعل بعض الأمثلة على هذا الارتباط؛ إذ ينتهي موكب الضحية المقدسة عادة بتطهير الحدود. وكثيراً ما يسبق هذا التطهير

رأس الضحية الثياثروبية. ويمتد مثل هذا الاحتفال في مختلف أنحاء الهند؛ ففي فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية، لا يزال قائماً في هيئة طقوس تُعرف باسم "بركة الحقول"، حيث يلعب الكاهن نفس الدور الذي يلعبه بين سكان تلال نيلجيري من قبل كورومبار من الطبقة الدنيا. وفي هذه الطقوس، يُحمل القربان المقدس حول حدود الرعية، كما يُحمل رأس الجاموس المقدس في المهرجان الهندي. وفي بعض الحالات، تتم زيارة كل حقل على حدة. لقد قيل لي وأنا صبي في نورماندي أن جزءًا من القربان المقدس (مسروق أو مخفي، كما أتصور) كان يُدفن أحيانًا في كل حقل، ولكنني لا أستطيع الآن الحصول على دليل يؤكد هذه التفاصيل الغريبة، ولا أصر على ذلك. ولكن يجب أن نتذكر أن القربان المقدس هو جسد المسيح، وأن وجوده في مثل هذه الحالات يشبه تمامًا حمل قطع المريا.

في إنجلترا عام 293، اندمجت هذه المراسم مع مراسم ضرب الحدود، التي سبق وصفها؛ على الرغم من اعتقادي أن أهمية الضحايا من الصبية، وضرورة ضربهم بالسياط كتعويذة للمطر، سوف تكون الآن أكثر وضوحًا مما كانت عليه عندما التقينا بها آخر مرة.

في كثير من الحالات، وفي مختلف أنحاء العالم، تحل حيوانات مختلفة محل إله الضحية البشري. وعلى هذا فإننا نتعلم من فستوس أن الرومان كانوا يضحون بجراء ذات شعر أحمر في الربيع، اعتقاداً منهم بأن المحاصيل سوف تنضج وتصبح حمراء اللون؛ ولا شك أن هذه الجراء، مثلها كمثل التضحية بالحمل في هولن وكينغز تينتون، كانت بديلاً عن الضحية البشرية الأصلية. ومع ذلك، فإن المصريين، كما سنرى، كانوا يضحون برجال ذوي شعر أحمر كممثلين لأوزوريس، الذي تصوروه كإله للذرة. وفي بعض الحالات، لدينا بالفعل أدلة تاريخية على استبدال الإله البشري في التواريخ الأخيرة بضحية حيوانية إلهية؛ على سبيل المثال، في تشينا كيميدي، بعد أن قمع البريطانيون التضحيات البشرية، حلت الماعز محل ميريا المقدسة.

لقد جمع مانهارد الكثير من الأدلة على العادات الغريبة التي لا تزال قائمة (أو موجودة مؤخراً) في أوروبا الحديثة، والتي تبدو وكأنها بقايا من نفس الخرافة في شكل مخفف للغاية. وتُعرف هذه العادات عمومًا باسم "تنفيذ الموت" أو "دفن الكرنفال". وتُمارس هذه العادات في كل دولة تقريبًا في أوروبا، ولا تزال بقاياها باقية حتى في إنجلترا. ويتلخص جوهر هذه الاحتفالات في استبدال الضحية البشرية بتمثال بشري. ويتم التعامل مع هذا التمثال كما كان يتم التعامل مع الضحية في السابق. ففي بعض الأحيان يتم حرقه، وفي أحيان أخرى يتم إلقاؤه في النهر، وفي أحيان أخرى يتم دفنه قطعة قطعة. ففي سيليزيا النمساوية على سبيل المثال، يتم حرق التمثال، وبينما يتم حرقه يدور صراع عام على القطع، التي يتم انتشالها من النيران بأيدي عارية. (قارن بين الصراع بين الخوند، وأيضًا في مهرجان بوتراج وتضحية هولن). يربط كل شخص يحصل على جزء من التمثال بغصن من أكبر شجرة في حديقته، أو يدفنه في حقله، في الاعتقاد بأن هذا يؤدي إلى نمو المحاصيل بشكل أفضل. في بعض الأحيان تقوم حزمة من الذرة بواجبها للضحية، ويتم دفن أجزاء منها في كل حقل كسماد. في جبال هارتز، في احتفالات مماثلة، يتم وضع رجل حي على حوض خبز ويحمل مع التراتيل إلى القبر؛ ولكن يتم استبداله بكأس من البراندي في اللحظة الأخيرة. هنا تكون الروح معادلة للإله. في حالات أخرى يتم تغطية الرجل بالقش، وبالتالي دفنه برفق. في إيطاليا وإسبانيا، حملت عادة مماثلة اسم "نشر المرأة العجوز". في باليرمو، تم جر امرأة عجوز حقيقية عبر الشوارع على عربة، وأُجبرت على الصعود إلى سقالة، حيث شرع جلادان مزيفان في قطع مثانة دموية تم تثبيتها حول عنقها. فتدفق الدم، وتظاهرت المرأة العجوز بالإغماء والموت. ومن الواضح أن هذا تخفيف للتضحية البشرية. وفي فلورنسا، تم قطع تمثال محشو بالجوز والتين المجفف للمرأة العجوز. وفي منتصف الصوم الكبير، تم قطع هذا التمثال من المنتصف في سوق ميركاتو نوفو، وعندما سقطت الفواكه المجففة، تسابق الحشود للحصول عليها، كما تسابق المتوحشون للحصول على أجزاء من الضحية البشرية أو ممثلها الحيواني. وقد جمع مانهارد والسيد فريزر كمية كبيرة من المواد حول هذا

الموضوع. ولعل الحالة الأكثر إثارة للاهتمام على الإطلاق هي مراسم جنازة ياريلو الروسية. في هذه الحالة، اختار الناس رجلاً عجوزًا وأعطوه نعشًا صغيرًا يحتوي على شخصية تمثل ياريلو. ثم خرج من المدينة، وتبعته النساء يرددن التراتيل، كما رثت نساء سوريا أدونيس، ورثى المصريون أوزوريس. وفي الحقول المفتوحة حُفر قبر، وأُنزل التمثال فيه وسط البكاء والعويل.

كما تحتفظ الأساطير والفولكلور بالعديد من آثار الصلة البدائية. ففي الأسطورة الأميركية الحقيقية عن هياواتا، يتصارع البطل مع موندامين ويهزمه، وفي المكان الذي يدفنه فيه ينبت نبات الذرة أو الذرة الهندية لأول مرة. وتحدث حوادث مماثلة في ملحمة كاليفالا الفنلندية وغيرها من الملاحم البربرية. ووفقاً للسيد تشالمرز، فإن قبيلة موتو في غينيا الجديدة تقول إن البطاطا نبتت أولاً من عظام رجل مقتول دُفن في قبر. وبعد فترة من الوقت، فُتِح القبر، ووجد أن العظام لم تعد عظاماً، بل بطاطا كبيرة وصغيرة بألوان مختلفة.

ولكي نستكمل دراستنا الأولية لهذه الآلهة الاصطناعية للزراعة، قبل أن ننتقل إلى دراسة آلهة الذرة وآلهة الخمر العظيمة، فقد يكون من الجيد أن نفترض أنه من الناحية النظرية على الأقل يبدو أن الضحية الأصلية كانت ملكًا أو زعيمًا، وهو نفسه إله، أو على الأقل ابنًا أو ابنة ملك، من السلالة الإلهية، الذي تتدفق في عروقه دماء الآلهة الأوائل. ويبدو أنه في وقت لاحق، سُمح للملك المؤقت غالبًا بأداء واجبات الملك الحقيقي؛ ولهذا الغرض يبدو أنه كان يرتدي غالبًا ثيابًا ملكية، ويعامل بتكريمات إلهية وملكية. وسوف تظهر أمثلة على هذا التعقيد في الجزء التالي. وفي الوقت الحاضر، سأشير فقط إلى المجموعة المثيرة للاهتمام من البقايا التي جمعها السيد جوم، حيث يتم انتخاب الملوك أو رؤساء البلديات المؤقتين في إنجلترا سنويًا، على ما يبدو من أجل التضحية بهم فقط. وفي العديد من هذه الحالات نحصل على أجزاء مجزأة فقط من الطقوس الأصلية؛ ولكن من خلال تجميع كل هذه العناصر

معًا، نحصل في المجمل على صورة كاملة إلى حد ما للاحتفالات الاحتفالية الأصلية. في سانت جيرمانز في كورنوال، كان يتم اختيار العمدة المزيف تحت شجرة الجوز الكبيرة في معرض مايو؛ وكان يتم إخضاعه للسكر طوال الليل، حتى يصبح مؤهلاً للمنصب، وكان يتم رسمه في تلك الحالة حول شجرة الجوز، تمامًا كما رأينا عمدة بوفي يمتطي حصانه حول حجر بوفي عند توليه منصب العمدة. كما أظهر عمدة سانت جيرمانز شخصيته الملكية من خلال ركوبه على عربة أو عربة السيادة التوتونية والكلتية القديمة. في لوستويثيل، كان العمدة المزيف يرتدي تاجًا على رأسه، وصولجانًا في يده، وكان يُحمل سيف أمامه. وفي بينرين، كان العمدة يتقدمه حاملو المشاعل ورقباء البلدة، ورغم أنه لم يحرق فعلياً، سواء في اللعب أو في التمثال، فقد أشعلوا النيران وأطلقوا الألعاب النارية، التي تربط الاحتفال بتضحيات المحرقة التي يقوم بها محرقي الجثث مثل مهرجان ميلكارث الصوري وبعل طرسوس. وفي هالجافر مور، بالقرب من بودمين، ألقي القبض على غريب، وحوكم محاكمة مهيبة في الرياضة، ثم درب على الوحل أو أساء معاملته على نحو آخر. وفي بولبيرو، كان العمدة يعامل عموماً "كشخص غبي أو مخمور"، وفي كلتا الحالتين، وفقاً للأفكار المبكرة، كان إلهياً؛ وكان يعامل بالبيرة، وبعد "استكمال تجواله في البلدة"، كان حراسه يدفعونه على كرسي متحرك إلى البحر. وهناك سُمح له بالخروج مرة أخرى، كما يفعل الضحية الوهمية في العديد من الاحتفالات الأوروبية؛ لكن في الأصل، لا أشك في أنه غرق كتعويذة المطر.

كانت هذه الاحتفالات، في الوقت الذي علمت به سلطاتنا بها، قد انحدرت إلى مستوى التسلية الصبيانية؛ ولكنها تحتوي على عناصر مستمرة ذات أهمية مأساوية للغاية، وهي تشير إلى مهرجانات صنع الآلهة البشعة والدموية. وفي معظمها نرى ما زال قائماً اختيار الضحية الراغبة أو غير الواعية؛ وتفضيل الغريب أو الأحمق أو الأحمق؛ وعادة تخدير الشخص المختار؛ ومعاملة الضحية كملك أو عمدة أو حاكم؛ وجلده أو السخرية منه؛ وموته النهائي؛ وحرقه على محرقة، أو غرقه كتعويذة للمطر. وكل هذه

النقاط ملحوظة بشكل أكثر وضوحًا في الشكل الآخر من البقاء على قيد الحياة حيث يتم تمثيل الملك أو الضحية الإلهية، ليس بملك ساخر أو مؤقت، ولكن بصورة أو تمثال. وهذه هي الحالة الشائعة لملك الكرنفال، الذي يُحرق في النهاية بكل زخارفه، أو يُلقى في النهر. يبدو أن جاي فوكس، رغم تعلقه بشخصية تاريخية غير محبوبة، هو آخر ممثل إنجليزي ضعيف لمثل هذه الضحية البشرية. لن أتناول هذه النقطة بمزيد من التفصيل (مع مراعاة ضيق المساحة)، ولكنني سأحيل القارئ إلى أمثلة إضافية من كتاب "مجتمع القرية 297" للسيد جوم، ومجموعة الأمثلة الرائعة للسيد فريزر في كتاب "الغصن الذهبي".

إن الاستنتاج العام الذي أود أن أستنتجه من كل هذه الأمثلة هو باختصار ما يلي: ربما بدأت الزراعة ببذر الحبوب عن طريق الخطأ على تلال الموتى. وتدريجيًا، تبين أنه بتوسيع المنطقة المحفورة أو المحروثة وبذرها في كل مكان، ينمو عليها محصول، بشرط دفن جثة في المنتصف دائمًا. وبمرور الوقت، تم توفير جثث إلهية سنويًا لهذا الغرض، ودفنها في احتفال كبير في كل حقل. ومع مرور الوقت، تبين أنه يكفي تقديم ضحية واحدة لقبيلة أو قرية بأكملها، وتقسيم جثتها على أجزاء بين حقول المجتمع. لكن المحاصيل التي تنمو في مثل هذه الحقول كانت لا تزال تعتبر هدايا مباشرة من الموتى والضحايا المؤلهين، الذين كان من المفترض أن تنعشهم أرواحهم وتخصبهم. ومع انتشار الزراعة، أصبح الناس على دراية أخيرًا بمفهوم البذور والحرث باعتبارهما العنصرين الأساسيين حقًا في هذه العملية؛ ولكنهم استمروا في إعطاء الضحية أهمية دينية، واعتقدوا في ضرورة وجوده لجلب الحظ السعيد في الحصاد. ومع التخفيف التدريجي للوحشية، كان يتم استبدال التضحية الحيوانية بتضحية بشرية؛ ولكن شظايا الحيوان كانت لا تزال توزع في الحقول بدفن مقلد أو رمزي، تمامًا كما تم توزيع شظايا الإله البشري في السابق. وأخيرًا، تحت تأثير المسيحية وغيرها من الديانات المتحضرة، تم استبدال الضحية البشرية بتمثال، على الرغم من الاحتفاظ

غالبًا بتضحية حيوانية جنبًا إلى جنب معها، وقتل إنسان حقيقي على سبيل المزاح في التمثيل الإيمائي.

ولكنني لاحظت في المراحل المبكرة أن الحقل أو الحديقة يحتفظان أحيانًا بشكل تلة. وهكذا كتب السيد تيرنر، المبشر الساموي، عن أهل تانا في نيو هيبريدس:

"إنهم يبذلون قدرًا كبيرًا من الجهد في مزارع البطاطا، ويحافظون عليها في حالة جيدة. فإذا نظرت من فوق سياج من القصب، سترى هناك عشرة أو عشرين كومة من التراب، بعضها يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام ومحيطه ستون قدمًا. وهي عبارة عن أكوام من التراب السائب بدون حجر واحد، وكلها تُلقى باليد. وفي الوسط يزرعون واحدة من أكبر حبات البطاطا كاملة، وعلى الجانبين بعض حبات البطاطا الأصغر حجمًا."

يبدو هذا شبيهًا جدًا بجثة في أعماقها. أود بشدة أن أعرف ما إذا كان هناك ضحية مدفونة فيها.

ولعلني أضيف أن فكرة كون المحصول هدية من السلف المؤله أو الضحية الإلهية البشرية ما زالت قائمة في العادة الشائعة المتمثلة في تقديم الثمار الأولى للموتى، أو للآلهة، أو للزعيم الحي، ممثلهم وذريتهم. ولقد قدمت بعض الأدلة على تكافؤ هذه الطقوس الثلاث في مقالي عن عبادة الأشجار الملحق بترجمتي لكتاب "أتّيس" لكاتولوس. على سبيل المثال، يقول السيد تورنر عن نفس هؤلاء التانيزيين في نيو هيبريدس:

"كانت أرواح أسلافهم الراحلين بين آلهتهم. وكان الزعماء الذين بلغوا سنًا متقدمة، بعد وفاتهم، يُقدَّسون ويُنادى عليهم بأسمائهم ويصلون إليهم في مناسبات مختلفة. وكان من المفترض أن يشرفوا بشكل خاص على نمو البطاطا وأشجار الفاكهة المختلفة. وكانوا يقدمون لهم الثمار الأولى، وفي أثناء قيامهم بذلك كانوا يضعون

القليل من الثمار على أحد أغصان الشجرة الحجرية أو على رفوفها، أو على مذبح مؤقت... في شكل طاولة.... وكان الجميع هادئين، وكان الزعيم يتصرف كرئيس كهنة ويصلي بصوت عالٍ على هذا النحو: "أبي الرحيم، إليك بعض الطعام؛ كل منه؛ كن لطيفًا معنا بسببه". وبدلاً من قول آمين، اتحد الجميع في صرخة عالية."

وهناك أدلة مماثلة وفيرة في أماكن أخرى. وسألخصها هنا قليلاً. ففي كل عام، عندما يجمع أهل آسام باكورة ثمارهم، يقدمونها لأسلافهم، وينادونهم بأسمائهم، ويصفقون بأيديهم لاستدعائهم. أما أهل كوبي وساريبوتي، وهما قريتان في سيرام، فيقدمون باكورة ثمار الأرز على شكل أرز مطبوخ لأسلافهم كرمز للامتنان. ويطلق على هذا الاحتفال "إطعام الموتى". وفي جزيرتي تينمبر وتيمورلاوت، تقدم باكورة ثمار الأرز لأرواح الأسلاف، الذين يُعبدون كآلهة حارسة أو آلهة منزلية. ويعبد أهل لوزون في المقام الأول أرواح أسلافهم، ويقدمون لهم باكورة ثمار الحصاد. وفي فيجي، تقدم أقدم ثمار البطاطا إلى أشباح الأسلاف في الحظيرة الحجرية المقدسة؛ ولا يجوز لأحد أن يتذوق المحصول الجديد إلا بعد هذا العرض.

وفي حالات أخرى، تقدم القرابين للآلهة وليس للأشباح، وإن كان التمييز بين المتوحشين صعباً إلى حد كبير. ولكن في حالات غير قليلة، تقدم الثمار الأولى، ليس للأرواح أو الآلهة على الإطلاق، بل للملك الإلهي نفسه، الذي هو الممثل الحي والنظير الأرضي لأسلافه المتألهين. وهكذا في أشانتي، يقام مهرجان الحصاد في سبتمبر/أيلول، عندما تنضج البطاطا. وخلال المهرجان يأكل الملك البطاطا الجديدة، ولكن لا يجوز لأي من الناس أن يأكلها حتى نهاية المهرجان، الذي يستمر أسبوعين. يقدم الهوفاس، في مدغشقر، الحزم الأولى من الحبوب الجديدة للملك. وتُحمل الحزم في موكب إلى القصر من وقت لآخر مع نضج الحبوب. وعلى هذا النحو، في بورما، عندما تنضج ثمار البانجاتي، كان بعضها يُؤخذ إلى قصر الملك ليأكل منها؛ ولا يجوز لأحد أن يتناولها أمام الملك. باختصار، ما يُقَدَّم في مكان ما للزعيم الحي يُقَدَّم في

مكان آخر لسلفه الميت، ويُقَدَّم في مكان ثالث للإله العظيم الذي نما ببطء من بين يدي الملك. الإله هو الملك الميت؛ والملك، كما في مصر القديمة، هو الإله الحي، ونسل الآلهة، أسلافه المؤلهين. والواقع أن الثمار الأولى تبدو أحياناً وكأنها تُقَدَّم للضحية البشرية نفسها، بصفتها مؤلهة، وأحياناً أخرى لأدونيس، أو أوزوريس، الذي يمثل تجسيده المتبلور. ويبدو أن مهرجان الحصاد لدينا يحافظ على القربان في شكل مسيحي.

وأخيرًا، أود أن أضيف أنه في كثير من الحالات يبدو الأمر كما لو أن ضحايا الزراعة الإلهية الثلاثمائة كانوا يعتبرون الملك شخصيًا، وتجسيدًا لإله القرية أو القبيلة، وكانوا يقدمون أنفسهم كقربان إلى أنفسهم عند الحجر الذي يشكل النصب التذكاري والمذبح للإله البدائي. وسوف نرى أمثلة على هذه الفكرة عندما ننتقل إلى دراسة آلهة الذرة وآلهة الخمر العظيمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

الفصل الرابع عشر - آلهة الذرة والنبيذ.

في المجتمعات المتقدمة، أصبحت آلهة الزراعة التي تناولناها في الفصل السابق تكتسب أسماء محددة مثل أتيس وأدونيس، وتتخصص كآلهة للذرة أو الخمر أو النخيل أو الحصاد، وترتقي إلى مكانة عظيمة في الديانات المختلفة. سأناقش بالتفصيل أهم هذه الحضارات في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث نشأت المسيحية لأول مرة، وأبدأ بديونيسوس.

إحدى السمات البارزة لمهرجان بوتراج في جنوب الهند، الذي وصفه السير والتر إليوت بدقة، هو طابعه المختلط. باعتباره نموذجًا لمراسم صنع الآلهة المختلط، بمهرجانه الذي يستمر خمسة أيام، يستحق وصفًا أكثر شمولاً. يقام المهرجان بالقرب من معبد إلهة القرية، التي تُعبد في شكل حجر غير متناسق ملطخ باللون الأحمر القرمزي، وهو الممثل المحتمل لأول ضحية للتأسيس البشري .وقد أقيم مذبح خلف هذا المعبد للإله بوتراج، إله الزراعة. كان المهرجان تحت إشراف المنبوذين من السكان الأصليين، وكان يحضره جميع الطبقات الدنيا، بما في ذلك فتيات الرقص في المعبد والرعاة. خلال المهرجان، احتل هؤلاء الناس المركز الأول مؤقتًا في القرية، وكأنهم يشكلون بلاط الملك المؤقت، ويمثلون العبادة المحلية المبكرة التي يخشى الغزاة من إهانة آلهتها. لأن موتى الجنس المهزوم يمتلكون الأرض، فإن الغزاة المهاجرين في كل مكان لديهم خوف خرافي من إثارة استياءهم.

في اليوم الأول من العربدة، اختار الناس من الطبقة الدنيا واحدًا منهم ككاهن أو بوتراج. في اليوم الثاني من العيد، يتم إلقاء الجاموس المقدس، الذي يحمل صفة الضحية الإلهية البشرية، أمام الإلهة؛ ثم يتم قطع رأسه بضربة واحدة، ووضعه أمام الضريح، ورجل واحدة في فمه. ثم يتم تقطيع الجثة وتسليمها إلى المزارعين لدفنها في حقولهم. بعد ذلك يتم جمع الدم والأحشاء في سلة كبيرة؛ ثم يأخذ الكاهن القائم على الخدمة، وهو رجل من الطبقة الدنيا يحمل اسم بوتراج، جديًا حيًا، ويقطعه إلى

قطع فوق الطعام. ثم توضع السلة على رأس رجل عارٍ من طبقة صانعي الجلود، يركض بها حول حدود القرية، وينثر الشظايا يمينًا ويسارًا أينما ذهب. كان بوتراج مسلحًا بسوط مقدس، مثل أوزوريس؛ وكان هذا السوط نفسه موضع تبجيل عميق.

في اليومين الثالث والرابع، يتم ذبح العديد من الجاموس والأغنام؛ وفي اليوم الرابع، تسير النساء عاريات إلى المعبد، مرتديات أغصان الأشجار فقط؛ وهي ممارسة دينية شائعة. في اليوم الخامس والأخير، تسير الجماعة كلها في مسيرة موسيقية إلى معبد القرية، وتقدم ذبيحة ختامية عند مذبح بوتراج. كان هناك خروف مخفي بالقرب منه. بعد أن وجده بوتراج بعد عملية بحث مزعومة، جعله فاقد الوعي بضربة من سوطه، أو بتمريرات سحرية، وهو ما يمثل بقاء فكرة الضحية الطوعية. ثم ربط المساعدون يدي بوتراج خلف ظهره، وبدأ الجميع يرقصون حوله بفرحة عارمة. وانضم بوتراج إلى الإثارة، وسرعان ما وقع تحت تأثير الإله. وقاده مقيدًا إلى المكان الذي كان فيه الخروف يرقد بلا حراك. وحمله الهيجان الإلهي، واندفع نحوه، وأمسكه بأسنانه، ومزق جلده، وأكل حلقه .وعندما مات تمامًا، رفعوه؛ وقُدِّم له طبق من ذبيحة اللحم؛ لقد قام بدفع وجهه الملطخ بالدماء فيه، ثم دُفن مع بقايا الحمل بجانب المذبح. بعد ذلك، تم فك ذراعيه، وهرب من المكان. يمكنني أن أضيف أنه كقاعدة عامة، يجب على قاتل الإله في كل مكان أن يهرب من انتقام عابديه، الذين بعد مشاركتهم في الهجوم، يتظاهرون بالغضب بمجرد اكتمال الذبيحة.

ثم انصرف بقية الحاضرين إلى أمام المعبد، حيث تم توزيع كومة من الحبوب التي تم إيداعها في اليوم الأول بين جميع المزارعين، ليقوم كل واحد منهم ببذرها في الحقل بقطعة لحمه. وبعد ذلك، تم توزيع رؤوس الجاموس والأغنام المكدسة التي تم ذبحها في اليومين الثالث والرابع. ومن الواضح أن هذه الرؤوس كانت تعتبر مقدسة مثل الرؤوس الإلهية عمومًا في جميع البلدان والعصور. وتم توزيع حوالي أربعين رأسًا من رؤوس الأغنام بين بعض الأشخاص المتميزين؛ أما بالنسبة للباقي،

فقد حدث تدافع عام، وسرعان ما تدحرج رجال من جميع الطبقات معًا على الأرض في كومة من الدماء العفنة. أما بالنسبة لرؤوس الجاموس، فقد تنافس عليها المنبوذون فقط. ومن كان محظوظًا بما يكفي للحصول على رأس من أي نوع، فقد حمله ودفنه في حقله. وقد جمع السيد جوم العديد من الأمثلة المناسبة حول الأهمية الخاصة للرأس في كل هذه التضحيات.

وانتهت الإجراءات بموكب حول الحدود؛ ودفن رأس الجاموس المقدس بالقرب من ضريح إلهة القرية؛ واندلاع حفلة ماجنة مثالية، "قاعدة سوء الإدارة"، حيث انخرط كبير الموسيقيين في إساءة جامحة لجميع السلطات، المحلية أو البريطانية.

لقد قدمت وصفًا مطولًا لهذا المهرجان الفريد، جزئيًا لأنه يلقي الضوء على الكثير مما حدث من قبل، ولكن جزئيًا أيضًا لأنه يساعد في تفسير العديد من العناصر في عبادة آلهة الذرة والخمر العظيمة. هناك نقطة ذات أهمية أساسية يجب ملاحظتها هنا وهي أن الكاهن الذي يقوم بالاحتفال، والذي كان في وقت من الأوقات إلهًا وضحية أيضًا، يُدعى بوتراج مثل الإله الذي يمثله. وعلى هذا النحو، في فريجيا، كان أتيس الضحية وأتيس الكاهن يحملان اسم أتيس؛ وعلى هذا النحو في مصر، كان يُطلق على قربان أوزوريس السنوي اسم أوزوريس، الذي يمثله.

إذا كنت محقًا، إذن، في تشبيه العيدين، فإن ديونيسوس كان في الأصل إلهًا للذرة، ثم إلهًا للكروم، يُذبح ويُدفن سنويًا حتى تتمكن دماؤه من تسميد الحقل أو الكرم. في العصر الهوميري، كان لا يزال إلهًا عامًا للزراعة: ولم يصبح إلا لاحقًا إلهًا مميزًا للعنب وإلهًا للنبيذ. أعتقد أنه كان هناك في الأصل ديونيسوس في كل قرية؛ وكان هذا الضحية الإلهية يُقدم سنويًا، بنفسه، في طقوس شهوانية مثل طقوس بوتراج. لقد أشار السيد لورانس جوم بالفعل جزئيًا إلى هذه المعادلة بين العادة الهيلينية والهندية. إن أقدم شكل من أشكال عبادة ديونيسوس، بناءً على هذه الفرضية، هو الشكل الذي بقي في خيوس وتينيدوس، حيث كان يتم تمزيق إنسان حي إلى أشلاء

بطريقة شهوانية في عيد ديونيسوس. في أوركومينوس، كانت الضحية البشرية عادة امرأة من عائلة أولييه (لذلك كان هناك نساء ديونيسوس): في المهرجان السنوي، كان كاهن ديونيسوس يطارد هؤلاء النساء بسيف مسلول، وإذا أمسك إحداهن، كان له الحق في قتلها. (هذه هي الضحية المقدسة). في أماكن أخرى، تم تغيير الاحتفال في العصور التاريخية؛ لذلك في بوتنيس، في بيوتيا، كان من المعتاد ذات يوم قتل طفل باعتباره ديونيسوس؛ ولكن في وقت لاحق، تم استبدال الماعز، الذي تم تحديده بالإله، بالضحية البشرية الأصلية. يتضح تكافؤ الضحية الحيوانية مع الإله البشري من حقيقة أنه في تينيدوس، تم وضع حدوة العجل حديث الولادة الذي تم التضحية به لديونيسوس - أو كديونيسوس - في أحذية، بينما كانت البقرة الأم تُعتنى بها مثل امرأة في المخاض.

وفي أماكن أخرى نجد طقوساً أخرى تشبه إلى حد كبير النمط الهندي. فبين أهل كريت كانوا يضحون بديونيسوس كل سنتين في هيئة ثور؛ وكان المتعبدون يمزقون الحيوان الحي إلى أشلاء بأسنانهم. ويقول السيد فريزر إن تمزيق الثيران والعجول الحية وابتلاعها كان يبدو سمة منتظمة في طقوس ديونيسوس. وفي بعض المدن أيضاً كان الحيوان الذي حل محل الضحية البشرية هو الجدي. وعندما كان أتباع ديونيسوس يمزقون عنزة حية ويشربون دمها، كانوا يعتقدون أنهم يلتهمون جسد ودم الإله الحقيقيين. ويشكل أكل وشرب الإله نقطة مهمة، وسوف نعود إليها مرة أخرى في مرحلة لاحقة من بحثنا.

لا أرغب في الخوض طويلاً في الحديث عن أي إله، أو بالأحرى عن فئة من الآلهة؛ لذلك سأقول باختصار هنا إنه عندما أصبح ديونيسوس ضحية إله الكرمة السنوي أو كل عامين، كان من المحتم أن يرى عابدوه قيامته وتجسده في الكرمة، وأن يعتبروا الخمر الذي تنتجه دم الإله. في هذه الحالة، كان التعرف طبيعيًا بشكل خاص، لأنه لم يكن بإمكان كل عابد أن يشعر بالإله في الخمر؟ ألم تكن الروح الإلهية الموجودة فيه

تلهمه وتسكره؟ كان "الامتلاء بالإله" هو التعبير الطبيعي عن النشوة الناتجة عن ذلك؛ وبالتالي فإن عبادة روح الخمر هي واحدة من تلك التي تقوم على أساس شخصي أكيد وأكثر حميمية.

إن موت ديونيسوس وقيامته يشكلان بالتالي حقيقة مادية. فالإله يقتل سنوياً في الجسد، كإنسان أو ثور أو عنزة؛ ثم ينهض من جديد في الكرمة، ليبذل دمه مرة أخرى لصالح أتباعه. فضلاً عن ذلك، فقد يُستخدم كسماد للعديد من الأشجار الأخرى؛ ولهذا نجد أن لديونيسوس وظائف عديدة. فهو يُعبَد على نحو متنوع باعتباره ديونيسوس الشجرة، وبشكل أكثر تحديداً باعتباره ديونيسوس شجرة التين والتفاح المثمرة. وكانت صورته، مثل صور آلهة الأشجار الأخرى التي صادفناها بالفعل، غالباً ما تكون عموداً منتصباً، بلا ذراعين، ولكنه ملفوف (مثل عشيرة) في عباءة، وقناع ملتحٍ يمثل الرأس، في حين كانت الأغصان الخضراء البارزة من القناع تميز شخصيته النباتية. وكان راعياً للأشجار المزروعة؛ وكانت الصلوات تُقَدَّم إليه لكي يجعل الأشجار تنمو؛ ولقد كان يُكَرَّم من قِبَل مزارعي الفاكهة، الذين أقاموا له تمثالاً على هيئة جذع شجرة طبيعي، في وسط بساتينهم. (قارن ذلك الأثر المهين والنفعي الأخير، الفزاعة الحديثة). وللحصول على حقائق أخرى مثيرة للاهتمام بنفس القدر، أود أن أحيل القارئ مرة أخرى إلى السيد فريزر، الذي لا ينبغي لي أن أتعمق في مخزونه الغني. يبدو لي واضحًا من مجموعته للحقائق أنه كان هناك في الأصل في كل مكان ديونيسوس محلي منفصل، أو ضحية سنوية لإله رجل أو إلهة امرأة (تم استبدالها لاحقًا بوحش)، وأن عبادة ديونيسوس الفرد لم تنتقل إلا ببطء إلى العبادة العامة لإله واحد مثالي عظيم ديونيسوس. الآلهة العظماء هم في المقام الأول من الدرجة الأولى، وليسوا أفرادًا.

وقد أشار السيد جوم إلى ثلاث نقاط تشابه مثيرة للاهتمام بين طقوس ديونيسوس ومهرجان بوتراج الهندي. ففي المقام الأول، يُمثَّل ديونيسوس أحيانًا لعابديه برأسه

فقط. وهو بلا شك رأس محفوظ من وحي الوحي؛ وهو في كل الأحوال يوازي أهمية الرأس في الاحتفال الهندي. وفي المقام الثاني، يُطرد من يضحي بالعجل في تينيدوس ويُرجم بالحجارة بعد إتمام الطقوس. وهو ما يشبه فرار بوتراج من المكان بعد ذبح الحمل. وفي المقام الثالث، كانت النساء العابدات لديونيسوس يحضرن الطقوس عاريات، متوجات بالأكاليل، وملطخات بالتراب. وهو ما يشبه عابدي النساء العاريات المحاطين بأغصان الأشجار في المهرجان الهندي. وتتكرر هذه النقاط الثلاث بكثرة في احتفالات مماثلة في أماكن أخرى.

إنني أتجاهل الأساطير المجردة، باعتبارها من الأمور التي تفسد النصيحة، وأقتصر اهتمامي على العناصر الدينية والعملية البحتة في العادات والعبادات. ولكن من الجدير هنا أن نشير إلى أسطورة ديونيسوس الكريتية، التي حفظها لنا فيرميكوس ماتيرنوس في شكل روماني، باعتبارها أسطورة توضيحية. ففي هذه الأسطورة نجد ديونيسوس كابن زيوس، ملك كريت؛ وهذه الأسطورة، التي رفضها السيد فريزر بغطرسة باعتبارها "أسطورة يوهيمرية"، تتضمن على الأقل الفكرة القديمة القائلة بأن ضحية ديونيسوس كان في البداية ملكاً إلهياً، مرتبطاً بالدم بالإله الأعلى أو مؤسس المجتمع. وكانت هيرا، زوجة زيوس، تغار من الطفل، فأغرته إلى كمين، حيث هاجمه أتباعها من التيتان، الذين قطعوه إرباً، وسلقوا جسده بأعشاب مختلفة، وأكلوه. إن أشكالاً أخرى من الأسطورة تخبرنا كيف قامت أمه ديميتر بجمع بقاياه الممزقة، فأعادته إلى شبابه. ولكن في أغلب الأحيان، يكون ديونيسوس ابناً لسميلي، وهناك روايات أخرى عديدة عن طريقة بعثه. ويكفينا في هذه الروايات أن إله الخمر، بعد أن يُقتَل ويُقطَّع إرباً إرباً، ينهض من بين الأموات، ويصعد غالباً إلى أبيه زيوس في السماء. إن البعث، الذي تم تمثيله بشكل واضح، شكل في العديد من الأماكن جزءاً من الطقوس؛ وإن كنت لا أستطيع أن أتفق مع اقتراح السيد فريزر الواضح وغير المعتاد (بالنسبة له) بأن الطقوس نشأت من الأسطورة؛ فأنا أرى أن العكس تماماً هو ترتيب التطور.

وعلى العموم، ورغم أنني لا أنكر أن الإغريق اللاحقين تصوروا ديونيسوس باعتباره إلهاً واحداً أعلى للنبات، ولا أن العديد من الأفكار المجردة قد نشأت في النهاية حول العبادة - وخاصة تلك التي حددت موت الإله وقيامته بالنوم الشتوي السنوي والنهضة الربيعية - فإنني أزعم أن ديونيسوس في أصله لم يكن أكثر من ضحية سنوية للذرة، ثم امتد بعد ذلك إلى ضحية الشجرة والكرمة، التي نبعت من قبرها الرمان، تلك الفاكهة الحمراء كالدم، والتي كان عصيرها الحي يعبر عن الخمر الذي يمنح الإله. في البداية كان ضحية بشرية سنوية، ثم تم تجسيده بعد ذلك في هيئة عنزة أو ثور؛ ولذلك تم تمثيله في الفن على هيئة ثور، أو رجل بقرن ثور. وبعد أن تم تحديده تدريجياً بالنباتات بشكل عام، اعتُبر في النهاية ديونيسوس الزهري، أو ديونيسوس التين، أو حتى، مثل أتيس، إله شجرة الصنوبر. ولكنني أعتقد أن كل هذه كانت إضافات لاحقة منسجمة؛ وأعتقد أنه في مثل هذه الأشكال البدائية، مثل إله المحاصيل المتجول في مهرجان الذرة الهندي، نحصل على الأصل الرئيسي لإله الكرمة اليوناني.

أنتقل إلى أوزوريس، في شخصيته الثانوية أو المكتسبة باعتباره إله الذرة.

لقد عبرت بالفعل عن اعتقادي، والذي يدعمه السيد لوفتي، بأن أوزوريس الأصلي كان ملكًا تاريخيًا حقيقيًا مبكرًا في أبيدوس. ولكن في الدين المصري اللاحق، بعد أن بدأت الأفكار الصوفية في التطور، أصبح يُنظر إليه على أنه إله الموتى، وكان يُنظر إلى كل مومياء أو كل روح مبررة على أنها أوزوريس. علاوة على ذلك، يبدو من المحتمل أن اسم أوزوريس في مصر كان مناسبًا أيضًا لضحية الذرة المذبوحة سنويًا أو إله الذرة. وبالتالي كان هناك العديد من النسخ المكررة لأوزوريس في جميع أنحاء مصر؛ ولا سيما في بوزيريس، حيث تم ربط الاسم بمقبرة مبكرة مثل تلك الموجودة في أبيدوس. هذا التعريف للإله المصنوع حديثًا بالسلف التاريخي، أو الملك الميت، أو الإله القبلي أمر معتاد تمامًا؛ إن هذا التشابه يتسق مع التماثل بين القائم على

مراسم الدفن والإله بوتراج، وبين الكاهن أتيس وأتيس، وبين الضحية ديونيسوس وابن زيوس: وسوف نلتقي به فيما بعد في مقارنات وحشية. فلنلق نظرة على الأدلة.

وكما هو الحال في الهند، فإن مهرجان أوزوريس يستمر لمدة خمسة أيام. (وهذه الفترة جديرة بالملاحظة). وكانت المراسم تبدأ بحراثة الأرض. ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان قد تم إحراق ضحية بشرية؛ ولكن العديد من التشبيهات الجانبية تقودنا إلى هذا الاستنتاج، وتشير إلى أن الضحية المقدسة، كما في أماكن أخرى، كانت تُمزق إرباً في حرص المزارعين والعابدين على الحصول على جزء من جسده المخصب. ففي الأسطورة، يقطع تيفون جثة الإله إلى أربع عشرة قطعة، ثم ينثرها في الخارج (كما ينثر صانع الجلود العاري الجاموس المقدس): ونحن نعلم أن أحد العناصر الرئيسية في المراسم المصرية كان البحث عن أجزاء أوزوريس الممزقة، والابتهاج باكتشافها، ودفنها المهيب. في أحد أيام العيد، كان موكب من الكهنة يجوب المعابد . أو يجتاز الحدود: وكان المهرجان يختتم بإقامة عمود أو نصب حجري لأوزوريس، والذي يصور الملك نفسه في نقش بارز وهو يساعد في رفعه. وأعتقد أنه من المستحيل أن نتجاهل التشابه العام بين هذه الطقوس وطقوس بوتراج.

ولابد أن أضيف، رغم أنني لا أستطيع أن أتناول هذه المسألة بالتفصيل هنا، أن الإشارات العديدة إلى إلقاء الصندوق الذي يحتوي على أوزوريس في النيل تشير بوضوح إلى تعويذة المطر التي يتم الحصول عليها بإلقاء الضحية البشرية في نبع أو نهر. ولكن في هذه الحالة، لابد أن يُنظَر إليها محليًا باعتبارها تعويذة لجعل النيل يرتفع في موسمه.

إن شخصية أوزوريس اللاحق، أو الإله الضحية الذي تم تحديده معه، باعتباره إلهاً للذرة والخضروات، تؤكدها أدلة أخرى عديدة. ويقال إن أوزوريس كان أول من علم الناس استخدام الذرة. كما قدم زراعة الكرمة. ويشير السيد فريزر إلى أنه في إحدى الغرف المخصصة لأوزوريس في معبد إيزيس العظيم في فيلة، تم تصوير جثة

أوزوريس الميت وقد خرجت منها سيقان ذرة، وكان هناك كاهن يسقي السيقان من إبريق يحمله في يده. إن ضحايا الذرة البشرية لم تكن مجهولة على الأقل في مصر، وهذا ما حصلنا عليه من مصدر مباشر من مانيتو، الذي يخبرنا أن الرجال ذوي الشعر الأحمر كانوا يحرقون، ثم ينثرون رمادهم بمناشير التذرية. (وقد سبق ذكر حالات مماثلة في أماكن أخرى). كما تخبرنا الأسطورة أن إيزيس وضعت أطراف أوزوريس المقطوعة على منخل ذرة. كان يتم التضحية بالثيران ذات الشعر الأحمر في مصر أيضًا، على ما يبدو لإنتاج القمح الأحمر. وهذا هو نظير الثور الذي يتم التضحية به كإله.

ومرة أخرى، نجد في أسطورة بوزيريس، وفي التعليقات عليها، أدلة مهمة، لم يلاحظ السيد فريزر قيمتها بالكامل، على حد اعتقادي. لقد وصلتنا القصة في شكل يوناني؛ ولكننا نستطيع أن نرى من خلالها أنها تمثل الأسطورة التي تفسر تضحية أوزوريس. إن اسم بوزيريس يعني مدينة أوزوريس، التي سميت بهذا الاسم لأن قبر أوزوريس القديم (إما مومياء، أو زعيم محلي تم التعرف عليه مع الإله العظيم أبيدوس) كان يقع هناك. وقيل إن التضحيات البشرية كانت تقدم عند قبره؛ تمامًا كما تقدم تضحية بوتراج عند ضريح إلهة القرية، وكما كانت الضحية السنوية في أي مكان آخر تُضحى عند حجر تيرمينوس أو الحجر المقدس لإله الأساس أو الإلهة. وكان الضحايا رجالًا ذوي شعر أحمر وغرباء. وكان رمادهم ينثر في الخارج بمراوح التذرية. لقد قُتِلوا في حقل الحصاد، وندبهم الحصادون (مثل أدونيس وأتيس) في الأغنية التي تُعرَف لنا بسبب خطأ يوناني باسم "مانيروس". وصلى الحصادون في نفس الوقت أن يحيي أوزوريس ويعود بقوة متجددة في العام التالي. النقطة الأكثر إثارة للاهتمام في هذا الحساب، الذي تم تجميعه من أبولودوروس وديودوروس وبلوتارخ، هي حقيقة أنه يوضح لنا كيف تم تحديد أوزوريس السنوي بالملك الإلهي القديم الذي يرقد في قبره بالقرب منه؛ وبالتالي يجعل القضية متسقة مع حالات أخرى درسناها بالفعل ويجب أن نأخذها في الاعتبار. أما بالنسبة للصيد وراء قطع جسد أوزوريس، فهذا يشبه تمامًا

صيد ديميتر لقطع ديونيسوس الممزقة. أنا أفسر كل من قيامة أوزوريس، وقصة تجميع الأجزاء معًا ونمائها مرة أخرى، التي رواها ديونيسوس، على أنها تعني أن الأجزاء المتناثرة، المدفونة مثل قطع خوند ميريا، تنمو مرة أخرى في العام التالي إلى ذرة حية للحصاد.

وعلاوة على ذلك، لا يزال في مصر حتى يومنا هذا بقايا واضحة لطقوس أوزوريس القديمة، في شكل مخفف (مثل رؤساء البلديات المزيفين في إنجلترا)، مما يشير بوضوح إلى التعريف الذي أحاوله هنا. يخبرنا كلونزينجر أنه في صعيد مصر، في اليوم الأول من السنة الشمسية (المصرية)، عندما يصل النيل عادة إلى أعلى نقطة له، يتم تعليق الحكومة المنتظمة لمدة ثلاثة أيام في كل مقاطعة، وتختار كل مدينة حاكمها المؤقت. يرتدي هذا الملك المؤقت (أوزوريس المحلي، كما أعتقد) قبعة مخروطية، ولحية طويلة كتانية، ويلفه عباءة غريبة. أقول دون تردد، زي أوزوريس، مرتديًا القبعة الملكية القديمة في صعيد مصر. ومع عصا في يديه - مثل العصا التي يحملها أوزوريس على الآثار - ويرافقه رجال متنكرون في هيئة كتبة وجلادين وما إلى ذلك، يتجه إلى منزل الحاكم. يسمح الحاكم لنفسه بالخلع؛ إن الملك المزيف، الذي يصعد على العرش، يعقد محكمة، ويجب على الحاكم نفسه أن يخضع لقراراتها. باختصار، مثل غيره من الملوك المؤقتين، يتمتع الملك المزيف بسلطة ملكية مؤقتة. ولكن بعد ثلاثة أيام، يُحكم على الملك المزيف بالموت؛ وتُلقى العلبة أو القوقعة التي كان مغلفًا بها في النار؛ ويخرج من رمادها الفلاح الذي انتحل شخصيته. ولا أشك في أن العلبة هنا تمثل الصندوق القديم أو علبة المومياء الخاصة بأوزوريس.

إنني أرى في هذه الطقوس التصويرية، إذن، بقايا من التضحية السنوية التي كانت تُقدم على هيئة أوزوريس، والتي كانت تُقدم على هيئة ضحية بشرية، مع بعض التخفيفات المعتادة. ولا أشك في أن مصر، كما في غيرها من الأماكن، كانت تختار في السابق ملكاً وهمياً بدلاً من الملك الحقيقي ليجسد شخصية نسل أوزوريس، أو

أوزوريس نفسه؛ وأن هذا الملك البديل كان يُقتَل ويُمزق أو يُحرق، بينما تُنثر رماده في أنحاء الأرض. وربما يكون من المفيد أيضاً أن نتساءل عما إذا كان السوط الذي يحمله أوزوريس في النقوش البارزة يعادل السوط الإلهي الذي يحمله بوتراج، وغيره من السوط التي ربطها السيد جوم ببراعة بتلك الصفة الجليلة والصوفية.

"إنني أقترح أن أوزوريس في تجسيده اللاحق (312) كان يتجدد سنوياً كضحية للذرة والكروم. وكان في الأصل ملكاً لمصر العليا، أو لجزء منها، وقد تصورته الأساطير اللاحقة كإله للثقافة العامة. واكتشفت إيزيس، أخته وزوجته، القمح والشعير ينموان في البرية؛ فأدخل أوزوريس هذه الحبوب بين شعبه، الذين تخلوا عندئذ عن أكل لحوم البشر، وتحولوا إلى زراعة الحبوب. وكان الضحية السنوية، التي غالباً ما تكون غريبة، يتم التعرف عليها باعتبارها الإله العنصري، يتم تمزيقها إلى أشلاء بدلاً منها؛ وأخيراً اندمج أوزوريس نفسه مع الروح المجردة للنباتات، ويُفترض أنه والد كل الأشجار. وكما أمر العراف أهل كورنثوس بقطع شجرة صنوبر معينة "على قدم المساواة مع الإله"، وصنعوا منها تمثالين لديونيسوس، بأجساد مذهبة ووجوه ملطخة بالحمرة؛ ولقد قطع المصريون شجرة صنوبر، واستخرجوا القلب، وصنعوا منه صورة لأوزوريس، ثم دفنوه في جوف الشجرة التي أخذوا منه. وتشهد الطقوس المشابهة التي تمارس في عبادة أتيس، وكلها على حد سواء، على تلك المرحلة المتأخرة والمجردة من الفكر، حيث تم تسامى الضحية البدائية للزراعة ورفعها إلى مستوى إله عام للنباتات في التجريد. ولكن هذا، الذي يمثل بالنسبة للسيد فريزر نقطة البداية، هو بالنسبة لي هدف تطور أوزوريس.

دعونا الآن ننظر بشكل مختصر إلى قضية أدونيس.

كان أدون أو الرب المعروف باسم تاموز أحد العناصر الرئيسية في الديانة السورية. وكان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنهر الذي يحمل نفس الاسم أدونيس، والذي كان ينبع من قبره عند نبع أفقا المقدس. ولا أعتقد أننا نعرف في واقع الأمر أي ضحية بشرية

لأدونيس؛ ولكن وفاته كانت تُنْحَن سنوياً ببكاء مرير، وخاصة من قِبَل النساء. وكانت صوره تُلبس على هيئة جثث، وتُحْمَل وكأنها للدفن، ثم تُلْقَى في البحر أو في الينابيع. ومن الواضح أن هذا كان تعويذة لجلب المطر، وهو أمر طبيعي بشكل خاص في بلد جاف مثل سوريا. وأود أن أضيف بالمناسبة أنني أعزو إلى ظروف مماثلة أيضاً جزءاً على الأقل من قدسية الأنهار. ففي بعض الأماكن، كان الناس يحتفلون بقيامة أدونيس في اليوم التالي. وفي جبيل، صعد أيضاً إلى السماء أمام أعين عباده . وهي نقطة جديرة بالملاحظة من تشبيهاتها المسيحية. إن اللون الأحمر الذي يكتسبه نهر أدونيس في الربيع . والذي يرجع في الحقيقة إلى تغير لون السيول التي تتدفق من روافده بفعل التربة الحمراء التي تنحدر من الجبال . يرجع إلى دم الإله أدونيس؛ فقد برزت شقائق النعمان القرمزية من جراحه. ولكن المؤرخ السكوليستي الذي تناول ثيوكريتوس يشرح أدونيس صراحة باعتباره "الذرة المزروعة"، وأنه كان "بذرة"، مثل ضحايا الذرة الشائعة في الهند وأماكن أخرى، وهذا أمر لا نستطيع أن نشك فيه من القصص المتكررة عن موته وقيامته. وكانت ما يسمى "حدائق أدونيس"، والتي كانت تمثل تماثيل مقلدة لتل مزروع بالذرة، تشكل جزءاً ملحوظاً من طقوس الإله. وكانت تتألف من سلال أو أواني مملوءة بالتراب، يزرع فيها القمح والشعير والزهور وما إلى ذلك، وتعتني بها النساء؛ وفي نهاية ثمانية أيام كانت تُحمل مع صور أدونيس الميت، وتُلقى في البحر أو في الينابيع. لا شك أن هذه كانت حالة أخرى من حالات تعويذة المطر. وقد جمع السيد فريزر العديد من الأمثلة المثيرة للاهتمام لطقوس مماثلة في مختلف أنحاء العالم.

ربما يكون من الأفضل التعامل مع بعض التجسيدات الأخرى لإله الذرة على عجل.

إن ما كان عليه أدونيس بالنسبة لسوريا كان بمثابة أتيس بالنسبة لفريجيا. ففي الأصل يبدو، وفقاً للبروفيسور رامساي، أنه كان يمثله كاهن ضحية سنوية، كان يقتل نفسه من أجل الناس لضمان الخصوبة. وكان الكاهن الضحية يحمل اسم أتيس،

وكان يتماهى مع الإله الذي كان يعبده. وفي الأيام اللاحقة، بدلاً من قتل نفسه، كان يسيل دمه فحسب؛ وهناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الخنزير كان يحل محل الضحية، وأن هذا الخنزير كان يعتبر في حد ذاته أتيس. وهناك أوجه شبه بين هذا وبين الحمل الفصحي؛ في حين أن تشويه الذات في عبادة أتيس له أيضاً سمات مشتركة مع الختان اليهودي. فضلاً عن ذلك، كانت هذه المراسم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، على الأقل في بيسينوس، بالحجر المقدس القديم الذي كان يحمل اسم سيبيل، والذي كان يوصف بأنه أم الآلهة؛ وهذا الارتباط يذكرنا تماماً بعلاقة إله بوتراج في الهند بعبادة إلهة القرية المحلية. وبما أنني أؤمن بأن إلهة القرية هي الشكل الدائم للتضحية البشرية الأساسية، فأنا أؤمن أيضًا بأن سايبيل (على الرغم من أنها قد تبدو من قبيل اليوهيمرية الفجة) هي الحجر المقدس للعذراء الأصلية التي تم التضحية بها عند التأسيس الأول لبيسينوس.

وعندما نُقِل حجر سيبيل المقدس وعبادة أتيس إلى روما (في ظل ظروف سأشير إليها في فصل لاحق)، كان المهرجان يتألف من طقوس تستمر خمسة أيام، مثل طقوس بوتراج. وكان يُقام في الاعتدال الربيعي، كما يحدث في مهرجاننا المماثل لعيد الفصح. ففي اليوم الأول، تُقطع شجرة صنوبر في الغابة، ويُربط بها تمثال شاب. ولا شك أن هذا التمثال كان يمثل التضحية البشرية البدائية، ويتوافق صلبه تمامًا مع ذبح الجاموس المقدس في الهند. أما اليوم الثاني فلا يقدم أي شيء ذي أهمية؛ ففي اليوم الثالث، يسحب كاهن أتيس الدم من ذراعيه ويقدمه كقربان؛ وأتصور أن هذا كان بديلاً عن التضحية بالنفس، وأن التضحية بالنفس كانت تتم في الأصل عن طريق تشويه الأعضاء التناسلية. ولعل هذه الليلة شهدت الحداد على جثمان أتيس، الذي مثله تمثال، ثم دفن بعد ذلك في احتفال مهيب. وفي اليوم الرابع جاء مهرجان الفرح، الذي احتفل فيه السيد فريزر بقيامة الإله. واختتم اليوم الخامس بموكب إلى نهر ألمو، حيث تم غمر الحجر المقدس للإلهة وعربتها التي تجرها الثيران كتعويذة ضد المطر. وعند العودة، كانت العربة مبعثرة بالزهور. وأعتقد أن التشابه الوثيق مع

الاستخدام الهندي واضح إلى حد كبير هنا. والواقع أنني، مراعاةً للإيجاز، قمت بإخفاء العديد من أوجه التشابه الأخرى الأكثر غرابة.

كان أتيس في الأساس إلهاً للذرة. وكانوا يحتفلون سنوياً بموته وقيامته في روما وفي بيسينوس. وكان أحد أتيس يموت سنوياً. وكان أتيس التابع لبيسينوس كاهناً وملكاً؛ ولعل من واجبه في وقت ما أن يموت في نهاية حكمه السنوي كإله للذرة لشعبه. وكان أحد الألقاب التي أطلقها على أتيس "مثمر للغاية"؛ وكانوا يخاطبونه "كوز الذرة الأصفر المحصود"؛ وعندما كان تمثال يحل محل الملك الكاهن المقتول سنوياً، كان التمثال نفسه يُحفَظ لمدة عام، ثم يُحرَق كما كان الحال مع الملك الكاهن نفسه في فترة سابقة. ويبدو لي من المستحيل مقاومة الثقل التراكمي لهذا الدليل الفريد.

أما فيما يتصل بالعادات والأساطير الغريبة للغاية التي تتعلق بديميتر وبيرسيفوني وغيرهما من ضحايا الذرة الإناث، فلابد أن أحيل القارئ مرة أخرى إلى السيد فريزر. صحيح أن الباحث سوف يجد الموضوع يُعالَج من وجهة نظر معاكسة؛ فسوف يرى أن الإلهات يُنظَر إليهن أولاً باعتبارهن أرواح ذرة، ثم حيوانيات، وأخيراً بشريات: ولكن بعد الأمثلة التي قدمتها هنا عن طريقتي الخاصة في تصور الحقائق، أعتقد أن القارئ سوف يرى بنفسه التصحيحات التي ينبغي إجراؤها على روحانية السيد فريزر ومعادلته الشخصية. ولن أقول هنا إلا إنه في العديد من البلدان، من بيرو إلى أفريقيا، يبدو أن فتاة أو امرأة كانت تُقَدَّم كإلهة ذرة؛ ويبدو أن إلهة الذرة هذه قد زُرعت بالبذرة، ويُعتَقَد أنها تعود إلى الحياة مرة أخرى مع الذرة؛ ويبدو أن العديد من عادات الحصاد الأوروبية كانت بمثابة تخفيف للطقوس القديمة، مع الاستعاضة المعتادة عن الضحية البشرية بحيوان أو تمثال. وإذا نظرنا إلى هذه الحقائق في ضوء هذا الرأي، فإن مجموعة الحقائق التي جمعها السيد فريزر عن "طفل الذرة" توفر أساسًا ممتازًا للبحث؛ ولكن رغم أنني أستطيع أن أقول الكثير عن هذا الموضوع، فإنني سأمتنع عن ذلك هنا، لأنني أرغب فقط في تقديم مخطط عام يمكن القارئ من فهم مبادئ

العامة. وكثيرًا ما يكون النصف أكثر من الكل؛ وأخشى أن يكون من الصعب متابعة الخط الرئيسي لحجتي إذا قمت بتوسيع الإطار بشكل مفرط.

ولكنني لا أستطيع أن أمتنع عن الإشارة إلى أن احتفالات "حمل الموت" و"دفن الكرنفال"، التي تنتشر في مختلف أنحاء أوروبا، تحتفظ بالعديد من السمات المثيرة للاهتمام التي تميز مهرجانات بوتراج، وديونيسوس، وأتيس-أدونيس. ففي كثير من الأحيان يتم تمزيق صورة الموت ـ أو كما أفهم صورة الإله البشري الميت ـ إلى أشلاء، ثم يتم دفن الشظايا في الحقول حتى تنمو المحاصيل بشكل جيد. ولكن الموت يغرق أو يحرق أيضاً؛ في الحالة الأولى، مثل أدونيس، وفي الحالة الثانية، مثل أوزوريس في العادة المصرية الحديثة. ولابد وأن يلفت انتباه كل قارئ منتبه لتحفة السيد فريزر هذه الأعياد إلى أوجه التشابه بينها وبين المهرجانات في الهند وغرب آسيا.

يجب أن تكون هناك حالتان أو ثلاث حالات نموذجية كافية كأمثلة. في بوهيميا، يحمل الأطفال رجلاً من القش خارج القرية، ويطلقون عليه اسم الموت، ثم يحرقونه وهم يغنون،

الآن نحمل الموت خارج القرية،

الصيف الجديد في القرية؛

مرحباً بك يا عزيزي الصيف،

ذرة صغيرة خضراء.

وهنا تتضح العلاقة بين هذه الطقوس والتضحية بالذرة البدائية. كما أن صنع التمثال من القش له أهمية كبيرة. ففي تابور في بوهيميا، تُلقى صورة الموت من صخرة عالية في الماء، على ما يبدو كتعويذة للمطر، مع أغنية مماثلة، تصلي من أجل "القمح

الجيد والجاودار". (قارن بين طقوس صخرة تاربيان، حيث يُحكم على الضحية في النهاية بالسجن: وكذلك أساطير التضحية بالنفس بالقفز في البحر). وفي بافاريا السفلى كانت التمثيليات الصامتة أكثر واقعية؛ فكان الضحية، كما كان يُطلق عليه، يرتدي أوراق الشجر والزهور، ويغمر بالماء. ثم يخوض في جدول يصل إلى وسطه، بينما يتظاهر صبي بقطع رأسه. وفي ساكسونيا وتورينجن، يُقتل الرجل الوحشي، الذي يمثل الإله، في عرض صامت في عيد العنصرة. إن خاطفيه يتظاهرون بإطلاق النار عليه، فيسقط وكأنه ميت، ولكنه يعود إلى الحياة بعد ذلك، كما حدث في إحياء أدونيس وديونيسوس. وتشكل مثل هذه الإحياءات حلقة شائعة في الدراما الشعبية التي تتناول الذرة. وقد وجدت حالة مماثلة في ساسكس. وفي سيميك في بوهيميا نجد النقطة الأكثر وضوحاً، وهي أن الضحية يوصف في الواقع بأنه الملك، ويرتدي تاجاً من لحاء الشجر، ويحمل عصا تشبه صولجان أوزوريس المزيف. وهناك ملوك آخرون يتكررون في أماكن أخرى. ففي منطقة كونيجراتز، يحاكم الملك، وإذا أدين، يقطع رأسه في مسرحية إيمائية. وبالقرب من شومبرج، كان الضحية المزيف يُعرف في الماضي باسم الأحمق، وهو اسم مهم آخر، ثم يدفن أخيراً تحت القش والروث، وهو اقتران له أهمية زراعية واضحة. وفي روتويل، يُسكر الأحمق، ويدفن في القش وسط رثاء يشبه رثاء أدونيس. وفي مكان آخر، يُلقى الأحمق، إما بنفسه أو بواسطة تمثال من القش، في الماء. وفي شلوكيناو، تذهب الواقعية إلى مرحلة أبعد: يرتدي الرجل المتوحش مثانة مملوءة بالدم حول عنقه؛ فيطعنه الجلاد، فيتدفق الدم على الأرض. وفي اليوم التالي، يوضع رجل من القش، مصنوعًا ليشبهه قدر الإمكان، على نعش، ويؤخذ إلى بركة حيث يُلقى فيه. وفي كل هذه الاحتفالات القديمة، من المستحيل ألا نرى الآن بقاءً مرحًا للتضحية بالذرة البدائية. يُظهِر كذبة أبريل الخاصة بنا المرحلة الأخيرة من الانحطاط في مثل هذه العادات العالمية. في الأصل، تم إرساله في مهمة أحمق إلى مكان التضحية، حتى يتمكن من الذهاب طواعية، والآن يتم إرساله فقط في سخرية لا معنى لها.

ولن أضيف هنا إلا أنه في حين أن آلهة الذرة وآلهة الخمر هي أبرز أعضاء هذه المجموعة الغريبة من الآلهة الاصطناعية، فإن شجرة النخيل المقدسة لها أهميتها أيضًا في ديانات بلاد ما بين النهرين؛ وفي أماكن أخرى تبرز آلهة الذرة والموز وجوز الهند إلى مكانة خاصة أو محلية. وكذلك روح الأرز، وزوجة الشوفان، وأم الجاودار، وأم الشعير (أو ديميتر). ويبدو أن كل هذه الآلهة هي تعديلات للضحية البدائية، التي يتم التضحية بها لصنع روح للمحصول، أو لتكون بمثابة "بذرة" للتمر أو الموز.

الفصل الخامس عشر - الذبيحة والأسرار.

لقد وصلنا الآن إلى نقطة يمكننا فيها فهم الأفكار الغريبة حول التضحية والأسرار التي تكمن في جذر الكثير من الديانات اليهودية والمسيحية ومعظم الديانات الأخرى بشكل أكثر اكتمالاً.

يخبرنا السيد جالتون أنه عندما سافر بين الدامارا، كانت كل اللحوم ملكية مشتركة. لم يكن أحد يذبح ثورًا إلا كقربان وفي مناسبة احتفالية؛ وعندما يُذبح الثور، كان المجتمع بأكمله يتغذى عليه بلا تمييز. هذه ليست سوى حالة واحدة من الشعور العالمي تقريبًا بين الناس الرعويين البدائيين. نادرًا ما يتم ذبح الماشية والحيوانات الأليفة الأخرى، نظرًا لأنها تعتبر مقدسة؛ وعندما تُذبح، يتم تناولها في وليمة كطقس اجتماعي وديني عمليًا - باختصار، سرًا مقدسًا. لست بحاجة إلى تقديم أمثلة على مثل هذا المبدأ المعروف جيدًا؛ سأكتفي باقتباس ما يقوله الدكتور روبرتسون سميث عن عرق معين: "بين الساميين الأوائل عمومًا، لم يكن الذبح مشروعًا إلا للتضحية."

إن الرعاة الهمجيين لا يتصورون أن هناك رجالاً يعتبرون اللحم البقري غذاءهم اليومي. ولقد وجد السيد جالتون هذه الفكرة غريبة جداً بالنسبة لداماراس. فالأجناس البدائية الرعوية تحتفظ بحيواناتها الأليفة من أجل الحليب، أو كحيوانات حمل، أو من أجل الصوف والشعر؛ ونادراً ما تذبح حيواناتها إلا في وليمة يشاركها فيها الآلهة. والواقع أنه من المحتمل، كما سيشير الجزء الثاني من الكتاب، أن الحيوانات الأليفة كانت تُربى في الأصل كطوطمات أو آلهة أسلاف، وأن عادة أكل لحم الأغنام والماعز والثيران نشأت في الأساس من استبدال مثل هذه الضحية الحيوانية الإلهية بالضحية البشرية الإلهية التي كانت تستخدم في وقت سابق. وتعود أصول محلات الجزارة لدينا إلى أكل لحوم البشر كتضحية مخففة.

إن التضحية، التي تعتبر مجرد قربان للآلهة، لها أصلان مختلفان، على ما أعتقد. فأقدم أشكالها وأبسطها وأكثرها طبيعية هي الشكل الذي تتبعنا تطوره بالفعل، وهو وضع قطع صغيرة من الطعام والشراب عند قبور الأسلاف أو الملوك أو أبناء القبيلة الموقرين. ولقد رأينا بالفعل كثيرًا أن الناس منذ فترة مبكرة جدًا كانوا يعتقدون أن الموتى يأكلون ويشربون، سواء كجثث أو مومياء أو شبح صديق مدفون أو روح أثيرية لزعيم محروق. وأعتقد أنه لا يمكن الشك في أصل هذه التضحيات الأبسط والأكثر بدائية. فالمتوحشون يقدمون عند قبور موتاهم بالضبط تلك المواد الغذائية العادية التي كانوا يستهلكونها أثناء حياتهم، دون أي تمييز من حيث النوع؛ ويستمرون في تقديمها بنفس الطريقة الساذجة عندما يتقدم الشبح إلى مرتبة أحد الآلهة العظماء في المجتمع.

ولكن هناك طريقة أخرى للتضحية، تضاف إلى هذه الطريقة، وتميل تدريجيًا إلى أن تكون متماثلة معها بدرجة أو بأخرى، ومع ذلك، إذا كنت على حق، فقد كان لها أصل مختلف تمامًا في الإنتاج الاصطناعي للآلهة الذي كتبت عنه بإسهاب كبير في الفصول الثلاثة الأخيرة. لقد أصبح الضحية البشرية أو الحيوانية، التي تُذبح بهذه الطريقة من أجل صنع إله جديد أو روح حامية، مع مرور الوقت يتم استيعابها في الفكر مع النوع الأقدم من القرابين الشرفية المجردة للآلهة الميتة؛ وبالتالي أدت إلى ظهور تلك الأفكار الصوفية عن الإله الذي يُضحى به، نفسه لنفسه، والتي يعتبر سر القداس النتيجة النهائية والأكثر غموضًا لها. وهكذا، فإن آلهة الأساس، التي قُتلت في الأصل من أجل صنع روح حامية لمنزل أو إله قبلي لمدينة أو قرية، أصبحت في النهاية تُعتبر ضحايا تُضحى بها لإلهة الأرض أو لشياطين الأرض؛ وهكذا، فإن ميرياه وغيرها من الضحايا الزراعيين، الذين قُتلوا في الأصل من أجل صنع إله الذرة أو روح الذرة، أصبحوا في النهاية يُنظَر إليهم باعتبارهم تضحيات للأرض، أو لبعض الآلهة المجردة ديونيسوس أو أتيس أو أدونيس. وبما أنه في الحالة الأخيرة على الأقل كان الإله والضحية يُطلق عليهما نفس الاسم ويُعترف بهما باعتبارهما واحدًا، فقد نشأت أخيرًا في العديد من

البلدان، وفي كل من نصفي الكرة الأرضية، ولكن بشكل خاص في حوض شرق البحر الأبيض المتوسط، النظرية الصوفية للتضحية بإله، نفسه لنفسه، للتكفير أو التكفير، والتي تشكل أساس خطة الخلاص المسيحية. وأعتقد أن هذا الشكل الثانوي والمشتق من التضحية هو الذي يُنظر إليه بشكل رئيسي في التحليل المعقد والقيم للغاية الذي قدمه البروفيسور روبرتسون سميث.

لقد قلت إن الشكل الثانوي للتضحية، والذي سأطلق عليه من الآن فصاعداً اسم الشكل الصوفي، موجود في معظم أنحاء العالم وفي كل من نصفي الكرة الأرضية. وهذا يثير بطبيعة الحال السؤال عما إذا كان له أصل مشترك واحد، ويسبق تشتت البشرية عبر نصفي الكرة الأرضية؛ أو ما إذا كان قد تطور بشكل مستقل عدة مرات في العديد من البلدان من قبل العديد من الأجناس. بالنسبة لي، ليس لدي إجابة واضحة على هذا السؤال الغامض، ولا أعتبره، في الواقع، سؤالاً مهمًا حقًا. من ناحية، هناك العديد من الأسباب التي تجعلنا نفترض أن بعض السمات الرفيعة نسبيًا للفكر أو الفن كانت ملكية مشتركة بين البشر قبل التشتت من المركز البدائي، إذا كان المركز البدائي موجودًا على الإطلاق. من ناحية أخرى، يعرف علماء النفس جيدًا أن العقل البشري يتصرف بتشابه غير عادي في ظروف معينة في جميع أنحاء العالم، ويبدو أن مراحل متطابقة من التطور مرت بشكل مستقل من قبل العديد من الأجناس، في مصر والمكسيك، وفي الصين وبيرو؛ إننا لا نستطيع أن نجد أي شيء غير محتمل في فكرة أن هذه المفاهيم المعقدة للتضحية الصوفية لها أصول مميزة في بلدان نائية. والواقع أن المؤكد هو أن الكاهن الذي يضحي، والضحية التي يقتلها، والتمثال أو الإله العظيم الذي يقتله، كانوا جميعاً معروفين بين الأزتيك، كما كان الحال بين الفريجيين؛ وكان القاتل، والمقتول، والكائن الذي حدث القتل تكريماً له، إلهاً واحداً لا يتجزأ. وحتى التفاصيل مثل أن الكاهن كان يرتدي جلد الضحية شائعة في العديد من البلدان؛ وقد تكون هذه التفاصيل ميراثاً من البشرية الأجداد البعيدة،

أو نتاجاً منفصلاً للعقل البشري، يعمل على طول الأخاديد في ظل ظروف متطابقة. وبكلمة واحدة، ربما تكون هذه التفاصيل نتائج ضرورية وحتمية لمفاهيم سابقة.

إنني لابد وأن أضيف إلى ذلك أن أي دين كما نعرفه الآن ليس بدائياً بأي حال من الأحوال. ذلك أن أكثر المعتقدات وحشية التي نجدها بيننا لا تزال وراءها مئات الآلاف من السنين. وأقدم الديانات التي وصلت إلينا سجلاتها، مثل تلك التي كانت في مصر وآشور، لا تزال بعيدة بمئات الآلاف من السنين عن أصلها الأصلي. والزراعة في حد ذاتها فن قديم جداً لا يُنسى. وقليل من المتوحشين، حتى بين أولئك الذين يوصفون عادة بأنهم في مرحلة الصيد، يجهلون تماماً شكلاً بسيطاً من أشكال زراعة البذور وزراعة الأرض. والقليلون الذين يجهلون الآن هذه الفنون يظهرون بعض العلامات الواضحة على أنهم شعوب منحطة أكثر من كونهم شعوباً بدائية. إن اعتقادي أو شكي الشخصي هو أن الأفكار المستمدة من مجموعة الممارسات المتعلقة بالزراعة والتي تم تفصيلها في الفصلين الأخيرين قد صبغت حياة وفكر الجنس البشري بأكمله تقريباً، بما في ذلك حتى تلك القبائل الأكثر وحشية والتي لا تعرف الآن إلا القليل أو لا شيء عن الزراعة. ولكنني لا أؤكد على هذه القناعة غير المكتملة، لأن تبريرها قد يقودني إلى الخوض في تفاصيل بعيدة. وسأكتفي بمحاولة توضيح مدى تأثير هذه القناعة على أفكار العدد الأكبر من الأمم القائمة.

إن الأجناس الرعوية المبكرة نادراً ما تقتل حيواناً إلا في المناسبات الكبرى. وعندما يقتلونه فإنهم يلتهمونه معاً، حيث تتم دعوة كل أفراد القبيلة إلى المهرجان. ولكنهم يأكلونه أيضاً في صحبة آلهتهم؛ فكل وليمة كبرى هي في الأساس وليمة يشارك فيها الآلهة الثلاثمائة والاثنان والعشرون مع البشر. ولا شك أن هذا الشعور بالوليمة المشتركة بين الآلهة والبشر هو الذي أعطى الخطوة الأولى نحو الفكرة المعقدة المتمثلة في الوجبة المقدسة . وهي الفكرة التي تطورت في مرحلة لاحقة بإضافة مفهوم أن العابد يأكل ويشرب الإله الحقيقي.

إن اعتقادي الشخصي هو أن كل الأعياد التي تتناول هذا النوع من التضحيات ربما نشأت عن أكل لحوم البشر؛ وأن لحم الإنسان كان يُستَبدَل لاحقًا بضحية حيوانية؛ ولكنني لا أصر على هذه النقطة، ولا أحاول إثباتها بالمعنى الدقيق للكلمة. فهي ليست أكثر من مجرد شك عميق الجذور. ومع ذلك، فسوف أبدأ من باب الراحة بفئة أكل لحوم البشر من التضحيات، وسوف أتطرق في الوقت المناسب إلى ذبح الأغنام والثيران المألوف، والذي يُعرف في كثير من الحالات أنه حل محل التضحية البشرية.

ولعل رواية أكوستا عن العادة المكسيكية هي أفضل مثال لدينا الآن على طقوس التضحية الصوفية بآكلي لحوم البشر في أقصى صورها الهمجية. يقول ذلك المؤلف العجوز المتعجرف: "لقد أخذوا أسيرًا عشوائيًا؛ وقبل أن يضحوا به لأصنامهم، أعطوه اسم الصنم الذي يجب أن يضحى به، وألبسوه نفس الحلي، ليشبهوه بالإله. وخلال الفترة التي دامت فيها عملية التضحية، والتي كانت تستمر لمدة عام في بعض الأعياد، وستة أشهر أو أقل في أعياد أخرى، كانوا يوقرونه ويعبدونه بنفس الطريقة التي يعبد بها الصنم نفسه. وفي غضون ذلك، سُمح له بالأكل والشرب والمرح. وعندما كان يمر عبر الشوارع، خرج الناس لعبادته؛ وكان كل واحد منهم يحمل الصدقات، مع الأطفال والمرضى حتى يتمكن من شفائهم وبركتهم. وكان يفعل ما يشاء في كل شيء باستثناء أنه كان محاطًا بعشرة أو اثني عشر رجلاً لمنعه من الهرب. ولكي يحظى بالتبجيل عند مروره، كان يقرع أحيانًا على ناي صغير ليأمر الناس بالسجود له. وعندما حان موعد الوليمة، وكان قد أصبح سمينًا، ذبحوه وفتحوا جوف جسده وقدموا ذبيحة مهيبة وأكلوه. وهنا، على حد تعبير أحد السلطات المختصة، نجد وليمة آكلي لحوم البشر البسيطة في أتم صورها.

لا أحتاج إلى الإشارة إلى مدى تذكيرنا بهذه الرواية بعادة الخوند التي كانت سائدة في عهد ميريا. فالضحية، رغم أنه ليس من الدم الملكي، يتم تحويله بشكل مصطنع إلى

ملك إلهي؛ ويتم التعامل معه بكل شرف الملوك والألوهية، ويتم إلباسه مثل الإله الذي يتماهى معه، وفي النهاية يتم قتله وأكله. النقطة الأخيرة وحدها تختلف إلى حد كبير عن حالة ميريا. لا يزال يتعين علينا أن نتساءل: "لماذا أكلوه؟"

إن الإجابة على هذا التساؤل تأخذنا إلى قلب وجوهر مفهوم الأسرار المقدسة.

*من المعتقدات القديمة الشائعة أن تناول أي حيوان معين يمنحك صفات ذلك الحيوان*إن أهل ميري في شمال الهند يقدرون لحم النمر للرجال؛ فهو يمنحهم القوة والشجاعة؛ ولكن النساء لا يجب أن يأكلنه؛ لأنه يجعلهن "قويات العزيمة أكثر مما ينبغي". ويمتنع أهل ناماكواس عن أكل الأرنب؛ لأنهم قد يصابون بالجبن إذا ابتلعوا لحمه؛ ولكنهم يأكلون لحم الأسد أو يشربون دم النمر، من أجل اكتساب القوة والشجاعة. ومن بين أهل دياك، لا يجب على الشباب والمحاربين أكل الغزلان؛ لأنه يجعلهم جبناء؛ ولكن يُسمح للنساء والرجال المسنين جدًا بأكلها. ويتغذى الرجال في جزيرتي بورو وأرو على لحم الكلاب من أجل أن يكونوا جريئين وخفيفي الحركة. وقد جمع السيد فريزر عددًا هائلاً من الأمثلة المشابهة، والتي توضح مدى انتشار مثل هذه المعتقدات ومدى رسوخها. حتى كشط العظام يكفي لإنتاج النتيجة المرجوة؛ ففي كوريا، تباع عظام النمور بسعر أعلى من عظام النمور باعتبارها مصدرًا للإلهام بالشجاعة. إن قلب الأسد مفيد بشكل خاص لهذا الغرض، كما أن ألسنة الطيور مفيدة للبلاغة.

ومرة أخرى، وعلى نفس القياس، فإن لحم ودم الرجال الشجعان يؤكلان من أجل إلهام الشجاعة. يأكل شعب كاميلاروي الأسترالي قلب وكبد المحارب الشجاع من أجل اكتساب شجاعته. ويشرب سكان جزر الفلبين دماء أشجع أعدائهم. وفي مرتفعات شاير في أفريقيا، يأكل أولئك الذين يقتلون مقاتلاً متميزاً قلبه من أجل اكتساب شجاعته. وقد رأينا أن الزنوج التابعين لدو تشايلو كانوا يكشطون جماجم أسلافهم، ويشربون المسحوق في الماء. وقالوا: "كان أسلافنا شجعاناً؛ وبشرب

جماجمهم سنصبح شجعاناً مثلهم". وهنا مرة أخرى لا يسعني إلا أن أحيل القارئ إلى مخزن السيد فريزر الذي لا ينضب من الأمثلة العديدة.

ولكن حالة محاربي دو تشايلو تأخذنا إلى قلب الموضوع. ذلك أن العديد من المتوحشين يأكلون آباءهم الموتى لأسباب مماثلة. ونعلم من سترابو أن الأيرلنديين القدماء "كانوا يعتبرون التهام جثث آبائهم أمراً مشرفاً". وهذا ما فعله أهل إيسيدون في آسيا الوسطى، كما يخبرنا هيرودوتس. وكان أهل ماساجيتا "بدافع الشفقة" يضربون كبار السن بالهراوات ويأكلونهم. وكانت هذه العادة شائعة مؤخراً بين أهل باتا في سومطرة، الذين اعتادوا "على أكل أقاربهم القدامى دينياً واحتفالياً". وفي أستراليا، كان من المعتاد أكل الأقارب الذين يموتون بسبب سوء الحظ. ونقرأ عن أهل كوكوما أن "هؤلاء الناس بمجرد وفاة أحد الأقارب كانوا يجتمعون ويأكلونه مشوياً أو مسلوقاً، وفقاً لحالته النحيفة أو السمينة". ويعتقد أهل تاريانا وتوكانا، الذين يشربون رماد أقاربهم، "أن فضائل المتوفى سوف تنتقل إلى شاربي الخمر بهذه الطريقة". يعتقد الأراواك أن شرب عظامهم المطحونة الممزوجة بالماء هو أعلى درجات الشرف التي يمكنهم تقديمها للموتى. وبصفة عامة، في عدد كبير من الحالات، كان يتم أكل الوالدين أو الأقارب من أجل "عدم السماح للحياة بالخروج من الأسرة" أو للحفاظ على الجثث والأرواح في جسد قريب؛ أو لاكتساب الشجاعة وغيرها من الصفات التي يتمتع بها أقرباء الموتى. باختصار، كان يتم أكل الموتى على سبيل الأسرار المقدسة أو، كما عبر أحد الكتاب، "على سبيل القربان المقدس". وقد جمع السيد هارتلاند العديد من الأمثلة المذهلة.

* منذ كتابة هذا الفصل، كان موضوع الشرف
لقد تم التعامل مع أكل لحوم البشر بشكل أكثر شمولاً من قبل السيد سيدني
هارتلاند في الفصل الخاص بطقوس الجنازة، في الجزء الثاني
مجلد أسطورة بيرسيوس.

إننا نستطيع أن نستنتج كيف نشأت هذه العادة الغريبة من وصف السيد وايت جيل لجنازة في غينيا الجديدة. يقول وايت: "كانت النساء تمزقن وجوههن وتضربن صدورهن بشكل مؤثر للغاية، ثم في جنون حزنهن، يضغطن على المادة من الفخذ المصاب ويلطخن بها وجوههن وأجسادهن، بل ويلعقنها". ويقول عن جثث الكوياري: "تظل النار مشتعلة ليل نهار على الرأس والقدمين لشهور. ثم يُزال الجلد بالكامل بواسطة الإبهام والسبابة، وتُلصق العصارة على وجه وجسم الشخص الذي يقوم بعملية التقطيع، سواء كان والد المتوفى أو زوجه أو زوجته. وتجفف النار اللحم تدريجيًا، بحيث لا يتبقى سوى الهيكل العظمي". وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى أكل الموتى، وهو ما يُمارس بالفعل في أماكن أخرى من غينيا الجديدة.

ولكن إذا أكل البشر أجساد آبائهم، الذين هم آلهة أسرهم وبيوتهم، فإنهم يأكلون بطبيعة الحال أجساد آلهة الزراعة الاصطناعية، أو أجساد الملوك المؤقتين الذين يموتون من أجل الشعب. وبأكل جسد إله، فإنك تمتص ألوهيته؛ ويصبح هو وأنت واحدًا؛ فهو فيك ويلهمك. هذه هي الفكرة الأساسية للممارسة المقدسة؛ فأنت تأكل إلهك عن طريق الاتحاد الكامل؛ وتدمجه في نفسك؛ أنت وهو كائن واحد.

ولكن كيف يمكنك أن تأكل إلهك إذا كنت تدفنه أيضًا كروح ذرة لاستخدامه كبذرة؟ يزودنا الغونديون بالإجابة على هذه الصعوبة الواضحة. فكما رأينا، يرشون دم الضحية على الحقل المحروث أو المحصول الناضج، ثم يلتهمون جسده سرًا. وكثيرًا ما نكتشف هذا الاستخدام المزدوج للإله الاصطناعي، من خلال الكلمات الغامضة التي يستخدمها حكامنا. ونرى ذلك في مراسم بوتراج، حيث يشرب الكاهن الذي يقوم بالطقوس دم الحمل، بينما يُدفن بقية الحيوان بجانب المذبح؛ ونرى ذلك في العديد من الحالات حيث يتم تناول جزء من الضحية سرًا، ويتم حرق الباقي ونثره على الحقول، التي يُفترض أنها تخصبها. أنت تأكل إلهك جزئيًا، حتى تشرب ألوهيته؛ ولكنك تدفنه جزئيًا، حتى تضمن في الوقت نفسه صفاته المخصبة لذرة أو كرمك.

أعترف بأن كل هذا غامض بشكل واضح؛ لكن الترويج للأسرار وتكرار الأشخاص بشكل غريب، مع تحديدات رائعة وتمييزات دقيقة، شكلا دائمًا الكثير من تجارة الدين. إذا كانت الطوائف كلها تسير بسلاسة في جميع أنحاء العالم، فما هو المجال للإيمان؟ - سيكون هناك أقل لإثارة خيال المريدين.

والآن دعونا نعود قليلاً إلى حالتنا المكسيكية.

في العيد السنوي للإله العظيم تيزكاتليبوكا، والذي كان، مثل معظم المهرجانات المماثلة، يصادف نفس وقت عيد الفصح المسيحي، كان يتم اختيار شاب ليكون ممثلاً للإله لمدة اثني عشر شهرًا. وكما هو الحال مع جميع الضحايا المختارين تقريبًا، كان لابد أن يكون شابًا ذا جسد بلا عيب، وكان يتم تدريبه على التصرف مثل ملك الآلهة مع الكرامة اللائقة. وخلال عامه في الألوهية، كان ينعم بالرفاهية؛ وكان الإمبراطور الحاكم الفعلي يهتم بأن يرتدي ملابس فخمة، ويعتبره بالفعل إلهًا حاضرًا. وكان يحضره ثمانية وكلاء يرتدون الزي الملكي - مما يدل على أنه كان ملكًا بالإضافة إلى كونه إلهًا؛ وأينما ذهب كان الناس ينحني له. وقبل عشرين يومًا من المهرجان الذي كان من المقرر أن يُذبح فيه، أعطيت له أربع فتيات نبيلات، يحملن أسماء أربع آلهة، ليكونوا عرائس له. "وكانت الوليمة الأخيرة، مثل وليمة ديونيسوس، وأتيس، وبوتراج، تستغرق خمسة أيام. وهي مصادفة بين نصفي الكرة الأرضية تشير تقريباً إلى الهوية الأصلية للعرف قبل تشتت الأجناس. وخلال هذه الأيام الخمسة ظل الملك الحقيقي في قصره. وهذا الظرف يوضح بوضوح أن الضحية كانت تنتمي إلى الطبقة المشتركة من الآلهة الملوكية الإلهية المؤقتة. ومن ناحية أخرى، كانت البلاط بأكمله يرافق الضحية. وفي اليوم الأخير من الوليمة، كان الضحية يُنقل عبر البحيرة في مركب مغطى إلى معبد صغير على شكل هرم. وعند وصوله إلى القمة، كان يتم الإمساك به وإبقاؤه على كتلة من الحجر. لا شك أنه مذبح من أصل جنائزي. بينما كان الكاهن يشق صدره بسكين حجري، وينتزع قلبه. ثم يقدمه إلى إله الشمس. وكان الرأس

معلقاً بين جماجم الضحايا السابقين، لا شك لأغراض أوهامية، وكإله دائم؛ ولكن تم طهي الأرجل والأذرع وإعدادها لمائدة اللوردات، الذين تناولوا من الإله سرًا. وتم شغل مكانه على الفور بواسطة شاب آخر، والذي عومل بنفس الاحترام لمدة عام، وفي نهاية ذلك الوقت تم ذبحه بنفس الطريقة.

لا أظن أنني بحاجة إلى الإشارة إلى التشابه الوثيق بين هذه الطقوس وطقوس خوند ميريا، وبوتراج، ومهرجانات ديونيسوس، وأوزوريس، وأتيس، وأدونيس. ولكنني أود أيضًا أن ألفت الانتباه بشكل خاص إلى الوجهة النهائية للجمجمة، ومقارنتها الدقيقة بجمجمة الإله الحيواني في الهند وأماكن أخرى.

"إن فكرة عودة الإله المذبوح في شخص ممثله إلى الحياة على الفور،" كما يقول السيد فريزر، "كانت ممثلة بشكل واضح في الطقوس المكسيكية من خلال سلخ الإله المذبوح، وإلباسه رجلاً حياً، والذي أصبح بالتالي الممثل الجديد للإله". على سبيل المثال، في مهرجان سنوي في المكسيك، تم التضحية بامرأة تمثل توسي، أم الآلهة. وهو نوع من مهرجان سيبيل المكسيكي السنوي. كانت المرأة ترتدي الحلي وتحمل اسم الإلهة التي كان يُعتقد أنها تجسيد لها. وبعد أن تم إطعامها لعدة أيام، تم أخذها في منتصف الليل إلى قمة أحد المعابد، وهناك تم قطع رأسها. تم سلخ جسدها، وارتدى أحد الكهنة الجلد، وأصبح ممثلاً للإلهة توسي. ومع ذلك، تم إزالة جلد فخذ المرأة بشكل منفصل، وقام شاب يمثل الإله سينتيوتل، ابن توسي، بلفه حوله مثل قناع. ثم تلت ذلك مراسم، حيث قام الرجلان، اللذان كانا يرتديان جلد المرأة، بتمثيل دور الإله والإلهة. وفي كل هذا، هناك الكثير مما يبدو لي أنه يذكرنا بإيزيس وحورس، وسيبيلي وأتيس، وسيميلي وديونيسوس، والعديد من الطقوس الشرقية الأخرى.

وهناك ما هو أكثر أهمية من ذلك وهو المهرجان السنوي للإله توتك، الذي كان يمثله على نحو مماثل كاهن يرتدي جلد ضحية بشرية، وكان يتلقى قرابين من الثمار

الأولى والزهور الأولى، إلى جانب عناقيد الذرة التي كانت محفوظة للبذور. وهنا نجد أقرب تشبيه ممكن لحالة ميريا. فالقرابين من الثمار الأولى، التي كانت تُقدم أحياناً للملك، وأحياناً أخرى لأرواح الأجداد، تُقدم هنا لإله الزراعة البشري، الذي يمثل كلاً منهما في شخصه.

ولقد سُجِّلت في المكسيك العديد من التضحيات الأخرى التي كانت تقدم لآكلي لحوم البشر: ففي أكثر من حالة من هذه الحالات كان من المعتاد أن ينزع الكاهن قلب الضحية النابض الدافئ ويقدمه للصنم. وليس من السهل دائماً أن نقرر ما إذا كانت هذه التضحيات في كل حالة بعينها من النوع العادي أو من النوع الصوفي؛ ولعل المتعبدين أنفسهم لم يكونوا يميزون بدقة في كل حالة. ولكن مهما كان الأمر، فإننا نعرف على الأقل هذا القدر: عندما كانت التضحيات البشرية نادرة، كان الكهنة يذكرون الملوك بأن الآلهة "تتضور جوعاً"؛ ثم كانت الحروب تشن عمداً لأسر الأسرى، "لأن الآلهة طلبت شيئاً لتأكله"، وهكذا كان يتم ذبح الآلاف من الضحايا سنوياً. وكان دم الضحايا يُقَدَّم على حدة؛ وأود أن أضيف في هذا الصدد أن الأشباح والآلهة على حد سواء كانوا عطشى أكثر من كونهم جائعين. إن تفسير هذا الذوق الغريب هو أن الدم والسوائل الأخرى التي تُسكب على أرض القبور أو على أحجار المذبح سرعان ما تترسب في التربة، وبالتالي يبدو أن الروح أو الإله شربها أو امتصها؛ في حين يُرى اللحم والقرابين الصلبة وكأنها لم تمسها الإلهة التي تُقدم لها. وهناك سمة ثانوية في عادة حب الدم هذه التي يتسم بها الآلهة، وهي أن المكسيكيين قدموا للإله أيضاً دماء طازجة تُسحب من آذانهم ليشربها، وأن الكهنة كانوا يسحبون الدم أيضاً من أرجلهم ويدهنونه على معابدهم. ونرى تخفيفاً مماثلاً للتضحية بالنفس في أماكن أخرى في كاهن أتيس الذي يسحب الدم من ذراعيه لأتيس، وفي كهنة البعل العبريين الذين "يقطعون أنفسهم لبعل"، وفي طقوس الختان العبرية المألوفة. ويسحب الناجون أو العابدون الدم باستمرار كعمل من أعمال التكريم للموتى أو للآلهة.

إنني قد أزيد على أمثلة كثيرة للتضحيات البشرية التي يقدمها النظام الصوفي في أماكن أخرى، ولكنني أفضل أن أنتقل إلى التخفيفات المختلفة التي تميل هذه التضحيات إلى الخضوع لها في مجتمعات مختلفة. وفي صورتها الكاملة، أعتقد أن التضحية الصوفية لابد وأن تكون تضحية ملك كاهن إلهي، إله من نسل الآلهة، بنفسه على مذبح سلفه الإلهي. ولكن في أغلب الحالات التي نستطيع أن نتتبعها، تكون التضحية قد اتخذت بالفعل شكل تضحية ضحية راغبة، أو ملك مؤقت، من السلالة الإلهية فقط بالتبني، وإن كان في بعض الأحيان ابنًا أو أخًا للملك الفعلي. ومن التعديلات الإضافية أن الضحية يصبح أسيرًا يؤخذ في الحرب (وهو ما يُستدل عليه في أصل الكلمة اللاتينية "الضحية")، أو مجرمًا محكومًا عليه بالإعدام، أو معتوهًا، يمكن إقناعه بسهولة أكبر بتولي المنصب المميت. ولقد رأينا إشارات إلى كل هذه على الأقل في حالات سابقة. وهناك أشكال أخرى أكثر اعتدالاً، حيث يُسمح للضحية بالهروب من الموت الفعلي من خلال الحيل، وتلك التي يُسمح فيها للصورة أو التمثال بالقيام بواجب تجاه الشخص الحي. ومن بين هذه الأشكال الوسيطة نجد مثالاً جيداً في حالة البهاجاتس، الذين ذكرهم العقيد دالتون، الذين "يصنعون سنوياً صورة لرجل من الخشب، ويضعون عليها الملابس والحلي، ويقدمونها أمام مذبح ماهاديو" (أو صنم حجري خشن على شكل قضيب ذكري). "ويقول الشخص الذي يتولى منصب الكاهن في هذه المناسبة، "يا ماهاديو، نضحي بهذا الرجل لك وفقاً للعادات القديمة. أعطنا المطر في الوقت المناسب، وحصاداً وفيراً". ثم، بضربة واحدة من الفأس، يتم قطع رأس التمثال، وإزالة الجثة ودفنها". تُظهر لنا هذه الطقوس الغريبة شكلاً باقياً من ممارسة خوند ميرياه، ولكنه مخفف إلى حد كبير.

ولكن مثل هذه التمثيلات التي لا تراق فيها الدماء لا ترضي الآلهة في العادة؛ ولا تنجح في تحرير شبح أو إله ذرة. فهي في نهاية المطاف ليست أكثر من تضحيات وهمية ضعيفة. فالآلهة تريد الدم، فتمنحها إياه. وعلى هذا فإن البديل الأكثر شيوعاً للإله الضحية البشرية هو الإله الضحية الحيواني، الذي رأينا أمثلة كثيرة عليه بالفعل في

الثور والجدي عند ديونيسوس، والخنزير عند أتيس، وكثيرين غيرهما. ويبدو من المحتمل أن عدداً كبيراً من التضحيات، إن لم يكن أغلبها التي تذبح فيها الحيوانات الأليفة، تنتمي في نهاية المطاف إلى نفس الفئة. وعلى هذا فإننا نستطيع أن نفسر بسهولة نظرية الضحية "الثينية"ـ الحيوان الذي يمثل الإنسان والإله. فضلاً عن وجهة النظر الخاصة بالتضحية التي شرحها الدكتور روبرتسون سميث ببراعة.

إن هذه النظرية تزعم أن الحيوانات الأليفة كانت تعتبر في وقت مبكر من القرابة أو الدم مثل القبيلة؛ ولم يكن من الممكن السماح بذبح ثور أو عنزة أو شاة إلا إذا تم ذلك، مثل ذبح ابن الملك، كقربان وكقربان مقدس. وفي رأيي، فإن هذا لا يعني أكثر من أن الحيوانات الأليفة المقدسة كانت مقبولة في وقت مبكر كبديل للضحية البشرية، وأنها كانت تؤكل كقربان وكقربان مقدس كما كانت تؤكل الضحية البشرية أيضًا. ولكنني سأتنازل عن هذه النقطة المثيرة للجدل إلى حد ما، وأكتفي بالقول إن الضحية الحيوانية كانت تُعامل عادةً على أنها إلهية في حد ذاتها، وأن دمها كان يُعامل بنفس الطريقة التي كان يُعامل بها دم القرابين الأصلية لآكلي لحوم البشر. وفي الوقت نفسه، كانت الذبيحة تُقدم عادةً على مذبح إله أقدم وأكثر ثباتًا، إذا جاز التعبير، بينما كان يُسمح لدم الضحية بالتدفق فوق الحجر المقدس. ومن المؤكد أن كل ذبح للحيوانات الأليفة كان في وقت ما بين العرب والعبرانيين على حد سواء كان ذبحًا للتضحية؛ وحتى عندما لم تعد عملية الذبح تنطوي بالضرورة على تضحية رسمية، كان من الضروري ذبح الضحية باسم إله، وسكب الدم على الأرض تكريماً له. وحتى في العالم اليوناني الروماني، كانت كمية لحم الجزار "لحمًا يُقَدَّم للأصنام". وسوف نرى فيما يلي أن ذبح الحيوانات الأليفة بين المتوحشين الحاليين لا يزال يُعَد طقسًا مقدسًا.

وأعتقد أيضاً أن تقديم الدم هو أقدم وأشهر أشكال الذبح للآلهة؛ وأن الضحية في المراحل الأولى كانت تُستهلك عموماً من قِبَل المتناولين، كما نعلم أن الضحية آكلة

لحوم البشر كانت تُستهلك بين المكسيكيين، وكما رأينا أن العبيد الذين يعبدون ديونيسوس كانوا يلتهمون الماعز أو الجدي الإلهي البشري. ومن التفاصيل ما إذا كانت الضحية المقدسة تؤكل نيئة أم مطبوخة؛ فقد ساد الاستخدام الأول في الطقوس الأولى الأكثر خشوعاً، بينما ساد الاستخدام الآخر في الاحتفالات الأكثر اعتدالاً وتحضراً. ولكن في كلتا الحالتين، كان الإله الحيواني، مثل الإله البشري، يُؤكل سراً من قِبَل جميع عابديه، الذين استوعبوا بذلك صفاته الإلهية. ومن ناحية أخرى، سادت ممارسة حرق الضحية، على ما أعتقد، بشكل رئيسي بين أتباع حرق الجثث، مثل أهل صور واليونانيين، وإن كانت بلا شك امتدت أيضاً إلى العديد من الشعوب التي تدفن الجثث، مثل العبرانيين والمصريين. في معظم الحالات، حتى في حالات الضحايا المحروقة، يبدو أن جزءًا على الأقل من الحيوان قد تم إنقاذه من النار وأكله المصلون بطريقة مقدسة.

إن الضحية نفسها كانت في العادة نوعاً معيناً من الحيوانات المقدسة. وهذه القدسية التي يتمتع بها الحيوان المختار لها أبعاد أكثر أهمية مما درسناه حتى الآن. ذلك أن الحيوانات المستأنسة المختلفة تمتلك في حد ذاتها قدسية إيجابية بين الأجناس الرعوية المختلفة. فنحن نعلم على سبيل المثال أن الأبقار مقدسة للغاية في الجزء الأكبر من الهند، والجاموس في الدكن. وبين الشعوب الأفريقية من القبائل الرعوية، فإن الغذاء الشائع هو الحليب واللحوم البرية؛ ونادراً ما تذبح الماشية لمجرد الأكل، ودائماً في المناسبات الاستثنائية أو المقدسة ـ نفس المناسبات التي تتطلب في أماكن أخرى ضحية بشرية ـ مثل إعلان الحرب، أو المهرجان الديني، أو حفل الزفاف، أو جنازة زعيم عظيم. وفي مثل هذه الحالات، يكون العيد علنياً، ولكل الأقارب الحق الطبيعي في الحضور. إن قطيع الماشية نفسه مقدس للغاية. ويعامل أصحاب القطيع وأفراده بمودة واحترام أشبه بالأخوّة.

ولابد من إضافة بعض النقاط الأخرى. فمن بين الأجناس المبكرة، لا يُعَد قتل الحيوانات البرية وأكلها، أو قتل الأعداء وأكل لحومهم ممن ليسوا أعضاء في القبيلة، خطأً بأي حال من الأحوال. ولكن قتل أحد أفراد القبيلة ـ سفك دماء الأقارب ـ يعتبر خطيئة عميقة؛ ومن ثم فإن قتل القطعان المستأنسة وأكل لحومها يعتبر خطيئة. وفي سن الشيخوخة، أو المرض والضعف، يجوز لك أن تقتل وتأكل أقاربك من أقاربك دون لوم؛ وعلى هذا يجوز لك أيضاً أن تقتل وتأكل الماشية العجوزة أو المريضة. ولكن كقاعدة عامة، لا تأكلها إلا على سبيل القربان المقدس، في نفس الظروف التي قد تبرر لك فيها قتل وأكل ضحية بشرية. وعلى هذا فإن كل قبيلة لها حيوانها المقدس، الذي يستخدم كبديل منتظم لإله بشري. وكان هذا الحيوان بين العرب هو الجمل؛ وبين الشعوب الهندية كان الثور أو الجاموس؛ وبين سلالات الرعاة كان الغنم أو الماعز؛ وبين الجرمان كان الحصان؛ بين العديد من الشعوب الحضرية المستقرة، الخنزير؛ ومع الساموييد والأوستياك، ممتلكاتهم الوحيدة، الرنة.

"وكقاعدة عامة، لم يكن من المعتاد أن يضحي الناس بالبقرة أو غيرها من الحيوانات الأنثوية؛ بل كانوا يحتفظون بها لإنتاج الحليب. وكان الثور أو الكبش أو الثور أو الماعز هي التي كانت تقدم وتؤكل في السر المقدس. وسرعان ما كانت الاعتبارات النفعية البحتة تؤدي إلى هذا الاستخدام، تماماً كما يذبح الجزارون في بلادنا الحملان من الكباش باختيارهم، ويحتفظون بالنعاج للتكاثر. وبمجرد إدخال هذه العادة، فإنها كانت تميل إلى أن تصبح مقدسة؛ لأن كل ما فعله أسلافنا الإلهيون هو في حد ذاته إلهي، ولا ينبغي تغييره باستخفاف أو إهمال. ومن هنا نستطيع أن نفهم القداسة العليا للبقرة، التي جعلت العديد من الأجناس ترفض التضحية بها، في حين يضحون بالثور أو الثور ويأكلونه دون تردد أو تردد. وهكذا لم يأكل أهل توداس لحم الجاموسة الأنثى قط؛ بل يأكلون لحم الذكر مرة واحدة في السنة، سراً، ويشارك جميع الرجال البالغين في القرية في مراسم ذبحه وشوي لحمه.

إن أحد الأمثلة البارزة على التضحية الإلهية البشرية بحيوان مقدس كهذا نجدها في رواية نيلوس عن المراسم التي كان العرب في عصره يقومون بها. فكانوا يختارون جملاً مقدساً ليكون ضحية، ثم يربطونه على كومة من الحجارة. وفي هذا المذبح البدائي لا يسعنا إلا أن نتعرف على قبر زعيم قبلي قديم. ثم يقود زعيم الفرقة المصلين ثلاث مرات حول الكومة في موكب مهيب، ويرددون ترنيمة مهيبة أثناء سيرهم. وبينما كانت الكلمات الأخيرة من الترنيمة تنشد، هجم على الجمل (كما هجم بوتراج على الحمل)، فجرحه، وشرب على عجل من الدم الذي انسكب منه. "ففي الحال انقضت الجماعة كلها على الضحية بسيوفهم، وقطعوا أجزاء من لحمها المرتعش، وأكلوها نيئة بسرعة جنونية لدرجة أنه بين طلوع نجم الصبح وطلوع الشمس، كان الجمل بأكمله، جسده وعظامه وجلده ودمه وأمعائه، قد أكل بالكامل. ولست بحاجة إلى الإشارة إلى التشابه الوثيق بين هذه الطقوس الوحشية وطقوس بوتراج ودينيسوس. ومع ذلك، فمن المهم أن نلاحظ أن الدم هنا يسقط أيضًا على كومة الحجارة أو القبر أو المذبح. وأود أن أشير إلى أن التضحية السنوية بحمل الفصح بين الرعاة العبرانيين كانت ببساطة مجرد تخفيف لهذه الطقوس الوحشية. وفي هذه الحالة، كما قد نتوقع في عِرق أكثر تحضرًا، يتم شواء الضحية بالكامل: ولكن من الضروري أيضًا أن يتم تناول كل جزء منها على عجل. وتخبرنا الأسطورة كذلك، في حالة عيد الفصح، أن الحمل كان بديلاً عن الضحية البشرية، وأن المولود الأول كان يُقدَّس ليهوه، بدلاً من التضحية به. لاحظ أيضًا أن عيد الحمل الفصحي كان يشغل المساحة المألوفة الآن وهي خمسة أيام: حيث كان يتم اختيار الحيوان المقدس في اليوم العاشر من الشهر، ويتم التضحية به في اليوم الرابع عشر. إن الاحتفال بأكمله توضيحي ومليء بالبقايا.

"ورغم أن هذا يقطع خيط حجتي للحظة، فإنني أجد من المستحيل ألا أذكر هنا الحالة الموازية الغريبة للتضحية القضائية بين قبائل باتا في سومطرة، والتي تعد النظير البشري لسر الجمل العربي. وفي هذه الحالة فقط، كما في العديد من الحالات

الأخرى، يتداخل التضحية والعقاب مع بعضهما البعض. ""ومعهم حكم على الزاني، ولص الليل، وأولئك الذين هاجموا مدينة أو قرية أو شخصًا معينًا بخيانة، بأن يأكلهم الناس. لقد تم ربطهم بثلاثة أعمدة؛ ومد أرجلهم وأذرعهم على شكل صليب القديس أندرو؛ ثم عندما أعطيت الإشارة، اندفع الناس على الجثة وقطعوها إلى أجزاء باستخدام الفؤوس أو السكاكين، أو ربما ببساطة أكثر باستخدام أظافرهم وأسنانهم. تم التهام الشرائح الممزقة على الفور، كلها نيئة ومدمية؛ تم غمسها ببساطة في وعاء جوز الهند يحتوي على صلصة تم إعدادها مسبقًا من عصير الليمون والملح. "وفي حالة الزنا، كان للزوج الغاضب الحق في اختيار القطعة التي يفضلها أولاً. وكان الضيوف المدعوون إلى الحفل يؤدون هذا العمل بحماس شديد لدرجة أنهم كثيراً ما كانوا يمزقون ويؤذون بعضهم البعض". ولا أعتقد أننا نستطيع قراءة هذا التقرير دون أن نندهش من تشابهه الوثيق مع العديد من تضحياتنا السابقة، سواء كانت تضحيات آلهة الذرة البشرية أو تضحيات الحيوانات المقدسة. فالمجرم هنا ليس أكثر من بديل للضحية البشرية المقدسة.

والآن يتعين علينا أن نتذكر أيضاً أن الآلهة في أغلب البلدان كانت رفاقاً لعبدتها، وكانت حاضرة في كل وقت في كل بيت، وتتناول كل وجبة، جنباً إلى جنب مع الأحياء. وكانت تعيش في البيت، كما كانت الحال في غينيا الجديدة. وكانت القرابين تسكب لها من كل كأس؛ وكان الطعام يُقَدَّم لأشباحها أو جماجمها أو تماثيلها الخشبية في كل تجمع عائلي. وعلى هذا فإن الأعياد العادية كانت مجرد تجمعات احتفالية موسعة، حيث كانت الضحية تُذبح قرباناً وتؤكل سراً؛ وكان الزوار يعتقدون أنهم يأكلون جسد الإله ودمه لخلاصهم. ولابد أن التضحيات الكبرى، مثل مقابر 335 هيكاتومب، أو التضحية بالخيول الهندية البطولية، كانت نادرة نسبياً؛ ولكننا نرى في كل هذه التضحيات دليلاً واضحاً على أن الضحية كانت تعتبر حيواناً مقدساً، أي إلهاً، في أحد تجسيداته.

إن الدليل الواضح على هذا التكافؤ يتبدى في حقيقة مفادها أن المصلين كانوا غالباً ما يرتدون جلد الضحية، كما كان المكسيكيون يفعلون بجلد الإله السنوي. وفي بعض الأحيان كان الجلد يستخدم لتزيين الصنم. ففي التضحية بشاة عند القبرصيين لإلهة الغنم أفروديت، كان المحتفلون يرتدون جلد الشاة؛ بينما كان عابد داجون الآشوري يقدم ذبيحة السمك لإله السمك، مرتدياً جلد السمك. ولا شك أن جلد الماعز الذي كانت تستخدمه أثينا، والذي تصوره كإلهة الماعز، والجلود المستخدمة في الأسرار الديونيزية، له نفس الأهمية. ولا أتردد في ربط كل هذا باستخدام بدائي مثل استخدام المكسيكيين للتضحية بآكلي لحوم البشر.

وبعد أن وصلنا إلى هذه النقطة، نستطيع أن نرى أن الحالة التي يذبح فيها حيوان مقدس، يمثل ضحية بشرية، أمام مذبح إله أقدم، تعادل تمامًا الحالة الأخرى المعروفة حيث يذبح ضحية بشرية أمام حجر الأساس لمدينة أو قرية. وفي كلتا الحالتين، هناك تجديد واضح للحياة الإلهية؛ إذ يضخ الفعل دمًا جديدًا، كما كان الحال، في الإله القديم. وكل المصاحبات الأخرى هي نفسها تمامًا. وهكذا في تضحية طيبة بكبش للإله الكبش آمون، ندب المصلون الضحية، كما ندبت النساء أدونيس وأتيس؛ وفي النهاية تم لف صورة آمون في جلد الضحية، بينما تم دفن جسدها في نعش مقدس. وفي بوفونيا أو ذبح الثيران المقدس في أثينا، كانت هناك محاكمة منتظمة بعد ذبح الضحية، حيث يلقي الجميع اللوم على بعضهم البعض، حتى تم أخيرًا إدانة السكين الذي أحدث الجرح بتهمة القتل وإلقائه في البحر. (سوف نلتقي مرة أخرى بهذا الرمي في بحر حامل الذنب من أجل المجتمع عندما نأتي إلى النظر في عقيدة الكفارة). وهكذا رأينا أن بوتراج هرب بعد أداء تضحيته الدموية؛ وكذلك 336 فر قاتل العجل ديونيسوس في تينيدوس نجاة بحياته عندما انتهت المراسم. والواقع أننا نجد العديد من الحالات الوسيطة، مثل حالة الماعز المتنكرة في هيئة فتاة والتي تم تقديمها على سبيل التضحية الإلهية البشرية لأرتميس مونيشيا، أو حالة العجل ديونيسوس المغطى بالجوارب، والذي عوملت بقرته الأم وكأنها امرأة أثناء الولادة.

وفي نظري، فإن كل هذه الحالات هي محاولات واضحة لإضفاء طابع مقدس على الآلهة بدلاً من الضحية البشرية الحقيقية. إنها ليست أكثر من خيالات قانونية إلهية، تم استخلاصها بلا شك من خيال القرابة بين القطيع وسادته.

وعلى العموم، يمكننا أن نجازف بالقول ليس ربما أن جميع الذبائح، بل عدد كبير منها، وبالتأكيد الأكثر شهرة بين الأمم التاريخية، هي ذبح لبدائل حيوانية لضحايا بشرية؛ وأن الجسد يستهلكه العابدون بشكل مقدس.

ولكن هناك شكل خاص من أشكال التضحية بالحيوانات، لا أستطيع أن أتجاهله هنا في صمت تام. وهو الشكل الذي يعتبر وليمة الحصاد بمثابة الأثر الأخير منه. وقد تناول السيد فريزر هذا الموضوع بشكل كامل في مقاله الرائع: ولكن تفصيله هنا بالتفصيل سيشغل مساحة كبيرة؛ ولا أستطيع إلا أن أقدم الخطوط العريضة لأمثلته. في الأصل، يبدو أن إله الذرة أو روح الذرة كان يُتصور أثناء الحصاد وكأنه يلجأ إلى آخر حزمة من الذرة. ومن قطع خصلة الذرة تلك قتل روح الذرة، وبالتالي كان هو نفسه، على غرار قاتل الملك الإلهي، روح الذرة. لا يؤكد السيد فريزر بشكل قاطع أن هذا الممثل البشري قُتل في الأصل وأكل، على الرغم من أن كل القياسات تشير إلى ذلك؛ ولكن من المؤكد تمامًا أنه قُتل على الأقل؛ ولا يزال يُقتل، في عرض صامت على أي حال، في العديد من حقول الذرة الأوروبية الحديثة. ولكن في أغلب الأحيان، يفترض أن روح الذرة تتجسد في أي حيوان يصادف وجوده في الحزمة الأخيرة، حيث تلجأ إليه حتى الآن مخلوقات صغيرة مثل الفئران والقنافذ. ولكن في العصور السابقة، يبدو أن الذئاب والخنازير البرية وغيرها من الحيوانات الضخمة كانت تصادف في كثير من الأحيان في ظروف مماثلة. ومهما كان الأمر، فإن عددًا كبيرًا من الحيوانات - حيوانات مقدسة عمومًا - تؤكل أو كانت تؤكل سرًا باعتبارها ممثلين لإله الذرة؛ وفي المقابل، غالبًا ما يتم صنع الحزمة الأخيرة على شكل رجل أو في كثير من الأحيان على شكل امرأة، ويتم الحفاظ عليها دينيًا لمدة عام، مثل الملك السنوي،

حتى الحصاد التالي. وفي بعض الأحيان يتم قطع رأس ديك وأكله في وليمة الحصاد، حيث يتم هنا إعطاء أهمية خاصة لرأسه، كما هو الحال بالنسبة لرأس الضحية البشرية في العديد من الحالات الأخرى. وفي بعض الأحيان، كما كان الحال مع البروسيين القدماء، كان جسد عنزة الذرة هو الذي يؤكل سرًا. في بعض الأحيان، كما في شامبيري، يتم ذبح ثور، ويأكله الحصادون في طقوس خاصة أثناء العشاء. وفي بعض الأحيان، يُعتقد أن الحيوان التوتوني المقدس القديم، الحصان، هو الذي يسكن آخر خصلة من الذرة. وسأضيف هنا بين قوسين (وهو ما أثق في أن بعض الأعمال المستقبلية ستوضحه) أننا ربما نجد في هذا والأفكار المشابهة أصل الرؤوس المقدسة والسحرية للخيول والثيران الملحقة بالمعابد أو المبنية في الكنائس. وفي بعض الأحيان، مرة أخرى، يكون الخنزير هو الذي يمثل الإله، ويؤكل في احتفالات عيد الحصاد.

لا أحتاج إلى أن أذكر أن كل هذه الحيوانات المقدسة، التي تحل محل الإله البشري الأصلي، تجد نظائرها في مهرجانات ديونيسوس، وأتيس، وأوزوريس، وديميتر، وأدونيس، وليتيرسيس، وآلهة الذرة والنبيذ العظيمة الأخرى في الحضارات التاريخية.

ولكن هناك شكل آخر أكثر تساميًا من أشكال العيد المقدس. فبما أن إله الذرة وإله الخمر، عندما يُقتلان، يقومان من جديد في الذرة والكرمة، ألا يجوز لنا أيضًا أن نأكل أجسادهما كخبز، ونشرب دميهما كخمر أو صومعة؟

إن الناس الذين اعتادوا بالفعل، أولاً على الشكل الشرقي لأكل لحوم البشر من أكل الآلهة، ثم على التعديل اللطيف الذي أحدثه على ضحايا الحيوانات، لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر طبيعية من هذا النقل الطفيف للشعور. بل وأكثر من ذلك: فمن أكل الخبز وشرب الخمر منذ البداية لابد وأن يكون قد علم أنه كان يأكل ويشرب جسد ودم إله. ومع ذلك، هناك فرق معين بين مجرد طعام يومي عادي والعيد المقدس، الذي اعتاد عليه عقول البشر الآن أكل لحوم البشر المقدس والتضحية

بالحيوانات. وبناءً على ذلك، نجد في العديد من الحالات أن هناك أكلًا وشربًا مقدسين خاصين للخبز والنبيذ، والذي يُنظر إليه بشكل خاص على أنه أكل جسد ودم الإله.

وقد يستشهد هنا ببعض الحقائق التوضيحية الغريبة. فبما أن القش والذرة ينموان من إله الذرة المذبوح، فيمكن اعتبارهما أحد تجسيداته الطبيعية. ومن ثم، عندما يُحظر تقديم القرابين البشرية، فإن الناس يجعلون أحيانًا إله القش يقوم بواجب تجاه إله بشري. لقد رأينا كيف استخدم الغونديون ذات مرة لاختطاف صبية براهمان مقدسين - آلهة من حيث العرق، ولكنهم غرباء وأطفال - ثم ينثرون دمائهم على الحقول ويأكلون أجسادهم على سبيل الأسرار المقدسة. ولكن عندما تدخلت الحكومة البريطانية غير المتعاطفة في عادات صنع الآلهة لدى شعب الغوند، لجأوا، كما يقول العقيد دالتون، إلى صنع صورة من القش بدلاً من ذلك، والتي يضحون بها الآن على نحو مماثل. وعلى هذا فقد نلاحظ في العديد من مراسم "دفن الكرنفال" وما شابه ذلك، والتي ذكرتها بالفعل، أن رجل القش يحل محل الضحية البشرية رمزياً. في الواقع، في هذه المجموعة الفريدة من الناجين لدينا كل البدائل الممكنة - الملك المزيف، والمعتوه، والقتل المتظاهر، وسفك الدماء الاحتفالي، والضحية الحيوانية، ورجل القش أو التمثال. قد أضيف أن حتى صنع جاي فوكس الحديث كـ "رجل من القش" ليس مجرد مصادفة. ولكننا نحصل على استخدام مماثل جدًا للذرة في الممارسة الغريبة المتمثلة في تشكيل زوجة الذرة وطفل الذرة، والتي وصفها السيد فريزر بالتفصيل الكامل. في هذا البقاء المخفف للتضحية البشرية، تقوم حزمة من الذرة بواجبها تجاه ضحية بشرية، وتمثل حياة إله الذرة أو روح الذرة من عام إلى آخر. وتشير كل الأدلة القائمة إلى فكرة مفادها أن عذراء الذرة أو زوجة الذرة، بعد مرور عام 339 من التأليه، كانت تُقتل في الأزمنة السابقة، وأن الضحية البشرية تمثل الآن نظيرها النباتي أو ما يعادله، الذرة في السنبلة، التي تقوم حزمة منها بواجبها، وتحكم كملكة للذرة حتى حصاد العام التالي. وبالتالي فإن طفل الذرة هو ملكة مؤقتة، مصنوعة من الذرة، وليس من لحم ودم بشريين. ويمكننا أن نقارن بهذه الحالة قصة

الفتاة السيوكس التي ضحى بها الباوني، عن طريق حرقها على نار هادئة، ثم إطلاق النار عليها (مثل القديس سيباستيان) بالسهام. انتزع رئيس المضحين قلبها وأكله، وبالتالي أكل الإلهة بطريقة آكلة لحوم البشر الحقيقية. وبينما كان لحمها لا يزال دافئًا، تم تقطيعه إلى قطع صغيرة ونقله إلى حقل الذرة. وعصرت قطرات من الدم منه على حبات بذور الذرة؛ وبعد ذلك تم تغطية كل شيء بالأرض لتشكيل آلة لجمع المحاصيل. ومن بين طقوس صنع الآلهة المروعة هذه، ربما تكون كوميديا الحصاد البريئة التي نراها هنا عن طفل الذرة هي آخر الآثار الباقية. ويربط السيد فريزر بينها وبين عبادة كوري الأثينية، بيرسيفوني. وأعتقد بالفعل أن الشكل المزدوج للاسم، "المرأة العجوز" و"طفل الذرة"، يجعل من المحتمل أن يكون الزوجان هما المعادل النباتي لكل من ديميتر وابنتها المغتصبة.

ولكن في حالات أخرى، فإن الخبز والنبيذ في حد ذاتهما، وليس القش أو الذرة في السنبلة، هما اللذان يمثلان الإله ويؤكلان في الأسرار المقدسة. ونحن مدينون للسيد فريزر بمعظم معرفتنا الحالية بالانتشار الواسع والأهمية الدينية لهذه الطقوس الفريدة.

لقد رأينا بالفعل أنه في العديد من البلدان، تُقدَّم باكورة المحاصيل إما لأشباح الأجداد، أو للآلهة العظيمة، أو للملك، الذي هو الإله الحي والممثل الحالي للأجداد الإلهيين. وإلى أن يتم ذلك، سيكون من غير الآمن تناول الحصاد الجديد. فالإله الموجود بداخله سيقتلك. ولكن بالإضافة إلى تقديم الثمار الأولى احتفاليًا للأرواح، فإن العديد من الأجناس أيضًا "تأكل الإله" في الذرة أو الأرز الجديد سرًا. في فيرملاند، في السويد، تستخدم زوجة المزارع 340 حبة من الحزمة الأخيرة (التي من المفترض، كما رأينا، أن إله الذرة أو روح الذرة يقيم فيها بشكل خاص)، من أجل خبز رغيف على شكل فتاة صغيرة. وهنا نرى العذراء، التي تم التضحية بها سابقًا كإلهة ذرة أو بيرسيفوني، تظهر مرة أخرى في صورة خبز. يتم تقسيم هذا الرغيف بين جميع أفراد الأسرة

ويأكلونه. وهكذا في لا باليس في فرنسا، يتم تعليق رجل مصنوع من العجين على شجرة التنوب التي تحملها عربة الحصاد الأخيرة إلى المخزن. يتم نقل بائع العجين والشجرة إلى منزل العمدة حتى ينتهي الحصاد؛ ثم يتم إقامة وليمة، حيث يقوم العمدة بكسر بائع العجين إلى قطع، ويعطي القطع للناس ليأكلوها. هنا، يمثل العمدة بوضوح الملك أو الزعيم، بينما يتم الجمع بين وليمة الثمار الأولى والأكل المقدس، كما كان الحال في الأصل ربما، في نفس الطقوس التضحية. لا يوجد ذكر خاص للنبيذ؛ ولكن بما أن العيد مؤجل حتى يتم بعد الحصاد، فمن المحتمل أن دم إله الخمر وكذلك جسد إله الذرة دخلا مرة واحدة على الأقل في الطقوس البدائية.

ولقد ظلت العديد من الأعياد المماثلة باقية في أوروبا؛ ولكن لكي نقيم طقوس أكل إله الذرة في صورته الكاملة فلابد أن نعود مرة أخرى إلى المكسيك، التي زودتنا أيضاً بأفضل الأمثلة وأكثرها تميزاً على أكل الآلهة آكلي لحوم البشر. ففي مايو/أيار وديسمبر/كانون الأول كان يتم صنع تمثال للإله المكسيكي العظيم هويتزيلوبوتشتلي من العجين مرتين في العام، ثم يتم تكسيره إلى قطع صغيرة، ثم يأكله المصلون المجتمعون في احتفال مهيب. ويقول أكوستا إن عذارى المعبد قبل يومين من عيد مايو/أيار كانت يعجنن بذور البنجر بالذرة المحمصة، ويشكلنها بالعسل على هيئة صنم من العجين، بحجم صنم الخشب الدائم الذي يمثل الإله، ويضعن حبات زجاجية بدلاً من العيون، وحبوب ذرة هندية بدلاً من الأسنان. ثم كان النبلاء يحضرون إلى إله الخضراوات ثوباً فاخراً وجميلاً، مثل الثوب الذي يرتديه الصنم الخشبي، ويزينون التمثال به. وبعد أن يتموا ذلك، كانوا يحملون التمثال على محفة على أكتافهم، لا شك للإشارة إلى سلطته الملكية. وفي صباح العيد، كانت عذارى الإله ترتدين أكاليل من الذرة وغيرها من الملابس الاحتفالية. وكان الشباب، الذين يرتدون نفس الملابس، يحملون التمثال في تابوت أو صندوق إلى أسفل معبد الهرم الأكبر. وكانوا يرفعونه على الدرجات مع موسيقى صاخبة من الناي والأبواق . وهي موسيقى كانت شائعة في مراسم قتل الآلهة. وكانت الزهور تنثر عليه، كما كانت

العادة مع كل آلهة النباتات، وكان يوضع في كنيسة صغيرة من الورود. ثم كانت تجري بعض مراسم الغناء والرقص، التي كانت من خلالها تُكرَّس العجينة في جسد وعظام الإله. وأخيراً، كان يتم كسر التمثال وتوزيعه على الناس، أولاً النبلاء، ثم عامة الناس، الذين كانوا يتلقونه، رجالاً ونساءً وأطفالاً، "بدموع وخوف وإجلال كما لو كان مقدساً، قائلين إنهم أكلوا لحم وعظام الله، مما أحزنهم". لا أحتاج إلى الإشارة إلى التشابه الوثيق هنا مع الحداد على جثتي أتيس وأدونيس، ولا مع طقوس ديونيسوس.

إن عيد ديسمبر (الذي كان يُحتفل به، مثل عيد الميلاد، في الانقلاب الشتوي) يذكرنا بممارسة أكل لحوم البشر؛ ففي هذا العيد كان يتم صنع صورة للإله من بذور، ثم تُعجن حتى تصبح عجينة بدماء الأطفال. وكثيراً ما تحدث مذبحة الأبرياء هذه في أماكن أخرى في ارتباطات مماثلة: وسوف نلتقي بها مرة أخرى في مناسبة لاحقة. فقد وُضِعَت الصورة على المذبح الرئيسي للمعبد، وفي يوم عيد الغطاس، قدم ملك المكسيك البخور لها. والواقع أن آلهة الأطفال مثل هذه معروفة جيداً في بلدان أخرى. وفي اليوم التالي، تم إنزال الصورة، وقذفها أحد الكهنة بسهم ذي رأس من الصوان. وكان هذا يسمى "قتل الإله حتى يمكن أكل جسده". ثم قام أحد الكهنة بقطع قلب الصورة وأعطاه للملك نفسه ليأكله، تماماً كما كان الكاهن في التضحيات الأخرى يقطع قلب الضحية البشرية النابض ويضعه في فم إله أكل لحوم البشر. تم تقسيم بقية الصورة إلى قطع صغيرة، 342 قطعة منها تم توزيعها على جميع الذكور في المجتمع، كبارًا وصغارًا. أطلق على الحفل اسم "أكل الله".

ولن أزيد على ذلك أمثلة كثيرة على المبدأ الأساسي الذي يقضي بتناول إله الذرة على هيئة كعكات صغيرة أو صور بشرية، والتي تم جمعها بوفرة في مختلف أنحاء العالم. إن عمل السيد فريزر يشكل قاموساً مثالياً للعادات المشابهة. بل سألفت الانتباه إلى واحد أو اثنين من أوجه التشابه الخاصة مع طقوس تناول الآلهة المشابهة،

سواء كانت أكل لحوم البشر أو أكل الحيوانات، والتي تحدث في أماكن أخرى. ففي نهاية موسم حصاد الأرز في بوروي، في جزر الهند الشرقية، تجتمع كل عشيرة في وجبة تضحية مشتركة، حيث يلتزم كل عضو من أفراد العشيرة بالمساهمة بقليل من أرزه الجديد من الموسم الحالي. وهذا ما يسمى "أكل روح الأرز". ولكن بعض الأرز يُخصص أيضاً ويُقدم للأرواح. أي، على حد اعتقادي، لأشباح الأسلاف. وهذا المزيج يشبه الحالة الشائعة التي يتم فيها تقديم الضحية البشرية على حجر المذبح للآلهة الأسلاف الأوائل. ومن بين أهل ألفور في سيليبس، يتولى الكاهن أيضاً زرع بذور الأرز الأولى، ثم يقطف أول أرز ناضج في كل حقل. ثم يشويه ويطحنه حتى يتحول إلى دقيق، ويعطي بعضه لكل فرد من أفراد الأسرة. ولا شك أن الكاهن هنا يمثل الملك القبلي القديم. وهناك العديد من الممارسات المشابهة التي وردت في الهند، ولا نحتاج إلى سرد سوى واحدة منها في الوقت الحاضر. ومن بين الهندوس في ديكان، هناك أكل سحري مقدس للأرز الجديد؛ ولكن النقطة المهمة التي يجب ملاحظتها هنا هي حقيقة أن بعضه يُقدَّم للإله غانيشا، وبعد ذلك تتقاسم الأسرة بأكملها المحصول. أما بين الكفار في ناتال وزولولاند، فإن الناس يجتمعون في كرنال الملك للاحتفال بعيدهم المقدس بالفواكه الجديدة، حيث يرقصون ويؤدون بعض الطقوس المقدسة. وفي هذه الحالة، يبدو أن الملك، الإله الحي، يحل محل الإله، الملك الميت، في المهرجان الهندي. "إننا نخلط الحبوب المختلفة مع لحم حيوان يُذبح، ولن نجد الآن صعوبة كبيرة في التعرف على الضحية البشرية التي تمثل إله الذرة؛ ثم يضع الملك نفسه جزءًا من هذا الخليط في فم كل رجل، وهو الذي يقوم هنا بأداء الطقوس بصفته كاهنًا أسلافًا. وعلى ضوء هذه القياسات، أعتقد أننا لا نحتاج إلى التردد في إعادة بناء وليمة الأسرار البدائية، حيث كان يتم التضحية برجل كإله ذرة مُصنَّع سنويًّا؛ وكانت البذور تُمزج بدمه؛ وكان الناس يأكلون لحمه كقربان مقدس، ويطعمه الملك؛ وكان الملك نفسه يأكل جزءًا من جسده، وكان يُقدَّم جزء آخر للآلهة العظام، أو لإله القبيلة، أو إله أو إلهة تأسيس القرية أو المدينة. وبعد جمع البقايا المختلفة التي ذكرناها سابقًا، لا أعتقد أن هذا يمثل تمرينًا كبيرًا على القدرة البنّاءة.

لقد رأيت بنفسي في منزل مهاجرين أيرلنديين في كندا حالة مثيرة للاهتمام من حالات أكل الآلهة، حيث يتم خبز الكعكة، ليس على هيئة رجل، بل على هيئة حيوان إلهي. حيث يتم تحويل الذرة الجديدة إلى أرغفة أو كعكات على شكل خنازير صغيرة، مع وجود الكشمش كعينين؛ ويتم تقديم واحدة من هذه الكعكات لكل طفل. ورغم اعتبار هذه الحالة مجرد عادة مرحة، إلا أنني أجازف بالتفكير في أنها لا تزال ذات قيمة توضيحية خاصة بها.

إن ممارسة عجن كعك القربان المقدس من دم الأطفال، والتي رأيناها سائدة في حالة إله مكسيكي، تضاهيها ممارسة خلطها بفتات لحم ضحية حيوانية في طقوس الزولو. ولكن لا بد أن شكل أكل لحوم البشر في هذه الطقوس كان منتشراً على نطاق واسع؛ كما نستنتج من حقيقة أن طائفة مسيحية، هي طائفة البوليسيان، اتهمت بهذه الممارسة في أواخر القرن الثامن. وقد كتب يوحنا الأوسوني، بطريرك أرمينيا، خطاباً لاذعاً ضد هذه الطوائف، ذكر فيه حقيقة أنهم صاغوا صورة لزهرة قمح من دم الأطفال، وتناولوا بها القربان المقدس. وبطبيعة الحال، لم يكن من الممكن أن يكون هناك أي اتصال مباشر في القرن التاسع بين أرمينيا والمكسيك؛ ولكن الاتهام يظهر على الأقل أن طقوساً مماثلة كانت معروفة أو تذكر في آسيا في عام 344 كممارسات فعلية. في الواقع، كان أهل حران في العصور الوسطى يضحون بطفل كل عام، ثم يغليون لحمه ويخبزونه في كعكات، وكان يُسمح لكل رجل حر بتناولها. وفي كلتا الحالتين، نجد طرفي نقيض من أكل الإله مجتمعين في ممارسة واحدة ـ طقوس أكل لحوم البشر وكعكة الذرة المقدسة.

ويلفت السيد فريزر الانتباه إلى مثال انتقالي آخر مثير للاهتمام. ففي روما كانت أرغفة الخبز المصنوعة على هيئة بشر تُسمى "مانيا"، ويبدو أن مثل هذه الأرغفة كانت تُصنع خصيصاً في أريشيا. وكانت أريشيا أيضاً المكان الوحيد في إيطاليا الذي عاش فيه ملك كاهن إلهي، وهو الملك نيموراليس، والذي كان معروفاً جيداً حتى أوج

توهج تلك الفترة التاريخية، وذلك بعد أن تولى الحكم الوحشي القديم بقتل سلفه. ومرة أخرى، كان اسم "مانيا" يشير إلى أم أو جدة الأشباح. وكانت الصور الصوفية المخصصة لهذه الإلهة اللاتينية "سيبيل" تُعلق في روما في عيد كومبيتاليا، وكان يقال إنها كانت بديلاً للضحايا البشر. ويشير السيد فريزر إلى أن أرغفة الخبز المصنوعة على هيئة بشر والتي كانت تُخبز في أريشيا كانت خبزاً مقدساً؛ وفي الأيام القديمة، عندما كان الملك نيموراليس يُقتل سنوياً، كانت أرغفة الخبز تُصنع على صورته كما في المكسيك، وكان عابدوه يأكلونها مقدساً. لا أتردد في أن أزعم أن كعكات الزنجبيل، التي تتخذ شكل رجل، ولا تزال مطلية بالذهب، والتي تباع في العديد من المعارض في فرنسا وإيطاليا، وأحيانًا في إنجلترا أيضًا، هي بقايا من بقايا صور مقدسة سابقة مماثلة. فالمعارض في معظمها بقايا متضائلة من المهرجانات الدينية.

وبما أن الضحية الحيوانية الإلهية البشرية تمثل رجلاً وإلهاً، فمن المعقول أن يكون الكعك المصنوع على شكل حيوان والمُخبز من الدقيق في بعض الأحيان أفضل من الضحية الحيوانية. ذلك أن الذرة هي في نهاية المطاف تجسيد لإله الذرة. ومن هنا كان الخبازون في العالم القديم يحتفظون في مخازنهم بتماثيل من العجين للحيوانات المختلفة التي يتم التضحية بها، للأشخاص الذين كانوا فقراء للغاية ولا يستطيعون تحمل تكاليف الأصلية. وكانت الثيران والأغنام تُمثل بانتظام بهذه الطريقة. وعندما حاصر ميثريداتس سيزيكوس، ولم يتمكن الناس من الحصول على بقرة سوداء للتضحية بها لبيرسيفوني، صنعوا بقرة من العجين ووضعوها على المذبح. وفي مهرجان دياسيا الأثيني، كانت الكعكات على شكل حيوانات تُضحى بها على نحو مماثل؛ وفي مهرجان أوزوريس في مصر، عندما قدم الأغنياء خنزيرًا حقيقيًا، اعتاد الفقراء تقديم خنزير من العجين كبديل، مثل خنزير العجين لدى الكنديين الأيرلنديين.

ولكن في العديد من الطقوس الأخرى، فقدت الكعكة المقدسة والقربانية كل مظهر للإنسان أو الحيوان. ثم يتم تناول الإله إما في شكل غير مجسم من الأرز المسلوق أو العصيدة، أو في كعكة مستديرة أو رغيف، بدون صورة من أي نوع، أو في رقاقة مختومة بصليب الشمس أو الصليب المسيحي. وحالات من هذا النوع مألوفة للجميع.

وهناك طقوس أخرى أكثر ارتباطاً بأكل لحوم البشر في العصور القديمة، وهي الطقوس الغريبة التي ابتكرها السيد سيدني هارتلاند. ففي بافاريا العليا، تُعجن كعكة الجثة من الدقيق، وتوضع على صدر الميت، من أجل امتصاص فضائل المتوفى. ثم يأكل هذه الكعكة أقرب الأقارب إليه. وفي شبه جزيرة البلقان، تُصنع صورة صغيرة للميت من الخبز ويأكلها الناجون من الأسرة. وهذه مراحل وسيطة بين أكل لحوم البشر وممارسة أكل الخطيئة المعروفة.

"آمل أن أكون قد أوضحت الآن الانتماء العام الذي أسعى إلى اقتراحه، إن لم يكن إثباته. فكرتي هي أنه في البداية كانت بعض الأجناس تلتهم آباءها، أو أجزاء منهم، حتى تمتص الأرواح الإلهية لأسلافها في أجسادها. وفي وقت لاحق، عندما أصبح صنع الآلهة الاصطناعية استخدامًا متكررًا، وخاصة فيما يتعلق بالزراعة، أكل البشر الإله، أو جزءًا منه، لسبب مماثل. لكنهم يأكلونه أيضًا مثل الذرة أو البطاطا أو الأرز، على سبيل الأسرار المقدسة. وعندما تم استبدال الضحايا اللاإنسانية بالإله البشري، فإنهم يأكلون الضحية اللاإنسانية بنفس الطريقة. كما صنعوا صورًا من عجينة لكل من الإنسان والحيوان، وعاملوها على أنها مركبة من الإله، وبالمثل ضحوا بها وأكلوها. 346 وشربوا دمه، في الجنوب كنبيذ، وفي الشمال كجعة، وفي الهند كصوما. إذا كان هذا الخط من إعادة البناء صحيحًا تقريبًا، فإن الأسرار ككل تعتمد في المقام الأخير على البقاء من وليمة الآلهة آكلي لحوم البشر.

إنها حقيقة مهمة أنه في كثير من الحالات، كما هو الحال في مهرجان بوتراج، يشرب الكاهن الذي يقوم بالاحتفال دم الضحية الإلهية، بينما يُسمح للعلمانيين بتناول جسدها فقط.

هناك عنصر آخر ذو أهمية في المفهوم المعقد للضحية البشرية أو الحيوانية، أو الإله المقتول، والذي يجب أن نفحصه بإيجاز قبل أن نتمكن من المضي قدمًا في تطور المسيحية؛ أعني عقيدة التضحية المؤلمة - أو بعبارة أخرى، الكفارة.

يقول مؤلف إحدى أقدم الرسائل المسيحية: "لا يمكن أن تغفر الخطيئة دون سفك دم". وهذه نظرية شائعة في كل الديانات المتقدمة؛ إذ لا يُنظَر إلى الذبيحة باعتبارها مجرد تضحية بالنفس من قِبَل ضحية إلهية أو إله متجسد، بل وأيضاً باعتبارها تكفيراً عن الجرائم المرتكبة. يقول المعمدان في الأسطورة: "ها هو خروف الله الذي يرفع خطايا العالم."

إن هذه الفكرة ليست بدائية، بل لابد وأن ننظر إلى الخطيئة باعتبارها دخيلاً أخلاقياً متأخراً على مجال الدين. وكان الإنسان الأول يتقبل آلهته بفرح وسرور في أغلب الأحيان. كان على علاقة طيبة بها، يأكل ويشرب ويمرح في حضورها، وكانت تشاركه في حفلاته الجنسية. لم تكن آلهته رقباء أخلاقيين عظماء، مثل الخلق النبيل الذي خلقه أنبياء العبرانيين، "ذوي العيون الأطهر من أن ينظروا إلى الإثم". بل كانت مخلوقات تشبهه في العواطف والعيوب، أسلافاً وأصدقاء أعزاء، مستعدين دوماً للتغاضي عن نقاط الضعف البشرية الصغيرة مثل القتل أو السلب، ولكنهم يمارسون الرعاية الأبوية في أغلب الأحيان على حياة ومصائر ذريتهم أو أفراد قبيلتهم. قد يغضبون في بعض الأحيان، ولكن غضبهم يمكن أن يهدأ بسهولة من خلال ضحية بشرية، أو من خلال دماء الماعز والثيران المذبوحة. وفي الظروف العادية، كانوا رفاقاً مألوفين في المنزل. إن جماجمهم أو صورهم تزين الموقد، وهم يشاركون في الولائم العائلية والمنزلية، ويلعقون قرابين الدم أو النبيذ المقدمة لهم بوجه مبتسم. باختصار، إنهم أعضاء عاديون في القبيلة، ذهبوا قبل العالم الروحي، وهم يواصلون المشاركة دون فخر أو زهد في أفراح وأعياد ومسرات أقاربهم.

وعلى هذا فإن فكرة الكفارة، إلا كنوع من التهدئة العابرة لخلاف مؤقت، لم تظهر على الأرجح في الديانات الأولى والأكثر بدائية. ولم تظهر فكرة الخطيئة، التي هي في الأساس جريمة ضد آداب الآلهة الراسخة، إلا في وقت لاحق، عندما بدأت الأفكار الأخلاقية تتسلل إلى الدورة المقدسة. وفي كثير من الحالات، يبدو أن التعليقات اللاحقة تضفي على ما كان في الأصل مجرد احتفال عملي لصنع الآلهة وقتلهم، معنىً تافهاً. ولكن في المراحل الفلسفية الأكثر وعياً في الدين، اكتسبت فكرة الكفارة هذه أرضية قوية بسرعة حتى أنها كادت تلتهم المفهوم السابق للشركة أو الاحتفال معاً. ومن ثم، يُنظَر إلى التضحية باعتبارها قرباناً تافهاً لإله أساء إليه أو اغترب عنه بحق؛ وهذا هو شكل الإيمان الذي نجده في كل مكان تقريباً في القصائد الهوميرية، كما نجده في العديد من أعمال الأدب الهيليني والسامي.

وعلى وجه الخصوص، يبدو أن الذبيحة التافهة قد تبلورت وتجمدت حول الشخص المقدس للإله الاصطناعي. يقول السيد فريزر: "إن المصائب المتراكمة وخطايا الشعب بأكمله تُلقى أحيانًا على الإله المحتضر، الذي يُفترض أنه سيحملها إلى الأبد، تاركًا الشعب بريئًا وسعيدًا[1]". يقول أحد الشعراء العبريين، الذي تُنسب أبياته إلى إشعياء، عن أحد كبش الفداء الإلهي: "لقد حمل أحزاننا وحمل أوجاعنا، ولكننا حسبناه مصابًا ومضروبًا من الله ومذلولًا. جُرِح لأجل معاصينا، وسُحِق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحبره شفينا. وضع الرب عليه إثم جميعنا."

كانت الأفكار المعبر عنها هنا بهذه اللغة النبيلة مشتركة بين جميع آلهة البشر اللاحقة في الديانات الأكثر تقدمًا وأخلاقية.

ولعل السيد فريزر محق في ربط فكرة كبش الفداء، سواء كان إنساناً أو حيواناً، بالفكرة البربرية الشائعة التي تتلخص في نقل الشرور. وعلى هذا فإن السحر الشعبي في كل الأمم ينقل الأمراض من كل نوع، من الحمى والأوبئة الخطيرة إلى الصداع وآلام الأسنان والثآليل والجروح، عن طريق طقوس بسيطة من طقوس السحر إلى

الحيوانات أو الخرق أو غيرهم من الناس. وسوف أستشهد ببعض الأمثلة ولكن بإيجاز. ففي أرخبيل الملايو يتم تحويل مرض الصرع إلى أوراق الشجر وإلقائها في سلة المهملات. وفي أستراليا يتم وضع وجع الأسنان في حجر. وفي إحدى المرات، أعطى أحد ملوك بيشوانا مرضه إلى ثور، فأغرقه الثور بدلاً منه لضمان شفائه. ويستشهد السيد جوم بقصة مروعة عن أحد النبلاء الاسكتلنديين الذي نقل مرضه المميت إلى أخيه عن طريق طقوس سحرية. إن "التعويذات" المستخدمة لعلاج الحمى أو الثآليل تحتوي عمومًا على عنصر لطيف من نقل المشكلة إلى خيط أو قطعة قماش أو قطعة من الورق، والتي يتم إلقاؤها بعيدًا لتحمل الشر معها إلى الشخص الذي يلمسها بعد ذلك. ويمكن العثور على العديد من الحالات التي تنطوي على نفس المعنى في أعمال السيد جوم والسيد هارتلاند، والتي أود أن أحيلها إلى الباحثين بعد الحصول على مزيد من الأدلة.

وترتبط هذه المفاهيم المتعلقة بنقل الأرواح ارتباطاً وثيقاً بالطقوس التي تقام بين الحين والآخر أو بين الحين والآخر لطرد الأرواح الشريرة من قرية أو مجتمع. وكثيراً ما يتم طرد الشياطين والأرواح الشريرة والأرواح المعادية والأمراض وغيرها من المصائب من كل نوع باستخدام الأجراس والطبول وغيرها من الأدوات السحرية. وكثيراً ما يتم تجاوز حدود القبيلة أو الرعية، ثم يتم تنفيذ طقوس التطهير، ثم يتم غسل التأثيرات الشريرة من المنطقة أو طردها بالقوة. ويمثل طقسنا الخاص بطرد الأرواح الشريرة من أحد جوانبه العديدة هذا الطقس البدائي. ويصاحب طقوس الغسل والغمس في الماء طقوس الطرد بشكل متكرر؛ وفي بيرو، كانت هذه الطقوس مرتبطة أيضاً بتلك السمة المشتركة لطقوس إله الذرة . وهي كعكة تُعجن بدماء الأطفال الأحياء. وعادة ما يتم طرد الأرواح الشريرة من القرية أو المجتمع مرة واحدة في السنة، ولكنها تقام في بعض الأحيان كل سنتين: فهي ترتبط بشكل واضح بالتضحية بالضحية البشرية أو الحيوانية. في أوروبا، لا يزال هذا التقليد قائماً في العديد

من الأماكن، باعتباره عملية طرد سنوية للساحرات. وقد تناول السيد فريزر الموضوع برمته ببراعة شديدة، حتى إنني لا أجد ما أضيفه إلى شرحه الممتاز.

وإذا جمعنا بين هاتين الفكرتين الأساسيتين، فإننا نصل إلى المفهوم المركب لكبش الفداء. وكبش الفداء هو ضحية بشرية أو حيوانية، يتم اختيارها لتحمِّل أولاً المصائب أو الأمراض، ثم خطيئة المجتمع وذنبه. والاسم الذي نشير به إليه في اللغة الإنجليزية، والذي أخذ من الاستخدام العبري المشتق، له دلالات حيوانية؛ ولكن كما هو الحال في جميع الحالات المماثلة، لا أشك في أن حامل الشر البشري يسبق الحيوان.

إن المثال الجيد على هذه المرحلة الناشئة في تطور كبش الفداء نجده في أونيتشا على نهر كورا. حيث يتم التضحية بشخصين من البشر كل عام "لإزالة خطايا الأرض" . وإن كنت أظن أن القول "المصائب" سيكون أكثر صدقاً مع الأفكار الأصلية سيكون أكثر صدقاً. والواقع أن الرقم اثنين، كما ينطبق على الضحايا، يظهر كثيراً في هذه الصلة الخاصة. وهنا أيضاً يتم "شراء الضحايا بثمن" . عن طريق الاكتتاب العام. ومن المتوقع أن يساهم كل الأشخاص الذين ارتكبوا خلال العام السابق جرائم جسيمة ضد الأخلاق الأصلية في تحمل تكاليف الضحايا. ويتم شراء شخصين مريضين بالمال، "واحد للأرض والآخر للنهر". ويتم جر الضحايا على الأرض إلى مكان الإعدام، ووجوههم إلى أسفل. ويصيح الحشد الذي يرافقهم: "شرا! شرا!" وهكذا كان من المعتاد في سيام أن يتم اختيار امرأة منهارة ذات حياة شريرة، وحملها على محفة في الشوارع (وهي عادة رمز للملكية أو الألوهية) وإلقائها على كومة من القمامة أو سياج من الأشواك خارج السور، ومنعها من دخول المدينة مرة أخرى. وفي هذه الحالة الشرقية، لا يتم سوى الطرد، وليس القتل الفعلي.

ولكن في حالات أخرى، لا يمكن أن نخطئ في وصف الشخصية الإلهية التي تنسب إلى كبش الفداء البشري. ففي احتفالات الهنود في الهند، ينزل الإله على رأس أحد المصلين، فيصاب بنوبة غضب، فيندفع إلى الغابة. وهناك يعتقد الناس أنه سيموت

من تلقاء نفسه، إذا لم يتم إعادته ومعاملته بلطف: ولكن الجند، الذين كانوا أكثر رحمة هنا من حالات أخرى كثيرة، أعادوه إلى حالته الأولى وأعادوه إلى حالته الأولى. والفكرة هنا هي أنه يتم اختياره ليحمل خطايا بقية سكان القرية. وفي هالبرشتات في تورينجيا استمرت عادة مماثلة تمامًا حتى أواخر العصور الوسطى. حيث يتم اختيار رجل ملطخ بالخطيئة المميتة ليكون كبش الفداء العام. وفي اليوم الأول من الصوم الكبير، يتم إلباسه ملابس الحداد، ثم يتم طرده من الكنيسة. وظل يتجول لمدة أربعين يومًا، لا يطعمه سوى الكهنة، ولم يكن أحد يتحدث إليه. وكان ينام في الشارع. ولكن في اليوم السابق للجمعة العظيمة، تم تبرئة آدم من خطاياه، وكان يُعتقد أنه أصبح الآن في حالة براءة، وهذا شكل مخفف ومسيحي من ذبيحة الخطيئة البشرية.

مرة أخرى، احتفظ الألبان في شرق القوقاز بعدد من العبيد المقدسين في معبد القمر، وكان العديد منهم ملهمين ونبوءات. وعندما أظهر أحد هؤلاء الرجال أعراضًا غير عادية للإلهام، قام رئيس الكهنة بربطه بسلسلة مقدسة، وإبقائه لمدة عام في ترف، مثل إله الذرة المكسيكي. هذه الحقيقة تجعل كبش الفداء البشري على الفور على نفس خط الآلهة البشرية السنوية التي ناقشناها بالفعل. في نهاية العام، يتم مسحه بالمراهم (أو، إذا جاز التعبير، تعميده)، ويقود للتضحية. 352 كانت الذبيحة تتم كطقوس تطهير.

إن السيد فريزر، الذي أدين له بكل هذه الأمثلة، يربط بين هذه الطقوس والطقوس الغريبة التي كانت تقام لطرد الإله مارس العجوز، ماموريوس فيتوريوس، من روما. ففي الرابع عشر من شهر مارس من كل عام (قرب الاعتدال الربيعي)، كان رجل يُدعى باسم إله، يُلبس جلوداً. وهو الطقس الذي نعرف الآن معناه. وبعد أن يُضرب بقضبان بيضاء طويلة، يُطرد من المدينة. ومن وجهة نظر واحدة، كان هذا الشخص يمثل بلا شك إله النباتات في العام السابق (لأن المريخ كان في الأصل إلهاً سنوياً للذرة). ولكن من وجهة نظر أخرى، ولأنه لم يعد مفيداً للمجتمع، فقد استُخدم بكل

حرص روماني قديم ككبش فداء، وأُرسل ليحمل جرائم الناس. والواقع أن هناك بعض الأسباب التي تجعلنا نعتقد أنه كان يُطرد إلى أراضي الأوسكان المعادين. وفي هذه الحالة، ندرك أن إلهاً سنوياً كان يُقَدَّم ذبيحة خطيئة عن جرائم أمة.

وفي اليونان نجد آثاراً مماثلة لكبش الفداء البشري. ففي شارونيا في بويوتيا، كان على رئيس القضاة في دار البلدية، وكل رب بيت في بيته، كما علمنا من بلوتارخ (الذي كان هو نفسه قاضياً هناك)، أن يضربوا عبداً في يوم معين بقضبان من مادة أغنوس كاستوس، ويطردوه من البيت، مع نطقهم بالصيغة التالية: "الخروج جائعاً، والدخول صحة وثروة!". وفي أماكن أخرى احتفظت العادة بملامح أكثر إزعاجاً. ففي مرسيليا، عندما اجتاح الطاعون المستعمرة، اعتاد رجل من الطبقات الفقيرة أن يقدم نفسه طوعاً كذبيحة خطيئة أو كبش فداء. وهنا نجد مرة أخرى الحادثة الشائعة للضحية الطوعية. فمثله كمثل غيره من الآلهة السنوية، كان يُطعَم على نفقة الدولة طيلة عام كامل، ويعامل معاملة الرجل النبيل. أي إله الملك. وفي نهاية ذلك الوقت، كان يرتدي ثياباً مقدسة . وهي علامة أخرى على الألوهية . ويزينها بأغصان مقدسة، وهي الشعارات الشائعة لآلهة النباتات، ويقوده الناس في أنحاء المدينة، بينما كانت الصلوات تُقَدَّم لكي تسقط خطايا الناس على رأسه. ثم يُطرد من المستعمرة. وكان الأثينيون يحتفظون بعدد من المنبوذين كضحايا عامّين على حساب المدينة؛ وعندما حل الطاعون أو الجفاف أو المجاعة، كانوا يضحّون باثنين منهم (لاحظ العدد) ككبش فداء بشري. وقيل إن أحدهما كان بديلاً عن الرجال، والآخر عن النساء. وكانوا يقتادونهم في أنحاء المدينة (مثلما حدث في فيلم "ضرب الحدود" مرة أخرى) ثم يُرجمون حتى الموت على ما يبدو بدونها. وعلاوة على ذلك، كان يُرجم ضحيتان حتى الموت في أثينا كل عام بشكل دوري في مهرجان ثارجيليا، أحدهما عن الرجال والآخر عن النساء. إنني أجازف بربط هذا العدد المقدس ليس فقط بالممارسة الأفريقية التي أشرنا إليها آنفًا، بل وأيضًا بالملكين المزدوجين في أسبرطة، والقنصلين في روما،

والملكين في قرطاج وفي مدن سامية أخرى. والواقع أن ازدواجية الملوك ظاهرة متكررة.

لا يسعني هنا إلا أن أضيف أن العديد من الطقوس الأخرى المرتبطة بهذه الكبشات البشرية قد شرحها وشرحها مانهارد جيدًا، حيث أظهر أنها كانت كلها ذات طابع تطهيري، وأن جلد الإله قبل قتله كان نقطة ضرورية في الإجراء الإلهي. ومن هنا تأتي أهمية agnus castus.

باختصار، تكفي الأدلة التي جمعها مانهارد وفريزر للإشارة إلى أن كبش الفداء البشري كان آخر عهد إله محكوم عليه بالموت، والذي كانت توضع على رأسه خطايا المجتمع أو مصائبه كبديل. كان كبش الفداء هو الضحية التي ماتت من أجل الناس.

ولكن في بعض الأحيان فقط، يحتفظ كبش الفداء بأشكاله المبكرة الأولى كضحية بشرية حتى العصور التاريخية. وفي كثير من الأحيان، في البلدان المتحضرة على الأقل، نجد التخفيفات المتعاقبة المعتادة للعرف. وفي بعض الأحيان، كما رأينا بالفعل في هذه الحالات، لا يُقتل الضحية بالفعل، بل يُطرد فقط، أو حتى يُطرد من المدينة على سبيل المزاح والاحتفال. وفي حالات أخرى، نجد الاستبدال المألوف للمجرم المحكوم عليه بالإعدام، أو المعتوه، كما في ثارجيليا الأتيكية. وكان اليونانيون في آسيا الصغرى يحرقون ضحية الكفارة لديهم، ويرمون رماده في البحر؛ أما أهل لوكاد فكانوا يلقون بسجين محكوم عليه بالإعدام من فوق جرف، ويخففون من سقوطه بربط طيور حية به، بينما كانوا يحتفظون بالقوارب في الأسفل لإنقاذه من الغرق، وحمله إلى ما هو أبعد من الحدود. ولكن في الغالبية العظمى من الحالات، نجد الاستبدال الأكثر شيوعًا بحيوان مقدس للضحية البشرية؛ ويبدو أن هذا هو إلى حد كبير أصل تلك السمة الدينية المشتركة، وهي التضحية البطولية.

إننا نجد بين الحين والآخر أدلة تاريخية أو شبه تاريخية تشير إلى التحول من ضحية بشرية إلى حيوان إلهي أو شبه إلهي. وعلى هذا فإن أهل نياس يقدمون حصاناً أحمر أو جاموسة لتطهير الأرض؛ ولكن في السابق كان الرجل يُربط بنفس العمود مع الجاموسة، وعندما يُقتل الجاموس يُطرد الرجل، ولا يجرؤ أحد من أهل البلاد على قبوله أو إطعامه. ويذكر العرب القدماء صراحة أن الجمل الذي يقدمونه كقربان، والذي ربما كان جميلاً، كان بديلاً للضحية البشرية. وكانت الضحايا المفضلة لدى المسلمين هي الأسرى الصغار الجميلين: ولكن إذا لم يكن من الممكن الحصول على مثل هؤلاء، فقد كانوا يكتفون بجمل أبيض لا تشوبه شائبة. ومن هنا فإن الخطوة التي تسبق عادة التضحية بحيوان إلهي أو طرده بدلاً من إنسان إلهي أو شبه إلهي صغيرة للغاية. ففي مليبار، تعتبر البقرة حيواناً مقدساً، وقتل أو أكل بقرة يعد جريمة مثل القتل. ومع ذلك، فإن البراهمة ينقلون خطايا الشعب إلى بقرة أو أبقار، ثم يطردونها حيثما يعينهم البراهمة. وكان قدماء المصريين يذبحون ثوراً، ويضعون على رأسه كل الشرور التي قد تصيبهم أو تصيب بلادهم لولا ذلك؛ ثم يبيعون رأس الثور لليونانيين، أو يلقون به في النهر. (قارن بين هذا الجهد للتخلص من الرأس الملعون وبين الحفاظ على الرأس المقدس وعبادته بعناية). والحالة الأكثر شهرة على الإطلاق بالطبع هي كبش الفداء العبري، الذي كان حيواناً مقدساً لشعب رعي، ثم مات جوعاً أو عطشاً في الصحراء، وحمل على رأسه خطايا الشعب. (قارن بين كبش الفداء وخروف الفصح، وقارن بينه وبين الماعز والخراف في يوم القيامة). عندما ينتشر وباء الكوليرا بين القبائل الأصلية في الهند، فإنهم يأخذون عنزة أو جاموسة. في كلتا الحالتين أنثى، وهي الجنس الأكثر قدسية في التضحيات الهندية، وسوداء اللون في كل مكان، مثل أبيس ومنيفيس؛ ويطردونها من القرية، في احتفالات سحرية، ولا يسمحون لها بالعودة إلى داخل حرمهم. وفي العديد من الاحتفالات الأخرى المماثلة، يكون الضحية عنزة. وقد جمع السيد فريزر، هنا كما في أماكن أخرى، عدداً هائلاً من الأمثلة القيمة والتوضيحية.

وكقاعدة عامة، لا يُذبح الإله البشري أو الحيوان الإلهي المختار ككبش فداء في الواقع، في الشكل الكامل للطقوس؛ بل يُطرد، أو يُلقى في البحر، أو يُترك ليموت من الجوع والعطش. ومع ذلك، في بعض الأحيان، يُحرق كمحرقة: وفي بعض الأحيان يُرجم، وفي بعض الأحيان يُذبح. وفي أشكال لاحقة وأقل كمالاً من التضحية الحيوانية، كان الذبح هو القاعدة، باستثناء الحالات التي حل فيها الحرق محلها. والواقع أنه في كثير من الحالات، من الصعب فصل العناصر المختلفة للمشكلة المعقدة. لقد اعتاد الناس على أشكال معينة من التضحية، وخلطوها بلا تمييز، حتى أن نفس الطقوس تبدو أحيانًا وكأنها سر وتضحية وتضحية، في نفس الوقت. وهكذا كتب الدكتور روبرتسون سميث عن مصر القديمة: "كانت الثيران تُقدم على المذبح، وكان جزء من لحمها يؤكل في وليمة تضحية؛ "ولكن لم يكن مسموحًا بالتضحية إلا كوجبة خفيفة، وكان يسبقها صوم مهيب، وكان مصحوبًا برثاء علني، كما هو الحال عند وفاة أحد الأقارب". قارن بين الحداد السنوي على أدونيس؛ وكذلك الاتحاد المماثل بين الذبيحة والأسرار والكفارة في القداس، والذي يسبقه في عيد القيامة العظيم في السنة المسيحية، عيد الفصح، صوم، والحداد المهيب في الجمعة العظيمة.

إنني لا أدعي التمييز بدقة بين عنصر وآخر في هذه الحالات المختلطة للغاية في الطقوس المركبة. ففي كثير من الأحيان، تكون كل السمات المختلفة لقتل الإله، والأسرار المقدسة، والتكفير العلني حاضرة بوضوح. وعادةً ما يُذبح الضحية أمام المذبح أو الحجر المقدس لإله أقدم وأعظم، ويُسفك دمه من أجله. وهكذا، في الطقوس العبرية الخاصة بالمحرقة والذبيحة عن الخطيئة، تُذبح الضحية عند المذبح "أمام يهوه"، ويكون لإراقة الدم على البلاطة المقدسة أهمية خاصة. وفي اللغة السامية، كما يلاحظ الدكتور روبرتسون سميث (وأود أن أضيف، في معظم الطقوس الأخرى)، "لا تتمثل الفكرة الأساسية للتضحية في تقديم الجزية المقدسة، بل في الشراكة المشتركة بين الإله وعباده، من خلال المشاركة المشتركة في لحم ودم الضحية المقدسة". ولكن هوية الإله والضحية غالبًا ما تكون واضحة تمامًا؛ وهكذا،

كما رأينا من قبل، كانت أفروديت الخروف تُعبد في قبرص من خلال تضحية سنوية صوفية ودينية بخروف؛ وكان العابدون أنفسهم يرتدون جلود الغنم، وهي الطقوس التي أصبحت أهميتها واضحة لنا الآن تمامًا.

وعلى العموم، ففي المرحلة التي وصلنا إليها أخيراً، لن أحاول التمييز في كل حالة بين الأفكار المختلفة المتراكبة في مراسم التضحية. إذ يبدو أن معظم التضحيات في نهاية المطاف تحل محل الضحايا البشرية الإلهية. ويبدو أن معظمها مقدس، وأن معظمها طقوس دينية إلى حد ما. ولست أدري حتى ما إذا كنت قد وضعت كل حقيقة بعينها في أفضل موضع وأكثرها فعالية لتوضيحها، في إعادة بناء سلسلة من الطقوس التي أصبحت أفكارها واضحة ببطء في ذهني من خلال النظر في العديد من الأمثلة المختلطة. إن عناصر المشكلة معقدة للغاية ومتداخلة للغاية. على سبيل المثال، لا أشك في أن المذابح الفينيقية والقرطاجية الكبرى التي راح ضحيتها ضحايا بشرية، والتي اضطررت في البداية إلى معالجتها بشكل غير كافٍ، كانت طائفية في المقام الأول؛ ولا أشك في أن الهيكاتوومب اليوناني (أو محرقة المائة ثور) كانت تخفيفاً أو تخفيفاً لمذابح بشرية عملاقة مثل هذه، أو تلك التي تنسب إلى الدرويديين البريطانيين. ويذكر أسكليبياديس صراحة أن كل ضحية كانت تعتبر في الأصل بديلاً للتضحية البشرية؛ وعلى هذا ففي الرواية الإلوهية لأصل التضحية المحروقة، يُقبَل الكبش كبديل لحياة إسحاق، الابن الحبيب الذي يعتزم الزعيم أو الملك إبراهيم تقديمه كضحية ملكية لإله قبيلته. ويقول إبراهيم إن الإله نفسه سيقدم ضحية؛ وعندئذ يقدم الكبش نفسه طواعية. وعلى هذا ففي معبد عشتار العظيم في إريكس، حيث كانت الضحايا تُنتزع من القطعان المقدسة أو الإلهية المحفوظة في الحرم، كان يُعتقد أن الحيوان المختار يقدم نفسه من تلقاء نفسه إلى المذبح. وعلى نحو مماثل، كان يتم في احتفال "دوبوليا" جمع عدد من الثيران حول المائدة المقدسة؛ وكان يتم اختيار الثور الذي يقترب طوعاً ويأكل من الكعك المقدس؛ وبذلك لا يظهر نفسه كضحية طوعية فحسب، بل وأيضاً كإله مضاعف، أولاً لأنه تناول الطعام المخصص

للإله، وثانياً لأنه ابتلع الذرة المقدسة، التي هي نفسها جسد الإله المكرر. (قارن بالطبع خبز التقدمة العبري). ولست بحاجة إلى متابعة هذا الخط الفكري أكثر من ذلك. فمن الواضح أن العديد من التضحيات على الأقل هي طقوس قتل إلهية مقدسة، وأن الإله في معظمها يُقتل، هو نفسه لنفسه، في هيئة بشرية أو حيوانية، كتكفير عن جرائمه ضد جلالته. ولا حاجة بي إلى الإشارة إلى كيف يكمن هذا المفهوم المعقد في جذور اللاهوت البولسي.

ولكنني أود أن أضيف أن الأفكار التي صيغت هنا لابد وأن تعطي معنى جديداً للعديد من النقاط التي لم نستطع أن نفهمها في البداية في الاحتفالات التي ذكرناها في فصولنا السابقة. وسأكتفي بمثال واحد. وهو مكان التضحية بالساموويين الذي رآه البارون نوردنسكيولد في جزيرة فايجاتس. وبوسعنا الآن أن نستنتج معنى كومة جماجم الرنة المكدسة حول الضريح المفتوح؛ ذلك أن الرنة هي الحيوانات المقدسة والإنسانية لدى الأجناس الشمالية؛ في حين أن الحفاظ على رؤوسها عند المذبح الجوفي للآلهة أو الأشباح القديمة له معناه المقدس والأوراكلي المعتاد. وبوسعنا أيضاً أن نخمن لماذا يمكن أن نرى بقايا الموقد على الجانب، حيث كانت تُحضَّر عادة وجبة التضحية والأسرار المقدسة؛ ولماذا كانت أفواه الأصنام تُلطخ بالدماء، من أجل جعل الآلهة أو الأشباح القديمة مشاركين في المهرجان. في الواقع، أي قارئ تابعني حتى الآن، ويعود الآن إلى الفصول الأولى من هذا الكتاب، سوف يجد أن العديد من التفاصيل تظهر له في ضوء مختلف تمامًا، وسوف يفهم لماذا أصررت مسبقًا على بعض النقاط البسيطة التي ربما بدت له في ذلك الوقت غير ذات صلة على الإطلاق.

إن العديد من الطقوس الغريبة الأخرى التي تبدو في البداية بلا معنى في سرديات السفر، سوف تصبح ذات معنى كبير أيضًا عندما ننظر إليها على هذا النحو. على سبيل المثال، يخبرنا السيد تشالمرز أنه بين سكان غينيا الجديدة الأصليين في مناطق معينة، "لا يتم قتل الخنازير أبدًا إلا في مكان واحد، ثم يتم تقديمها للأرواح.

يتم سكب الدم هناك، ثم يتم نقل الجثة إلى القرية، لتقسيمها وطهيها وتناولها. يتم الاحتفاظ بجماجم الخنازير وتعليقها في المنزل. يتم وضع الطعام للولائم، مثل بناء المنزل" - تلميح شديد الحماسة - "بالقرب من العمود حيث يتم تعليق الجماجم، ويتم تلاوة الصلاة. عندما يتم نصب العمود المركزي، يتم تقديم حيوان الوالابي والأسماك والموز للأرواح، ويتم التضرع إليها للحفاظ على هذا المنزل ممتلئًا بالطعام دائمًا، وألا يسقط عندما تكون الرياح قوية ". إذا تذكرنا حالات أخرى في أماكن أخرى، فلا يمكننا أن نشك في أن الخنازير في هذه الحالات تُقتل كضحايا مقدسة عند قبر سلف العائلة الرئيسي؛ "وخاصة عندما يخبرنا السيد تشالمرز أيضًا أن ""لكل عائلة مكان مقدس حيث تحمل القرابين لأرواح الأجداد المتوفين، الذين يخشونهم بشدة"". وعندما يحدث المرض أو المجاعة أو ندرة الأسماك، فإن هذه الأرواح هي التي يجب إرضاؤها. وإذا تذكرنا مرة أخرى أنه في العديد من الحالات، يستند العمود المركزي للكوخ على ضحية بشرية أو حيوانية، سواء في غينيا الجديدة أو في أماكن أخرى، فلا يمكننا أن نشك في أن القرابين الموجودة على العمود المركزي تُقدم لهذا الإله المنزلي أو شبح الأساس. وأخيرًا، تذكرنا جماجم الخنازير التي تُحفظ في المنزل وتعلق على العمود من ناحية بجماجم الآلهة الأسلاف المحفوظة بشكل مماثل، ومن ناحية أخرى بجماجم الضحايا الإلهية البشرية التي يحتفظ بها شعب الهند في مهرجاناتهم، أو يثبتها الإغريق والرومان الأوائل في معابدهم. "إنهم يطبخون رؤوس أعدائهم القتلى"، كما يقول السيد تشالمرز مرة أخرى، "لضمان الحصول على جماجم نظيفة لوضعها في أماكن مقدسة". ولكن من أجل تطوير التلميحات المقترحة على هذا النحو بشكل كافٍ، فإن الأمر يتطلب كتابًا آخر طويلًا مثل الكتاب الحالي.

ولكن هنا مجرد تلميح آخر من نفس المؤلف، وهو تلميح حامل للغاية بحيث لا يمكن إغفاله.

"عندما يبدأ السكان الأصليون في الزراعة، فإنهم يأخذون أولاً حزمة من الموز وقصب السكر، ويذهبون إلى وسط المزرعة، وينادون بأسماء الموتى المنتمين إلى أسرهم، ويضيفون: "هذا طعامكم، الموز وقصب السكر؛ دعوا طعامنا ينمو جيدًا، ودعه يكون وفيرًا. إذا لم ينمو جيدًا وبوفرة، فسوف تمتلئون جميعًا بالخزي، وسوف نصاب نحن أيضًا".

"وعندما يذهبون في رحلات تجارية، فإنهم يقدمون طعامهم إلى الأرواح الموجودة في منتصف المنزل، ويطلبون من الأرواح أن تسبقهم وتجهز الناس، حتى تكون التجارة مزدهرة.

"عندما يصاب أفراد الأسرة بمرض، يتم إحضار خنزير إلى المكان المقدس للروح العظيمة" (ربما يكون شبح الأجداد الرئيسي)، "ويتم قتله. ثم يتم نقل الجثة إلى المكان المقدس للأسرة، ويُطلب من الأرواح قبولها. يتم الاعتراف بالخطايا، مثل الموز المأخوذ، أو جوز الهند، ولم يتم تقديم أي منها، ولم يتم إعطاؤها لتناولها. "هناك خنزير؛ اقبله، وأزل المرض". يتبع ذلك الموت، ويأتي يوم الدفن. يقف الأصدقاء جميعًا حول القبر المفتوح، وتنادي أخت الزعيم أو ابنة عمه" (الكاهنة البدائية) "بصوت عالٍ،" لقد كنت غاضبًا منا بسبب 360 من الموز الذي أخذناه (أو جوز الهند، حسب الحالة)، وقد أخذت في غضبك هذا الطفل. الآن يكفي ذلك، وادفن غضبك. ثم يتم وضع الجثة في القبر، وتغطيتها بالتراب ".

إننا هنا نجد باختصار نموذجًا مثاليًا لعقيدة وحشية، وطقوس وحشية، وكفارة وحشية. وأستطيع أن أتوسع في شرح تداعياتها العديدة.

إن اقتباساً واحداً من عمل السيد سافاج لاندور عن "أينو اليابانيين المشعرين" سوف يخدم أيضاً كملخص ممتاز لمثل هذا اللاهوت البربري الموسوعي. يقول: "إذا كان لديهم أي اعتقاد على الإطلاق، فهو نوع غير كامل من الطوطمية، والنقطة

المركزية في هذا الاعتقاد هي نسبهم إلى الدب. وهذا لا يشمل أدنى احترام لأسلافهم. إنهم يأسرون طوطمهم ويحتفظون به في الأسر؛ ويتحدثون إليه ويطعمونه؛ ولكن لا تصلي له. وعندما يصبح الدب سميناً، يتم إخراجه من القفص ليعامل معاملة سيئة ويغريه كل الرجال الحاضرين". مثل خوند ميريا وتعذيب الشهداء. "يربطونه إلى عمود" أو ستاوروس أو الشجرة الملعونة، "ويُدفع عمود في فمه؛ وعندما يتم تعذيب الحيوان المسكين بما فيه الكفاية، ووخزه بعصي مدببة، وإطلاق النار عليه بسهام غير حادة، مثل القديس سيباستيان، و"كدماته بالحجارة"، مثل القديس ستيفن، وجنونه من الغضب وسوء المعاملة، يتم قتله على الفور، وبصرف النظر عن كونه سلفًا، فإنه يصنع الطبق الرئيسي وسبب وجود المهرجان، حيث يشارك جميع أفراد القبيلة في لحمه. ثم يقوم صاحب الكوخ الذي يقام فيه العيد بإلصاق الجمجمة بعمود متشعب، ووضعها بالخارج مع الآخرين في الطرف الشرقي من كوخه. يتم تحويل الجلد إلى ملابس، أو يتم نشره على الأرض للنوم عليه. هنا، لا داعي للقول، لدينا التضحية، والأسرار المقدسة، والتوجيه، والرأس المقدس، واستخدام الجلد كغطاء للمصلين، وجميع السمات الأخرى للاستبدال الإلهي البشري.

ولكن من المهم الآن أن نتذكر هاتين النقطتين الأساسيتين: أولاً، أن إلهاً يحتضر، إنساناً كان أو حيواناً، عادة ما يتم اختياره كوسيلة ملائمة للتكفير عن خطايا الناس؛ وثانياً، أن "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة للخطايا". كانت هاتان العقيدتان شائعتين في جميع أنحاء العالم، ولكن بشكل خاص في ذلك العالم الواقع في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث نشأت المسيحية لأول مرة. والواقع أنهما كانتا معترف بهما على نطاق واسع هناك إلى الحد الذي جعل كتاب أقدم الرسائل المسيحية، الرسائل الرسولية، يعتبرونهما أمراً بديهياً. كمبادئ يعترف كل رجل عاقل بصحتها ودقتها على الفور.

الفصل السابع عشر - العالم قبل المسيح.

نشأت المسيحية كنتاج طبيعي، ولم تكن وليدة عقل إنسان واحد كما انبثقت أثينا من رأس زيوس، ولم تخترعها مجموعة صغيرة أو مدرسة من البشر، مثل بطرس أو بولس أو الرسل أو التلاميذ أو الكنيسة الأولى في القدس أو أنطاكية أو الإسكندرية. لقد نمت المسيحية ببطء وتطورت شيئاً فشيئاً على مدى ثلاثة قرون طويلة، وتشكلت على مراحل تدريجية في كل المراكز المزدحمة في العالم الروماني. وحتى بعد أن اتخذت شكلاً ثابتاً ككنيسة كاثوليكية مقدسة، استمرت في النمو في عقول البشر، بنمو لا ينتهي أبداً، ولكنه يكشف عن نفسه حتى الآن في آلاف الأشكال، من مجمع الفاتيكان إلى الرحيل الجديد الأخير للمجموعة الجديدة الأخيرة من الطوائف الأمريكية.

نشأت المسيحية في الموانئ والمدن المزدحمة في الإمبراطورية الرومانية، في أنطاكية والإسكندرية وتسالونيكي وقورينا وبيزنطة وروما. وكان البحر هو الطريق السريع الذي سلكته. ورغم أن المسيحية كانت يهودية في الأصل جزئياً، فإنها كانت تبدو منذ بداياتها الأولى كدين عالمي ودولي. وعلى هذا، نستطيع أن نكتسب بعض المعرفة التقريبية عن أصلها وخلفياتها من خلال النظر في الحالة الدينية التي كانت سائدة في هذه المدن الكبرى المختلفة في الوقت الذي بدأت فيه المسيحية تنبت تلقائياً في وسطها. وبوسعنا أن نتوصل إلى فكرة ما عن المنتج ذاته من خلال ملاحظة البيئة التي نشأت فيها.

نمت المسيحية مرة أخرى، في الأغلب بين الطبقات الدنيا من الموانئ البحرية العالمية. تشكلت بين العبيد والمحررين والمهاجرين اليهود والسوريين والأفارقة والغاليين والبريطانيين الدرويديين في روما، وأصحاب المتاجر الصغيرة والعملاء الفقراء والأطفال والرضع في المراكز السكانية. وعلى هذا، فإن المسيحية، رغم أنها كانت تستند إلى اليهودية، فقد جمعت في داخلها بكل سرور كل عناصر الفكر الديني

والممارسة الدينية المشتركة بين العالم كله، وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي. وعلاوة على ذلك، فقد جمعت في داخلها بكل سرور على وجه الخصوص تلك العناصر التي تنتمي إلى الجزء الأقدم والأعمق من الديانات الشعبية، وليس تلك التي تنتمي إلى التعديلات المتحضرة واليونانية والمعترف بها لأديان الدولة. لقد كانت المسيحية منتجاً ديمقراطياً وليس منتجاً رسمياً. لذا يتعين علينا أن ننظر إلى الطبقة الأقدم من الفكر الديني في المدن الكبرى أكثر من النظر إلى الطبقة الأحدث منها، لنتعرف على التأثيرات التي ساهمت في تشكيل المسيحية. إنني لا أنكر أن الإيمان الجديد قد تأثر في كل أجزائه العليا بتأثيرات جميلة من الأفلاطونية الجديدة، واليهودية الإسكندرانية، وغيرها من الأنظمة الفلسفية شبه الصوفية؛ ولكن من أجل وضع الأساس الأساسي لهذا الإيمان الجديد، ما زال يتعين علينا أن نعود إلى الطبقة الجذرية من الممارسات الدينية والمعتقدات في أنطاكية والإسكندرية، وفي فريجيا وغلاطية، وفي القدس وروما. لقد استند هذا الإيمان في المقام الأول إلى الأسرار المقدسة، والتضحية، والتكفير، والقيامة. ولكن مرة أخرى، نشأت المسيحية أولاً بين السكان اليهود أو السوريين أو الساميين في هذه المدن الكبرى في الإمبراطورية، في نفس اللحظة التي أصبحت فيها المسيحية عالمية بالكامل؛ وانتشرت منهم بسرعة، بلا شك في البداية مع تعديلات جادة، إلى الكتلة المختلطة من البحارة والعبيد والمحررات وسكان المدن الذين شكلوا على ما يبدو أقدم أتباع هذا الإيمان .ومن هنا، فلابد أن نبحث فيه عن مزيج حميم بين اليهودية والأفكار المركزية للأديان الشعبية، الآرية أو الحامية، في حوض البحر الأبيض المتوسط. إننا لابد وأن نتوقع منها الكثير مما كان شائعاً في سوريا وآسيا الصغرى وهيلاس ومصر، بل وربما شيئاً من بلاد الغال وأسبانيا وقرطاجة. وكان أول رسول عظيم فيها، إذا جاز لنا أن نصدق سلطاتنا، هو شاول أو بولس، وهو يهودي نصف يوناني من طرسوس السامية التجارية في كيليكيا، ومواطن روماني. وقد نشأت أولى كنائسها العظيمة في الموانئ والأسواق المزدحمة في بلاد الشام. وقد أُطلق عليها اسم المسيحية أولاً في مدينة أنطاكية المزدحمة والمتعدّدة الثقافات.

وهنا، إذن، في هذه الخلايا الضخمة المليئة بالعبيد والتجارة الهيلينية والرومانية، يتعين علينا أن نبحث عن الأفكار الأم للمسيحية.

لا شك أن أنطاكية كانت في العصور الأولى المهد الرئيسي للدين الجديد. ولا أقصد أن القدس لم تكن على الأرجح المكان الذي بدأ فيه الرجال في تكوين طائفة صغيرة من عبدة المسيح الباطنيين، أو أن الجليل لم تكن المنطقة التي عاش فيها المسيح نفسه وعلّم فيها على نطاق واسع، إذا كان مثل هذا الشخص قد وُجِد بالفعل. وفي هذه الأمور، قد تكون التقاليد التي انتقلت إلينا في الأناجيل المتأخرة نسبيًا صحيحة تمامًا: ومرة أخرى، قد لا تكون كذلك. ولكن المسيحية كما نعرفها، مسيحية رسائل بولس والكتابات اللاحقة، مثل الأناجيل وأعمال الآباء، لا بد أنها كانت في الأساس عبادة لنمو سوري وأممي أوسع. وهي تضم في حد ذاتها عناصر لا شك أنها بقيت في زوايا منعزلة بين عامة الناس حتى في يهودا نفسها، على الرغم من رفض أتباع عبادة يهوه الكهنوتية والرسمية؛ ولكنها كانت أجزاء لا يتجزأ من الدين الشعبي وحتى المعترف به في كل شمال سوريا.

كانت أنطاكية، حيث خطت المسيحية أولى خطواتها الضعيفة، مدينة تجارية جميلة صاخبة، وعاصمة الملوك السلوقيين اليونانيين، والمدينة الكبرى المعترف بها في المنطقة السورية. وفي زمن بولس (إن كان بولس موجوداً)، ربما كانت تضم نصف مليون نسمة؛ وكانت بلا شك أكبر مدينة في آسيا، وتستحق أن تُقارَن بروما ذاتها في روعة مبانيها. وهناك العديد من الأشياء المتعلقة بموقعها تستحق الملاحظة. فقد كانت تقع على ضفاف نهر العاصي، وهو مجرى مقدس يبلغ طوله 365 ميلاً، ويقع في سهل زراعي غني، على بعد أربعة عشر ميلاً من مصب النهر. وكانت أوستيا تقع في سلوقية، الميناء الذي يتدفق منه كل تجارة التصدير في سوريا والشرق باتجاه اليونان وإيطاليا. وكان البحر الأبيض المتوسط من أمامها يربطها بروما والإسكندرية

وآسيا الصغرى واليونان؛ وكانت طرق القوافل عبر الصحراء السورية من خلفها تجعلها على اتصال بأسواق بلاد ما بين النهرين والشرق البعيد. كانت المدينة بذلك بمثابة المركز الرئيسي للتجارة المباشرة بين عالمين مهمين. وكانت بمثابة البندقية في عصرها، وكانت تقع عند نقطة التقاء الطرق الرئيسية في أوروبا وآسيا.

ولقد أشار علماء مشهورون إلى حقيقة مفادها أن الأفكار البوذية التي جاءت من الهند كانت قد تسربت إلى العالم السوري وأثرت فيه حتى قبل أيام بولس، كما تسربت الأفكار الزرادشتية بعد ذلك بقليل إلى فكر الإسكندرية وأثرت عليه: ولقد أضيفت بعض الأهمية إلى هذا التسرب من الدوافع من الشرق الصوفي. والآن، لا أهتم بأن أنكر أن المسيحية الناشئة ربما تأثرت كثيراً في طقوسها، بل وأكثر من ذلك في جانبها الأخلاقي، بعناصر عائمة من الرأي البوذي: وربما كان المجوس هم الذين غذوا طفولة المسيح. ولكنني أعتقد في المجمل أن الحقائق التي ناقشناها للتو فيما يتصل بتصنيع الآلهة البشرية الاصطناعية وطبيعة ومعنى التضحيات الإلهية تكفي لإثبات أن المسيحية كانت في الأساس نباتاً ينمو في المنزل. فقد احتوت التربة الأصلية بالفعل على كل العناصر الأساسية اللازمة لتغذيتها. عقيدة التجسد، وموت الإله الإنسان، وقوة دمه الكفارة، والقيامة والصعود. وعلى هذا فإنني لا أميل إلى الاعتقاد بأن النقاط الخاصة بالبوذية كان لها أي تأثير مهيمن في تطور الدين الجديد، رغم إعطاء الأهمية الواجبة لهذا الموقف الدولي الخاص الذي تتمتع به أنطاكية، باعتبارها البوابة المزدوجة لأوروبا وآسيا. ذلك أننا لابد وأن نتذكر أن البوذية نفسها لم تفعل أكثر من أن تستوعب في بنيتها الخاصة الأفكار المشتركة بين بيرو والمكسيك، واليونان والهند، وسوريا ومصر، والتي خرجت في أشكال جديدة، تصاعدت من الأسفل، في عقيدة المسيحية. وإذا كان هناك شيء واضح من أبحاثنا السابقة فهو هذا. أن العالم لم يكن له في الحقيقة أكثر من دين واحد. "ذي أسماء عديدة، وشكل مركزي واحد"، على حد تعبير الشاعر.

كان الشعب السوري، السامي العرق والطائفة، قد وقع، مثل بقية العالم الشرقي، تحت السيطرة اليونانية لخلفاء الإسكندر. وكانوا شعبًا سريعًا وذكيًا، شديد المرونة واللين، وقد خضعوا لعملية هلنستية سريعة وسهلة. وكان من السهل عليهم أن يقبلوا الثقافة اليونانية والدين اليوناني. ولم يجد عابد أدونيس صعوبة كبيرة في تغيير اسم إلهه الرئيسي إلى ديونيسوس والاستمرار في ممارسة طقوسه واحتفالاته القديمة للإله الجديد وفقًا للنمط الأجدادي. وعادت عشتار التي منحها الشرق لهيلاس تحت اسم مستعار أفروديت، مرة أخرى باسم أفروديت إلى مقدسات عشتار القديمة. ولم يكن تحديد هوية الآلهة والطوائف سوى أمور بسيطة، حيث كانت العديد من الآلهة متشابهة في الأصل والوظيفة. وهكذا لم يكن لدى السوري الهادئ أي تحفظات بشأن ممارسة طقوسه البدائية تحت ألقاب أجنبية، أو السماح للآلهة الهيلينية التابعة لمدينة أنطاكية الحاكمة بالانضمام إلى معابده السامية.

ولكن السلوقيين لم يوفقوا في محاولاتهم فرض الآلهة الغريبة على المتعصبين المتعصبين لليهودية في الجبال الجنوبية. فقد حاول أنطيوخس الرابع عبثاً فرض عبادة الهيلينية المتطفلة على مملكته الجديدة فلسطين. ولم يكن يحسب حساباً لجيوشه. ولم يكن أهل القدس ليتخلصوا من طقوسهم "الوثنية" . ولم يسمحوا لعبادة زيوس وبالاس، وأرتميس وأفروديت، بالاستيلاء على مكان في مدينة يهوه المقدسة. ولقد ضمنت ثورة المكابيين على الأقل الاستقلال الديني ليهودا منذ أوائل عهد السلوقيين وحتى أيام فسباسيان وتيتوس. وظلت سوريا السفلى وفية في تلالها القاحلة للعبادة الحصرية والتوحيدية لإله إسرائيل. وفي الوقت نفسه انتشر اليهودي في كل مكان في البلدان المحيطة، حاملاً معه ليس فقط قشته وسلته، بل وأيضاً تحيزاته المتأصلة التي لا يمكن القضاء عليها.

إننا نجد أن أنطاكية، بعد الاستيلاء الروماني على سوريا، كانت تضم ديانة عالمية، تتألف من عناصر سامية وهيلينية مختلطة، وكانت شبه متماثلة مع بعضها البعض،

على نحو كان من السمات المميزة للإمبراطورية المبكرة. ومن بين الطوائف الشعبية في المدينة العظيمة، لابد وأن نضع في مرتبة عالية ديانة أدونيس ودينيسوس، وأفروديت-عشتار، والآلهة أو الإلهات المحلية، البعليم وعشترت، مثل الفتاة التي، كما تعلمنا من ملالاس، قُتِلت قرباناً عند تأسيس المدينة، ثم عبدت منذ ذلك الحين باعتبارها تيكي أو الحظ. وبعبارة أخرى، لا بد وأن مفهوم الإله البشري، وإله الذرة والخمر، وموت الإله، وقيامته المجيدة، كانت كلها أفكاراً مألوفة تماماً لشعب أنطاكية وسوريا بشكل عام.

ولنلاحظ هنا أيضاً أن المجموعة الخاصة من عبدة يهوه الذين يقال إن المسيح وجد بينهم أتباعه الشخصيين، لم يكونوا من النوع الكهنوتي في القدس، بل كانوا فلاحين من الجليل في الجبال الشمالية، منفصلين عن المجموعة الأكثر تديناً من اليهود بإسفين متطفل من السامريين الهراطقة، ومتاخمين بشكل وثيق للساحل الفينيقي الوثني. "سواحل صور وصيدا". هنا سارت اليهودية والوثنية جنباً إلى جنب؛ هنا كان يهوه يعبده بين صيادي البحيرة، بينما استقرت الهيلينية في الفيلات الفخمة في طبرية وبطليموس.

كانت الإسكندرية واحدة من المدن الساحلية العالمية الكبرى التي اعتنقت المسيحية فيها أوائل أتباعها، واعتنقت عدداً لا بأس به من عقائدها المميزة. وفي الإسكندرية، وجدت الديانة الهيلينية والديانة المصرية القديمة نفسها وجهاً لوجه على مسافة قريبة جداً من بعضها البعض. صحيح أن المدينة في جانبها التاريخي كانت يونانية في الأساس، أسسها المقدوني العظيم نفسه، وكانت تفتخر بثقافتها الهيلينية النقية. ولكن أغلب أفراد الطبقات الدنيا الذين كانوا يزدحمون في أزقتها لابد وأن يكونوا من المصريين الهجين إلى حد ما، الذين ما زالوا متمسكين بكل المحافظة المصرية القديمة بأفكار وممارسات وطقوس آبائهم. وإلى جانب هؤلاء، نجد تلميحات إلى وجود عدد كبير من البحارة العالميين، الذين وجدت بينهم معتقدات غريبة وآلهة

غريبة قبولاً سريعاً. وإلى جانب الأشكال المهيبة للبانثيون اليوناني، والآلهة المصرية المحنطة أو ذات الرؤوس الحيوانية، اكتسبت عبادة أدونيس السورية المستوردة موطئ قدم ثابت؛ كان المهرجان السنوي للإله المذبوح أحد الأعياد الرئيسية؛ وقد نجحت الديانات السورية أو الأديان البعيدة الأخرى في تأمين أتباعها الخاصين. احتل سيرابيس الهجين أروع قبة في المدينة الهجينة. في تلك الخلية الضخمة المزدحمة، في الواقع، وجدت كل أشكال العبادة مكانًا معترفًا به، وكان يتم التسامح مع كل عقيدة لا تتدخل في الحرية الدينية المتساوية للآخرين.

إن الأسرة البطلمية تمثل في حد ذاتها هذه القدرة الغريبة على التكيف التي يتسم بها العقل الإسكندري اليوناني المصري. ففي الإسكندرية والدلتا، يظهر لنا الملوك في هيئة يونانيين صالحين يعبدون آلهتهم الأسلاف في معابد فخمة؛ ولكن في طيبة، أقام الإله بطليموس أو الإلهة كليوباترا مباني تكريماً لبتاح أو خيم على الطراز المصري القديم تماماً، وظهروا على شرفهم في هيئة فراعنة يعبدون آمون رع أو أوزوريس. وكان الإسكندر الأكبر نفسه قد دشن هذا النظام عندما أعلن نفسه ابناً لـ "زيوس آمون"؛ واستمر ممثلوه غير المباشرين في تطبيقه طيلة الوقت بثنائية غريبة كانت تبرره تحت ستار التعريفات التعسفية. وهكذا كان سيرابيس نفسه هو الثور أبيس الميت، الذي يحمل صفات أوزوريس والهاديس الهيليني؛ بينما كان آمون رع هو زيوس في صورة مصرية.

ولقد مهدت المستعمرة اليهودية الكبيرة في الإسكندرية الطريق أيضاً للمزج النهائي بين الأفلاطونية الجديدة والإيمان المسيحي؛ في حين شكلت العقيدة المصرية في الثالوث المقدس الأساس لعقيدة الثالوث التي ناضل من أجلها أثناسيوس الإسكندري بكل إصرار. صحيح أن أمبير وبريلر نفيا بشدة أي مزج مصري في فلسفة الإسكندرية؛ وربما يكون منطقهما قاطعاً بما فيه الكفاية فيما يتصل بالطبقة العليا من الفكر؛ ولكن لابد وأن نعترف على الأقل بأن المعتقدات الشعبية في مدينة

البطالمة لابد وأن تكون قد تأثرت تأثراً عميقاً بأفكار وعقائد الطبقة المصرية. والآن، في نمو المسيحية، كان الناس هم الذين يهمون، وليس الطبقات الرسمية، أو المتعلمين، أو الفلاسفة. ولا ينبغي لنا أن ننسب إلى سكان شرق لندن لاهوت بوسي أو نظرية التطور التي تبناها هربرت سبنسر.

ويبدو أن المسيحية كانت أيضًا جزءًا من شكلها في روما على الأقل. وبما أن النفوذ الروماني امتد أيضًا إلى كل جزء من الإمبراطورية الشاسعة، فلا بد لي من قول بضع كلمات هنا عن أصل الدين الروماني ونموه.

إن هذا الدين، كما نراه في لمحاته القليلة التي نراها في شكله الإيطالي المبكر وما قبل الهيليني، كان من أكثر أنواع الديانات بدائية وفظاظة، بل كان وحشياً تقريباً في بساطته الشديدة. ولم يكن يعرف سوى القليل من الآلهة العظيمة بالاسم: أما الآلهة القليلة التي كان يمتلكها، فكانت تُعبر عنها في الغالب بأسماء صفية. وأقول إن هذه الآلهة كانت قليلة، من حيث النوع، لأن أسماءها كانت كثيرة حقاً من حيث عدد الأفراد؛ فقد انتشرت في العالم كله في ذلك التعدد المتهور الذي يميز الأشباح أو الأرواح البسيطة لشعوب الصيد أو الرعي المبكرة. ومع الرومان، استمرت هذه التعددية، والانتشار، والغموض، في حالة زراعية مستقرة نسبياً ومتحضرة. وكان هناك عدد هائل من الآلهة الصغيرة في الأقسام، مع وجود عدد قليل من الآلهة العظيمة أو عدم وجودها على الإطلاق. تلك كانت الحالة الأولى للبانثيون الروماني.

كانت النقطة المركزية في الدين الروماني القديم هي الأسرة؛ وكانت أشباح الأسرة أو لاريس هي الآلهة الأكثر تكريمًا. ويمكننا أن نقارن بشكل مفيد بين رواية السيد تشالمرز عن اللاهوت في غينيا الجديدة. فإلى جانب هذه الظلال الأجدادية، أو المتطابقة تقريبًا معها، كانت هناك آلهة المخازن أو الآلهة العملية، وربما كانت تمثل الضحايا الذين قُتلوا كأشباح الأساس عند أول تشييد للمبنى. ومن بين هذين الاثنين، كانت لاريس بلا شك الأسلاف الراحلين للعائلة؛ فقد عاشوا بالقرب من

المكان الذي دُفنوا فيه لأول مرة (لأن الرومان القدماء كانوا يدفنون الجثث)، وما زالوا يترأسون الأسرة كما في الحياة، مثل آبائها وأعضاء مجلس الشيوخ. وكانوا يُعبدون يوميًا بالصلاة والقرابين البسيطة من الطعام والشراب؛ وربما كانت أقنعةهم أو تماثيلهم المعلقة على الحائط تمثل، أو في الأيام القديمة، أغطية، للرؤوس أو الجماجم القديمة. * يبدو أن تماثيل البيناتيس، التي كانت تُعبد مع تماثيل لاريس، كانت تمثل روح العائلة بطريقة أكثر عمومية؛ فهي تمثل استمرارية واستمرار ثروتها؛ وبالتالي، إذا جاز لنا أن نثق في تشبيه ثروات المدينة، فمن المحتمل أنها كانت أشباح ضحايا التأسيس أو التجديد. وفي الحكم على كل هذا، لا يمكننا أن نعلق أهمية كبيرة على تشبيه نيجريتو والعادات البولينيزية.

* أود أن أشير إلى استخدام الرأس الوحي أيضًا
يشير الاستخدام الشائع للأقنعة الصغيرة كتمائم إلى:
التوظيف الذي، كما يلاحظ بوتيجر بحق، يفسر "
"عدد كبير من هذه المواضيع تم العثور عليها في الأحجار الكريمة العتيقة."

وهناك آلهة أخرى أكثر شهرة. ولكن يبدو أن أغلبها ينتمي إلى الطبقة الأبسط والأكثر شبهاً بالأشباح. فقد كانت هذه الآلهة مرتبطة بالبذر والحصاد والحصاد . أو بعبارة أخرى، كانت آلهة الذرة أو الخمر. أو كانت مرتبطة بالنهر الملاحي، نهر التيبر، وميناء أوستيا، الذي يقع عند مصبه . أو بعبارة أخرى، كانت آلهة الربيع والنهر. أو كانت مرتبطة بالحرب والبعثات . أو بعبارة أخرى، كانت آلهة الحملات المذبوحة على غرار إفيجينيا، وبيلوناس، وضحايا المعارك.

ومن بين هذا الحشد الخافت من الآلهة المصنعة الأكبر سناً، كان ساتورنوس، إله البذر، على الأرجح ضحية سنوية للذرة؛ ويشير اسمه الوصفي في حد ذاته إلى هذا الاستنتاج. أما تيرمينوس، إله الحدود، فهو مألوف لنا بالفعل. ولا يمكننا أن نخطئ

في فهم هذين الإلهين على الأقل. ولا شك أن الرجل ذو الشعر الأحمر (كما في مصر) سبق الجراء ذات الشعر الأحمر التي كانت لا تزال تذبح من أجل المحاصيل في منطقة فيستوس كضحية سنوية للذرة. وقد درسنا بالفعل آلهة الذرة المتعاقبة سيا وسيجيتيا وتوتيلينا. ويبدو أنهم يساوون العذارى المتعاقبات اللاتي يُقتلن من أجل الذرة في مجتمعات أخرى، ولا يزال يتم تخليد ذكراهن بيننا من خلال طفل الذرة وزوجة الذرة. وفي كل مرحلة من مراحل عمر الذرة، كان يُنظر إلى مرحلة مماثلة في عمر الضحية البشرية على أنها مرغوبة. ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذه الفكرة ووجود العديد من الآلهة الوظيفية التافهة ـ آلهة الباب والمفصلة؟ ـ مع الكونينا التي تحرس الطفل في المهد، والستاتينا التي تعتني به عندما يبدأ في الوقوف؟ أجيب بأن كل هذه الآلهة ليست سوى آلهة صفية، مجرد أشباح أو أرواح، غير معروفة في ذاتها، ولكنها تصور على أنها تمارس هذه الوظيفة الخاصة. إن عبارة "الإله الذي يفعل كذا وكذا" ليست أكثر من تعبير ملائم، لا أكثر؛ فهي تحقق غرضها، وكان هذا كافياً بالنسبة للروماني العملي. فما مدى استعدادهم لتحمل هذه التعريفات الجاهزة التي نعرفها في حالة أيوس لوكيتوس وديو ريديكولوس.

إن كل نقطة نهاية وكل سيلفانوس هو إله أو شبح حامي لكل حجر حدودي أو لكل بستان مقدس - ليس اسمًا خاصًا، بل فئة - ليس إلهًا معينًا، بل نوع من الروح. الآلهة العامة والمجردة هي توحيدات لاحقة لجميع الأفراد المدرجين في كل جنس. أعتقد أن جانوس كان في البداية الضحية التي يتم التضحية بها سنويًا أمام كل بوابة من بوابات المدينة، كما يتم التضحية به حتى الآن على الساحل الغربي لأفريقيا: بصفته إله الافتتاح، كان يُذبح عند افتتاح كل عام جديد؛ وعلى العكس من ذلك، يفتح العام مساره مع الشهر المقدس لإله الافتتاح. ربما قُتل أيضًا في بداية كل حرب. فيستا هي إلهة الموقد؛ وكان لكل منزل فيستا؛ ربما كانت في الأصل ضحية موقد مذبوحة. كان لكل رجل عبقريته، روح حماية أجداده؛ كانت الحارسة المقابلة للمرأة هي جونو؛ إن الآلهة الثلاثة التي تنحدر من المسيحية، وخاصة في شكلها الروماني

الأكثر تميزًا، هي الملائكة الحارسة. كان المريخ روحًا للذرة؛ ولم يتم التعرف عليه إلا لاحقًا بإله الحملات. وقد تم بالفعل التفكير في طرده السنوي باعتباره كبش فداء بشري. كان جوبيتر أو جوفيس إلهًا متعدد الآلهة للنبيذ، ولا شك أنه في كل حالة كان الضحية السنوية التي تقتل، بحكمة ديونيسوس، لصالح الكرم. كان لكل قرية وكل مزرعة جوفيس خاص بها، يعبد بشكل خاص، ولا أشك في أنه كان يذبح في الأصل، عند فتح برميل النبيذ الأول من العام في أبريل. لكن اسمه يدل على أنه، كالمعتاد، كان يتم التعرف عليه أيضًا بإله السماء القديم جدًا المشترك بين كل العرق الآري؛ ربما تم التضحية بجوفيس الخاص، بنفسه، أمام مذبح إله السماء القديم، كما هو الحال في مكان آخر ضحية ديونيسوس في ضريح ديونيسوس.

إن هذه التعريفات، كما أعلم، قد تبدو خيالية بالنسبة للعلماء الكلاسيكيين غير الملمين بالتطورات الحديثة في علم الأنثروبولوجيا، ولم أكن لأجرؤ على طرحها في مرحلة مبكرة من حجتنا المعقدة؛ ولكن الآن بعد أن رأينا وتعلمنا التعرف على التشابه الاستثنائي بين جميع الآلهة في جميع أنحاء العالم، أعتقد أن الطريقة الدقيقة التي تتماشى بها هذه الآلهة مع آلهة الجدران، وآلهة البوابة، وآلهة الذرة، وآلهة الخمر، وآلهة الحدود، وآلهة الغابة، وآلهة النافورة، وآلهة النهر في كل مكان آخر يجب بالتأكيد أن يُسمح لها ببعض الوزن في وضعها بشكل قياسي.

ولقد اتسع نطاق الدين الروماني في وقت لاحق، إن اتسع على الإطلاق، من داخل نطاقه الخاص، من خلال تضمين عناصر قبلية أكبر وأكبر. وعلى هذا فإنني أعتبر "ديوس فيديوس"، الذي ترأس كل تحالف منفصل، بمثابة شبح الضحية المذبوحة لتكوين عهد؛ تماماً كما هو الحال في أفريقيا حتى يومنا هذا، عندما أبرمت قبيلتان معاهدة سلام، فإنهما تصلبان عبداً "للتصديق على الصفقة". وقد أوضح الأستاذ روبرتسون سميث طبيعة ضحايا العهد هذه بشكل جيد، ولكن نمو آلهة العهد، التي اكتسبت في النهاية أهمية واسعة للغاية، هو موضوع تمنعني اعتبارات المساحة من

إدراجه في نطاقنا الحالي. فالضحية، التي كانت في البداية بلا شك بشرية، تحولت فيما بعد إلى حيوان إلهي بشري؛ كما حدث أيضاً مع الضحية "جو فيس" وممثلي الآلهة الأخرى الصفية أو الإدارية. ربما كان من السهل دمج مارس الروماني وسابين أويرينوس في مارس أويرينوس، إذا تذكرنا أن مارس هو على الأرجح اسم عام، وأن أي عدد من مارتيس قد يكون قد تم التضحية به في أي وقت. وهكذا أصبح جوفيس في مدينة روما أعظم وأقوى جوبيتر على الإطلاق، وممثل الاتحاد الروماني. ومع ذلك، تحت التأثيرات الهيلينية، ارتفعت كل هذه الآلهة الصغيرة في النهاية إلى آلهة عامة؛ وأصبحت الأضاحي الحيوانية المقدمة لهم مجرد تضحيات تكريمية أو تافهة، بالكاد يتم التعرف عليها على الإطلاق مع الصور العظيمة التي تتلقاها.

ولقد بلغت عملية التحول إلى الهيلينية في روما حداً كبيراً، حتى أن الدين الروماني القديم أصبح في طي النسيان التام، وكاد يختفي، إلا في طابعه المنزلي. ففي المنزل، ظلت إلهة لاريس تحتل المرتبة الأولى. وفي أماكن أخرى، حل باخوس محل ليبر، في حين كانت سمات هيرميس مرتبطة بروح المساومة الرومانية ميركوريوس. ومع ذلك، احتفظ الروماني بإيمانه البدائي بآلهة الذرة والنبيذ، تحت ستار أحدث؛ فقد رأى أن سيريس هي واحدة مع ديميتر الأتيكية؛ واستمرت طقوسه الريفية دون تغيير بسبب تغير السمات التي أصابت معابد المدينة وحولتها. فضلاً عن ذلك، فقد استعار الرومان، ثم سكان روما الكوزموبوليتانيون في وقت لاحق، الآلهة والإلهات بحرية من الخارج بأعداد متزايدة باستمرار. ففي الأيام الأولى للغاية، استعاروا من إتروريا؛ وفي وقت لاحق، استعاروا أبولو من اليونان، و(بسبب خطأ لغوي) أضفوا على هرقل صفات هرقل. وفي مناسبة الطاعون، استدعوا علانية أسكليبيوس، إله العلق اليوناني، من إبيداوروس؛ وفي ذروة الصراع بين الحياة والموت مع هانيبال، أحضروا حجر الحقل المقدس المعروف باسم سيبيلي، أم الآلهة، من بيسينوس في فريجيا. وسمح أهل بيسينوس لإلهتهم بالرحيل بخضوع غريب؛ وهكذا انتقلت عبادة أتيس الماجنة بالكامل إلى الأراضي الإيطالية. وكانت طقوس المهرجان العظيم تُقام في روما

تقريبًا كما كانت تُقام من قبل في فريجيا؛ حتى أن عبادة آسيوية من النوع الأكثر شغبًا وجدت موطئ قدم رسمي ثابت في مركز الإمبراطورية. والواقع أن الكاهن كان لا يزال آسيويًا، أو على الأقل ليس رومانيًا؛ لكن طرد هانيبال من إيطاليا الذي أعقب تبني هذا الإله الأجنبي، لا بد أنه قد زاد إلى حد كبير من هيبة وسمعة الإله الغريب والمنحرف.

وصلت أفروديت الفخمة من إريكس في صقلية إلى روما في نفس الوقت تقريبًا مع سيبيل. كانت في الأصل إلهة سامية، جمعت بين الأفكار الهيلينية والشرقية، وتم التعرف عليها في إيطاليا على أنها فينوس اللاتينية القديمة.

وفي وقت لاحق، استوردت المدينة آلهة أخرى من الخارج. وتدفقت آلهة جديدة من آسيا وأفريقيا. ولم يعد سكان المدينة في عهد الإمبراطورية المبكرة رومانيين تقريباً، إلا في الطبقات العليا؛ وكان عدد هائل من العبيد من جميع أنحاء العالم يشكلون الطبقة الدنيا في الأقبية المزدحمة؛ أما الطبقة الوسطى فكانت تضم السوريين والأفارقة واليونانيين والصقليين والمغاربة والمحررين . رجال من كل الأماكن والأجناس من إسبانيا أو بريطانيا إلى الفرات والنيل والسهوب والصحراء. وقال جوفينال إن نهر العاصي غمر نهر التيبر. وبين هذه الكتلة المختلطة من كل العقائد والألوان، من ذوي البشرة السمراء أو البيضاء، نشأ مزيج غريب من الديانات. وكان بعض هذه الديانات مجرد واردات أجنبية جاهزة . عبادة إيزيس من مصر؛ وعبادة يهوه من يهودا؛ وعبادات غريبة من الشرق أو الشمال أو أفريقيا من أقصى أجزاء بنطس أو موريتانيا. وكان البعض الآخر عبارة عن خليط أو تفسيرات لأديان أقدم، مثل المسيحية، التي خلطت بين اليهودية وعناصر أدونيس أو أوزوريس؛ مثل الغنوصية، التي، بدءًا من التسللات الزرادشتية، عجن جميع آلهة العالم في النهاية إلى إلهها الصوفي والسحري الأعلى أبراكساس.

وإذا ما نظرنا إلى الإمبراطورية بشكل عام، فسنجد أنه منذ عهد أغسطس فصاعداً، بدأ الشعور بالحاجة إلى دين عالمي جديد، يتناسب مع الدولة العالمية الجديدة، يتلاشى ويتضح. فقد أخذ الجنود المجندون في بلد ما عبادة آلهتهم وصورها إلى بلد آخر. فكان ميثرا، الذي يذبح الثور (والذي لا يسعنا إلا أن نرى فيه صورة شمسية للإله الثور، الذي يضحي بثوره لنفسه أمام مذبحه الخاص)، يُعبد هنا وهناك، كما تظهر العديد من النقوش البارزة، من بلاد فارس إلى بريطانيا. وسعى الغال إلى تحديد آلهة الحرب المحلية لديهم مع الإله الروماني مارس، الذي تم تحويله إلى نسخة مكررة من الإله اليوناني آريس. ولقد رأى البريطانيون آلهة الأنهار التي يصورونها قد أعيد تشكيلها في فسيفساء على هيئة صور تشبه صور نهر التيبر الروماني، أو زودوا بالخيول الأربعة التي تجر نبتون الروماني، كما استعار نبتون هذا التمثيل على الأقل من بوسيدون اليوناني. وكان هذا أسهل كثيراً لأن الخيول كانت تُذبح في كل مكان على حد سواء للبحر أو النهر، بدلاً من الضحايا من البشر؛ تماماً كما كانت آلهة الذرة ترتدي في كل مكان ملابس خضراء، وآلهة الخمر ترتدي في كل مكان تاجاً من أوراق العنب على جباهها المقدسة. لقد شعر الناس بالحقيقة التي حاولت أن أؤكد عليها، وهي أن كل مكان وفي كل زمان لا يوجد إلا دين واحد. وكانت الصفات والأصول متشابهة إلى حد كبير حتى أن العبادة كانت تخضع بسرعة لتحول عالمي في الأسماء، لأنها كانت تمتلك بالفعل تشابهاً في الطقوس والسمات الأساسية. وكانت اللغة نفسها تساعد في هذه العملية التوحيدية. ففي الغرب، مع انتشار اللاتينية، حلت الأسماء اللاتينية للآلهة محل الأسماء المحلية؛ وفي الشرق، مع انتشار اليونانية، أعطت الآلهة الهيلينية ألقابها وأشكالها الجميلة للصور المحلية. وقد تم تقديم وحدة مصطنعة في عام 376 وتم تثبيتها من خلال قائمة تقليدية من المعادلات اليونانية والرومانية؛ وفي الغرب، مع اكتساب الفن اليوناني للأرض وانتشاره، أصبحت التمثيلات اليونانية النبيلة للآلهة العليا في شكل إنساني مثالي شائعة في كل مكان.

ولكن هذا لم يكن كافياً. فبما أن الحكومة كانت واحدة، في ظل استبداد مركزي قوي، فكان من الطبيعي أن تكون الديانة واحدة أيضاً، تحت حكم إله قادر على كل شيء. فالإنسان يصنع جنته على صورة الأرض؛ ومجمعه الإلهي يخضع لدستوره السياسي. وكان لقاعة السماء في العصور الوسطى إله إمبراطوري، مثل أوثوس أو فريدريك، على عرشه الملكي، محاطاً ببلاط من البارونات العظماء ورؤساء الأديرة والملائكة ورؤساء الملائكة والقديسين والشهداء: أما الديانات الجديدة، مثل الروحانية والثيوصوفية، التي نشأت في العالم الديمقراطي الحديث، فهي ديانات أرواح حرة ومستقلة، ولا تكاد تكون حتى دينية. وعلى هذا فقد طالبت الإمبراطورية الرومانية بدين واحد يخضع لإله قوي واحد. وكانت تميل إلى العثور على هذا الإله، إن لم يكن في عبقرية تراجان أو أنطونيوس، ففي ميثرا الذي يذبح الثيران أو أبراكساس العالمي. كان الماديون راضين عن عبادة الإمبراطور أو مدينة روما: أما المثاليون فقد اتجهوا إلى عبادة إيزيس أو المسيح.

لقد كان هناك دين واحد كان من الممكن أن يستجيب لدور الإمبراطورية: التوحيد الخالص المثالي في يهودا. ولكن عبادة يهوه كانت محلية وقومية للغاية؛ ولم تمتد قط إلى ما هو أبعد من أبناء إسرائيل الحقيقيين أو المتبنين. ومع ذلك، فقد اكتسبت أتباعًا من ذوي المكانة العالية في روما، وخاصة بين النساء؛ أما فيما يتعلق بالرجال، فلا بد أن مراسم البدء المؤلمة والمهينة في اليهودية كانت دائمًا تقف في طريق التحول. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا العيب، كان هناك أتباع في جميع المدن العالمية حيث استقر اليهود؛ رجال أحبوا أمتهم وبنوا لهم كنيسًا. وإذا كان بإمكان اليهودية أن تتخلص من حصريتها الوطنية، وأن تدمج في إلهها بعضًا من تلك السمات العبقرية والعالمية التي أزالتها في وقت مبكر جدًا - إذا كان بإمكانها أن تجعل نفسها أقل صرامة وأقل تجريدية وأقل محلية في نفس الوقت - فهناك فرصة لأن ترتفع لتصبح دين البشرية. ربما يتحقق حلم الأنبياء ويقترب العالم كله من صهيون.

وفي هذه المرحلة الحرجة، بدأت طائفة صغيرة غامضة في الظهور بين اليهود والجليليين، في القدس وأنطاكية، والتي تصادف أنها جمعت إلى حد كبير كل المتطلبات الرئيسية لدين عالمي جديد. ومهما كانت عبادة يسوع تفتقر إلى هذا الجانب في بداياتها الأولى، فقد عوضت ذلك مع مرور الوقت من خلال الاستيعاب والتغلغل.

كانت كنيسة كاثوليكية: كانت تمثل العالم، وليس قبيلة أو أمة. كانت كنيسة مقدسة: كانت تركز بشكل كبير على العنصر الأخلاقي. كانت كنيسة رومانية: نمت وازدهرت في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. لقد صنعت مدينة كانت ذات يوم عالماً. من أين أتت وكيف نمت يجب أن يكون السؤال التالي والأخير.

و"هيل 378" وهكذا كان العالم يغلي ويغلي بالأديان الجديدة، وظهرت عقيدة المسيح لأول مرة على ساحل آسيا. وعلى الرغم من بعض الملاحظات الواردة في الفصل الأول، فأنا لست من أتباع "اليوهيمرية" إلى الحد الذي يجعلني أصر بشكل قاطع على الوجود التاريخي ليسوع شخصي. أما عن المسيح نفسه، إذا كان هناك مسيح، فإننا لا نعرف عنه إلا القليل أو لا شيء. والواقع أن رواية حياته التي وصلت إلينا في الأناجيل خالية من أي مرجعية، ومبنية بالكامل على شظايا معجزية مستمدة من أماكن أخرى، حتى أنه قد يكون من المقبول أن نشكك بشدة في ما إذا كان ينبغي لنا أن نحسبه مع القديس جورج والقديسة كاترين، ومع برسيوس وآرثر، من بين الشخصيات الأسطورية والخيالية تمامًا في الأساطير والدين.

ومن ناحية أخرى، فمن المحتمل تماماً، بل ومن المرجح أيضاً، أن يكون قد عاش في الجليل في وقت ما من بداية عصرنا المقبول، معلم ومصلح يحمل الاسم السامي الذي تحول في النهاية إلى اسم يوناني لاتيني، وهو يسوع. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يبدو من المستبعد أن يكون هذا الشخص المجهول قد صلب (أو بالأحرى شنق على عمود) على يد الرومان في القدس في عهد الوالي الروماني بيلاطس البنطي؛ وأنه بعد وفاته كان يُعبد كإله إلى حد ما من قِبَل أتباعه المباشرين. وربما توجد مثل هذه النواة من الحقيقة في قصة الإنجيل المتأخرة والمشتقة؛ وهي نواة من الحقيقة، ولكنها مدمجة في كتلة من الأساطير غير التاريخية، والتي تحدده ضمناً بجميع آلهة الذرة وآلهة الخمر المألوفة في شرق البحر الأبيض المتوسط.

وعلاوة على ذلك، فمن الممكن أن يكون المسيح قد قُتل عمدًا، بتحريض من الغوغاء اليهود، باعتباره أحد هؤلاء الملوك الإلهيين المؤقتين الذين ناقشنا طبيعتهم ومعناهم بالفعل. وإذا بدا هذا الاقتراح غير محتمل بسبب عدم وجود أي حالة مماثلة مسجلة في السجلات اليهودية الضئيلة، فسأجيب بأن التاريخ الرسمي نادرًا ما

يعطينا أي تلميح إلى العادات المماثلة التي لا تزال باقية في البلدان الأوروبية المتحضرة؛ وأن العديد من الطقوس الشعبية موجودة لم يسمع بها في كل مكان؛ وأن اليهود كانوا يُعتقد عمومًا طوال العصور الوسطى أنهم يصلبون الصبية المسيحيين، مثل القديس هيو من لينكولن، في بعض الاحتفالات العرقية غير النظامية وغير المعترف بها. وعلاوة على ذلك، لئلا يُعتقد أنني أستشهد بهذه الحالة من خلال ميل معادٍ للسامية (وهو ما لا أملكه بأي درجة)، فقد أضيف أنه حتى بين المسيحيين يُعتقد أن عادات مماثلة موجودة في المناطق الريفية من إيطاليا في الوقت الحاضر، فهناك قرى يموت فيها رجل سنويًا كممثل للمسيح؛ وفي رأيي أن مسرحية أوبر أميرجاو وغيرها من مسرحيات آلام المسيح ما هي إلا بقايا من تمثيلات مماثلة حيث قام مجرم محكوم عليه بالإعدام، وهو البديل المعتاد، بتمثيل دور المسيح. وباختصار، لا أتردد في القول إن مراسم قتل الإله، التي أصبحت أقل أو أقل شهرة، ظلت باقية في كل مكان في أشكال غامضة بين الطقوس الشعبية والعادات الشعبية لدى أكثر الشعوب تحضراً.

ولكن دون أن أزيد على الإشارة الموجزة إلى هذا الاحتمال، فإنني أنتقل الآن إلى القول بأنه إذا كان هناك حقاً مسيح شخصي، وإذا كان أتباعه قد بدأوا بالإيمان الغامض بقيامته، فإن الأسطورة، كما نفهمها، تتألف من قطع مجمعة من كل عادات ومعتقدات قتل الآلهة التي كنا ندرسها بالتفصيل خلال الفصول الستة أو السبعة الأخيرة. وفي إنجيل المؤمنين اللاحقين، بعد أن انتشرت الطائفة على نطاق واسع بين غير اليهود في المدن، يُنظر إلى يسوع باعتباره إله الذرة والخمر، وملكاً مؤقتاً، ذُبِح على الصليب كفارة، وقام من بين الأموات بعد 380 يوماً، بالطريقة الشائعة بين جميع آلهة الذرة والخمر. ومن الممكن بالطبع أن يكون المؤمنون الأوائل قد ربطوا كل هذه الأفكار بإدانة وإعدام عرضيين، إذا جاز التعبير؛ ولكن من الممكن أيضاً أن يكون المسيح قد قُتل بالفعل في عيد الفصح العظيم في الربيع، وفقاً لطقوس شعبية غامضة وغير معترف بها من قِبَل رعاع القدس. ولست أزعم حتى أن لدي

رأياً في هذا الموضوع؛ ولا أزعم أو أنكر أي حقيقة تاريخية: بل إنني راضٍ بالقول إن القصة في مجملها تعرض لنا المسيح بالكامل في شخصية ملك مؤقت، قُتل بطقوس خاصة باعتباره إلهاً للذرة والنبيذ. وفي هذه الحالة على الأقل، لست من أتباع اليوهيمرية المتعصبين.

أعتقد أن البروفيسور فريمان هو الذي وصف البوذية ذات يوم بأنها "محاكاة ساخرة تجديفية للمسيحية". ويبدو أن فكرة المؤرخ المتعلم كانت أن مؤلف كل الشرور، الذي كان على علم مسبق بالنوايا الإلهية، قد اخترع البوذية قبل ظهور المسيح، وذلك بهدف استبعاد خطة الخلاص المسيحية عن طريق التوقع المسبق. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب علينا أن ننظر إلى جميع الديانات الأخرى باعتبارها محاولات تجديفية مماثلة لعرقلة الله: لأننا سنرى أثناء تقدمنا أن كل واحد منها يحتوي على توقعات لا حصر لها للمسيحية - أو بعبارة أخرى، أن المسيحية تدمج كل هذه التوقعات في حد ذاتها، في حل شديد التركيز وغير واقعي.

في أقدم الوثائق المسيحية، رسائل بولس الرسول وغيرها من الرسائل الرسولية، لا نحصل إلا على القليل من المعلومات عن تاريخ المسيح الحقيقي أو الأسطوري. إن الإشارات الغامضة إلى صلب المسيح وقيامته وحدها تكفي لفحصنا. ولكن من خلال ضباب الكلمات نرى شيئين أو ثلاثة بوضوح. يوصف المسيح بأنه ابن الله ـ أي الإله اليهودي؛ ويتحدث عنه باستمرار على أنه ذُبح على عمود أو شجرة، الرمز المقدس للعديد من الديانات القديمة. إنه يموت لإنقاذ البشرية؛ والخلاص يُقدَّم باسمه لجميع البشر. إن القراءة المتأنية للرسائل من وجهة النظر هذه ستعطينا بإيجاز خلاصة أقدم اللاهوت المسيحي وأقلها تعصباً ولكنه عقائدي للغاية. وتتلخص نقاطه الأساسية في أربع نقاط ـ التجسد، والموت، والقيامة، والكفارة.

إن الروايات اللاحقة التي نراها في الأناجيل أكثر وضوحاً. فقد كانت الأسطورة قد اتخذت شكلها في ذلك الوقت: فقد أصبحت واضحة ومتماسكة. وكل عناصر إله الذرة

والخمر الذي قُتِل وقام من بين الأموات موجودة هناك بكل كمال. ومن أجل الاختصار، سوف أجمع كل هذه الروايات معاً، وأضيف إليها بعض السمات التي تعود إلى أصول لاحقة.

إن جانب المسيح كبقاء للإله الذرة واضح بالفعل في حجة بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس حول قيامة الجسد. هذه الحجة ستضرب على الفور كل يوناني وكل آسيوي. "إن ما تزرعه لا يحيا إلا إذا مات. وحين تزرع فإنك لا تزرع الجسم الذي سوف يكون، بل حبة مجردة؛ قد تكون حنطة أو أي حبة أخرى. لكن الله يعطيها شكلاً كما يشاء؛ لكل بذرة جسدها الخاص". إن هذا الفصل الخامس عشر بأكمله، وهو أقدم بيان للعقيدة المسيحية، ينبغي أن يقرأه في هذا السياق أي شخص يرغب في فهم العلاقة الوثيقة بين فكرة البذر والقيامة. ولعل من كتبه أي شخص يعبد أدونيس أو أوزوريس ويرغب في أن يوصي بعقيدته الخاصة بالقيامة الجسدية إلى شخص متشكك في فكرة حرق الجثث، على دراية بعبادة ديونيسوس وأتيس.

إن أقدم طقوس الكنيسة المسيحية المعروفة كانت تناول الخبز والنبيذ معًا؛ ويقال إن هذه الطقوس كانت تخليدًا لذكرى موت الرب، وعشاءه الأخير، عندما تناول الخبز والنبيذ مع تلاميذه وشربهما. واللغة التي وُضِعَت على فمه في هذه المناسبة في الأناجيل، وخاصة الإنجيل الرابع، هي بوضوح لغة إله الذرة والنبيذ. "أنا الكرمة الحقيقية وأنتم الأغصان". "أنا خبز الحياة". "خذوا كلوا، هذا هو جسدي". "هذا هو دمي للعهد الجديد". وهناك عدد لا يحصى من اللمسات الأخرى من هذا النوع متناثرة في الخطب. في المثل 382 عن الكرم، يوصف الله الآب بأنه صاحب كرم، يرسل ابنه الوحيد لتلقي ثمرته: فيقتله العمال. إن المعجزة الأولى في قانا الجليل هي تلك التي تحول فيها الماء إلى خمر على يد يسوع: وهكذا عبر سلسلة طويلة من الأمثلة الغريبة، والتي يستطيع القراء اكتشافها بأنفسهم عن طريق التفتيش.

في الفن المسيحي المبكر، كما هو معروض في سراديب الموتى في روما، كانت الكرمة الحقيقية هي الأكثر تصويراً؛ وكذلك سلال الخبز، مع المعجزة المقابلة للخبز والأسماك. إن تكثير الخبز والخمر هي المؤهلات الطبيعية لإله الذرة والخمر. إن أقدم وصف لدينا للمسيح، وهو وصف يوحنا الدمشقي، ينص على أن بشرته كانت "مثل لون القمح"؛ بينما نقرأ في رسالة لينتولوس غير القانونية إلى مجلس الشيوخ الروماني بنفس الروح أن شعره كان "لون النبيذ". يقول الوصف اليوناني لأبيفانيوس موناكوس أن المسيح كان طوله ستة أقدام؛ وشعره طويل ولونه ذهبي؛ وكان وجهه أحمر مثل أبيه داود. من الواضح أن كل هذه الأوصاف متأثرة بالتعرف على خبز وخمر القربان المقدس بيسوع الشخصي.

في استخدام الكنيسة منذ الأيام الأولى، كان من المعتاد تناول جسد المسيح على شكل خبز، وشرب دمه على شكل خمر في السر. في الكنيسة الكاثوليكية، تتم هذه المراسم المستمرة عند مذبح يحتوي على عظام مقدسة، ويتم تصويرها على أنها تقدمة الله، نفسه لنفسه، في شكل ذبيحة صوفية وتقوى. يشرب الكاهن الخمر أو الدم؛ ويأكل العلمانيون الخبز أو الجسد فقط..

إن العادة الغريبة التي تحدث في العديد من كنائس صقلية في عيد الفصح تؤكد بشكل أكبر على وحدة المسيح مع عبادة آلهة الذرة والخمر السابقة، مثل أدونيس وأوزوريس. حيث تزرع النساء القمح والعدس وبذور الكناري في أطباق، تُحفظ في الظلام وتُروى كل يومين. وسرعان ما تنبت النباتات؛ ثم يتم ربطها معاً بشرائط حمراء، وتوضع الأطباق التي تحتوي عليها على القبور التي تُصنع، مع تماثيل المسيح الميت، في الكنائس الكاثوليكية واليونانية في الجمعة العظيمة، "تماماً كما وضعت حدائق أدونيس"، كما يقول السيد فريزر، "على قبر أدونيس الميت". وفي هذه المراسم الغريبة نحصل على بقايا من أدنى طبقة من عبادة إله الذرة؛ الطبقة التي يُقتل فيها الضحية البشرية الفعلية، وتُزرع الذرة والمحاصيل الأخرى فوق

جسده. وحتى حيث لم تعد البذر نفسها باقية، فإن القبر يظل بمثابة بقايا من نفس الطقوس القديمة. مثل هذه القبور شائعة في كل مكان في عيد الفصح، كما هي الحال مع مهد إله الطفل في عيد الانقلاب الشتوي. إن "بيبيتا" هي الشكل النهائي لهذا الحداد على إله الذرة من قبل النساء المقدسات.

وإذا انتقلنا إلى الجوانب الأخرى للمسيح باعتباره إلهاً للذرة وضحية إلهية بشرية، فإننا نرى أنه يُعترف به مرتين باعتباره إلهاً وإنساناً، مثل كل الآلهة المماثلة في الأجناس الأولى. ففي الخطب التي يلقيها مؤرخو سيرته على فمه، يزعم باستمرار أن الإله اليهودي هو والده. فضلاً عن ذلك، فهو ملك؛ ويصر مؤرخو الأنساب على نسبه الملكي من جده داود، مع بعض الإصرار. إنه الله المتجسد؛ ولكنه أيضاً ملك اليهود، وملك المجد. يأتي الحكماء من الشرق لعبادته، ويقدمون هدايا من الذهب والمر واللبان للإله الرضيع في مهد مذود. ولكنه علاوة على ذلك هو المسيح، ممسوح الله؛ وكما رأينا، فإن المسح هو عنصر مشترك مع العديد من الضحايا الإلهية البشرية الأخرى.

"ومرة أخرى، فهو ابن الملك؛ وهو الابن الوحيد، الابن الحبيب، الذي ذُبِح كفارة عن خطايا الشعب. وتنفتح السماوات، ويعلن صوت منها: ""هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"". وهو منتمٍ، مثل كل الضحايا الآخرين، إلى الإله العرقي الأقدم والأقدم، يهوه؛ ورغم أنه هو نفسه الله، وواحد مع الآب، فإنه يُقَدَّم، هو نفسه، كفارة عن الخطيئة التي ارتكبها البشر ضد العدالة الإلهية. وكل هذا من شأنه أن يكون لاهوتًا مألوفًا حقًا لعابد أوزوريس وأدونيس وأتيس.

*كانت الذبيحة العبرية الشائعة هي خروف الفصح؛ ولذلك يُصوَّر المسيح باعتباره خروف الله الذي يرفع خطايا العالم. وفي لوحات المقابر، غالبًا ما يُصوَّر مخلص العالم في هيئة خروف.*كحمل يربي حملاً آخر، لعازر؛ كحمل يحول الماء إلى خمر؛ كحمل يضرب ينابيع الحياة من الصخر على زوايا تابوت جونيوس باسوس. لكن ولادته في

المذود لها أهميتها أيضًا: وكرمته وحمامته تكاد تكون متكررة مثل حمله في سراديب الموتى.

إن تاريخ الإنجيل يصور آلام المسيح في الأساس باعتبارها ذبيحة ملك مؤقت، مزينًا بكل العناصر المألوفة لتلك الطقوس المبكرة. يدخل المسيح أورشليم في هيئة ملكية، وسط تصفيق شعبي، مثل تلك التي تصاحب الملك المؤقت دائمًا، وأدونيس أو أتيس. يمتطي حمارًا، الوحش الملكي للساميين. يلقون الناس بأغصان الأشجار في طريقه، كما يلقون دائمًا بأجزاء من الأشجار الخضراء أمام آلهة النباتات. وفي أحد الشعانين لا تزال كنائسه مزينة بأغصان النخيل أو بباقات من سعف الصفصاف. وتشكل مثل هذه الطقوس التي تتضمن أشياء خضراء جزءًا لا يتجزأ من كل الطقوس القديمة لإله الشجرة أو إله الذرة، وكل ما تبقى من التراث الشعبي الأوروبي الحديث - نجدها أيضًا في مهرجان ديونيسيوس، وفي احتفالات جاك إن ذا جرين في أيام المعارض الإنجليزية. كما أن الارتباط بالأشجار واضح أيضًا في جميع الأناجيل؛ ولقد ذُكرت معجزة شجرة التين العقيمة بشكل خاص في ارتباط وثيق بدخول أورشليم. فعندما دخل داود إلى أورشليم صاح الناس "هوشعنا" وكان من المفترض أن تتحقق الكلمات النبوية: "هوذا ملكك يأتي إليك وديعًا، راكبًا على حمار وجحش ابن أتان".

إن المسيح يذهب إلى الصليب طوعاً كضحية؛ فهو لا يطلب بجدية أن تمر عنه الكأس. بل إنه يتنبأ بموته، ويخضع له طواعية. ولكن المسيح يُشترى أيضاً بثمن ـ ثلاثون قطعة فضية دفعت ليهوذا. ولقد كانت لنا تنبؤات عن كل هذا في طقوس الخوند، والمكسيك، وغيرها من الطقوس المتنوعة.

"وهناك أيضاً محاكمة مزدوجة أمام رئيس الكهنة وأمام بيلاطس. وقد رأينا أن مثل هذه المحاكمات تشكل عناصر مشتركة في إهانة الملك المزيف. فمثله كمثل كل الضحايا الآخرين، بعد أن عومل المسيح كملك، تعرض للسب والبصق عليه ولكمه

وإهانته. ثم قيد بالحبال وحمل أمام بيلاطس. فسأله الوالي: ""أأنت ملك اليهود؟"" وبهذا اعترف المسيح ضمناً بعدالة اللقب. وكل الحلقات اللاحقة من الدراما المؤلمة مألوفة لنا بالفعل. فالضحية المقدسة تُجلد بقسوة حتى تسيل دموعها. وكما حدث في حالات أخرى، يُتوَّج بالزهور أو بلحاء الشجر، من أجل تحديد مكانته كملك للنباتات، فكذلك يُتوَّج هنا بإكليل من الأشواك يزيد من عاره. ولابد أن يسيل الدم المقدس من الرأس المقدس. ولكن مع ذلك، يُكْسَى المسيح بالأرجواني ويُحَيَّى بكلمات: ""السلام عليك يا ملك اليهود!"" في سخرية مهيبة." "لقد ضربه الجنود على رأسه بقصب، ولكنهم بينما كانوا يضربونه، كانوا ينحنون ركبهم ويعبدونه. لقد أعطوه ليشرب الخمر الممزوج بالمر؛ "ولكنه لم يأخذه". ثم صُلب في الجلجثة، مكان الجمجمة، على الصليب، الرمز المقدس القديم للعديد من الديانات؛ يحمل النقش "ملك اليهود"، بأمر من الوالي. بعد وفاة المسيح، حزنت عليه النساء القديسات، بما في ذلك والدته، مثل أدونيس وأوزوريس. لا أعتقد أنني بحاجة إلى الإشارة بالتفصيل إلى العديد من أوجه التشابه الوثيقة التي توجد بين أم الآلهة وأم الإله - والدة الإله.

* وفقًا للأسطورة التي تعود إلى العصور الوسطى، كانت الجمجمة لآدم، و
الدم المقدس الذي سقط عليه أعاده إلى الحياة.
في الصلب، يتم تمثيل الجمجمة عمومًا عند القدم
من الصليب.

إن اللصوص الـ 386 الذين صُلِبوا مع المخلص كُسِرت سيقانهم، مثل العديد من الضحايا المقدسة الأخرى؛ ولكن المسيح نفسه لم يُكسَر عظمه، مثل الحمل الفصحي الذي كان البديل اليهودي للضحية البشرية البدائية. وعلى هذا يبدو أن الفكرتين حول هذا الموضوع، الأولى والثانية، تجدان مكانًا مناسبًا في التاريخ. ولكن بدلاً من كسر ساقيه، طُعِنَ جنب المسيح؛ ومنه يتدفق دم الكفارة الصوفي، الذي يُغَسَّل به كل المسيحيين نظريًا؛ وهذه المعمودية بالدم (وهي حقيقة حرفية في

الطوائف القديمة) كانت بالفعل صورة مألوفة في تاريخ سفر الرؤيا، حيث تُغَسَّل أردية المختارين بيضاء في دم الحمل الذي ذُبِح.

بعد صلب المسيح، أُنزِل المسيح ودُفِن. ولكن، مثل كل آلهة الذرة والخمر الأخرى، قام المسيح من بين الأموات في اليوم الثالث. وهذه الفترة التي تتألف من ثلاثة أيام هي فترة تقليدية في حالات مماثلة. وكل ما يحيط به يذكرنا بأوزوريس وأتيس. فالنساء هن أول من رآه؛ ثم الرجال. وأخيراً، صعد إلى السماء، إلى أبيه، أمام أعين تلاميذه وأمه المتعجبة. وفي كل بند من هذه البنود، لا يوجد شيء لا نعرفه بالفعل في أي مكان آخر.

ولن أواصل في هذا القياس، لأن هذا لا ينتهي. والواقع أنني لا أعتقد أن هناك عنصراً في قصة الإنجيل لا يؤكد التشابه الذي اقترحناه هنا. فالحادث الطفيف الذي وقع أثناء زيارة هيرودس، على سبيل المثال، يشبه تماماً زيارة أوزوريس المزيف في مصر الحديثة إلى بيت الحاكم، وزيارة الملك المؤقت أو الوهمي في كثير من الحالات الأخرى إلى قصر الملك الحقيقي. والواقع أن الحادثة التي ألبس فيها هيرودس ورجاله الحربيون المسيح ثوباً فخماً تعادل الحادثة التي ألبس فيها الملك المكسيكي الضحية الإله ثوباً ملكياً، كما توازيها العديد من الدراما الأخرى في أماكن أخرى. فالنساء اللاتي أعددن التوابل والمراهم للجسد يذكرننا بطقوس أدونيس؛ ويذكرنا غسل بيلاطس يديه من ذنب الإدانة بالحادثة المتكررة التي يلقي فيها جزارون الإله اللوم على الآخرين، أو يلقون باللوم على السكين، أو يصرخون: "لقد اشتريناك بثمن؛ نحن أبرياء". من يقرأ بعناية روايات الأناجيل، جنبًا إلى جنب مع مجموعة السيد فريزر المختارة بعناية من روايات الملوك الساخرين، سيرى بنفسه أن هناك سمات ثانوية أخرى لا حصر لها تظهر في القصة والتي يمكن مساواتها بالعديد من الحوادث المماثلة في موت وقيامة الإله الإنسان في أماكن أخرى.

إن الموضوعات التي تتناولها الأمثال في حد ذاتها ذات أهمية: صاحب الكرم الذي يرسل ابنه الذي يقتله المستأجرون؛ والعمال الذين يأتون في الساعة الحادية عشرة؛ والزارع والأرض الصالحة والأرض الرديئة؛ وحبة الخردل؛ وخمير الفريسيين؛ والبذرة التي تنمو سراً؛ والأبناء في الكرم. وسوف نجد أن أغلب هذه الأمثال تدور حول الموضوعات الرئيسية المتعلقة بالخبز والخمر، أو على الأقل زرع البذور.

إن تحديد المراحل الدقيقة التي مرت بها قصة الإله الجليلي ونشأتها حول شخص يسوع الحقيقي أو الأسطوري أمر صعب للغاية. فقد نجد في الرسائل لمحات عابرة في بذرة معظم هذه القصة. ونلاحظ بالفعل تلميحات وإشارات غريبة. ولعل التلاميذ اليهود الأوائل كانوا قد توصلوا إلى الخطوط العريضة للقصة القائمة حتى قبل أن يبدأ الوثنيون في إضافة حصتهم. وعندما ننظر إلى الوثائق المليئة بالمعجزات والأساطير مثل الأناجيل وأعمال الرسل، نجد صعوبة بالغة في فصل أي عنصر من عناصر الحقيقة التاريخية عن التراكم الهائل للأساطير والخرافات. ومع ذلك، لا أرى أي سبب وجيه للشك في الحقيقة العامة للفكرة القائلة بأن العقيدة والممارسة المسيحية نشأت أولاً بين يهود الجليل، وأنها انتشرت منهم بسرعة نسبية إلى شعوب سوريا وآسيا الصغرى. ويبدو من المحتمل أيضًا أن شاول أو بولس كان حقًا الشخص الأول الذي تصور فكرة التبشير بالدين الجديد في جميع أنحاء الإمبراطورية، وخاصة في المدن الكبرى، باعتباره إيمانًا يمكن أن يعتنقه اليهود والأمميون على حد سواء.

لا شك أن هذه الطائفة الفتية، رغم أنها كانت تحتوي على أغلب أفضل سمات اليهودية، التي كانت تعتبر ديناً عالمياً محتملاً ـ توحيدها، ونقائها، وخلوها النسبي من الأساطير الدنيئة السخيفة عن الآلهة وعشقهم ـ كانت تتفوق على العقيدة القديمة في قبولها من قِبَل العالم بأسره، وخاصة من قِبَل شعوب سوريا وغرب

آسيا. وكان بوسع كل واحد منهم أن يقول بحق: "لم يتغير شيء؛ لم يبق لنا إلا إله واحد نعبده".

ومع انتشار الكنيسة، نمت الأسطورة بسرعة. فإلى الرواية المبكرة لموت وقيامة ملك اليهود، أضاف الرواة اللاحقون قصة ولادته المعجزة من أم عذراء، حملت مباشرة من روح الله التي هبطت عليها. وقد فحص السيد سيدني هارتلاند مدى اتساع وأصل هذا الاعتقاد حول تصور الآلهة والأبطال بشكل كامل في دراسته الرائعة لأسطورة برسيوس. كما قدم المؤمنون الجدد لزعيمهم الإلهي سلسلة نسب ملكية من داود إلى ما بعده، وجعلوه من خلال حجة ملتوية إلى حد ما قد ولد في بيت لحم، وفقًا للنبوءة المزعومة - على الرغم من أنه إذا كان هناك يسوع حقًا على الإطلاق، فيبدو أن الحقيقة الوحيدة التي يمكننا أن نشعر باليقين منها بشأنه هي حقيقة أنه رجل من الناصرة. وقد وضع الكتاب اللاحقون على لسانه تعليمًا أخلاقيًا رفيع المستوى في ذلك الوقت، والذي توقعه إلى حد ما هليل وغيره من الحاخامات، وربما كان جزئيًا من أصل بوذي؛ لقد جعلوه يعلن عن نفسه ذلك الدور الإلهي كوسيط وكفارة والذي زعموا هم أنفسهم أنه من أجل مخلص البشرية. إنه يسمي نفسه الكرمة، خبز الحياة، الراعي الصالح؛ وقد أطلق عليه يوحنا المعمدان، وهو المتحمس الذي جذبته شهرته أخيرًا إلى الأسطورة المسيحية، لقب "حمل الله الذي يرفع خطايا العالم". في وقت مبكر جدًا، تم استخدام طقس التطهير بالماء أو المعمودية القديم، الذي تبناه يوحنا، كواحد من الطقوس المسيحية الرئيسية، وهو طقس البدء، الذي حل محل الختان اليهودي الدموي والخطير.

ولقد سمح هذا العام 389 بممارسة التبشير بحرية أكبر كثيراً مما كان بوسع اليهودية أن تتوقعه؛ ورغم أن المسيحيين في البداية لم يكونوا يعتبرون أنفسهم طائفة من اليهود، ورغم أنهم كانوا دائماً يتبنون الكتب المقدسة اليهودية والإله اليهودي، مع كل ما يتصل بالتاريخ اليهودي وعلم الكونيات والأساطير اليهودية، فإن

الدين الجديد كان منذ البداية ديناً عالمياً، وكان يبشر بالكلمة لكل الأمم. وكان من المؤكد أن مثل هذا الإيمان، الذي جاء في مثل هذه اللحظة، والذي كان يخبر الناس بدقة بما كانوا على استعداد للإيمان به، قد حظي بقبول عام إلى حد كبير. وعندما جعل قسطنطين المسيحية العقيدة الرسمية للإمبراطورية، فمن الواضح أنه لم يفعل سوى وضع ختم الموافقة الرسمي على ثورة كانت منذ فترة طويلة تزداد حتمية.

باختصار، انتصرت المسيحية لأنها جمعت في ذاتها كل العناصر الأكثر حيوية من الديانات السائدة آنذاك في العالم، مع القليل مما كان محليًا أو وطنيًا أو مثيرًا للاشمئزاز. وأضافت إلى ذلك نغمة أخلاقية عالية ومبدأ اجتماعي للأخوة الإنسانية، مما جعلها تتناسب بشكل خاص مع عصر الوحدة والحكم المنظم.

في بعض الأحيان، وحتى في الأناجيل ذاتها، نسمع أصداء غامضة لتعريف المسيح بالإله العرقي العبري القديم، ليس فقط باعتباره رب الكون، بل يُذكَر بشكل غامض باعتباره الحجر المقدس لتابوت العهد، صخرة إسرائيل. "الحجر الذي رفضه البناؤون هو الذي صار رأس الزاوية". "كل من سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه". وفي خطاب وُضِع على فم المسيح، قال لبطرس: "أنت صخرة، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي."

في بعض الأحيان أيضًا، في الرسائل، يتم العمل على فكرتي إله الذرة وإله حجر الأساس بالتناوب. "أنا غرست وأبلوس سقى". "أنتم فلاحة الله، أنتم بناء الله". "أنا وضعت الأساس، وآخر يبني عليه. فليهتم كل إنسان بكيفية البناء عليه. لأنه لا يمكن لأحد أن يضع أساسًا آخر غير الذي وُضِع، وهو المسيح، يسوع". أو مرة أخرى، "أنتم مبنيون على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح هو نفسه حجر الزاوية الرئيسي". من يعيد قراءة الرسائل في ضوء التشبيهات المقترحة في هذا الكتاب سيجد أنها تعج

بإشارات مماثلة إلى اللاهوت المألوف للآلهة البشرية المقتولة المختلفة، والتي لابد وأن كانت معروفة لكل شخص على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

إن الكنيسة التي بنيت على هذه الصخرة. وكانت تلك الصخرة هي المسيح. قد أظهرت استمراريتها مع الديانات السابقة بألف طريقة وبألف تشبيه. فقد تم قبول العناصر الشمسية والفلكية بحرية، جنباً إلى جنب مع العناصر التي تذكرنا بآلهة الذرة والخمر. وما زالت المهرجانات الرئيسية متمسكة بالأعياد الشمسية للاعتدالين والانقلابين الصيفي والشتوي. وهكذا تحتفل الكنيسة كل عام بتقليد موت المسيح وقيامته، كما احتفل شعوب البحر الأبيض المتوسط بموت وقيامة أتيس وأدونيس وديونيسوس وأوزوريس. وهي تحتفل بالعيد في الوقت المعتاد لمعظم هذه المهرجانات، وهو الاعتدال الربيعي. فضلاً عن ذلك فإنها تختار ليوم القيامة الفعلي، والذي يُطلق عليه عادة عيد الفصح في اللغة الإنجليزية، وفي اللهجات اللاتينية عيد الفصح (أو Pâques)، تاريخاً فلكياً ثلاثياً. ولابد أن يكون المهرجان أقرب ما يمكن إلى الاعتدال الربيعي؛ ولكن يجب أن يكون ذلك بعد اكتمال القمر، ويجب أن يكون في اليوم المقدس للشمس. وقبل العيد، يتم الصيام الطويل، وفي نهايته يتم ذبح المسيح على شكل تمثال، ووضعه رسميًا في قبر مقلد. الجمعة العظيمة هي ذكرى وفاته المقدسة، واليوم الخاص للحداد السنوي، كما هو الحال بالنسبة لأدونيس وأتيس. في أحد الفصح، يقوم المسيح من بين الأموات، وكل كاثوليكي صالح ملزم بالتواصل - تناول جسد إلهه المذبوح في مهرجان الربيع السنوي لإحياء النباتات. إن المقارنة بين احتفالات الأسبوع المقدس في روما والاحتفالات السنوية الأخرى، من عيد الذرة المكسيكي وطقوس بوتراج في الهند إلى أتيس وأدونيس، سوف تجدها مفيدة للغاية. أعني بالطبع الاحتفالات كما كانت عندما كان البابا، الملك الكاهن، ممثل أتيس السنوي في بيسينوس، يرأسها علناً في كنيسة سيستين، مع موسيقى عيد الفصح المعروفة باسم مراثي الرثاء، ورفع القربان المقدس وسط هدير الأبواق.

وفي هذا الموضوع، أقتصر على التلميح البسيط. ومن يختار أن يتتبع مثل هذا الدليل الوافر سوف يجد أنه يقوده إلى تشبيهات غريبة وبقايا تكاد تكون لا تصدق.

وعلى نحو مماثل، يحتفل بميلاد المسيح في الانقلاب الشتوي، وهو التاريخ المعروف للعديد من الاحتفالات السابقة لآلهة النبات. ثم يرقد الإله الرضيع فاقداً للوعي في مهده. ومن قرأ العمل العظيم للسيد فريزر سوف يفهم العلاقة بين شجرة الهولي والهدال وشجرة عيد الميلاد، وهذا المهرجان العظيم الثاني للمسيحية، وهو مهرجان مهم للغاية في الشمال التيوتوني، وإن كان أقل أهمية في الجنوب من وليمة المد الربيعي، عندما يُذبح الإله ويُؤكل بالضرورة. وأقتصر على القول إن طقوس عيد الميلاد هي كلها طقوس لميلاد إله الذرة.

حتى الصليب المسيحي، كما هو معروف الآن، لم يكن يستخدم كرمز للإيمان قبل أيام قسطنطين، وتم استعارته من العجلة الشمسية لعبدة إله الشمس الغاليين الذين شكلوا كتلة فيالق الإمبراطور الناجح.

إننا الآن، إذن، في موقف مختلف تمام الاختلاف لفهم الأسباب التي أدت إلى نشوء وتطور الدين المسيحي عن الموقف الذي كنا نشغله في بداية بحثنا. فقد كان علينا حينئذ أن نقبل ببساطة حقيقة مفادها أن عبادة معينة لرجل إلهي، هو يسوع، نشأت في نحو القرن الأول من عصرنا بين جزء من أهل البحر في سوريا السفلى. وكانت هذه الحقيقة، كما قبلناها في البداية، معزولة وغير مرتبطة ببعضها البعض في تفردها العاري. والآن نستطيع أن نرى أنها لم تكن سوى مثال آخر على ميل عالمي إلى خلق الآلهة في الطبيعة البشرية، سواء كانت عالية أو منخفضة؛ وسوف نجد في الفصل الأخير أن هذا الميل العالمي إلى عبادة الموتى استمر منذ ذلك الحين بنفس القدر من القوة، وهو في الواقع العنصر المركزي في الغريزة الدينية للبشرية بأكملها.

إن الوتر العاطفي الرئيسي الذي عزفت عليه المسيحية في أيامها الأولى. بل والوتر الرئيسي الذي لا تزال تعزف عليه. هو في اعتقادي الشعور العالمي المؤيد لتأليه الموتى أو تطويبهم، مع الرغبة في الخلود من جانب المؤمن الفرد نفسه. ومثلها كمثل كل الديانات الأخرى، بل وأكثر من أي دين آخر كان رائجاً في ذلك الوقت، كانت المسيحية تخاطب هذين الشوقين المتجذرين في الطبيعة البشرية. فقد خاطبت من ناحية العواطف والمشاعر غير الأنانية للبشرية من خلال الوعد بإعادة الارتباط الجسدي والشخصي والسريع للمؤمن الحي بأقاربه وأصدقائه الموتى. كما خاطبت من ناحية أخرى الرغبات والرغبات الأنانية لكل إنسان، من خلال تقديم الأمل الأكيد والواضح في القيامة المجيدة لكل إنسان. مثل كل العقائد الأخرى، ولكن فوق كل العقائد الأخرى، كان دين الخلود، دين إحياء الموتى، دين العالم الجديد: في عصر الشك، والشكوكية، وتدهور الإيمان، أعطى حياة جديدة وأساسًا جديدًا تمامًا للمعتقدات القديمة - ربما الأوهام القديمة - للطبيعة الدينية.

لقد كانت النتيجة الحتمية للاضطرابات والاختلاطات العالمية بين الآلهة في كل مكان خلال الأيام الأولى للإمبراطورية الرومانية هي ظهور قدر معين من الشكوكية العائمة حول الآلهة ككل، والتي بلغت ذروتها في الفكاهة الساخرة التي اتسم بها لوسيان، أو في وقت سابق في الإلحاد الأبيقوري الذي تبناه لوكريتيوس والفلسفة الرومانية بشكل عام. ولكن في حين كانت هذه الشكوكية الناشئة حقيقية للغاية ومنتشرة على نطاق واسع، فقد أثرت على المعتقدات الحالية فيما يتصل بشخصية وتاريخ الآلهة المختلفة أكثر من تأثيرها على المفهوم الأساسي للألوهية في المجرد. وحتى أولئك الذين ضحكوا وأولئك الذين لم يؤمنوا، كانوا يحتفظون في أعماقهم بالعديد من الخرافات والأفكار الخارقة للطبيعة. ولم يكن تشككهم يرجع، كما هو الحال في عصرنا، إلى النقد الأساسي لمفهوم الخارق للطبيعة ذاته، بل يرجع إلى عدم كفاية الآلهة القائمة لتلبية متطلبات أهل العالم المتعلمين. فقد كانت آلهة ذلك العصر فظة للغاية، وطفولية للغاية، وفظة للغاية بالنسبة لعابديها. إن الموقف الفلسفي

المشترك لروما المثقفة والإسكندرية المثقفة يمكن مقارنته إلى حد ما بموقف أتباع الوحدويين لدينا، الذين ليسوا معادين في الواقع لمفهوم اللاهوت في طبيعته الخاصة، ولكنهم يعارضون الجزء الأكثر إعجازًا وخارقًا للطبيعة من العقيدة الشعبية.

ولكن مع الجماهير، كان الاضطراب الديني يظهر في المقام الأول، كما يظهر دائمًا في مثل هذه اللحظات الحرجة، في العادة العامة المتمثلة في الركض وراء ديانات جديدة وغريبة، يأمل الباحث المتلهف أن يحصل منها على إجابة إلهية لشكوكه وصعوباته. فعندما تتلاشى الديانات القديمة، يكون هناك مجال لأديان جديدة. وكما كان من المتوقع، فقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح في المدن التجارية العالمية الكبرى، حيث كان رجال من العديد من الأمم يلتقون معًا، وحيث كانت الطوائف الغريبة من مختلف الأنواع لها معابدها وأتباعها. وكان هذا هو الحال بشكل خاص في روما والإسكندرية وأنطاكية، عواصم العوالم الرومانية واليونانية والسامية على التوالي. وفي العاصمة اليونانية المصرية، نمت عبادة سيرابيس، وهو إله مركب من أصل هجين، تدريجيًا إلى العبادة الرئيسية للمدينة المزدحمة. وفي أنطاكية، كانت الآلهة اليونانية تطرد البعليم. وفي روما، كانت عبادة إيزيس ويهوه والآلهة السورية وغيرها من الآلهة الشرقية البعيدة مستمرة من قِبَل عدد متزايد من السكان الأجانب والسكان الأصليين والعبيد. وكانت هذه هي الأماكن التي انتشرت فيها المسيحية. وكان رجال القرى منذ فترة طويلة "وثنيين"، كما يطلق عليها العالم بشكل غريب.

ولقد كانت الطوائف الثلاثمائة والأربع والتسعون الغريبة التي توحدت على هذا النحو في سحق الآلهة المحلية والقومية القديمة في مختلف أنحاء العالم الروماني، تشترك في أغلبها في خاصيتين بارزتين: الأولى أنها كانت صوفية إلى حد ما، والثانية أنها كانت تميل إلى التوحيد إلى حد ما. ولقد كانت الأسطورة الشمسية، والمزج بين المعتقدات، والتأويلات الكهنوتية الباطنية، والانتشار العام للمفاهيم الفلسفية اليونانية، الممزوجة بأفكار شرقية وزرادشتية أكثر دقة، سبباً في نشوء ونمو العنصر

الصوفي: في حين كانت حركة توحيدية غامضة واضحة منذ فترة طويلة في الفكر الأعلى في مصر واليونان وإيطاليا والشرق. وفي ظل الصراع والاختلاط الناتج عن ذلك، كانت اليهودية، باعتبارها واحدة من أكثر الأديان صوفية وتوحيدية، لتحظى بفرصة طيبة لتصبح ديانة العالم، لولا الثقل المميت الذي تفرضه عليها طبيعتها القومية الصارمة العنيدة. وعلى الرغم من ذلك، كانت المجتمعات اليهودية منتشرة في جميع المدن التجارية في العالم اليوناني الروماني؛ وكانت المستعمرة اليهودية تؤثر بشدة على الإسكندرية؛ وكان المعلمون اليهود يصنعون المهتدين في روما في حضن الأسرة الإمبراطورية.

ولابد أن يكون هذا الاضطراب الذي حدث على ضفاف نهر العاصي والنيل والتيبر قد امتد أيضاً بدرجة أقل إلى كل الموانئ البحرية والمدن التجارية في الإمبراطورية العسكرية العظيمة المتنوعة. وما كان صحيحاً في روما والإسكندرية وأنطاكية كان صحيحاً جزئياً، كما لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نعتقد، في دمشق وبيزنطة وسينوب وأفسس؛ ورودس وقورينا وأثينا وقرطاج؛ وربما حتى في ماسيليا وقادس وبورديجالا ولوجدونوم. وفي كل أنحاء شرق البحر الأبيض المتوسط على الأقل كانت ديانات جديدة تغلي، وأفكار جديدة تختمر، وصوفيات جديدة تتطور، وخرافات جديدة تنشأ، مثل طائر الفينيق، من الجمر المحتضر للعقائد المتحللة. بصرف النظر عن العبادات الغريبة أو الهجينة، مثل عبادة سيرابيس في الإسكندرية وإيزيس في روما، أو المحاولات الفاشلة مثل عبادة أنتينوس القصيرة العمر في مصر، 395 يمكننا القول إن ثلاثة من هذه الديانات الجديدة جذبت بقوة رغبات ومتطلبات ذلك الوقت: وهذه الديانات الثلاثة هي الميثراية، والغنوصية، والمسيحية.

كان هؤلاء الثلاثة جميعهم من أتباع المذهب الصوفي، ولو أنهم استخدموا رموز ميثرا أو أبراكساس بدلاً من اسم المسيح، لكان من الممكن أن يعبد العالم المتحضر بأسره الآن الإله الصوفي لتجسيداته الثلاثمائة والخمسة والستين، بنفس الجدية التي

يعبد بها الإله العبري القديم يهوه. ومع ذلك، كانت هناك مزايا حقيقية لصالح المسيح، مما جعل قسطنطين يختار دينه بحكمة. فقد كانت العبادة المسيحية تتكيف تماماً مع العصر، وأثبتت خلال القرنين الماضيين قدرتها على إشراك أعمق اهتمامات ومشاعر الطبيعة الدينية.

إننا لابد وأن نتذكر أيضاً أنه في كل الأزمات الدينية، بينما يتراجع الإيمان بالآلهة والمعتقدات الحقيقية بسرعة، فإن المشاعر الأساسية التي تستند إليها كل الأديان في نهاية المطاف لا تضعف بالقدر نفسه في مقابل ذلك. ومن هنا تأتي المفارقة الواضحة في أن فترات الشك تكون في أغلب الأحيان فترات من السذاجة الشديدة. فالعقل البشري، بعد أن تحرر من القيود التي طالما كانت كافية له، ينجرف بلا كلل في بحثه عن ملاذ جديد قد يلجأ إليه من أهوال عدم اليقين والكفر. وإيمانه الجديد ليس إلا شكلاً جديداً من الإيمان القديم. إن الإله أو الآلهة، والصلاة، والتسبيح، والأسرار المقدسة، كلها عناصر أساسية. وعلى نحو أكثر تحديداً، عندما تبدأ الثقة في الآلهة العظيمة في الانهيار، فإن البحث الأعمى عن السحر الأسود، والروحانية، وعلوم الأشباح بشكل عام يحل محلها في الوقت الحالي. ولقد رأينا هذا الاتجاه يتجسد بشكل كامل في عصرنا هذا لدى الروحانيين وغيرهم: ولم يكن أقل وضوحاً في عاصفة الأفكار المتضاربة التي اجتاحت العالم الروماني منذ عصر الأنطونيين حتى سقوط الإمبراطورية. والحقيقة أن الرجل العادي لا يهتم كثيراً بآلهته وإلهاته، باعتبارهم أفراداً. فهم ليسوا أكثر من متنفس لمشاعره الخاصة. فهو يستعين بهم طلباً للمساعدة، طالما ظل يؤمن بقدرتهم على المساعدة: فهو مستعد لإقناعهم بقرابين الدم أو إطرائهم بالثناء والصلاة، طالما كان يتوقع الحصول على بعض المنافع الحالية أو المستقبلية، جسدية أو روحية، في مقابل إعجابه الدائم بهم. ولكن بمجرد أن يبدأ إيمانه بوجودهم وقوتهم في الانهيار، فإنه يتسامح مع فقدان ألوهيتهم، بقدر ما يتعلق الأمر بهم أنفسهم، دون أي شعور بخيبة الأمل أو الإزعاج. إن ما يمسه في الدين شيء مختلف تماماً: إنه آماله في خيره الأبدي، وخير الذين يحبونه بعد الموت.

ومن ثم فإن تراجع الإيمان بالآلهة العظيمة يتبعه على الفور عودة إلى أكثر العناصر وحشية وأصالة في الدين . عبادة الأشباح أو الأرواح، والسحر، والعبادة المباشرة للموتى أو الاتصال بالموتى: وهي عادة تتلخص في البحث عن الفرص الإيجابية لخلود الإنسان. وهذه الروح السحرية واضحة في بقايا الغنوصيين، وفي الأدب السحري المجزأ للعالم اليوناني الروماني المنحط. وهذا هو نفس الاتجاه على وجه التحديد الذي أنتج الروحانية في عصرنا: ويرجع هذا إلى الرغبة في إيجاد أساس جديد وتجريبي للاعتقاد البشري الشائع في خلود الروح أو بعث الجسد.

وهنا نصل إلى مفتاح التغيير الخطير الذي أحدثته المسيحية في الشعور الديني في العالم الغربي: وهو التغيير الذي لم يتم حتى الآن إدراك أهميته وطبيعته الرجعية بالكامل، على حد اعتقادي. ذلك أن المسيحية، في حين أنها من وجهة نظر واحدة، باعتبارها ديناً توحيدياً أو شبه توحيدي، تمثل تقدماً هائلاً على الوثنية الجمالية في اليونان وإيطاليا، فإنها من وجهة نظر أخرى، باعتبارها ديناً يقوم على البعث وليس الخلود، تشكل خطوة إلى الوراء بالنسبة لأوروبا الغربية كلها.

ولكن حتى بين اليهود أنفسهم، لا بد وأن الطائفة الجديدة جاءت بكل قوة "مساعدة الإيمان" في جيل متشكك. وفي الخارج، بين اليهود الهلينيين، لا بد وأن الفلسفة اليونانية قد قوضت قدراً كبيراً من الحماسة المتعصبة والوطنية ليهوه التي ازدادت قوة وقوة في يهودا نفسها خلال أيام المكابيين والأمراء الأشمونيين. وكانت قصاصات من النظريات الأفلاطونية الغامضة حول طبيعة الإله تحل بين هؤلاء المنفيين محل الاعتقاد العقائدي القديم الراسخ في صخرة إسرائيل. وفي الداخل، كانت الميول الهلينية لبيت هيرودس، وأهمية الصدوقيين في القدس "الذين يقولون إنه لا قيامة"، تضرب جذور الأمل والإيمان اللذين كان اليهود المتدينون يعتزون بهما بحنان شديد. وبدلاً من أن تعمل إسرائيل على تحويل العالم، بدا العالم على الأرجح أنه من المرجح أن يحول إسرائيل. إن يهوذا، التي غرقت في الإمبراطورية العظيمة التي استوعبت

واستوعبت، ربما تحذو حذو أفرايم. وبهذا قد ينهار عمل إسرائيل في العالم، أو بالأحرى يتعطل إلى الأبد.

في تلك اللحظة بالذات، حين كانت كل الديانات تترنح بشكل واضح نحو السقوط، ربما أصاب مجموعة صغيرة من فلاحي الجليل المجهولين، الذين ربما كانوا قد تبعوا متحمسًا محليًا متوحشًا من تلالهم الأصلية إلى القدس المضطربة، وهم لا يعتبرون هذا الوهم غير طبيعي ولا غير معتاد في ظل ظروفهم الخاصة؛ ولكنه مع ذلك كان كافيًا لتغيير أو على الأقل تعديل المسار اللاحق لتاريخ العالم بالكامل. إذا جاز لنا أن نثق في التقليد العالمي للطائفة، كما هو منصوص عليه بعد فترة طويلة في أناجيلهم الأسطورية، فقد صُلب زعيمهم في القدس في عهد القيصر البنطي بيلاطس. وإذا كانت هناك أي حقيقة على الأرض عن يسوع صحيحة، إلى جانب حقيقة إقامته في الناصرة، فهي حقيقة الصلب هذه، التي تستمد مصداقيتها من ارتباطها الوثيق دائمًا باسم ذلك المسؤول الروماني المعين. ولكن بعد ثلاثة أيام، كما تقول الأسطورة، لم يكن من الممكن العثور على جسد يسوع في القبر الذي وضعه أصدقاؤه: وانتشرت شائعة تدريجيًا مفادها أنه قام من بين الأموات، وشوهدت في الخارج من قبل النساء اللواتي كن يبكين عليه ومن قبل العديد من تلاميذه. باختصار، ما كان يُعتقد عالميًا بشأن جميع الآلهة البشرية الأخرى والأقدم، تم تأكيده بشكل خاص من جديد في حالة أحدث حول الرجل المسيح يسوع. كانت الفكرة مناسبة لاحتياجات العصر، وأصبحت عقيدة قيامة يسوع المسيح حجر الزاوية للدين المسيحي الوليد.

لا يوجد شيء أوضح من الحقيقة التي أقرها الجميع، وهي أن هذا الحدث شكل النقطة المركزية في تبشير الرسل. لقد كانت قيامة يسوع، التي اعتبرت بمثابة عربون للقيامة العامة لجميع أتباعه، هي التي أصروا عليها بشدة في كلماتهم وكتاباتهم. لقد كانت القيامة هي التي حولت عالم أوروبا الغربية إلى المسيحية. قال المسيحيون

الأوائل لإخوانهم الوثنيين: "إن إيمانكم يضعف: آلهتكم نصف ميتة؛ أفكاركم عن مستقبلكم، والحالة الحالية لأصدقائكم الراحلين، غامضة وغامضة للغاية. في معارضة لكل هذا، نقدم لكم رجاءً أكيدًا وواضحًا؛ نروي لكم قصة من الحياة الحقيقية، وحديثة؛ نكرز بإله من النمط المألوف، ولكنه قريب جدًا منكم؛ نقدم لكم عينة من القيامة الفعلية. نبشركم بأن يسوع هو المسيح، وأنه مصلوب: لليهود، حجر عثرة، ولليونانيين، حماقة؛ "ولكن بالنسبة لأولئك الذين خلصوا، فهذا دليل واضح على قوة إله إسرائيل. اقبلوا كلمتنا: دع موتاكم ينامون في المسيح في سراديبنا، كما ناموا ذات يوم في أوزوريس في أبيدوس، أو استراحوا على ذلك الذي يستريح في فيلة". يقول أحد أقدم الكتاب المسيحيين في خطاب عاطفي: "إذا لم يكن المسيح قد قام، فإن تبشيرنا باطل، وإيمانكم باطل أيضًا: ولكن كما هو الحال، فإن المسيح قام من بين الأموات، وأصبح باكورة الراقدين". "وإلا فماذا يفعلون"، يواصل، ملامسًا الرغبة البشرية المتأصلة في الشركة مع الراحلين، "ماذا يفعلون الذين يعتمدون من أجل الأموات، إذا كان الأموات لا يقومون على الإطلاق؟ لماذا يعتمدون من أجل الأموات؟" هذه، باختصار، وبصرف النظر عن العناصر المشتركة بين جميع العقائد، هي المحركات الثلاثة الكبرى للمسيحية البدائية: الأول عقائدي، وهو قيامة يسوع؛ والثاني أناني، وهو خلاص الروح الفردية؛ والثالث إيثاري، وهو الرغبة في لم شمل المرء مع الموتى بين أحبائه.

ولقد كان من السهل على أهل سوريا ومصر أن يقبلوا العقيدة الجديدة. فلم تكن هذه العقيدة تتطلب منهم تغييراً جدياً في الجبهة، ولم تكن تعني لهم انحرافاً كبيراً عن الأفكار والطقوس التي شكلت دوماً مفهومهم الشامل للوجود الإنساني. فهناك صورة لقيامة أوزوريس في المعبد الصغير على سطح دندرة، والتي قد تبدو وكأنها صورة مسيحية لقيامة المسيح. أما أهل سوريا ومصر فإن القيامة لم تكن في واقع الأمر سوى مثال حديث خاص لحقيقة معروفة جيداً؛ وأساس جديد من الأدلة التي يمكنهم أن يبنوا عليها بثبات الصرح المتهاوي لمعتقداتهم القديمة. وباختصار، كانت

المسيحية في بداياتها ديناً شرقياً في الأساس؛ وانتشرت بسرعة أكبر في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي، حيث كانت اليهودية راسخة بالفعل: وفي روما يبدو أنها اجتذبت السكان الشرقيين في المقام الأول. ومن الحقائق المهمة أن تبني المسيحية رسمياً كدين عام للدولة الرومانية كان من عمل نفس الأمير الذي نقل عمداً مقر حكومته من نهر التيبر إلى مضيق البوسفور، وحول إلى حد كبير طابع الإمبراطورية من النمط اللاتيني إلى النمط اليوناني الآسيوي. وكانت كل الديانات الجديدة التي ناضلت معاً من أجل السيطرة على العالم ذات أصول شرقية: ولم يكن انتصار المسيحية سوى حلقة واحدة في الانتصار العام للاستشراق العدواني على العنصر الغربي في النظام الروماني.

إن مصر على وجه الخصوص، على ما أعتقد، كانت لها علاقة أكبر بكثير بالتشكيل العقائدي للمسيحية المبكرة، واستقرار الرمزية المسيحية والتصوف المسيحي، مما يعترف به عمومًا المؤرخون الرسميون للكنيسة البدائية. هناك، حيث كانت فكرة القيامة عالمية بالفعل، وحيث كان كل إنسان يرغب في "التبرير بأوزوريس"، سرعان ما حققت المسيحية غزوًا سهلاً لشعب لم تؤثر المسيحية على إيمانه إلا قليلاً. وقد تركت مصر تأثيرها محسوسًا بسهولة على العقيدة الشابة المرنة. ومن المسلم به أن عقيدة الثالوث قد تشكلت بين عبدة الثالوث على ضفاف النيل، وأن عقيدة الكلمة الأقل أهمية كانت مستعارة من فلسفة يهود الإسكندرية. لا يستطيع أحد أن ينظر إلى تماثيل إيزيس وحورس الطفل في أي متحف مصري دون أن يذهل على الفور من النذير الواضح للسيدة العذراء والطفل القبطية والبيزنطية. اللغز الذي نشأ حول العقائد الجديدة؛ إن كل هذه الرموز هي مصرية في طبيعتها، مع لمسة خفيفة من الهيلينية اليهودية الإسكندرانية. إن حب الرموز الذي تظهره الكنيسة الشابة في وقت مبكر في سراديب الموتى وأماكن أخرى يذكرنا بذكريات بطليموس عن طيبة وممفيس. إن شكل مومياء لعازر؛ والسمكة التي تشكل رمزًا أبجديًا ذكيًا لاسم وألقاب يسوع؛ والحمامة التي ترمز إلى الروح القدس؛ والأنماط الحيوانية للإنجيليين

الأربعة ـ كل هذه الرموز هي في جزء كبير منها أصداء مصرية، تتردد في نفس الروح التي أنتجت الهيروغليفية ورمزية المعابد النيلية العظيمة. وفي الوقت نفسه، يجب أن نتذكر أن الأسماك المقدسة كانت شائعة في سوريا، وأننا واجهنا في كل منعطف، في تحقيقاتنا السابقة، تعريفات مماثلة للآلهة بالحيوانات.

إن التفاصيل الدقيقة للرمزية المسيحية تعود في كثير من الأحيان إلى النماذج المصرية القديمة. فالرمز المسيحي المركزي، الصليب، مقدس في كل أنحاء العالم: إنه الشجرة المقدسة: وقد تكيف كل عرق مع أفكاره ورموزه المسبقة. ولكن في المسيحية القبطية، هناك تشابه واضح بين الصليب والرمز. ففي الغرفة القبطية في المتحف الجديد بالجيزة يوجد نصب تذكاري مسيحي قديم يحمل نقشاً بالخط اليوناني الأعظم، ويمثل عليه صليب ذو أربعة أطراف متساوية ذات حواف ممتدة، وقد أدخل الصليب في كل فجواته الأربعة. وفي كنيسة أبو سرجة القبطية في القاهرة القديمة يوجد صليب مماثل، مع إشارات إلى أصل يشبه تاو، ولكن مع استبدال صلبان أخرى متساوية الأطراف بالصليب في الزوايا. * ويمكننا أن نستنتج إلى أي مدى نقل المسيحيون المصريون أفكارهم القديمة إلى الإيمان الجديد من خلال مثال واحد غريب. إن مجموعة السيد لوفتي من الخنافس المقدسة تحتوي على جعران يحمل صورة للصلب، مع سعفين من النخيل؛ كما تحتوي جعران أخرى على صلبان مسيحية، ويقول السيد لوفتي: "إن بعضها لا لبس فيه". وإذا تذكرنا مدى قدسية الجعران في الديانة المصرية، وأنه كان يُنظَر إليه باعتباره رمزاً للقيامة، فلا يمكننا أن نغفل عن أهمية هذا التلميح. والواقع أن الأب الإسكندري، إبيفانيوس، يتحدث عن المسيح باعتباره "جعران الله"، وهي العبارة التي قد نفهمها بشكل أفضل إذا أضفت أنه في الأطروحة عن الهيروغليفية المعروفة باسم هورابولو، قيل إن الجعران يشير إلى "الابن الوحيد". وعلى هذا فإن "حمل الله" في لسان إسرائيل يصبح "جعران الله" في فم متحدث مصري. باختصار، أعتقد أنه يمكننا أن نقول بمعنى مختلف تمامًا عما قصده أي من النبيين أو المبشرين، يمكن القول: “من

مصر دعوت ابني". عمل الكونت جوبليت دالفيللا المثير للاهتمام حول هجرة الرموز يوضح هذا المزج المشترك وقابلية تبادل العلامات الرمزية، والتي تمتد بالتوازي مع التوفيق بين الآلهة والأديان.

في الغرب، كانت نتائج انتشار المسيحية أكثر ثورية. لا أعتقد أن عبادة المسيح كان من الممكن أن تنتشر في روما لولا العدد الكبير من السوريين والأفارقة الذين سكنوا المدينة في العصور اللاحقة. ولو لم تنتشر المسيحية في روما، لما كان من الممكن لها أن تكتسب موطئ قدم في العالم الآري. فهي في الأساس ليست ديانة آرية من حيث اللهجة والشعور. أصبحت المسيحية ممكنة بين الشعوب الآرية فقط بعد أن خضعت لتغيير كبير في الروح، وإن لم يكن في الشكل، خلال تقدمها نحو الغرب. هذا التغيير يتضح من خلال الانشقاق الكبير الأول الذي فصل اللاتينية عن الشركة اليونانية.

كان من أبرز التغيرات التي طرأت على المسيحية في إيطاليا وبقية أوروبا الغربية التحول الرجعي من الاعتقاد في الخلود وعدم مادية الروح، مع حرق الجثث كنتيجة عملية لذلك، إلى الاعتقاد في قيامة الجسد، مع العودة إلى ممارسة الدفن التي لم تعد مستخدمة ومُسيئة السمعة باعتبارها الممارسة الطبيعية المرتبطة بها. وكانت المقابر هي النتيجة الضرورية لهذه الحركة إلى الوراء؛ ومع المقابر جاءت إمكانية عبادة الآثار المقدسة، وعبادة الشهداء، وعبادة القديسين وجثثهم. وسوف أتتبع في الفصل التالي الآثار البعيدة لهذا الإحياء الغريب للعنصر الأساسي في الدين ـ عبادة الموتى ـ بمزيد من التفصيل: ويكفي هنا أن أشير بإيجاز إلى أن هذا الإحياء كان نتيجة منطقية للإيمان بقيامة المسيح، وما تلا ذلك من استعادة ممارسة الدفن. إن هذه العادة كانت بمثابة فرصة عملية لعبادة العديد من الآلهة في خضم التوحيد الاسمي، وهو التوحيد الذي لم يتردد الإيطاليون وغيرهم من الشعوب المتعددة الآلهة في استغلاله. وهنا أيضاً نجد الفارق بين الشرق الأكثر توحيداً وتوفيقاً، والذي يحظر

استخدام الصور المنحوتة، والغرب الأكثر تعدداً للآلهة وانفصالاً، والذي يسمح بحرية استخدام النحت، كبيراً إلى حد كبير. صحيح أن العبادة التي تُؤدى للقديسين والشهداء لا تُعَد من الناحية النظرية عبادة حقيقية: ولكنني لا أحتاج إلى أن أقول إن مثل هذه التمييزات الفنية لا تشكل سوى جزء من اللاهوت الاصطناعي للكهنوت المدرسي، وقد يتجاهلها الباحث الأنثروبولوجي الواسع النطاق بكل أمان كما قد يتجاهلها كل البراهمة وعلماء الدين الميتافيزيقيين في كل مكان. إن الحقائق الحقيقية للدين هي الحقائق والطقوس التي تطقوس العبادة الشعبية، والتي تظل في كل عرق لفترات طويلة متماثلة في جوهرها.

وهكذا نجد في وقت مبكر شكلين رئيسيين للمسيحية، رسميين وشعبيين: أحدهما شرقي ـ يوناني، قبطي، سوري؛ وهو أكثر صوفية في نمطه، وأكثر رمزية، وأكثر فلسفية، وأكثر توحيدية؛ والآخر غربي ـ لاتيني، سلتي، إسباني؛ وهو أكثر آرية في نمطه، وأكثر عملية، وأكثر مادية، وأكثر تعدد آلهة. وفي وقت لاحق تعززت هذه الأشكال بشكل ثالث أو شمالي ـ التيوتوني والبروتستانتي؛ حيث تسود الأفكار الأخلاقية على الأفكار الدينية، وتحل عبادة الكتاب المقدس في تفسيره الحرفي والحمق في كثير من الأحيان محل عبادة السيدة العذراء والقديسين والصور والتماثيل والرموز.

في عام 404 - الفترة التي بدأت فيها المسيحية في الظهور لأول مرة من الغموض البدائي لنشأتها - نجدها تتكون عمليًا من العناصر التالية - والتي تمثل الاتحاد المشترك بين إله أصغر سناً يقدم إلى إله أكبر سناً يتماهى معه.

أولاً وقبل كل شيء، هناك اليهودية الحالية، باعتبارها الأساس الضمني الذي تم التسليم به في جميع الكتب المقدسة العبرية المبكرة، في الشكل الذي اتخذته اليهودية تدريجياً في القرون الرابع والثالث والثاني قبل العصر المسيحي. وهذا يشمل مبدأها الرئيسي عبادة الإله الواحد يهوه، الذي لم يعد يُنظَر إليه الآن على نطاق واسع تحت هذا الاسم الشخصي، أو باعتباره إلهاً عرقياً بحتاً، بل يُنظَر إليه باعتباره الرب

الإله الذي يسكن السماء، تماماً كما يتصوره المسيحيون اليوم. ويشمل هذا أيضاً تياراً خفياً من الإيمان بتسلسل هرمي سماوي من الملائكة ورؤساء الملائكة، وبلاط الرب (تعديلات على مفهوم فلكي سابق، جيش السماء)، ومبدأ الشر، الشيطان أو إبليس، الذي يسكن الجحيم، ويحيط به على نحو مماثل حشد من الشياطين الصغار أو المساعدين. وعلاوة على ذلك، فإنها تقبل ضمناً من اليهودية السابقة إحياء الموتى، وحكم الأخيار والأشرار، وعقيدة المكافآت والعقوبات في المستقبل (ربما كانت في شكلها الكامل استيراداً يونانياً من مصر، وإن كانت شائعة أيضاً في معظم الديانات العفوية)، والعديد من المبادئ الأخرى للعقيدة اليهودية الحالية. باختصار، لم يحاول المسيحيون الأوائل، الذين ربما كانوا في الغالب من اليهود والجليليين والمهتدين، أو السوريين والأفارقة ذوي الميول اليهودية، التخلص من كل آرائهم الدينية المسبقة عندما أصبحوا مسيحيين، بل أضافوا إليها ببساطة عبادة خاصة بيسوع المؤله.

ومن ناحية أخرى، ومع انتشار الإنجيل بين الأمم، لم يكن من الضروري أن تثقل كاهل المهتدين الجدد بكل طقوس اليهودية الدقيقة، وخاصة طقوس الختان التي تعتبر من أصعب الطقوس وأكثرها إزعاجاً. وكان كل ما كان مطلوباً من المهتدين الجدد إلى الإيمان هو مجرد تطهير رمزي، يُعرف بالمعمودية، مع الامتناع عن أي مشاركة في الذبائح أو الوظائف "الوثنية". وإلى هذا الحد، كان من المسموح به أن تؤكد عبادة يهوه، أو عبادة الإله الغيور، نفسها. وكان من المقبول بشكل أو بآخر أن تكون السلطة العامة للكتابات العبرية، وخاصة باعتبارها رواية تاريخية لتطور اليهودية، التي نشأت منها المسيحية، مقبولة بشكل كامل أو جزئي، في البداية من خلال الاستدلال أو الاقتباس فقط، ولكن بعد ذلك من خلال الصوت المتعمد والمعلن من قبل الجمعية المسيحية بأكملها. إن ترجمة هذه الكتلة المختلطة من الوثائق التاريخية، ونشأة الكون المبكرة، والتقاليد اليهودية التي تم الإبلاغ عنها بشكل سيئ والتي تصورها يهوه، والقصائد المفسرة بشكل خاطئ، والتزويرات المتعمدة، إلى النسخة اللاتينية المعروفة باسم فولجاتا، كان لها تأثير منح أوروبا

لعدة قرون بجسم زائف من التاريخ القديم، والذي لابد أنه أعاق إلى حد كبير تطور الجنس البشري حتى وقتنا هذا، والذي لم تختف آثاره الشريرة بعد بين الطبقات الأكثر جهلاً ومحافظةً من محبي الكتب في المجتمع الحديث.

ولقد أضيف إلى هذه الركيزة الأساسية لليهودية الحالية عبادة يهوه، وعبادة ذلك الفلاح الجليلي الميت. وقد أضيف هذا العنصر إلى عبادة الآب، الإله العظيم الذي تطور ببطء وبشكل غير محسوس من الحجر المقدس الذي كان يُعتقد أن أبناء إسرائيل أحضروه معهم من أرض مصر. ولكن كيف يمكن التوفيق بين هاتين العبارتين المختلفتين أو تفسيرهما في دين يتظاهر بالتوحيد؟ إن هذا كان ممكناً من خلال العقيدة المألوفة المتعلقة بالتجسد، والإيمان بالإله البشري الذي يُضحى به، نفسه لنفسه، كقربان تافه. ولقد كان التقليد اليهودي والتصوف المصري الأكثر دقة كافيين لإخفاء هذا الشذوذ الواضح. لقد كان اليهود يتطلعون إلى مخلص غامض، موسى جديد، المسيا، الذي كان من المقرر أن يحقق مصير إسرائيل بتوحيد كل الأمم تحت صولجان داود، وبإخضاع الأمم إلى قدمي إله إسرائيل. لقد قال المسيحيون إن يسوع قد أعلن نفسه ذلك المسيا، مسيح الله؛ ولقد أشار مراراً وتكراراً إلى الإله العبري العظيم باعتباره والده؛ ولقد ادعى أنه يعبد رب السماء. ولعل الاستخبارات اليهودية غير المدعومة كانت لتذهب إلى أبعد من هذا: فقد كانت لتكتفي بإسناد مكانة ثانوية للإله الإنسان المقتول يسوع، باعتباره الابن الوحيد لله، الذي سلم نفسه طوعاً كضحية. وهو المكانة التي ربما لا تزيد كثيراً عن المكانة التي يشغلها محمد في نظام الإسلام. ويبدو لي أن هذا هو المفهوم الذي يتخلل الأناجيل الإزائية، والتي تمثل أفكار المسيحية السورية. ولكن هنا جاء العقل اليوناني المصري الحاد بتمييزاته اللطيفة وهوياته الصوفية. كان هناك إله واحد فقط، في الواقع؛ ومع ذلك كان هذا الإله ثنائيًا على الأقل (لن أتعمق في هذا الأمر الآن). كان له شخصان، الآب والابن: وكان الشخص الثاني، الذي تم تحديده وفقًا للمفهوم السكندري للوغوس، على الرغم من أنه أدنى من الآب فيما يتعلق بإنسانيته، مساوٍ للآب فيما

يتعلق بألوهيته. وفقًا للأسلوب الدقيق الذي رأيناه شائعًا جدًا في وصف العلاقة بين أوزوريس وحورس، وتحديد ضحية أتيس أو أدونيس بالإله الأقدم والأقدم الذي مثله. يقول المسيح في الإنجيل الرابع، تجسيد وتجسد للوغوس السكندري: "أنا وأبي واحد". وفي مقدمة هذا البيان للمسيحية الأفلاطونية الجديدة يأتي التأكيد العقائدي: "في البدء كان اللوجوس: واللوجوس سكن مع الله: واللوجوس كان الله".

ولكن الأساس الذي تقوم عليه العقيدة الجديدة ما زال غير مكتمل. فالآب والابن يعطيان الإله المركب بالكامل كما أدركه العقل الشعبي في كل مكان وفي كل زمان. ولكن الذكاء المدرسي واللاهوتي كان في احتياج إلى شخص ثالث لإكمال الثالوث الذي يعتبره البشر أجمعون، وخاصة الشرقيون، الشكل الوحيد الكامل والمتكامل. ولا شك أن السيدة العذراء كانت لتختار في الأيام اللاحقة لملء الفراغ، ولكانت قد ملأت الفراغ على نحو أكثر كفاءة، على غرار إيزيس. والواقع أن السيدة العذراء في العقيدة المسيحية كما يعرفها الكاثوليك تعتبر واحدة من أهم الشخصيات. ولكن في تلك الأزمنة التكوينية المبكرة لم تكن عبادة والدة الإله قد اكتسبت أهميتها الكاملة بعد: ولعل المؤمنين اليهود كانوا ليصابوا بالصدمة من مجرد فكرة عبادة امرأة، أو إعادة قبول عشتار، ملكة السماء، في عقيدة إسرائيل. ولقد كان لزاماً علينا أن نبحث عن موضوع آخر للعبادة. وقد اكتشفنا هذا الموضوع في ذلك الجوهر الغامض، الروح القدس، أو الحكمة الإلهية، التي كان تطورها التدريجي وانفصالها عن الله نفسه واحداً من أكثر الفصول غرابة في تاريخ صنع الآلهة الاصطناعية. فقد ورد ذكر "روح يهوه" مراراً وتكراراً في الكتابات العبرية؛ ومع وجود إله غير مرئي وغير قابل للاقتراب مثل الإله اليهودي، فقد كان من المعتاد أن يقوم بواجبه كرسول أو وسيط حيث كان من الممكن أن يشعر المرء بأن الوجود الشخصي ليهوه نفسه يتعارض مع الضرورات الأولى للألوهية غير الجسدية. لقد كانت "روح يهوه" هي التي حلت على الأنبياء: وكانت "حكمة يهوه" هي التي وصفها الشعراء، والتي نمت في النهاية حتى أصبحت منفصلة عن شخصية الله، وتمت الإشارة إليها وكأنها فرد حي تقريباً.

في الكنيسة الأولى، كان من المفترض أن يُسكب "روح الله" هذا، "الروح القدس"، على رؤوس المؤمنين: فقد نزل على يسوع نفسه في هيئة حمامة مرئية من السماء، وعلى التلاميذ في عيد العنصرة في هيئة ألسنة من نار. وبالتدريج، اكتسب مفهوم الروح القدس الشخصي شكلاً ووضوحاً: فقد أصر راهب إسكندري على ضرورة وجود ثالوث من الآلهة الذين كانوا في الوقت نفسه إلهاً واحداً: وبحلول الوقت الذي تم فيه تدوين العقائد الأولى للكنيسة الناشئة، كان الروح القدس قد أصبح في مرتبة مع الآب والابن باعتباره الشخص الثالث في الثالوث الأقدس المبارك إلى الأبد.

وبحلول عام 408، كان من الواضح أن طبيعة يسوع الأصلية اندمجت في فكرة ألوهيته الأبدية؛ فقد كان يُنظَر إليه باعتباره الكلمة، الذي نزل من السماء، حيث كان موجودًا قبل كل العوالم، وتجسد بواسطة الروح القدس في مريم العذراء. وتجمعت العناصر الأخرى للإيمان المسيحي تدريجيًا حول هذه العناصر الأساسية: اكتسبت الأسطورة قوة؛ وتزايدت التصوف؛ وتزايدت أعداد الكائنات الإلهية الثانوية أو القديسين بشكل كبير؛ واختفى عنصر اليهودية تدريجيًا، بينما ترسخت تعدد الآلهة الجديد والكهنوت الجديد بسرعة في العالم الآري. "ولكنني سأحاول في فصولي الختامية أن أظهر كيف أن عبادة الموتى حتى النهاية لا تزال القوة المركزية في المسيحية الحديثة: وكيف أن الدين، أياً كان شكله، لا يمكنه أبداً أن يبتعد عن هذه الحقيقة الأساسية: وكيف أنه كلما أصبحت الآلهة، بقوة الظروف، بعيدة جداً عن الحياة البشرية، بحيث أصبح مبدأ القيامة أو الخلود الشخصي معرضاً للخطر لبعض الوقت، وأصبح لم الشمل مع العلاقات في العالم الآخر مشكوكاً فيه أو غير آمن، فمن المؤكد أن يحدث رد فعل يعيد الأمور مرة أخرى إلى هذه المفاهيم الأساسية، العنصر الأكثر ثباتاً وتكراراً في كل تفكير ديني.

الفصل التاسع عشر - الناجون في المسيحية.

لقد قطعنا شوطاً بعيداً عن تلك المرحلة البدائية من صنع الآلهة، حيث كانت العبادة تقتصر على الجثث أو المومياوات أو الجماجم أو الأشباح أو أرواح الزعماء الموتى أو الأصدقاء والأقارب الراحلين. إن إله المسيحية، في صورته المتطورة بالكامل، وخاصة كما يعرفه المفكرون واللاهوتيون، هو كائن ضخم للغاية، مجرد للغاية، موجود في كل مكان وأبدي للغاية، حتى أنه يبدو وكأنه لا يكاد يكون لديه أي نقطة اتصال مع الروح الأجدادية البسيطة أو الحجر المقدس الذي يبدو أنه ينحدر منه في النهاية.

ومع ذلك، يجب أن نحذر من أن نضل بنظرة شخصية للغاية. فبينما تتصور العقول العليا في المسيحية بلا شك إله المسيحيين من منظور مانسيل ومارتينو، فإن العقول الدنيا حتى بيننا تتصوره في أشكال أبسط وأكثر مادية. إن قدراً كبيراً من البحث بين عامة الناس الإنجليز من مختلف الطبقات، وليسوا دائماً من أفقر الناس، يقنعني بأن أعداداً كبيرة منهم يتصورون الله على أنه يمتلك شكلاً بشرياً مادياً، غازياً إلى حد ما في تركيبه؛ وأنه على الرغم من المقالات التسعة والثلاثين، فإن له جسداً وأجزاء وعواطف؛ وأنه يصور عادة في أذهان الناس على أنه يبلغ طوله حوالي عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً، وله رأس ويدين وعينين وفم، اعتاد أن يرى ويتحدث مع البشر؛ وأنه يجلس على عرش، وكأنه ملك، محاط ببلاط مرئي من الملائكة ورؤساء الملائكة. والفن الإيطالي يصوره دائماً، بصراحة غير معروفة للمسيحية البروتستانتية. وبدلاً من أن يكون موجوداً في كل مكان في وقت واحد، وينتشر في الطبيعة ويكمن تحتها، فإن معظم عابديه يتصورون الإله على أنه يمتلك مجرد القدرة على إبادة الفضاء، وإيجاد نفسه حيثما يشاء في لحظة معينة. إن علمه بكل شيء وقدرته المطلقة أمران مسلم بهما على الفور؛ لكن تجريده وعدم ماديته غير مفهومين حقًا من قبل واحد من بين ألف من المؤمنين به في بريطانيا.

إن الحقيقة هي أن مثل هذا المفهوم المجرد الذي يمثل أعلى مفهوم لاهوتي عن الله لا يمكن أن يتحقق إلا رمزياً، ثم في عزلة تامة لبضع لحظات فقط. ففي اللحظة التي نفكر فيها في الله بشكل نهائي فيما يتصل بأي نشاط كوني، أو بالأحرى فيما يتصل بأي حاجة إنسانية، فإننا نفكر فيه حتمًا على أساس تشبيهات بشرية، ونتصوره بشريًا بشكل أو بآخر في عقل المؤمن. ولأنه من حيث الأصل فرع من عقل الإنسان، وكائن بشري عظيم مؤله، فإنه يحتفظ بالضرورة، بالنسبة للجميع باستثناء عدد قليل من النفوس الصوفية أو الوجودية، بالعلامات الواضحة لانحداره النهائي من شبح أو روح. والواقع أنه يفعل ذلك بالنسبة لنا جميعًا على الجانب العقلي في مقابل الجانب الجسدي؛ لأن حتى علماء اللاهوت ينسبون إليه بحرية مشاعر إنسانية مثل الحب، والعاطفة، والشعور بالعدالة، وروح الرحمة، والحقيقة، والحكمة: والمعرفة، والإرادة، وقوى العقل، وكل القدرات والعواطف البشرية الأساسية والأساسية.

وهكذا، وبقدر ما يبدو أننا ابتعدنا عن قاعدتنا في المفاهيم الأكثر رفعة عن الله، فإننا أقرب إليه مما يتصوره معظمنا. وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من هذا الارتفاع الذي رفعت إليه العقول العليا فكرتها عن الإله، باعتباره الخالق والمحافظ والمحرك للكون، فإن كل دين، مهما كان توحيديًا، لا يزال يواصل صنع آلهة ثانوية جديدة لنفسه من الموتى وهم يموتون، ويعبد هؤلاء الآلهة بعبادة أكثر اجتهادًا من تلك التي يمنحها للإله العظيم في المسيحية أو الآلهة العظيمة في البانتيون المركزي. والدين المسيحي يجعل مثل هذه الآلهة الثانوية لا تقل عن جميع الآلهة الأخرى. والحقيقة هي أن العاطفة الدينية تستمد أصلها من المودة والتقدير اللذين يشعر بهما الناجون للموتى، ممزوجين بالأمل والإيمان بأنهم قد يكونون ذوي فائدة أو ميزة دنيوية أو روحية لأولئك الذين يدعونهم؛ وتظل هذه المعتقدات والمشاعر البدائية راسخة في صميم الإنسانية لدرجة أن حتى أكثر الأديان تجريدية، مثل الانشقاق البروتستانتي، لا تستطيع خنقها بالكامل، في حين تظهر تجددات من العقيدة الأصلية والعادة من

وقت لآخر في شكل الروحانية، والتصوف، وأنماط أخرى غامضة من عبادة الأشباح البسيطة.

ولكن أغلب الديانات المتقدمة، وخاصة المسيحية في شكلها المركزي الحقيقي والرئيسي المتمثل في الكاثوليكية، وجدت أنه من الضروري أن تستمر في تجديد مخزون الآلهة الصغرى من وقت لآخر. والتي يطلق عليها هنا اسم القديسين. تمامًا كما وجدت الديانات الأقدم أنه من الضروري دائمًا من عام لآخر أن تجدد آلهة الأساس، وآلهة الذرة والنبيذ، والآلهة الخاصة الأخرى للنظام الصناعي، من خلال إمداد دائم من الضحايا الإلهية البشرية. ولكن ما أود أن أشير إليه بشكل خاص هنا هو أن الغالبية العظمى من أماكن العبادة في جميع أنحاء العالم لا تزال قائمة، كما في البداية، فوق جسد رجل أو امرأة ميتة؛ وأن الأشياء الرئيسية للعبادة في كل ضريح لا تزال، كما كانت دائمًا، مثل هذه الجثث العزيزة لرجال ونساء ميتين؛ وأن الصلة البدائية بين الدين والموت لم تنقطع عمليًا ولو للحظة في الجزء الأكبر من العالم. حتى في إنجلترا وأمريكا البروتستانتية.

كان السيد ويليام سيمبسون من أوائل الأشخاص الذين أشاروا إلى هذه الصلة الأساسية الغريبة بين الكنائس والمعابد والمساجد أو القبور، وبين القبر أو النصب التذكاري. وقد أثبت وجهة نظره بطريقة كاملة للغاية، وأود أن أحيل القارئ الذي يرغب في متابعة هذا الفرع من الموضوع بالتفصيل إلى دراساته الشيقة. في هذا العمل، سأقتصر انتباهي بشكل أساسي على الوجود المستمر لعنصر الموت هذا في المسيحية؛ ولكن على سبيل التوضيح، سأقدم ملاحظاتي 412 ببعض الأمثلة الضالة التي التقطتها عشوائيًا من مجال الإسلام المجاور والمثير للاهتمام.

إن أي دين في العالم كله يزعم أنه أكثر توحيداً في طابعه من الإسلام. إن توحيد الله، بالمعنى الدقيق للكلمة، هو العقيدة الوحيدة التي تدور حولها العقيدة الإسلامية بأكملها. وأكثر من أي طائفة أخرى، فإن توحيد الله يمثل نفسه كرد فعل مميز ضد

التعددية والخرافات التي تسود الديانات المحيطة. إن عزلة الله هي عقيدته الكبرى. لذلك، إذا وجدنا حتى في هذا النظام الديني الأكثر توحيداً بين الأنظمة الدينية القائمة عنصراً كبيراً من البقاء العملي للتعددية. إذا وجدنا أن عبادة الموتى لا تزال حتى هنا مكوناً رئيسياً في الممارسة الدينية، إن لم يكن في النظرية الدينية، فأعتقد أننا سنكون على حق في الاستنتاج بأن مثل هذه المكونات تشكل في الواقع جوهر التفكير الديني، وسوف نكتسب قوة كبيرة في الاستنتاجات التي توصلنا إليها سابقاً بشأن الاعتقاد في الخلود أو استمرار حياة الموتى باعتباره في الواقع جوهر وأساس العبادة والإله.

لقد دهشت على الفور منذ ثماني أو عشر سنوات، عندما دخلت عملياً في علاقة بالإسلام في الجزائر ومصر، من انتشار أشكال من العبادة بين المسلمين على نطاق واسع، ولم أكن مستعداً لها بأي شيء قرأته أو سمعته من قبل عن طبيعة وممارسة هذا الدين التوحيدي الحصري والمتباهي. وهناك نقطتان تضربان بقوة أي زائر تتاح له الفرصة لأول مرة لمراقبة مجتمع مسلم في محيطه الأصلي. الأولى هي العادة العامة من جانب النساء بزيارة المقابر والحزن أو الصلاة على قبور أقاربهن يوم الجمعة، وهو اليوم المقدس في الإسلام. والثانية هي كثرة القباب، أو القبور الصغيرة البيضاء التي أقيمت على رفات المرابطين أو المزورين أو الأولياء المحليين، والتي تشكل المراكز الحقيقية للدين والعبادة في كل قرية. الإسلام، في الممارسة العملية، هو دين الحج إلى قبور الموتى. في الجزائر، تنتشر على كل سفح تلة هذه القباب الصغيرة الخلابة المطلية باللون الأبيض، وكل منها تحجبها أشجار النخيل المقدسة، وكل منها محاطة بسور صغير أو أكواخ من الصبار، وكل منها يتولى رعاية القبور وجمع الصدقات من المؤمنين. ولا ينقص من هذه القباب أي عنصر من عناصر العبادة الأصلية للموتى، سواء كان جسداً مقدساً أو حجراً مقدساً أو شجرة أو بئراً أو كاهناً. ويحج إلى هذه القباب العديد من المؤمنين المتدينين: وفي أمسيات الجمعة تكتظ الساحات الصغيرة عادة بحشود من المصلين المتحمسين والمخلصين. وفي الداخل، ترقد عظام الرجل المقدس محفوظة في إطار معلق حوله

مسبحة وصور وقرابين أخرى من تلاميذه المتحمسين، تماماً كما هي الحال في الكنائس الكاثوليكية الرومانية. والواقع أن القديس يمثل مؤسسة للإسلام التوحيدي بقدر ما يمثل مؤسسة لأي دين آخر أعرفه عملياً.

إن هاتين الخاصيتين من سمات عبادة الإسلام تبدوان غريبتين على الفور في أي زيارة عادية. ولكن عندما يتعمق في النظر في الأمر، يجد أن أغلب المساجد الكبرى في المدن الرئيسية قد بُنيت على نحو مماثل لاحتواء ودفن عظام شخصيات قديسة تحظى بقدر أو آخر من التبجيل في المناطق المجاورة لها. وبعض هذه المساجد مقدسة إلى الحد الذي جعل عظامها تُنسخ على نحو مماثل تماماً لخشب الصليب الحقيقي، كما بُني قبران في مكانين منفصلين حيث يقال إن بقاياها كلها أو جزء منها مدفونة. وسأذكر هنا فقط كأمثلة على مثل هذه القبور المقدسة مدينة كروان في تونس، التي تأتي في المرتبة الثانية بعد مكة والمدينة في رأي كل المسلمين الغربيين المتدينين. وهنا، فإن المبنى الأكثر تبجيلاً هو ضريح "صحابي النبي"، الذي يرقد داخل نعش مغطى بأغطية من المخمل الأسود والفضة . وهو نصب تذكاري جنائزي لا أعرفه في أي مكان آخر. وعلى مقربة من هذا المكان يقف نعش أحد الأولياء الهنود، في حين تنتشر في المدينة 414 مقبرة ومسجداً مقدسين آخرين. وفي مدينة الجزائر، يعد مسجد سيدي عبد الرحمن أقدس الأماكن، حيث يضم ضريح وجسد ذلك القديس الذي توفي سنة 1471. وحوله، لكي يشاركه في مدفنه المقدس (مثل المصريين الذين أرادوا أن يدفنوا مع أوزوريس)، ترقد جثث العديد من الدايات والباشاوات. وتظل الأضواء مضاءة باستمرار عند قبر القديس، الذي يزين بستائر ملونة مختلفة، على الطريقة السامية القديمة، بينما تتدلى حوله لافتات وبيض النعام، هدايا المؤمنين، بشكل مبهر من السقف المزخرف. وهناك ضريح سيدي عقبة الموقر بالقرب من بسكرة، وهو أحد أقدم أماكن العبادة في العالم الإسلامي. يقع قبر الولي العظيم في قاعة صغيرة، محجوبة عن المسجد النبيل الذي يشكل غرفة الانتظار، ومعلقة حولها الحرير وغيره من القرابين الرقيقة. وعلى الواجهة

الأمامية يوجد نقش مكتوب بحروف كوفية مبكرة جدًا يخبرنا بأن "هذا قبر عقبة بن نافع: رحمه الله". المسجد هو مكان شهير للحج، وهناك اعتقاد بأن المئذنة الموجودة في مقدمته تهز رأسها عند الدعاء للولي الصالح، وهو ما قد لا ينتهي، ولكنني أمتنع عن ذلك عمدًا. وبالمثل، تتجمع جميع المساجد الرئيسية في تلمسان وقسنطينة وغيرهما من المدن الرائدة في شمال إفريقيا حول جثث الأولياء أو المرابطين، الذين يُدعى إليهم في الصلاة، ويُقدم لهم كل عمل من أعمال العبادة.

إننا نجد في كل أنحاء الإسلام مثل هذه القبور المقدسة والمساجد. ويأتي قبر النبي في المدينة المنورة على رأس القائمة، إلى جانب قبر ابنته فاطمة. ومن بين الشيعة، يحظى قبر علي في النجف وقبر الحسين في كربلاء بنفس قدسية قبر النبي في المدينة المنورة. وتحظى أضرحة الأئمة في بلاد فارس بقدر كبير من التبجيل. وتظهر قبور الأشراف في الهند، وزيارات المزورين في أفغانستان، نفس التوجه. وفي فلسطين، كما يقول الرائد 415 كوندر، فإن العبادة عند قبور الأولياء المحليين "تمثل الدين الحقيقي للفلاحين".

لقد كنت أعتزم في الأصل أن أدرج في هذا العمل فصلاً خاصاً عن هذه البقايا في الإسلام، والتي جمعت عددًا كبيرًا منها في أماكن مختلفة؛ لكن كتابي تضخم بالفعل إلى أبعاد أكبر بكثير مما كنت أتصوره في الأصل لدرجة أنني مضطر على مضض إلى التخلي عن هذا البحث.

ولكن لا بد من أن نوجه كلمة واحدة إلى مصر، حيث كانت عبادة الموتى دوماً سمة بارزة في الديانة المتطورة، وحيث لم تتمكن المسيحية ولا الإسلام من إخفاء هذا الاتجاه البدائي. ولا يوجد ما هو أكثر وضوحاً في وادي النيل من الطريقة غير العادية التي بقيت بها العادات والأفكار المتعلقة بدفن الموتى والحفاظ عليهم على الرغم من التغيير المزدوج والسريع في النظرية الدينية. ففي سقارة وطيبة، يعتاد المرء على الشوارع والمنازل التي تضم المقابر، والتي تم تخطيطها بانتظام بحيث تشكل

بالمعنى الدقيق للكلمة مقبرة حقيقية، أو مدينة للموتى. وعلى مشارف القاهرة مباشرة، على حافة الصحراء، توجد مقبرة حديثة مماثلة تماماً حتى يومنا هذا، حيث تم تخطيط الشوارع والأحياء بانتظام، حيث يقف قبر كل أسرة في فناء خاص بها أو سور، وكثيراً ما يشبه إلى حد كبير المنازل المصرية ذات الأسقف المستديرة أو القباب. وفي هذه المدينة التي تضم جثث الموتى، يمكن الآن ملاحظة كل تمييز في المرتبة والثروة. إن الأغنياء مدفونون تحت أضرحة فخمة ذات زخارف معمارية رائعة؛ أما الفقراء فيشغلون مقابر متواضعة مرتفعة عن سطح الصحراء، ومزينة عند الرأس والقدم بشواهد قبور مصرية خشنة وبسيطة. ومع ذلك فإن المظهر الكامل لمثل هذه المقابر هو مظهر المدينة. ففي المناخات الشمالية ينام الموتى نومهم الأخير تحت تلال صغيرة مغطاة بالعشب، على عكس شوارع المدينة تمامًا: وفي مصر، يشغل الموتى حتى يومنا هذا، كما في الحياة، أزقة وأزقة كاملة من المنازل الأبدية. وحتى الروح التي أنتجت الأهرامات ومقابر الملوك كانت واضحة في القاهرة الحديثة أو في العصور الوسطى في عام 416م، حيث أن الذوق الذي أنتج تلك المساجد الضخمة ذات القباب المعروفة بمقابر الخلفاء ومقابر المماليك. وكل ما هو أكبر في محيط ممفيس القديمة يتبين عند الفحص أنه آخر مكان لراحة رجل ميت ومكان للعبادة.

إن كل مسجد من مساجد القاهرة العظيمة تقريباً إما أن يكون قبراً بناه حاكم لنفسه . وهذه هي الحالة الأكثر شيوعاً. أو ضريحاً مقدساً لأحد الأولياء المسلمين. ولكن من سمات مصر، حيث كان الملك والإله دائماً مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، أن المسجد في أماكن أخرى يكون عادة قبراً لرجل دين، بينما يكون في القاهرة معبداً تذكارياً لسلطان أو أمير أو نائب ملك أو خديوي. ومن المثير للاهتمام أيضاً أن نجد، بعد كل ما رأيناه فيما يتصل بالقدسية الخاصة لرأس العرافة، أن أقدس هذه المساجد ربما يحتوي على رأس حسين، حفيد النبي. وقد ذُكر غسل الرأس بشكل خاص في قصة ترجمته. ومسجد السلطان حسن، بمقامه الرائع، هو مثال رائع على مقابر المعابد في القاهرة.

ولكنني لن أطيل الحديث عن حرم الإسلام، بل سأذكر حقيقة مهمة وهي أن الكعبة المشرفة في مكة هي أعظم مزار عبادة في العالم الإسلامي، والتي تحمل في حد ذاتها، كما أشار السيد ويليام سيمبسون منذ زمن بعيد، آثاراً واضحة تشير إلى أنها كانت في الوقت نفسه قبراً وحجر مذبح مقدس. ويظهر الرسم الأصلي الذي رسمه السير ريتشارد بيرتون لهذا المزار الصوفي على هيئة قبر مربع الشكل غير مزخرف، مغطى بالكامل بغطاء أسود مزين بالشراشيب. وهو مزار جنائزي. وهو ما يسمى "السجادة المقدسة". وهو في الواقع مجرد نعش بسيط. وبما أن الكعبة قد تبناها محمد مباشرة من الوثنية السامية المبكرة في شبه الجزيرة العربية، وبما أنه كان لابد وأن يتم التعامل معها دائمًا بنفس الاحترام، فلا أعتقد أنه يمكننا تجنب الاستنتاج الواضح بأن هذا القبر القديم جدًا قد تم تغطيته جنائزيًا بنفس الطريقة، مثل تلك الموجودة في بسكرة والجزائر وكيروان، منذ وقت تشييده لأول مرة. 417 وبالتالي فإن هذه الحالة تلقي الضوء على تغطية العشيرة، كما تفعل أيضًا الستائر متعددة الألوان وستائر نعوش القديسين في الجزائر وتونس.

ولا أستطيع أن أقاوم الإشارة العابرة إلى مهرجان محرم، الذي يقال إنه إحياء لذكرى وفاة الحسين، ابن علي (الذي تم الحفاظ على رأسه المقدس في القاهرة). إنه عمل تمثيلي فج، حيث يتم تمثيل الأحداث المفترض أنها مرتبطة بوفاة الحسين بشكل بياني؛ وينتهي بموكب مقدس يشبه أدونيس أو أوزوريس، حيث يتم حمل جسد القديس والحزن عليه. الجنازة هي الجزء المهيب من العرض؛ يتم صنع نعش للجثة المقدسة، مغطاة بشرائط خضراء وذهبية - من الواضح أن اللون الأخضر هو آخر ذكرى لإله النباتات. في بومباي، بعد حمل الجثة والضريح عبر الشوارع وسط البكاء والعويل، يتم إلقاؤهما أخيرًا في البحر، مثل كرنفال الملك. أعتقد أننا لا نحتاج إلى الشك في أن لدينا هنا بقايا سريعة الزوال من طقوس إله الذرة، تنتهي بسحر المطر، وتشبه إلى حد كبير طقوس أدونيس وأوزوريس.

ولكن إذا كانت أعظم الأماكن التي يعبدها المسلمون هي الكعبة في مكة وقبر النبي في المدينة، فإن أقدس بقعة في العالم بالنسبة للمسيحية هي القبر المقدس. ولقد حارب المسيحيون المسلمين في العصور الوسطى من أجل امتلاك هذا المكان المقدس للحج؛ وهناك استمرت الغالبية العظمى من الحجاج الأكثر استحقاقاً للشرف، على الرغم من قوة الإيمان بالمسيح البشري وقوته. وكان التعبد عند قبر المخلص القائم من بين الأموات أسمى آمال المسيحيين المتدينين في العصور الوسطى. وتوجد تقليدات للقبر المقدس بكثرة في مختلف أنحاء أوروبا: فهناك كنيسة في سان ستيفانو في بولونيا؛ وهناك كنيسة أخرى، بفضل عبقرية ألبيرتي، معروفة جيداً في كنيسة روتشيلاي في فلورنسا. ولا أحتاج إلى أن أذكر كنيسة ساكرو مونتي في فارالو.

ولكن في أغلب الأحيان، وفي تلك الأجزاء من المسيحية البعيدة عن فلسطين، كان الناس يكتفون بالقديسين الأقرب والأكثر محلية. ومنذ وقت مبكر للغاية، نرى في سراديب الموتى نمو هذه العادة المتمثلة في تقديم الصلاة بواسطة (أو إلى) أجساد الموتى الذين ناموا في المسيح. وكما أشار العميد بورجون، فإن الكنيسة الصغيرة أو الكابيلا تعني في الأصل قبرًا مقوسًا في جدران سراديب الموتى، حيث كانت الصلاة تُقام عندها بعد ذلك بشكل معتاد: وقد تم تصميم الكنائس فوق الأرض، في وقت لاحق، على غرار نمط هذه الأضرحة القديمة تحت الأرض. لقد أشرت بإيجاز في الفصل الثاني إلى الأصل المحتمل للكنيسة على شكل صليب من رواقين من سراديب الموتى يتقاطعان مع بعضهما البعض بزاوية قائمة؛ حيث يقف المذبح العالي هناك فوق جسد أو رفات أحد القديسين المتوفين؛ وتمثل الكنائس الصغيرة مقابر أخرى صغيرة مجمعة مثل المنافذ في سراديب الموتى المحيطة بها. إن الكنيسة هي، على حد تعبير السيد هربرت سبنسر، "قبر داخل قبر"؛ والكاتدرائية العظيمة هي مجموعة من هذه القبور المتراكمة، التي بُنيت كل منها بجوار الأخرى. وفي بعض الأحيان تكون الكنائس قبورًا حقيقية، وفي أحيان أخرى تكون مقابر؛ ولكن الصلة

بالموت واضحة دائمًا بنفس القدر. وفي هذا الموضوع، أود أن أحيل القارئ مرة أخرى إلى صفحات السيد سبنسر.

لقد كانت المسيحية محرمة في روما وفي مختلف أنحاء الإمبراطورية، وكان من المؤكد أن عبادة الموتى كانت مستمرة في صمت، متمركزة في سراديب الموتى أو بجوار قبور القديسين والشهداء. هؤلاء الشهداء كانوا في الواقع خلفاء مسيحيين لضحايا الديانات السابقة. كان "أن يُعَد المرء مستحقاً للمعاناة "رغبة كل مسيحي جاد، كما هو الحال حتى الآن بين الطوائف الجديدة الحية مثل جيش الخلاص. وكانت عقيدة التضحية بالنفس، التي يكشف اسمها عن أصلها البشري الضحوي، عالمية تقريباً.

ولكن عندما انتصرت المسيحية، واكتسبت ليس فقط الاعتراف الرسمي بل والشرف الرسمي، أصبحت عبادة الشهداء وغيرهم من الموتى المؤمنين شغفاً كاملاً لدى روما المسيحية. القديسون الأبرياء، مثل القديس ستيفن، أول شهداء الاضطهادات العشرة، وبولي كارب، وفيفيا بيربيتوا، وفيليسيتاس، وإغناطيوس، وجميع الآخرين، تلقوا من الكنيسة شكلاً من أشكال التبجيل الذي لا يمكن تمييزه عن العبادة الفعلية إلا من خلال التمييزات اللطيفة للعقل اللاهوتي.

إن الموكب العظيم للقتلى من أجل المسيح في فسيفساء سانت أبوليناري نوفو في رافينا يعطي قائمة شاملة لأهم هؤلاء القديسين الأوائل، برئاسة القديس مارتن، والقديس كليمنت، والقديس جوستين، والقديس لورانس، والقديس هيبوليتوس. وفي وقت لاحق، جاءت الشخصيات الأكثر أسطورية وشعرية، والتي استمدت على ما يبدو من الآلهة الوثنية - القديسة كاثرين، والقديسة باربرا، والقديس جورج، والقديس كريستوفر. وهذه تشكل مع تقدمها آلهة جديدة مثالية، تدور حول شخصيات المسيح نفسه وأمه السيدة العذراء، التي تنمو بسرعة بدورها، من خلال استيعاب إيزيس، وعشتروت، وأرتميس، إلى ملكة السماء.

كانت احتفالات الحب أو الأغابو التي أقامها المسيحيون الأوائل تقام عادة في سراديب الموتى أو في أماكن أخرى فوق أجساد الشهداء. وبعد ذلك، كانت رفات الموتى القديسين تُنقل إلى كنائس مهيبة خارجها، مثل كنيسة سانت أغنيس وكنيسة سان باولو، حيث توضع تحت المذبح أو الحجر المقدس الذي كرس بهذه الطريقة، والذي كان يُوزع من قمته جسد المسيح ودمه في القربان المقدس. ومنذ وقت مبكر يعود إلى القرن الرابع، نعلم أن أي كنيسة لم تكن مكتملة بدون مثل هذه الآثار؛ وقد انتشر الشغف بالشهداء بشكل كبير منذ تلك الفترة فصاعدًا حتى أنه في وقت من الأوقات دُفن ما لا يقل عن 2300 جثة من الرجال المقدسين معًا في سان براسيدي.

ولا يمكننا الآن أن نفهم الأهمية الكاملة لعبادة الشهداء هذه، أو أن ندرك الدور الكبير الذي لعبته في تطوير المسيحية بشكل كافٍ إلا في روما نفسها. ولعل أسهل طريقة للقارئ البروتستانتي للتعرف على هذا الجانب من الموضوع هي مطالعة الرواية المثيرة للاهتمام والواضحة للغاية الواردة في المجلد الثاني من كتاب السيدة جيمسون "الفن المقدس والأسطوري."

إن جسد القديسة أغنيس، القديسة والشهيدة، التي يُمثَّل بها دائمًا ذلك الرمز المألوف، الحمل الذي تُقلِّده، يرقد في تابوت تحت المذبح العالي للقديسة أغنيس خلف بورتا بيا، حيث أقام قسطنطين الكبير كنيسة فوق رفاتها، بعد سنوات قليلة فقط من استشهاد القديسة. ويرقد جسد القديسة سيسيليا على نحو مماثل في كنيسة سانتا سيسيليا في تراستيفيري. وفي هذه الحالة الأخيرة، يُقال إن المنزل الأصلي الذي أعدمت فيه سيسيليا قد كرس كمكان للعبادة، على الطريقة الوحشية المبكرة جدًا، وكانت الغرفة التي عانت فيها تتمتع بقداسة خاصة. عقد البابا سيماخوس مجمعًا هناك في عام 500. وبعد أن انهارت هذه الكنيسة الأولى أثناء متاعب البرابرة، بنى البابا باسكال الأول، الراعي العظيم لصيد الآثار، كنيسة جديدة تكريمًا للقديسة في القرن التاسع. وبينما كان منهمكاً في العمل، رأى حلماً (بنمط

شائع)، عندما ظهرت له سيسيليا وأظهرت له المكان الذي دفنت فيه. فقام بالبحث، وعثر على الجثة في سراديب الموتى الخاصة بالقديسة كاليستوس، ملفوفة بكفن من نسيج ذهبي، بينما كان عند قدميها قطعة قماش من الكتان مغموسة في دم استشهادها المقدس. وبالقرب منها وُضِعت رفات فاليريان وتيبورتيوس وماكسيموس، الذين اختلطت أسماؤهم إلى حد كبير في أسطورتها. ونُقِل الجثمان إلى الكنيسة القائمة، وحُفِظَت الغرفة الصغيرة التي ماتت فيها القديسة ككنيسة صغيرة. وفي القرن السادس عشر، أُعيد ترميم المبنى المقدس وترميمه على الطراز الفظيع في ذلك الوقت؛ وفُتِح التابوت أمام أعين العديد من الأساقفة، بما في ذلك الكاردينال بارونيوس. وُجِد الجثمان كاملاً، ثم وُضِع في الضريح الفضي الذي لا يزال يرقد فيه. وهكذا فإن كل كنيسة في روما تقريبًا لديها جسد كامل من القديسين الراعيين، الذين غالبًا ما يكونون شهداء الاضطهادات المبكرة.

وفي كثير من الحالات المشابهة، تُعلَّق أهمية بالغة على حقيقة أن الجسد يظل "غير فاسد"، كما تقول العبارة؛ وأود أن أذكر في هذا الصدد أنه في التمثيلات المتكررة لقيام لعازر، والتي تظهر كـ"رموز للقيامة" في سراديب الموتى، يتم تصوير جسد لعازر على هيئة مومياء، غالبًا ما تكون محاطة بما يبدو أنه صندوق مومياء. والواقع أن هذا يذكرنا إلى حد كبير بصور أوزوريس المصرية.

أنتقل الآن إلى أمثلة أخرى وأكثر إثارة للاهتمام حول البقاء على قيد الحياة في عبادة الجثث.

إن المعبد المركزي العظيم للكنيسة الكاثوليكية هو كنيسة القديس بطرس في روما. ويرقد جسد القديس المصلوب تحت المذبح العالي، في تابوت أحضر من سراديب الموتى بالقرب من سان سيباستيانو. وعلى هذه الصخرة، تأسست كنيسة القديس بطرس والكنيسة الكاثوليكية. وقد بنى أناكليتوس، خليفة كليمنت، نصبًا تذكاريًا فوق عظام القديس بطرس المبارك؛ وإذا كان بطرس شخصية تاريخية على الإطلاق، فلا

أرى سببًا للشك في أن جسده الحقيقي يرقد هناك بالفعل. ويشاركه القديس بولس في نفس الضريح؛ ولكن نصف الجثتين فقط يرقد الآن داخل كونفيسيو المهيب في خزانة الكهنوت في البازيليكا البابوية: والجزء الآخر من القديس بطرس يكرس كنيسة لاتران؛ والجزء الآخر من القديس بولس يمنح القداسة للقديس باولو خارج الجدار.

ومن بين الأجساد الأخرى التي تحظى بقدر كبير من التبجيل في روما أجساد كواترو كوروناتي، في الكنيسة التي تحمل الاسم نفسه؛ والقديس براكسيديس 422 والقديسة بودينتيانا في كنيستيهما؛ والقديس كوزمو والقديس داميان؛ والعديد غيرهم كثيرون لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا. وتوجد العديد من الكنائس الرومانية، مثل سان كليمنتي، في موقع منزل القديس الذي كُرِّست له، أو تحتفظ بجسده، مما يذكرنا بممارسة غينيا الجديدة المبكرة. وتشغل كنائس أخرى موقع استشهاده المزعوم، أو تحيط بالعمود الذي ثبت عليه. والأساطير التي تدور حول كل هؤلاء القديسين الرومان مليئة بأصداء الوثنية المهمة. ولا بد أن يندهش الزائر لروما الذي يتجول بين الكنائس والمقابر بعقل غير متحيز عندما يجد كيف أن المواقع والأساطير والطقوس تذكرنا في كل خطوة بالأماكن المقدسة الوثنية أو القصص المألوفة. وفي كنيسة القديس زكريا الوحيدة في البندقية، وجدت أيضًا أجساد القديس زكريا (والد يوحنا المعمدان)، والقديسة سابينا، والقديس تاراسيوس، والقديسين نيريوس وأخيل، والعديد من القديسين الآخرين الذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا.

إننا ندرك تماماً مدى الأهمية التي كانت تُعلَّق على حيازة جثة أو مومياء القديس في مدينة البندقية. فقد كان نقل جثة أو مومياء القديس مرقس من الإسكندرية إلى البحيرات الكبرى يعتبر منذ أمد بعيد الحدث الأكثر أهمية في تاريخ الجمهورية؛ وكانت الكنيسة التي أقيمت فيها الجثة هي الأكثر نبلاً في العالم المسيحي، وتحتوي على سلسلة لا حصر لها من السجلات التي توثق ارتباط القديس مرقس بالمدينة

والشعب الذي استقبله استقبالاً ملكياً. وكما قد يرى المرء في لوحة تينتوريه الشهيرة، فقد طارت الروح عبر البحر مع الجثة إلى البندقية، وحذرت البحارة من الخطر الذي قد يهددهم في الطريق، ثم عملت منذ ذلك الحين على حماية الجمهورية المضيافة في كل مشاريعها. ولابد وأن المرء عاش طويلاً في مدينة البحيرات الكبرى وسكر بروحها حتى يدرك مدى تماهيها المطلق مع الإنجيلي راعيها. والشعار الذي كُتِب على مبانيها هو: "سلام طيب، مارسي، مبشر مخلِّص". كان أسد القديس مرقس يقف عالياً في ساحة بياتزيتا ليراه الجميع؛ وهو يظهر في كل تفاصيل النحت أو الرسم في قصر الدوق والمباني العامة في المدينة. وكان الجسد الذي يرقد تحت غطاء من الذهب في الكنيسة العظيمة في ساحة بياتزيتا بمثابة بالاديوم حقيقي، وعون حاضر في وقت الشدة. ولم يكن مجرد عاطفة أو خيال بالنسبة لأهل البندقية؛ فقد كانوا يدركون أنهم يمتلكون في أرضهم، وتحت قباب كنائسهم، جسد وروح ثاني الإنجيليين.

ولم يكن هذا هو المعين المهم الوحيد الذي كانت البندقية تفتخر به. فقد احتوت أيضًا على جسد القديس جورج في سان جورجيو ماجوري، وجسد القديس نيكولاس في سان نيكولو دي ليدو. وتخبرنا الأسطورة الجميلة عن الدوق والصياد (التي خلدها لنا قلم باريس بوردون في واحدة من أروع الصور التي رآها العالم على الإطلاق) كيف أخذ القديسون الثلاثة العظماء الحراس، القديس مرقس والقديس جورج والقديس نيكولاس، جندولًا ذات يوم من كنائسهم، وأبحروا في البحر وسط عاصفة هائجة للالتفاف على الشياطين التي كانت قادمة في عاصفة لتجتاح البندقية. وكان القديس الرابع، الذي عاش في وقت لاحق كثيرًا، والذي اختطفه البنادقة أيضًا بالمكر، هو القديس روش من مونتبلييه. كان هذا الرجل المقدس بمثابة احتياط صحي عظيم ضد الطاعون، الذي تعرضت له المدينة كثيرًا من خلال تجارتها الشرقية. وهكذا سرق أهل البندقية الجثة بالاحتيال من مونتبيلير، وبنوا على شرفها الكنيسة الرائعة ومدرسة سان روكو، المتحف العظيم للفنون في تينتوريه. ولا يمكن إثبات حقيقة أن

مجرد حيازة الجثة المقدسة في حد ذاتها أمر بالغ الأهمية إلا من خلال عمليات الاختطاف القسرية هذه.

إن جثة القديس نيقولاوس، الذي كان أسقفاً عظيم الاحترام لميرا في ليقيا، يرقد، كما قلت، تحت المذبح العالي في كنيسة القديس نيكولو دي ليدو في البندقية. ولكن هناك جسد آخر أكثر أصالة لنفس القديس العظيم، شفيع البحارة وكذلك تلاميذ المدارس، يرقد أيضاً تحت المذبح العالي في كنيسة القديس نيكولا الرائعة في باري، ومن هذه الظروف يُعرف الأسقف المقدس عموماً باسم القديس نيقولا من باري. ويخرج من بقايا الجثث سائل عجيب، وهو مانا دي باري، الذي يقدره المتدينون تقديراً عالياً. وترتفع فوق القبر كاتدرائية فخمة. إن مثل هذا التقليد المقلّد للأجساد والآثار أمر شائع للغاية، سواء في المسيحية أو في الإسلام.

لقد حرصت على زيارة أضرحة عدد كبير من القديسين البارزين في مختلف أنحاء إيطاليا؛ وبوسعي أن أخصص مجلداً كاملاً للنقاط المثيرة للاهتمام في هذه الأضرحة. على سبيل المثال، يرقد جثمان القديس أوغسطينوس في بافيا في تابوت مجيد، وهو واحد من أروع الآثار التي شيدت على الإطلاق بمهارة الإنسان، فضلاً عن كونه واحداً من أجملها. وعلى نحو مماثل، تفتخر بادوفا بجثمان القديس أنطونيوس من بادوفا، المعروف محلياً باسم "إل سانتو"، وهو أكثر أهمية في مدينته من كل بقية البانثيون المسيحي مجتمعاً. والكنيسة ذات القباب المتعددة التي أقيمت فوق رفاته أكبر كثيراً من كنيسة القديس مرقس في البندقية؛ أما جثمان القديس نفسه فهو محاط بكنيسة رخامية رائعة، صممها سانسوفينو، وتزخر بكل أرقى فنون عصر النهضة. إن الرهبان والراهبات الدومينيكان يقومون بالحج إلى بولونيا، من أجل تكريم جسد القديس دومينيك، الذي توفي في تلك المدينة، والذي تم وضع جثته في تابوت رائع في الكنيسة المخصصة له، ومزين بنحت رائع بأيدٍ مختلفة من زمن نيكولو بيسانو إلى زمن مايكل أنجلو. وتتمتع سيينا بمجد خاص للقديسة كاترين الثانية - الأولى

كانت أميرة الإسكندرية الأسطورية؛ ولا يزال منزل تلك الراهبة الوجدانية محفوظًا سليمًا كمصلى لصلوات المتدينين. يزين رأسها، الموضوع في ضريح أو صندوق فضي، مذبح كنيستها في سان دومينيكو، حيث غالبًا ما تغتصب اللوحات الجدارية الشهيرة في سودوما كل انتباه الزوار الشماليين. قارن رأس حسين المقدس في القاهرة. تكرس الكنيسة الفرنسيسكانية العظيمة في أسيزي، مرة أخرى، رفات مؤسس الفرنسيسكان، الذي كان يرقد سابقًا تحت المذبح العالي؛ إن كنيسة سانتا ماريا ديجلي أنجيلي التي تقع أسفلها تحتضن الكوخ الصغير الذي كان أول منزل ضيق للرهبنة الناشئة. وأستطيع أن أستمر في سرد مثل هذه الأمثلة بلا عدد؛ وأتمنى أن تكون هذه الأمثلة القليلة كافية لجعل القارئ البروتستانتي يشعر بمدى الاحترام الحقيقي الذي ما زال يُكْرَه لجثث وبيوت القديسين في إيطاليا. ولو كان حاضراً في ميلانو في عيد القديس كارلو بوروميو، ورأى الفلاحين من القرى المجاورة يتدفقون بالمئات لتقبيل رفات الرجل المقدس، كما رأيتهم، لما تردد في ربط الكثير من المسيحية الحالية بأكثر أشكال عبادة الجثث والمومياوات بدائية.

شمال جبال الألب، مرة أخرى، لا أستطيع الامتناع عن ذكر بعض الأمثلة البارزة، التي تساعد في تعزيز المبادئ المعلنة بالفعل. في باريس، القديسان المحليان العظيمان هما القديس دينيس والقديسة جينيفيف. كان القديس دينيس أول أسقف لوتيتيا والأبرشية: ويقال إنه قُطع رأسه مع رفيقيه في مونمارتر، مون مارتيرم. بعد ذلك سار ورأسه بين يديه من تلك النقطة (المغطاة الآن بكنيسة القديس بيير الصغيرة، بجوار البازيليكا الجديدة للكنيسة المقدسة)، إلى المكان الذي رغب فيه بتقوى أن يُدفن. قامت امرأة مقدسة تدعى كاتولا (لاحظ صدى الصوت الأخير) بأداء الطقوس الأخيرة له في المكان الذي تحتفظ فيه كنيسة الدير الفخمة للقديس دينيس بذكراه الآن. أقيمت أول كاتدرائية في المكان قبل الغزو الفرنجي؛ أما الكنيسة الثانية التي بناها داجوبيرت فقد كرسها (كما أظهرت الرؤية) المسيح نفسه، الذي نزل لهذا الغرض من السماء، محاطًا بالرسل والملائكة والقديس دينيس. وقد تم الحفاظ على رأس

أو جمجمة القديس لفترة طويلة في البازيليكا في صندوق تذكاري رائع من الفضة الصلبة، هدية من مارغريت دي فرانس، تمامًا كما لا يزال رأس حسين محفوظًا في القاهرة، وكما يحتفظ المتوحشون أو البرابرة في أماكن أخرى بالعديد من الرؤوس المعجزة أو العرافية. والواقع أن الباحث الأنثروبولوجي قد يميل إلى افتراض أن فصل الرأس عن الجسم وحفظه فوق الأرض، وفقًا للأسلوب الشائع، أدى لاحقًا إلى نشوء الأسطورة الغريبة ولكنها ليست فريدة بأي حال من الأحوال. قارن رأس الدب في خرافة آينو، وكذلك نيشستانج الألمانية والإسكندنافية العرافة.

أما بالنسبة للقديسة جينيفيف رقم 426، فقد استراحت أولاً في الكنيسة المخصصة لها في الموقع الذي يشغله الآن البانثيون، والذي لا يزال يحتفظ بذكراها جزئيًا، على الرغم من علمانيته. يرقد جسدها (أو ما تبقى منه) حاليًا في كنيسة سانت إتيان دو مون المجاورة، حيث يؤدي كل محبي باريس عبادتهم بالتأكيد إلى الضريح في أكثر المباني الخلابة والأصلية التي تحتفظ بها المدينة، كلما مروا بملكية القديسة جينيفيف. يمكن رؤية مدى حقيقة تفاني الناس في أي صباح من أيام العمل، وأكثر من ذلك خلال أوكتاف يوم عيد القديسة.

ولكن كما حدث في حالات أخرى كثيرة، فقد تم نقل رفات القديسة العذراء من باريس من مكان إلى آخر من أجل الحفاظ عليها في مأمن. وقد دُفنت الجثة في الأصل في سرداب كنيسة الدير القديمة للرسل القديسين في جزيرة المدينة. وعندما اجتاح النورمان البلاد، حملها الرهبان معهم في صندوق خشبي إلى مكان آمن. وبمجرد عودة السلام مرة أخرى، تم دفن الجثة في حصن فخم؛ بينما ظل القبر الفارغ يُعامل بأقصى درجات الاحترام. ويقال إن العظام الحقيقية دمرت أثناء الثورة؛ ولكن التابوت أو النصب التذكاري نجا من العاصفة، وتم نقله إلى سانت إتيان. وفي جميع أنحاء نوفيين، لا يزال الآلاف من المؤمنين يتدفقون لعبادته. ويُعتقد حتى الآن أن التابوت

يحتوي على بعض الأجزاء المقدسة من جسد القديسة، التي أنقذها أتباع متدينون من الحطام.

وهناك أمثلة أخرى مألوفة قد تخطر على بال كل إنسان، مثل عظام المجوس أو الملوك الثلاثة، المحفوظة في صندوق ذخائر في كاتدرائية كولونيا؛ وعظام القديسة أورسولا والإحدى عشرة ألف عذراء؛ وعظام القديسين ستيفن ولورانس في روما؛ وعظام القديس هوبرت التي نُشِرَت من دفنها ووجدت سليمة في بلدة تحمل الاسم نفسه في آردين؛ وعظام القديس لونجينوس في كنيسته في مانتوفا. وكل هذه الآثار والأجساد تؤدي معجزات مذهلة، وكانت جميعها مراكز لعبادات مهمة لفترة طويلة.

في بريطانيا، منذ المراحل الأولى للمسيحية، كان التبجيل لأجساد القديسين أكثر وضوحًا، وتشكل قصة تجوالهم جزءًا مهمًا من سجلاتنا المبكرة. والواقع أنني أتحدث كثيرًا عن هذه النقطة لأن قِلة من سكان الشمال في الوقت الحاضر يستطيعون إدراك الدور الكبير الذي تلعبه الجثة الميتة، والتي لعبته لقرون عديدة، في العبادة المسيحية. ولا يستطيع أن يفهم هذه المرحلة من تاريخ قداسة المسيحيين إلا أولئك الذين عاشوا مثلي لفترة طويلة في بلدان كاثوليكية تمامًا، وقاموا بالحج إلى العديد من الأضرحة الشهيرة، وخاضوا في أكوام من الوثائق الأنجلوساكسونية وغيرها من الوثائق التي تعود إلى العصور الوسطى المبكرة. وبالنسبة لهؤلاء الناس، من الواضح تمامًا أن الجثة الحقيقية لبعض القديسين كانت في العديد من الأماكن موضوع التبجيل الرئيسي لملايين المسيحيين في الأجيال المتعاقبة. ونجد مثالًا جيدًا في بريطانيا في حالة جثة القديس كوثبرت. إن قصة تجوالها طويلة جدًا بحيث لا يمكن سردها بالكامل هنا؛ وينبغي قراءتها في أي تاريخ جيد لدورهام. وسألخصها بإيجاز. لقد تم الاحتفاظ بجثمان القديس كوثبرت المخلص من الشمال في البداية لبعض الوقت في ليندسفارن. وعندما تم فتح قبر القديس بعد مرور أحد عشر عامًا، وجد جسده الخارجي سليمًا؛ وعلى هذا فقد ظل الجثمان باقيًا لأكثر من 800 عام. وقد

ظل الجثمان محفوظًا في ليندسفارن حتى عام 875، عندما غزا الدنمركيون القراصنة نورثمبريا. ولقد فر الرهبان، الذين اعتبروا القديس كوثبرت أعظم كنز لديهم، إلى الداخل حاملين الجثمان المقدس على أكتافهم. إن مثل هذه النقلات للجثث المقدسة شائعة في التاريخ المسيحي والوثني. وبعد العديد من التجوالات، والتي تم خلالها التعامل معه بأقصى درجات العناية والتفاني، وجد الجثمان المقدس ملجأً لفترة من الوقت في تشيستر لي ستريت في عام 883. وفي عام 995، تم نقله إلى ريبون، حيث قدس القس حتى بعد إقامته القصيرة؛ ولكن في نفس العام انطلق مرة أخرى في طريقه شمالاً إلى ليندسفارن. ولكن في الطريق، عبرت بشكل عجيب (برفضها العنيد للانتقال) عن رغبتها في الراحة إلى الأبد في دورهام. وهي المدينة التي يشرف موقعها الطبيعي القوي وقدرتها على الدفاع عن النفس على الحكمة العسكرية للقديس. وهنا، في مزار مكلف، ظلت تصنع المعجزات يومياً حتى الإصلاح الديني. وفي عام 1826، تم فتح القبر الأخير، عندما وجد أن التابوت يحتضن تابوتاً آخر، صنع في عام 1104: وكان هذا التابوت يحتوي أيضاً على تابوت ثالث، يطابق وصف التابوت الذي صنع في عام 698، عندما قام القديس من قبره الأول. ولم يكن الصندوق الداخلي يحتوي على جسد كوثبرت غير الفاسد، بل كان يحتوي على هيكل عظمي، لا يزال سليماً، ملفوفاً بأردية رقيقة من الحرير المطرز. ولا توجد قصة أعرفها تلقي المزيد من الضوء على عبادة الجثث من هذه القصة عندما تقرأ بكل التفاصيل الدقيقة التي أوردتها السلطات الأصلية.

ولكن في كل مكان في بريطانيا نجد قديسين محليين مماثلين، قامت أجسادهم أو عظامهم بمعجزات رائعة وحُفظت بحماس ضد المتطفلين الذين ينتهكون المقدسات. وقد امتلأ بيدي نفسه بالفعل بمثل هذه الجثث المقدسة: وفي الأيام اللاحقة زاد عددها بالمئة. القديس ألبان في كنيسة القديس ألبان، أول شهداء بريطانيا؛ "اليد البيضاء" للقديس أوزوالد، التي بقيت بيضاء وغير فاسدة عندما هلك كل شيء آخر لأنها باركها إيدان؛ القديسة إيثيلدريدا في إيلي، مثال آخر رائع

وتوضيحي؛ إدوارد المعترف في دير وستمنستر؛ هذه ليست سوى أمثلة قليلة من مئات الأمثلة التي ستخطر على بال طلاب تاريخنا على الفور. وسأضيف أن أساطير هؤلاء القديسين تربطنا أحيانًا بشكل غير متوقع بأنواع أقدم بكثير من العبادة الوثنية؛ كما نقرأ عن القديس إدموند من شرق إنجلترا، راعي كنيسة القديس إدموند في بوري، أن إنجفار الفايكنج أخذه بالقوة، وربطه إلى شجرة، وجلده بقسوة، وجعله هدفًا لسهام الوثنيين الدنماركيين، وأخيرًا قطع رأسه. إما، كما أقول، ذبيحة من أجل صنع إله من الوثنيين الشماليين؛ أو، في حالة عدم وجود ذلك، ذكرى، مثل القديس سيباستيان، لمثل هذه الطقوس لصنع الإله التي تم حفظها في أساطير الشهداء القدماء. قارن هنا، مرة أخرى، ذبيحة الدب الأينو.

ولكن خلال أواخر العصور الوسطى، كان الجسد المقدس لبريطانيا، بلا شك، هو جسد توماس أبيكيت في كانتربري. وكما نعلم، كان كل سكان إنجلترا يذهبون إلى هناك للحج؛ ولا شيء يمكن أن يوضح بشكل أكثر وضوحًا سرعة تقديس مثل هذه الحالات من حقيقة أن حتى هنري الثاني العظيم اضطر إلى السجود أمام جسد عدوه القديم والخضوع للجلد العلني في ضريح الشهيد الجديد. ولمدة عدة مئات من السنين بعد وفاته، لا يمكن أن يكون هناك أي شك على الإطلاق في أن عبادة القديس توماس في كانتربري كانت العبادة الأكثر واقعية وحيوية في جميع أنحاء إنجلترا؛ ولم يكن منافسوها الجادون في الشعبية سوى عبادة القديس كوثبرت إلى الشمال من همبر، وعبادة القديسة إيثيلدريدا في المقاطعات الشرقية.

كانت الرؤوس المقدسة شائعة بشكل خاص في بريطانيا قبل الإصلاح الديني. ومن الأمثلة الاسكتلندية المألوفة رأس القديس فيرجوس، رسول بانف ومرتفعات بيكت، الذي نُقِل إلى مقر الملك في سكون وحُفِظ فيه. وكان القسم "بواسطة القديس فيرجوس في سكون" هو القسم المفضل لدى الملوك الاسكتلنديين، كما كان قسم "بواسطة القديس دينيس" هو القسم المفضل لدى معاصريهم الفرنسيين.

في كل هذه الحالات تقريباً، وحتى يومنا هذا، كان التقدير الشعبي يسبق فترة طويلة من تقديس الرومان الرسمي. فكانت المعجزات تحدث أولاً عند القبر، وكانت الصلوات تُستجاب؛ ثم تسبق العبادة غير النظامية العبادة الرسمية. وحتى في أيامنا هذه، وبعد أسابيع قليلة من وفاة الكاردينال مانينغ، ظهرت إعلانات في الصحف الكاثوليكية في لندن، تعرب عن الشكر على البركات الروحية والدنيوية التي نالها من خلال تدخل السيدة العذراء والقديسين "وكاردينالنا الحبيب".

إن هذا التطويب الشعبي قد تجاوز كثيراً القبول الرسمي المعتاد، كما في حالة جان دارك في فرنسا في الوقت الحاضر، أو "المايستر جون شورن، ذلك الرجل المبارك المولود"، في كنت في العصور الوسطى. وعلى هذا فإن بلداناً مثل ويلز وكورنوال مليئة بالقديسين المحليين والوطنيين، وكثيراً ما يكونون مشكوكاً في كاثوليكيتهم، مثل القديس كادوك، والقديس بادرن، والقديس بيتروك، والقديس بيران، والقديس روان، والقديس إلتيد، ناهيك عن حالات أكثر قبولاً، مثل القديس آساف والقديس داود. والحقيقة أن الناس في كل مكان شعروا بالرغبة الطبيعية في وجود إله أو قديس قريب، ومألوف، وحديث، وحاضر؛ لقد عبدوا الموتى الذين أحبوهم وكرموهم بدلاً من الآلهة الأكبر سناً والشهداء الأبعد الذين ليس لهم جسد بينهم، ولا مزار شخصي، ولا جمعيات محلية، ولا ذكريات حية. يقول أحد المراسلين الفرنسيين للسيد هربرت سبنسر: "لقد رأيت في بريتاني قبر كاهن تقيّ وخيّر مغطى بالأكاليل: وكان الناس يتوافدون إليه بالمئات للدعاء له بأن يعيد لهم الصحة ويحرس أطفالهم". وهنا، مع الإضافة المسيحية للإله الأعظم، نجد مرة أخرى الفكرة الجذرية للدين.

أود أن أضيف أنه إلى جانب هذا التبجيل الفعلي لأجساد القديسين والشهداء، كانت هناك دائمًا نظرية محددة في الكنيسة الرومانية مفادها أنه لا يمكن لأي مذبح أن يوجد بدون ذخيرة. ولأن المذبح في حد ذاته حجر ضخم، فإنه يحتاج إلى جسد أو جزء من جسد لتبريره وتكريسه. يقول الدكتور روك، وهو من كبار السلطات، في كتابه

"هيرورجيا": "بموجب لوائح الكنيسة، يُنص على أن الذبيحة المقدسة للقداس تُقدم على مذبح يحتوي على حجر كرسه أسقف، ويحيط بذخائر بعض القديسين أو الشهداء؛ وتُغطى بثلاثة قطع من الكتان باركت لهذا الغرض بشكل مناسب من البركة". والواقع أن تكريس المذبح يُعتبر أكثر خطورة من تكريس الكنيسة نفسها؛ لأنه بدون الحجر وذخيرته، لا يمكن إجراء مراسم القداس على الإطلاق. وحتى عندما يتعين إلقاء القداس في منزل خاص، يحضر الكاهن معه حجرًا مكرسًا وذخيرته؛ وكانت هذه الأحجار وغيرها تُحمل في المذابح المتنقلة أو المذابح المحمولة التي كانت شائعة في الحملات العسكرية في العصور الوسطى. وهكذا فإن الكنيسة عبارة عن مقبرة، تحيط بها مقابر صغيرة؛ وتحتوي على نصب حجري يغطي جسدًا ميتًا أو جزءًا من جسد؛ وفيها يتم صنع وعرض جسد المسيح، في شكل رقاقة مقدسة ومتحولة.

ولكن المذبح لا يشكل قبراً مصغراً أو رمزياً فحسب، ولا يوضع غالباً فوق جسد القديس، كما في كنيسة القديس مرقس وكنيسة القديس بطرس فحسب، بل إنه يتألف أحياناً من تابوت حجري. ويوجد مثل هذا التابوت في كاتدرائية سان مالو؛ وقد رأيت مذابح أخرى على شكل تابوت في دير لا تراب بالقرب من الجزائر وفي أماكن أخرى. ولكن عندما يقف المذبح، كما في كنيسة القديس بطرس، فوق جسد القديس نفسه، فإنه لا يحتاج إلى أن يحتوي على رفات؛ وإلا فإنه يحتاج إلى ذلك. وهذا يعني أنه لابد أن يكون إما تابوتاً حقيقياً أو تابوتاً مصغراً ورمزياً.

في الكنيسة الشرقية، هناك نوع من أكياس الآثار، يسمى "أنتيمينس"، ضروري لأداء القربان المقدس بشكل صحيح. يتكون هذا النوع من الأكياس من قماش مربع، يوضع على المذبح أو ملفوفًا في أغطيته، ومزين بصورة تمثل دفن المسيح بواسطة يوسف الرامي والنساء القديسات. وهذا يجعله قريبًا جدًا من طقوس أدونيس وحسين. ولكن يجب أن يحتوي بالضرورة على بعض الآثار المقدسة.

وبعيداً عن عبادة الجثث وعبادة الآثار المقدسة في حالة القديسين، فإن المسيحية الكاثوليكية كانت تمتلك منذ فترة طويلة احتفالاً سنوياً بذكرى الموتى، وهو يوم الموتى، والذي يربط نفسه مباشرة بعبادة الأسلاف السابقة. صحيح أن هذا الاحتفال يُذكَر رسمياً، وبلا شك صحيح، أنه يدين بأصله (في شكله المعترف به) لشخص تاريخي معين، آدم دي سانت فيكتور: ولكن عندما نفكر في مدى انتشار مثل هذه الاحتفالات والأعياد السنوية للموتى في جميع الأوقات والأماكن، فلا يمكننا أن نشك في أن الكنيسة تبنت وقدست ممارسة، على الرغم من أنها ربما تُعَد وثنية، إلا أنها لم تنقرض على الإطلاق بين جماهير المؤمنين. إن الرغبة في الدفن في كنيسة أو ساحة كنيسة، وكل ما يعنيه ذلك، يرتبط هنا مرة أخرى بعبادة الجثث البدائية. قارن ذلك بالموتى الذين ينامون مع أوزوريس. في العصور الوسطى، كان يتم دفن العديد من الناس في الكنائس التي تحتوي على جسد (أو بقايا) قديسهم الراعي.

باختصار، من البداية إلى النهاية، لا تبتعد الدين أبدًا عن هذه الارتباطات الأقدم والأعمق. "الله والخلود" - هذان هما النغمتان الرئيسيتان للدين. وهذان الاثنان يشكلان شيئًا واحدًا؛ لأن الإله في النهاية ليس أكثر من شبح خالد، متجسد وممتد.

من ناحية أخرى، كلما ابتعد الدين عن قاعدته العاطفية البدائية في عبادة الموتى الأقربين، فلابد من تجديده باستمرار بأشياء جديدة مألوفة للعبادة، أو يميل إلى تبديد نفسه في مجرد وحدة الوجود الغامضة. إن وجود إله جديد، وقديس جديد، و"إحياء الدين"، أمر ضروري باستمرار. يتم تكرار ذبيحة القداس بحكمة على فترات متكررة؛ لكن هذا وحده لا يكفي؛ فالناس يريدون ضمان وجود إله أقرب وأكثر ألفة. في عصرنا، وخاصة في إنجلترا وأمريكا البروتستانتية والمتشككة، ظهرت هذه الحاجة في ظهور الروحانية والمعتقدات المشابهة، والتي ليست سوى عقيدة الشبح أو الظل في شكلها النقي، بعيدًا، كقاعدة عامة، عن المفهوم الأعلى للحاكم الأعلى. ~وما هي الوضعية نفسها إلا تبجيل الموتى الأقوياء، الملطخة فقط برغبات أخلاقية غامضة في

الخدمة المجردة للبشرية الحية؟ لقد عرفت العديد من الرجال المثقفين الذين يعانون من الحزن الشديد ـ فقدان زوجة أو طفل عزيز ـ فلجأوا لفترة من الوقت إما إلى الروحانية أو الكاثوليكية. ويبدو أن الأولى تمنحهم الضمان العملي للتواصل الجسدي الفعلي مع الموتى، من خلال الوسطاء أو التقليب؛ أما الثانية فتمدهم بنظرية عن الموت تجعل لم الشمل مستقبلاً محتملاً لهم. وقد رأينا هذه الرغبة في المحادثة المباشرة مع الموتى تتجلى في مرحلة مبكرة أو بدائية للغاية في حالة زوجات ماندان اللاتي يتحدثن بحب إلى جماجم أزواجهن؛ ولعل هذا يشكل الأساس للعادة الشائعة المتمثلة في الاحتفاظ بالرأس عند دفن الجثة، والتي لاحظنا نتائجها على نطاق واسع في كثير من الأحيان. ولقد عرفت حالتين من الروحانيين المعاصرين الذين قاموا على نحو مماثل بتحنيط أجساد زوجاتهم، حتى تتمكن الروح من العودة وسكنى أجسادهن.

وهكذا فإن عبادة الموتى، التي هي الأصل الأول لكل دين، بمعنى العبادة، هي أيضًا آخر بقايا الروح الدينية التي نجت من التدهور التدريجي للإيمان بسبب الشكوكية الحديثة. ولهذا السبب أشير في مجمل الأمر إلى التصريحات الروحانية للعديد من قادة العلوم الحديثة. لقد رفضوا الدين، لكنهم لا يستطيعون رفض المشاعر الدينية الموروثة والمتأصلة.

الفصل العشرون - الخاتمة.

لقد وصلنا الآن أخيرًا إلى نهاية بحثنا الطويل والمضني. ولا أحتاج إلى أن أقول لأولئك الذين أصروا معي حتى الآن، إنني لا أعتبر جزءًا واحدًا من هذا البحث نهائيًا بأي حال من الأحوال. لا يوجد فصل في هذا الكتاب لا يمكنني توسيعه لمضاعفة طوله الحالي أو ثلاثة أمثاله، لو اخترت أن أدرج فيه عُشر الأدلة التي جمعتها حول الموضوع. ولكن لأسباب عديدة، كان من الضروري اختصاره. لقد قوبلت بعض أعظم الرسائل التي كتبت حول هذه القضية المهمة بأقل قدر من الاهتمام لأنها كانت ضخمة جدًا ومثقلة بالأدلة لدرجة أن القارئ بالكاد يستطيع رؤية الغابة من الأشجار؛ فقد فقد خيط الحجة في متاهات الأمثلة.

في حالتي، كانت لدي فكرة مركزية؛ وكنت أرغب في عرضها بإيجاز بسيط يمكن القارئ من فهمها ومتابعتها. إنني أمثل أمام هيئة محلفين كبرى فقط، ولا أزعم أنني أثبت وجهة نظري في أي حالة؛ بل إنني أشعر بالرضا إذا تمكنت من تقديم قضية أولية تستدعي المزيد من التحقيق.

هدفي من هذه الرسالة الإصلاحية هو أن أعرض باختصار وبقدر ما يتفق مع الوضوح تصوري للخطوات التي سلكها البشر للوصول إلى فكرتهم عن إلههم. ولم أحاول أن أقدم أدلة كاملة على كل خطوة؛ بل حاولت فقط أن أعرض على عامة الناس مخططاً تقريبياً لإعادة بناء نفسي، وأن أقترح في الوقت نفسه على العلماء وعلماء الأنثروبولوجيا بعض الخطوط التي من المرجح أن نجد على طولها أدلة لصالح إعادة البناء التي أقترحها. وعلى هذا فإن هذا الكتاب ليس أكثر من مجرد تلخيص للاحتمالات. وإذا نجح في جذب الانتباه وإثارة الاهتمام بموضوع واسع وأساسي كهذا، فإنني آمل أن أتابعه في كتب أخرى في المستقبل، حيث سأتناول بالتفصيل العناصر المختلفة المكونة لنظريتي، وسأستشهد بمصادر أصلية كثيرة مع أكبر قدر من المراجع.

ولكن بما أنني تناولت في هذا المخطط التمهيدي لآرائي القليل من الحقائق المعروفة، واعتمدت في معظمه على صيغ مألوفة من الأدلة، فلم أر ضرورة لإثقال صفحاتي بحواشي متكررة ومتعصبة، تشير إلى المقاطع أو الأشخاص الذين اقتبست منهم. سوف يعرف الباحث جيدًا أين يبحث عن الأدلة التي يحتاج إليها، في حين لا يستطيع القارئ العادي أن يحكم على نبوءتي الأولية لفرضية ما إلا وفقًا لمدى إعجابه بمصداقيتها أو العكس.

من ناحية أخرى، إذا فشل هذا الرسول الطليعي لنظام معقول في إثارة اهتمام الجمهور، فيجب عليّ بالضرورة أن أكتفي بالامتناع عن الخوض بشكل أعمق في هذا الموضوع الرائع، والذي لا يزال لدي عدد هائل من الأفكار والحقائق بشأنه والتي أرغب في الحصول على فرصة عرضها علنًا.

أود أن أشير قبل أن أختم إلى أنني لا أتمسك بشكل قاطع بكل أو بأي جزء من العقيدة المفصلة التي اقترحتها هنا. لقد غيرت رأيي كثيرًا فيما يتعلق بهذه الأمور، في سياق تطوري الشخصي، لدرجة أنني لم أفكر قط في أنني وصلت إلى النهاية الكاملة. منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا، كنت متهورًا بما يكفي لدرجة أنني اعتقدت أنني وصلت إلى مرساة، عندما قرأت لأول مرة مخطط السيد هربرت سبنسر لأصل الدين في المجلد الأول من مبادئ علم الاجتماع. منذ ذلك الحين بعشرة أو اثني عشر عامًا، عادت الشكوك والصعوبات إلى الظهور. منذ ست سنوات، مرة أخرى، عندما ظهر كتاب"The Golden Bough" ، بعد التخطيط لهذا الكتاب وتنفيذه جزئيًا، اضطررت إلى العودة بالكامل إلى العديد من الآراء السابقة العزيزة، وإعادة النظر في العديد من الأسئلة التي كنت أتخيلها بحب أنها قد أغلقت منذ فترة طويلة بالنسبة لي.

منذ ذلك الوقت، كانت الأضواء الجديدة تسلط عليّ باستمرار من الخارج، أو تخطر ببالي من الداخل: وأنا أعرض هذا المخطط بكل تواضع الآن، ليس على أساس أنني قد استوعبت الحقيقة الهائلة بالكامل، ولكن على أمل ضعيف في أن أكون قد نظرت

هنا وهناك إلى أعماق الهاوية العميقة تحتنا أكثر مما كان عليه حال معظم المحققين السابقين. وفي الوقت نفسه، لا أحتاج إلى تكرار شعوري بالالتزامات الهائلة التي أتحملها تجاه عدد غير قليل منهم، وعلى رأسهم السيد سبنسر، والسيد فريزر، والسيد هارتلاند، والدكتور تايلور. ادعائي الوحيد هو أنني ربما وضعت مخططًا لإعادة البناء قد تظهر الأدلة الإضافية أنه صحيح في أجزاء، وخاطئ في أجزاء أخرى.

ومن ناحية أخرى، فإنني أثق في أنني تمكنت من خلال حصر اهتمامي بشكل صارم في السمات الدينية، كما يطلق عليها بالمعنى الصحيح، مع استبعاد الأساطير والأخلاق وكل ما يتصل بها من ظواهر أو حوادث خارجية، من إثبات الارتباط الوثيق الذي يوجد دائمًا بين الطوائف بشكل عام وعبادة الإله الميت، سواء كان طبيعيًا أو صناعيًا، على نحو أكثر وضوحًا مما تم حتى الآن. وحتى لو لم أنجح تمامًا في إقناع المؤمن بالروحانية البدائية بإعادة النظر في عقيدته الأساسية القائلة بأن أصل الآلهة يرجع إلى أرواح تخترق كل شيء (وهو ما لا أستطيع أن أرى أي دليل على انتمائه إليه في الأدلة التي بين أيدينا)، فإنني أجازف بالتفكير في أنني على أي حال سأجعله يشعر بأن عبادة الأسلاف وعبادة الإله الميت لعبت دورًا أكبر وأعمق بكثير مما كان على استعداد للاعتراف به حتى الآن في نشوء المشاعر الدينية. ورغم أنني لم أرفع عبادة الرجل الميت إلى مكانة عليا وفريدة في عملية صنع الآلهة، فإنني على الأقل، على حد اعتقادي، رفعتها إلى مكانة ذات أهمية أعلى مما كانت عليه حتى الآن، حتى منذ نشر أبحاث السيد هربرت سبنسر التي أحدثت عصراً جديداً. وأعتقد أنني أوضحت بشكل معقول أن الغالبية العظمى من الآلهة أو الأشخاص الإلهيين الحاليين، عندما نأتي لتحليلهم، يتبين لنا في الواقع أنهم بشر ميتون ومتألهون. وباختصار، آمل أن أكون قد ردت الاعتبار إلى مذهب اليوهيمرية.

إن هذا ليس المكان المناسب، في نهاية هذا البحث الطويل، لفحص نظرية الروحانية البدائية. لذلك أود أن أقول باختصار إنني لا أنكر وجود ذلك الإطار الذهني الروحاني

العميق الذي صوره السيد إم. ثورن بشكل جيد بين الهنود في غيانا، ولا ذلك الموجود بين الساموبيين في سيبيريا، ولا ذلك الذي نصادفه في كل منعطف في الروايات التاريخية عن الدين الروماني القديم. إنني على استعداد تام للاعتراف بأن العالم يبدو للناس في تلك المرحلة من التطور الديني مزدحمًا بالأرواح من كل جانب، ولكل منها غالبًا وظائفه الخاصة وامتيازاته الغريبة. لكنني أفشل في رؤية أن أيًا من هذه الأفكار بدائية بشكل واضح.

في أغلب الأحيان، يمكننا تتبع الأشباح والأرواح والآلهة إلى أصول بشرية معينة. حيث توجد الأرواح بكثرة وتنتشر في كل الطبيعة، ما زلت أفشل في فهم سبب عدم إحالتها إلى المصدر والنبع الوحيد المعروف لجميع الكائنات الشبحية .من الواضح تمامًا أنه لا يوجد تمييز في الاسم أو الطقوس يميز عادةً هذه الأرواح المنتشرة في كل مكان وغير المؤكدة عن تلك الآلهة المنزلية التي يتذكرها الجميع جيدًا في دائرة الأسرة. لذلك أجرؤ على الاعتقاد بأننا في كل حالة من هذه الحالات نتعامل مع أشباح غير معروفة ومعممة، أشباح من درجات مختلفة للغاية من القدم.

إذا كان بإمكان أي شخص أن يُظهر لي عِرقًا من المؤمنين بالأرواح الذين لا يعبدون أرواح أسلافهم، أو يمكنه تقديم أي فرق أساسي فعال بين الروح التي كانت ذات يوم رجلًا حيًا، والروح التي لم تكن بشرية على الإطلاق، فسأستمع إليه بكل سرور. ومع ذلك، حتى الآن، لم يتم الإشارة إلى أي عِرق من هذا القبيل، ولم يتم طرح مثل هذا الاختلاف على الإطلاق.

الحقيقة هي أننا لا نملك الآن أي إنسان بدائي على الإطلاق. فالإنسان الحالي هو من نسل أناس اعتنقوا ديانات منذ أكثر من مليون عام على الأرجح .وأفضل ما يمكننا أن نفعله إذن هو أن نتتبع ما نستطيع من الآلهة إلى مصدرها الأصلي، وأن نصدق أن بقية الآلهة كانت على نفس المستوى من التطور. وإلى أين نتتبعهم؟

يقول السير ألفريد ليال، متحدثاً عن الهند بشكل عام: "بقدر ما تمكنت من تتبع أصل أشهر الآلهة الإقليمية الصغرى، فإنهم عادة رجال من الأجيال الماضية الذين نالوا ترقية خاصة ورتبة شرفية بين الأشباح غير المجسدة... ومن بين الآلهة المحلية العديدة المعروفة بأنها كانت رجالاً أحياء، فإن النسبة الأكبر منها تنبع من تقديس الشخصيات المقدسة العادية... وعدد الأضرحة التي أقيمت في برار وحدها لهؤلاء الزاهدين والأشخاص المتوفين برائحة القداسة كبير، وهو في ازدياد مستمر. وقد بلغ بعضها بالفعل مرتبة المعابد."

لقد رأينا أن مراقباً حاد الذكاء، إيرمان، توصل إلى استنتاج مماثل بشأن آلهة هؤلاء الأوستياك أنفسهم الذين يُستشهد بهم غالبًا كأمثلة نموذجية للروحانيين البدائيين. وفي السنوات الأخيرة، توصل العديد من الباحثين غير المتحيزين في مختلف أنحاء العالم، مثل السيد دوف ماكدونالد والكابتن هندرسون، إلى استنتاج مماثل مفاده أن آلهة السكان الأصليين الذين عملوا بينهم كانت جميعها من أصل بشري؛ في حين أننا نعلم أن بعض العقائد الوطنية العظيمة، مثل الشنتو في اليابان، لا تعترف بأي آلهة على الإطلاق باستثناء الملوك الأحياء والأرواح السلفية الميتة.

في ظل هذه الظروف، وبحكم ما هو غير معروف من خلال ما هو معروف، فإنني أتردد في اتخاذ الخطوة الجريئة المتمثلة في طرح أي مصدر جديد وخيالي للبقايا الضئيلة من الآلهة غير المكتشفة التي لا نعرف على وجه اليقين أصلها البشري.

باختصار، أعتقد أن عبادة الجثث هي بروتوبلازم الدين، في حين أعترف بأن الفولكلور هو بروتوبلازم الأساطير، وفرعها الفلسفي الأكثر حداثة، أي اللاهوت.

رحلة فكرية شائقة مع كتاب "تطور فكرة الله" يحتوي على العديد من النقاط المثيرة للاهتمام التي تستحق التوقف عندها:

نشأة الأفكار الدينية: يوضح جرانت ألين كيف بدأت الأفكار الدينية في المجتمعات البدائية، وكيف كانت هذه الأفكار مرتبطة بالطبيعة والخوف من المجهول.

تأثير البيئة والثقافة: يناقش الكتاب كيف أثرت البيئة المحيطة والثقافة المحلية على تشكيل وتطور الأفكار الدينية. على سبيل المثال، كيف أثرت الظروف المناخية والجغرافية على تصور الناس للآلهة.

الانتقال من تعدد الآلهة إلى التوحيد: يتناول الكتاب التحولات الكبرى في تاريخ الأديان، مثل الانتقال من عبادة العديد من الآلهة إلى عبادة إله واحد. يشرح ألين كيف حدث هذا الانتقال وما هي العوامل التي ساهمت فيه.

التحليل النقدي للأديان: يقدم ألين نقدًا وتحليلًا للأفكار الدينية من منظور علمي وفلسفي، مما يفتح المجال للتفكير في الأديان من زاوية جديدة.

التأثيرات الاجتماعية والسياسية: يستعرض الكتاب كيف أثرت الأفكار الدينية على المجتمعات والسياسات عبر التاريخ، وكيف استخدمت الأديان كأداة للسيطرة والتأثير.